

الكتاب : تفسير الشعراوي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (1)

القرآن الكريم منذ اللحظة التي نزل فيها نزل مقرونا بسم الله سبحانه وتعالى ولذلك حينما نتلوه فإننا نبدأ نفس البداية التي أرادها الله تبارك وتعالى وهي أن تكون البداية بسم الله . وأول الكلمات التي نطق بها الوحي لمحمد صلى الله عليه وسلم كانت { اقرأ باسم ربك الذي خلق } . وهكذا كانت بداية نزول القرآن الكريم ليمارس مهمته في الكون . . هي بسم الله . ونحن الآن حينما نقرأ القرآن نبدأ نفس البداية .

ولقد كان محمد عليه الصلاة والسلام في غار حراء حينما جاءه جبريل وكان أول لقاء بين الملك الذي يحمل الوحي بالقرآن . . وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم قول الحق تبارك وتعالى : { اقرأ } .

واقرأ تتطلب أن يكون الإنسان . . إما حافظا لشيء يحفظه ، أو أمامه شيء مكتوب ليقرأه . . ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما كان حافظا لشيء يقرؤه . . وما كان أمامه كتاب ليقرأ منه . . وحتى لو كان أمامه كتاب فهو أمي لا يقرأ ولا يكتب .

وعندما قال جبريل : { اقرأ } . . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أنا بقارئ . . وكان الرسول عليه الصلاة والسلام منطوقا مع قدراته . وتردد القول ثلاث مرات . . جبريل عليه السلام بوحي من الله سبحانه وتعالى يقول للرسول { اقرأ } ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ما أنا بقارئ . . ولقد أخذ خصوم الاسلام هذه النقطة . . وقالوا كيف يقول الله لرسوله اقرأ ويرد الرسول ما أنا بقارئ .

نقول إن الله تبارك وتعالى . . كان يتحدث بقدراته التي تقول للشيء كن فيكون ، بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يتحدث ببشريته التي تقول إنه لا يستطيع أن يقرأ كلمة واحدة ، ولكن قدرة الله هي التي ستأخذ هذا النبي الذي لا يقرأ ولا يكتب لتجعله معلما للبشرية كلها إلى يوم القيامة . . لأن كل البشر يعلمهم بشر . . ولكن محمد صلى الله عليه وسلم سيعلمه الله سبحانه وتعالى . ليكون معلما لكبر علماء البشر . . يأخذون عنه العلم والمعرفة . لذلك جاء الجواب من الله سبحانه وتعالى : { اقرأ باسم ربك الذي خلق * خلق الإنسان من علق }]

العلق : 1-2] أي أن الله سبحانه وتعالى الذي خلق من عدم سيجعلك تقرأ على الناس ما يعجز علماء الدنيا وحضارات الدنيا على أن يأتوا بمثله . . وسيكون ما تقرؤه وأنت النبي الأمي إعجازا . . ليس لهؤلاء الذين سيسمعونه منك فقط لحظة نزوله . ولكن للدنيا كلها وليس في الوقت الذي ينزل فيه فقط ، ولكن حتى قيام الساعة ، ولذلك قال جل جلاله : { اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ }

[العلق : 3-4] . أي أن الذي ستقرؤه يا محمد . . سيظل معلما للإنسانية كلها إلى نهاية الدنيا على الأرض . . ولأن المعلم هو الله سبحانه وتعالى قال : { اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ } مستخدما صيغة المبالغة . فهناك كريم وأكرم . . فأنت حين تتعلم من بشر فهذا دليل على كرم الله جل جلاله . . لأنه يسر لك العلم على يد بشر مثلك . . أما إذا كان الله هو الذي سيعلمك . . يكون « أكرم » . . لأن ربك قد رفعك درجة عالية ليعلمك هو سبحانه وتعالى . . والحق يريد أن يلفتنا إلى أن محمدا عليه الصلاة والسلام لا يقرأ القرآن لأنه تعلم القراءة ، ولكنه يقرؤه باسم الله ، ومادام بسم الله . . فلا يهم أن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم تعلم من بشر أو لم يتعلم . لأن الذي علمه هو الله . . وعلمه فوق مستوى البشرية كلها . . على أننا نبدأ أيضا تلاوة القرآن بسم الله . . لأن الله تبارك وتعالى هو الذي أنزله لنا . . ويسر لنا أن نعرفه ونتلوه . . فالأمر لله علما وقدرة ومعرفة . . وقرأ قول الحق سبحانه وتعالى : { قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَأَكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ } [يونس : 16] لذلك أنت تقرأ القرآن باسم الله . . لأنه جل جلاله هو الذي يسره لك كلاما وتنزيلا وقراءة . . ولكن هل نحن مطالبون أن نبدأ فقط تلاوة القرآن بسم الله؟ إننا مطالبون أن نبدأ كل عمل باسم الله . . لأننا لا بد أن نحترم عطاء الله في كونه . فحين نزرع الأرض مثلا . . لا بد أن نبدأ بسم الله . . لأننا لم نخلق الأرض التي نحراثها . . ولا خلقنا البذرة التي نبذرها . ولا أنزلنا الماء من السماء لينمو الزرع .

إن الفلاح الذي يمسك الفأس ويرمي البذرة قد يكون أجهل الناس بعناصر الأرض ومحتويات البذرة وما يفعله الماء في التربة لينمو الزرع . . إن كل ما يفعله الإنسان هو أنه يعمل فكره المخلوق من الله في المادة المخلوقة من الله . . بالطاقة التي أوجدها الله في أجسادنا ليتم الزرع . والإنسان لا قدرة له على إرغام الأرض لتعطيه الثمار . . ولا قدرة له على خلق الحبة لتنمو وتصبح شجرة . ولا سلطان له على إنزال الماء من السماء . . فكأنه حين يبدأ العمل باسم الله ، يبدؤه باسم الله الذي سخر له الأرض . . وسخر له الحب ، وسخر له الماء ، وكلها لا قدرة له عليها . . ولا تدخل في طاقته ولا في استطاعته . . فكأنه يعلن أنه يدخل على هذه الأشياء جميعا باسم من سخرها له . .

والله تبارك وتعالى سخر لنا الكون جميعا وأعطانا الدليل على ذلك . فلا تعتقد أن لك قدرة أو ذاتية في هذا الكون .

. ولا تعتقد أن الأسباب والقوانين في الكون لها ذاتية . بل هي تعمل بقدرة خالقها . الذي إن شاء أجزاها وإن شاء أوقفها .

الجمل الضخم والفيال الهائل المستأنس قد يقودهما طفل صغير فيطيعانه . ولكن الحية صغيرة الحجم لا يقوى أي انسان على أن يستأنسها . ولو كنا نعمل ذلك بقدراتنا . . لكان استئناس الحية أو الثعبان سهلا لصغر حجمهما . . ولكن الله سبحانه وتعالى أراد أن يجعلهما مثلا لنعلم أنه بقدراته هو قد أخضع لنا ما شاء ، ولم يخضع لنا ما شاء . ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى : { أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ * وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ } [يس : 71-72] وهكذا نعرف أن خضوع هذه الأنعام لنا هو بتسخير الله لها وليس بقدرتنا .

يأتي الله سبحانه وتعالى إلى أرض ينزل عليها المطر بغزارة . والعلماء يقولون إن هذا يحدث بقوانين الكون . فيلفتنا الله تبارك وتعالى إلى خطأ هذا الكلام . بأن تأتي مواسم جفاف لا تسقط فيها حبة مطر واحدة لنعلم أن المطر لا يسقط بقوانين الكون ولكن بإرادة خالق الكون . . فإذا كانت القوانين وحدها تعمل فمن الذي عطلها؟ ولكن إرادة الخالق فوق القوانين إن شاءت جعلتها تعمل وإن شاءت جعلتها لا تعمل . . اذن فكل شيء في الكون باسم الله . . هو الذي سخر وأعطى . . وهو الذي يمنح ويمنع . حتى في الأمور التي للإنسان فيها نوع من الاختيار . . وقرأ قول الحق تبارك وتعالى : { لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاءً وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذَّكُورَ * أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاءً وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ } [الشورى : 49-50] والاصل في الذرية أنها تأتي من اجتماع الذكر والأنثى . . هذا هو القانون . . ولكن القوانين لا تعمل الا بأمر الله . . لذلك يتزوج الرجل والمرأة ولا تأتي الذرية لأنه ليس القانون هو الذي يخلق . . ولكنها إرادة خالق القانون . . ان شاء جعله يعمل . . وان شاء يبطل عمله . . والله سبحانه وتعالى لا تحكمه القوانين ولكنه هو الذي يحكمها .

وكما أن الله سبحانه وتعالى قادر على ان يجعل القوانين تفعل او لا تفعل . . فهو قادر على ان يخرق القوانين . . خذ مثلا قصة زكريا عليه السلام . . كان يكفل مريم ويأتيها بكل ما تحتاج إليه . . ودخل عليها ليجد عندها ما لم يحضره لها . .

وسألها وهي القديسة العابدة الملازمة لخراجه . . { قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا } [آل عمران : 37] الحق سبحانه وتعالى يعطينا هذه الصورة . . مع أن مريم بسلوكتها وعبادتها وتقواها فوق كل

الشبهات . . . ولكن لنعرف أن الذي يفسد الكون . . . هو عدم السؤال عن مصدر الأشياء التي تتناسب مع قدرات من يحصل عليها .

الأم ترى الأب ينفق ما لا يتناسب مع مرتبه . . . وترى الابنة ترتدي ما هو أكبر كثيرا من مرتبها أو مصروفها . . . ولو سألت الأم الأب أو الابنة من أين لك هذا؟ لما فسد المجتمع . . . ولكن الفساد يأتي من أننا نغمض أعيننا عن المال الحرام .

بماذا ردت مريم عليها السلام؟ { قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ } [آل عمران : 37] اذن فطلاقة قدرة الله لا يحكمها قانون . . . لقد لفتت مريم زكريا عليهما السلام إلى طلاقة القدرة . . . فدعا زكريا ربه في قضية لا تنفع فيها الا طلاقة القدرة . . . فهو رجل عجوز وامراته عجوز وعاقر ويريد ولدا . . . هذه قضية ضد قوانين الكون . . . لأن الانجاب لا يتم الا وقت الشباب ، فإذا كبر الرجل وكبرت المرأة لا ينجبان . . . فما بالك إذا كانت الزوجة أساسا عاقرا . . . لم تنجب وهي شابة وزوجها شاب . . . فكيف تنجب وهي عجوز وزوجها عجوز . . . هذه مسألة ضد القوانين التي تحكم البشر . . . ولكن الله وحده القادر على أن يأتي بالقانون وضده . . . ولذلك شاء أن يرزق زكريا بالولد وكان . . . ورزق زكريا بابنه يحيى .

إذن كل شيء في هذا الكون باسم الله . . . يتم باسم الله ويأذن من الله . . . الكون تحكمه الأسباب نعم ولكن ارادة الله فوق كل الأسباب .

أنت حين تبدأ كل شيء باسم الله . . . كأنك تجعل الله في جانبك يعينك . . . ومن رحمة الله سبحانه وتعالى أنه علمنا أن نبدأ كل شيء باسم الله . . . لأن الله هو الاسم الجامع لصفات الكمال سبحانه وتعالى . . . والفعل عادة يحتاج إلى صفات متعددة . . . فأنت حين تبدأ عملا تحتاج إلى قدرة الله وإلى عونه وإلى رحمته . . . فلو أن الله سبحانه وتعالى لم يخبرنا بالاسم الجامع لكل الصفات . . . كان علينا أن نحدد الصفات التي نحتاج إليها . . . كأن نقول باسم الله القوي وباسم الله الرازق وباسم الله الجيب وباسم الله القادر وباسم الله النافع . . . إلى غير ذلك من الأسماء والصفات التي نريد أن نستعين بها . . . ولكن الله تبارك وتعالى جعلنا نقول بسم الله بسم الله بسم الله الجامع لكل هذه الصفات .

على أننا لابد أن نقف هنا عند الذين لا يبدأون أعمالهم بسم الله وإنما يريدون الجزاء المادي وحده . . . إنسان غير مؤمن لا يبدأ عمله باسم الله . . . وإنسان مؤمن يبدأ كل عمل وفي باله الله . . . كلاهما يأخذ من الدنيا لأن الله رب للجميع . . . له عطاء ربوبية لكل خلقه الذين استدعاهم للحياة . . . ولكن الدنيا ليست هي الحياة الحقيقية للإنسان .

. بل الحياة الحقيقية هي الآخرة . . الذي في باله الدنيا وحدها يأخذ بقدر عطاء الربوبية . .
بقدر عطاء الله في الدنيا . . والذي في باله الله يأخذ بقدر عطاء الله في الدنيا والآخرة . . ولذلك
يقول الحق تبارك وتعالى : { الحمد لله الذي له ما في السموات وما في الأرض وله الحمد في
الآخرة وهو الحكيم الخبير } [سبأ : 1] لأن المؤمن يحمده الله على نعمه في الدنيا . . ثم يحمده
عندما ينجيهِ من النار والعذاب ويدخله الجنة في الآخرة . . فله الحمد في الدنيا والآخرة .
ورسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه باسم الله الرحمن الرحيم أقطع »

ومعنى أقطع أي مقطوع الذنب أو الذيل . . أي عمل ناقص فيه شيء ضائع . . لانك حين لا
تبدأ العمل باسم الله قد يصادفك الغرور والطغيان بأنك أنت الذي سخرت ما في الكون
ليخدمك وينفعل لك . . وحين لا تبدأ العمل باسم الله . . فليس لك عليه جزاء في الآخرة
فتكون قد أخذت عطاءه في الدنيا . . وبترت أو قطعت عطاءه في الآخرة . . فإذا كنت تريد
عطاء الدنيا والآخرة . فأقبل على كل عمل باسم الله . . قبل أن تأكل قل باسم الله لأنه هو
الذي خلق لك هذا الطعام ورزقك به . . عندما تدخل الامتحان قل بسم الله فيعينك على
النجاح . . عندما تدخل إلى بيتك قل باسم الله لأنه هو الذي يسر لك هذا البيت . . عندما
تنزج قل باسم الله لانه هو الذي خلق هذه الزوجة وأباحها لك . . في كل عمل تفعله ابدأه
باسم الله . . لأنها تمنعك من أي عمل يغضب الله سبحانه وتعالى . . فأنت لا تستطيع أن تبدأ
عملاً يغضب الله باسم الله . . اذا أردت أن تسرق أو أن تشرب الخمر . . أو أن تفعل عملاً
يغضب الله . . وتذكرت بسم الله . . فإنك ستمتنع عنه . . ستستحي أن تبدأ عملاً باسم الله
يغضب الله . . وهكذا ستكون أعمالك كلها فيما أباحه الله .

الله تبارك وتعالى حين نبدأ قراءة كلامه باسم الله . . فنحن نقرأ هذا الكلام لأنه من الله . . والله
هو الاله المعبود في كونه . . ومعنى معبود أنه يطاع فيما يأمر به . . ولا نقدم على ما نهى عنه . .
فكأنك تستقبل القرآن الكريم بعطاء الله في العبادة . . وبطاعته في افعول ولا تفعل . . وهذا هو
المقصود أن تبدأ قراءة القرآن بسم الله الذي آمنت به ربا وإله . . والذي عاهدته على أن تطيعه
فيما أمر وفيما نهى . . والذي بموجب عبادتك لله سبحانه وتعالى تقرأ كتابه لتعمل بما فيه . .
والذي خلق وأوجد ويحيي ويميت وله الأمر في الدنيا والآخرة .

. والذي ستقف أمامه يوم القيامة ليحاسبك أحسنت أم أسأت . . فاللبداية من الله والنهائية إلى
الله سبحانه وتعالى .

بعض الناس يتساءل كيف أبدأ بسم الله . . وقد عصيت وقد خالفت . . نقول اياك أن تستحي
أن تقرأ القرآن . . وأن تبدأ بسم الله إذا كنت قد عصيت . . ولذلك أعطانا الله سبحانه وتعالى

الحيشية التي نبدأ بها قراءة القرآن فجعلنا نبدوه باسم الله الرحمن الرحيم . . فالله سبحانه وتعالى لا يتخلى عن العاصي . . بل يفتح له باب التوبة ويحثه عليها . . ويطلب منه أن يتوب وأن يعود الي الله . . فيغفر له ذنبه ، لأن الله رحمن رحيم . . فلا تقل أنني أستحي أن أبدأ باسم الله لأنني عصيته . . فالله سبحانه وتعالى يطلب من كل عاص أن يعود الي حظيرة الايمان وهو رحمن رحيم . . فاذا قلت كيف أقول باسم الله وقد وقعت في معصية أمس . . نقول لك قل باسم الله الرحمن الرحيم . . فرحمة الله تسع كل ذنوب خلقه . . وهو سبحانه وتعالى الذي يغفر الذنوب جميعا .

والرحمة والرحمن والرحيم . . مشتق منها الرحم الذي هو مكان الجنين في بطن أمه . . هذا المكان الذي يأتيه فيه الرزق . . بلا حول ولا قوة . . ويجد فيه كل ما يحتاجه إليه ثموه ميسرا . . رزقا من الله سبحانه وتعالى بلا تعب ولا مقابل . . انظر إلى حنو الأم على ابنها وحنانها عليه . . وتجاوزها عن سيئاته وفرحته بعودته اليها . . ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى في حديث قدسي . « أنا الرحمن خلقت الرحم وشققت لها اسما من اسمي فمن وصلها وصلته ، ومن قطعها قطعته » الله سبحانه وتعالى يريد أن نتذكر دائما أنه يحنو علينا ويرزقنا . . ويفتح لنا أبواب التوبة بابا بعد آخر . . ونعصي فلا يأخذنا بذنوبنا ولا يحرمننا من نعمه . . ولا يهلكنا بما فعلنا . ولذلك فنحن نبدأ تلاوة القرآن الكريم بسم الله الرحمن الرحيم . . لتتذكر دائما أبواب الرحمة المفتوحة لنا . . نرفع أيدينا إلى السماء . . ونقول يا رب رحمتك . . تجاوز عن ذنوبنا وسيئاتنا . وبذلك يظل قارئ القرآن متصلا بأبواب رحمة الله . . كلما ابتعد عن المنهج أسرع ليعود اليه . . فمادام الله رحمانا ورحيما لا تغلق أبواب الرحمة أبدا .

على أننا نلاحظ أن الرحمن الرحيم من صيغ المبالغة . . يقال راحم ورحمن ورحيم . . اذا قيل راحم فيه صفة الرحمة . . واذا قيل رحمن تكون مبالغة في الصفة . . واذا قيل رحيم تكون مبالغة في الصفة . . والله سبحانه وتعالى رحمن الدنيا ورحيم الآخرة . . صفات الله سبحانه وتعالى لا تتأرجح بين القوة والضعف .

. وإياكم أن تفهموا أن الله تأتيه الصفات مرة قليلة ومرة كثيرة . بل هي صفات الكمال المطلق . ولكن الذي يتغير هو متعلقات هذه الصفات . . اقرأ قول الحق سبحانه وتعالى : { إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ } [النساء : 40] هذه الآية الكريمة . . نفت الظلم عن الله سبحانه وتعالى ، ثم تأتي الآية الكريمة بقول الله جل جلاله : { وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ } [فصلت : 46] نلاحظ هنا استخدام صيغة المبالغة . . « ظلام » . . أي شديد الظلم . . وقول الحق سبحانه وتعالى : « ليس بظلام » . . لا تنفي الظلم ولكنها تنفي المبالغة في الظلم ، تنفي أن يظلم ولو ميثقال ذرة . . نقول انك لم تفهم المعنى . . ان الله لا يظلم أحدا . . الآية الأولى نفت الظلم عن الحق تبارك

وتعالى ولو مثقال ذرة بالنسبة للعبد . . والآية الثانية لم تقل للعبد ولكنها قالت للعبيد . .
والعبيد هم كل خلق الله . . فلو اصاب كل واحد منهم أقل من ذرة من الظلم مع هذه الاعداد
الهائلة . . فإن الظلم يكون كثيراً جداً ، ولو أنه قليل في كميته لأن عدد من سيصاب به هائل .
ولذلك فإن الآية الاولى نفت الظلم عن الله سبحانه وتعالى . والآية الثانية نفت الظلم أيضا
عن الله تبارك وتعالى . . ولكن صيغة المبالغة استخدمت لكثرة عدد الذين تنطبق عليهم الآية
الكريمة .

نأتي بعد ذلك إلى رحمن ورحيم . . رحمن في الدنيا لكثرة عدد الذين يشملهم الله سبحانه وتعالى
برحمته . . فرحمة الله في الدنيا تشمل المؤمن والعاصي والكافر . . يعطيهم الله مقومات حياتهم
ولا يؤاخذهم بذنوبهم ، يرزق من آمن به ومن لم يؤمن به ، ويعفو عن كثير . . اذن عدد الذين
تشملهم رحمة الله في الدنيا هم كل خلقه . بصرف النظر عن ايمانهم أو عدم ايمانهم .
ولكن في الآخرة الله رحيم بالمؤمنين فقط . . فالكفار والمشركون مطرودون من رحمة الله . . اذن
الذين تشملهم رحمة الله في الآخرة . . أقل عددا من الذين تشملهم رحمة الله في الدنيا . . فمن
أين تأتي المبالغة؟ . . تأتي المبالغة في العطاء وفي الخلود في العطاء . . فنعم الله في الآخرة اكبر
كثيراً منها في الدنيا . . المبالغة هنا بكثرة النعم وخلودها . . فكأن المبالغة في الدنيا بعمومية
العطاء ، والمبالغة في الآخرة بخصوصية العطاء للمؤمن وكثرة النعم والخلود فيها .

لقد اختلف عدد العلماء حول بسم الله الرحمن الرحيم . . وهي موجودة في 113 سورة من
القرآن الكريم هل هي من آيات السور نفسها . . بمعنى أن كل سورة تبدأ { بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ
الرَّحِيمِ } تحسب البداية على أنها الآية الأولى من السورة ، أم أنها حسبت فقط في فاتحة الكتاب
، ثم بعد ذلك تعتبر فواصل بين السور . .

وقال العلماء أن { بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ } آية من آيات القرآن الكريم . . ولكنها ليست آية
من كل سورة ما عدا فاتحة الكتاب فهي آية من الفاتحة . . وهناك سورة واحدة في القرآن الكريم
لا تبدأ ب { بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ } وهي سورة التوبة وتكررت بسم الله الرحمن الرحيم في
الآية 30 من سورة النمل في قوله تعالى : { إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ } [
النمل : 30]

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (2) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (3)

فاتحة الكتاب هي أم الكتاب ، لا تصلح الصلاة بدونها ، فأنت في كل ركعة تستطيع أن تقرأ آية
من القرآن الكريم ، تختلف عن الآية التي قرأتها في الركعة السابقة ، وتختلف عن الآيات التي
قرأتها في صلواتك . . ولكن إذا لم تقرأ الفاتحة فسدت الصلاة ، ولذلك قال رسول الله صلى الله
عليه وسلم « من صلى صلاة لم يقرأ فيها أم القرآن فهي خداج ثلاثا غير تام » أي غير صالحة .

فالفاتحة أم الكتاب التي لا تصلح الصلاة بدونها ، والله سبحانه وتعالى يقول في حديث قدسي :
« قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ولعبي ما سأل . . فإذا قال العبد الحمد لله رب
العالمين . قال الله عز وجل حمدي عبدي . فإذا قال : الرحمن الرحيم ، قال الله عز وجل : أتني
علي عبدي ، فإذا قال مالك يوم الدين ، قال الله عز وجل مجدي عبدي . . فإذا قال إياك نعبد
وإياك نستعين ، قال الله عز وجل هذا بيني وبين عبدي ولعبي ما سأل . . وإذا قال : { اهدنا
الصراط المستقيم * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ } قال الله عز
وجل : هذا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ . » .

وعلينا أن نتنبه ونحن نقرأ هذا الحديث القدسي ان الله تعالى يقول : قسمت الصلاة بيني وبين
عبدي ، ولم يقل قسمت الفاتحة بيني وبين عبدي ، ففاتحة الكتاب هي أساس الصلاة ، وهي أم
الكتاب .

نلاحظ ان هناك ثلاثة أسماء لله قد تكررت في بسم الله الرحمن الرحيم ، وفي فاتحة الكتاب ،
وهذه الاسماء هي : الله . والرحمن والرحيم . نقول أن ليس هناك تكرار في القرآن الكريم ، وإذا
تكرر اللفظ يكون معناه في كل مرة مختلفا عن معناه في المرة السابقة ، لأن المتكلم هو الله
سبحانه وتعالى . . ولذلك فهو يضع اللفظ في مكانه الصحيح ، وفي معناه الصحيح . .
قولنا : { بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ } هو استعانة بقدرة الله حين نبدأ فعل الأشياء . . إذن فلفظ
الجلالة { الله } في بسم الله ، معناه الاستعانة بقدرات الله سبحانه وتعالى وصفاته . لتكون عوناً
لنا على ما نفعل . ولكن إذا قلنا : الحمد لله . . فهي شكر لله على ما فعل لنا . ذلك اننا لا
نستطيع أن نقدم الشكر لله إلا إذا استخدمنا لفظ الجلالة . الجامع لكل صفات الله تعالى . لأننا
نحمده على كل صفاته ورحمته بنا حتى لا نقول باسم القهار وباسم الوهاب وباسم الكريم ، وباسم
الرحمن . . نقول الحمد لله على كمال صفاته ، فيشمل الحمد كمال الصفات كلها .
وهناك فرق بين { بِسْمِ اللَّهِ } الذي نستعين به على ما لا قدرة لنا عليه . . لأن الله هو الذي
سخر كل ما في الكون ، وجعله يخدمنا ، وبين { الحمد لله } فإن لفظ الجلالة إنما جاء هنا لنحمد
الله على ما فعل لنا .

فكأن « بسم الله في البسمة » طلب العون من الله بكل كمال صفاته . . وكأن الحمد لله في
الفاتحة تقديم الشكر لله بكل كمال صفاته .

و { الرحمن الرحيم } في البسمة لها معنى غير { الرحمن الرحيم } في الفاتحة ، ففي البسمة هي
تذكرنا برحمة الله سبحانه وتعالى وغفرانه حتى لا نستحي ولا نهاب أن نستعين باسم الله ان كنا قد
فعلنا معصية . . فالله سبحانه وتعالى يريدنا أن نستعين باسمه دائماً في كل اعمالنا . فإذا سقط
واحد منا في معصية ، قال كيف استعين باسم الله ، وقد عصيته؟ نقول له ادخل عليه سبحانه

وتعالى من باب الرحمة . . فيغفر لك وتستعين به فيجيبك .

وانت حين تسقط في معصية تستعيز برحمة الله من عدله ، لأن عدل الله لا يترك صغيرة ولا كبيرة إلا احصاها .

وأقرأ قول الله تعالى : { وَوَضِعَ الْكِتَابَ فَتَرَى الْمَجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا } [الكهف : 49] ولولا رحمة الله التي سبقت عدله . ما بقي للناس نعمة وما عاش أحد على ظهر الأرض . . فالله جل جلاله يقول : { وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ } [النحل : 61] فالإنسان خلق ضعيفا ، وخلق هلوعا . ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لا يدخل أحدكم الجنة بعمله إلا أن يتغمده الله برحمته ، قالوا : حتى أنت يا رسول الله قال : حتى أنا » .

فذنوب الإنسان في الدنيا كثيرة . . إذا حكم فقد يظلم . وإذا ظن فقد يسيء . . وإذا تحدث فقد يكذب . . وإذا شهد فقد يبتعد عن الحق . . وإذا تكلم فقد يغتاب .

هذه ذنوب نرتكبها بدرجات متفاوتة . ولا يمكن لأحد منا ان ينسب الكمال لنفسه حتى الذين يبذلون أقصى جهدهم في الطاعة لا يصلون الى الكمال ، فالكمال لله وحده . ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « كل بني آدم خطاء وخير الخطائين التوابون » .

ويصف الله سبحانه وتعالى الإنسان في القرآن الكريم : { وَأَتَاكُمْ مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ } [إبراهيم : 34] ولذلك أراد الحق سبحانه وتعالى ألا تمنعنا المعصية عن ان ندخل الى كل عمل باسم الله . . فعلمنا أن نقول : { بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ } لكي نعرف أن الباب مفتوح للاستعانة بالله . وأن المعصية لا تمنعنا من الاستعانة في كل عمل باسم الله . . لأنه رحمن رحيم ، فيكون الله قد أزال وحشتك من المعصية في الاستعانة به سبحانه وتعالى .

ولكن الرحمن الرحيم في الفاتحة مقترنة برب العالمين ، الذي أوجدك من عدم . . وأمدك بنعم لا تعد ولا تحصى . انت تحمده على هذه النعم التي أخذتها برحمة الله سبحانه وتعالى في ربوبيته ، ذلك أن الربوبية ليس فيها من القسوة بقدر ما فيها من رحمة .

والله سبحانه وتعالى رب للمؤمن والكافر ، فهو الذي استدعاهم جميعا الى الوجود . ولذلك فإنه يعطيهم من النعم برحمته . . وليس بما يستحقون . . فالشمس تشرق على المؤمن والكافر . . ولا تحجب أشعتها عن الكافر وتعطيها للمؤمن فقط ، والمطر ينزل على من يعبدون الله . ومن يعبدون أوثانا من دون الله . والهواء يتنفسه من قال لا إله إلا الله ومن لم يقلها .

وكل النعم التي هي من عطاء الربوبية لله هي في الدنيا لخلقه جميعا ، وهذه رحمة . . فالله رب الجميع من أطاعه ومن عصاه . وهذه رحمة ، والله قابل للتوبة ، وهذه رحمة . .
إذن ففي الفاتحة تأتي { الرحمن الرحيم } بمعنى رحمة الله في ربوبيته لخلقه ، فهو يمهّل العاصي ويفتح ابواب التوبة لكل من يلجأ اليه .
وقد جعل الله رحمته تسبق غضبه . وهذه رحمة تستوجب الشكر . فمعنى { الرحمن الرحيم } في البسمة يختلف عنها في الفاتحة . فإذا انتقلنا بعد ذلك الى قوله تعالى :
{ الحمد لله رب العالمين } فالله محمود لذاته ومحمود لصفاته ، ومحمود لنعمه ، ومحمود لرحمته ، ومحمود لمنهجه ، ومحمود لقضائه ، الله محمود قبل ان يخلق من يحمده . ومن رحمة الله سبحانه وتعالى أنه جعل الشكر له في كلمتين اثنتين هما الحمد لله .
والعجيب أنك حين تشكر بشرا على جميل فعله تظل ساعات وساعات . . تعد كلمات الشكر والثناء ، وتحذف وتضيف وتأخذ رأي الناس . حتى تصل الى قصيدة أو خطاب ملى بالثناء والشكر . ولكن الله سبحانه وتعالى جلت قدرته وعظمته نعمه لا تعد ولا تحصى ، علمنا أن نشكره في كلمتين اثنتين هما : الحمد لله . .
ولعلنا نفهم ان المبالغة في الشكر للبشر مكروهة لأنها تصيب الانسان بالغرور والنفاق وتزيد العاصي في معاصيه . . فلنقلل من الشكر والثناء للبشر . . لأننا نشكر الله لعظيم نعمه علينا بكلمتين هما : الحمد لله ، ومن رحمة الله سبحانه وتعالى أنه علمنا صيغة الحمد . فلو أنه تركها دون أن يحددها بكلمتين . . لكان من الصعب على البشر أن يجدوا الصيغة المناسبة ليحمدوا الله على هذا الكمال الالهي . . فمهما أوتي الناس من بلاغة وقدرة على التعبير . فهم عاجزون على أن يصلوا الى صيغة الحمد التي تليق بجلال المنعم . . فكيف نحمد الله والعقل عاجز أن يدرك قدرته أو يحصي نعمه أو يحيط برحمته؟ ورسول الله صلى الله عليه وسلم أعطانا صورة العجز البشري عن حمد كمال الالوهية لله ، فقال : « لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك » .

وكلمتا الحمد لله ، ساوى الله بهما بين البشر جميعا ، فلو أنه ترك الحمد بلا تحديد ، لتفاوتت درجات الحمد بين الناس بتفاوت قدراتهم على التعبير . فهذا أمي لا يقرأ ولا يكتب لا يستطيع أن يجد الكلمات التي يحمد بها الله . وهذا عالم له قدرة على التعبير يستطيع ان يأتي بصيغة الحمد بما أوتي من علم وبلاغة . وهكذا تتفاوت درجات البشر في الحمد . . طبقا لقدرتهم في منازل الدنيا .

ولكن الحق تبارك وتعالى شاء عدله أن يسوي بين عباده جميعا في صيغة الحمد له . . فيعلمنا في أول كلماته في القرآن الكريم . . أن نقول { الحمد لله } ليعطي الفرصة المتساوية لكل عبده

بحيث يستوي المتعلم وغير المتعلم في عطاء الحمد ومن أوتي البلاغة ومن لا يحسن الكلام .
ولذلك فإننا نحمد الله سبحانه وتعالى على أنه علمنا كيف نحمده وليظل العبد دائما حامدا .
ويظل الله دائما محمودا . . فالله سبحانه وتعالى قبل أن يخلقنا خلق لنا موجبات الحمد من النعم ،
فخلق لنا السماوات والارض وأوجد لنا الماء والهواء . ووضع في الأرض أقواتها الى يوم القيامة .
. وهذه نعمة يستحق الحمد عليها لأنه جل جلاله جعل النعمة تسبق الوجود الانساني ، فعندما
خلق الانسان كانت النعمة موجودة تستقبله . بل ان الله جل جلاله قبل أن يخلق آدم أبا البشر
جميعا سبقته الجنة التي عاش فيها لا يتعب ولا يشقى . فقد خلق فوجد ما يأكله وما يشربه وما
يقيم حياته وما يتمتع به موجودا وجاهزا ومعدا قبل الخلق . . وحينما نزل آدم وحواء الى الأرض
كانت النعمة قد سبقتهما . فوجدا ما يأكلانه وما يشربانه ، وما يقيم حياتهما . . ولو أن النعمة
لم تسبق الوجود الانساني وخلقت بعده لهلك الانسان وهو ينتظر مجيء النعمة .

بل ان العطاء الالهي للانسان يعطيه النعمة بمجرد أن يخلق في رحم أمه فيجد رحما مستعدا
لاستقباله وغذاء يكفيه طول مدة الحمل . فاذا خرج الى الدنيا يضع الله في صدر أمه لبنا ينزل
وقت أن يجوع ويمتنع وقت أن يشبع . وينتهي تماما عندما تتوقف فترة الرضاعة . ويجد أبا وأما
يوفران له مقومات حياته حتى يستطيع أن يعول نفسه . . وكل هذا يحدث قبل ان يصل الانسان
إلى مرحلة التكليف وقبل أن يستطيع ان ينطق : { الحمد لله } .

وهكذا نرى أن النعمة تسبق المُنعمَ عليه دائما . . فالانسان حيث يقول « الحمد لله » فلأن
موجبات الحمد وهي النعمة موجودة في الكون قبل الوجود الانساني .
والله سبحانه وتعالى خلق لنا في هذا الكون أشياء تعطي الانسان بغير قدرة منه ودون خضوع له
، والانسان عاجز عن أن يقدم لنفسه هذه النعم التي يقدمها الحق تبارك وتعالى له بلا جهد .

فالشمس تعطي الدفء والحياة للارض بلا مقابل وبلا فعل من البشر ، والمطر ينزل من السماء
دون ان يكون لك جهد فيه أو قدرة على إنزاله . والهواء موجود حولك في كل مكان تتنفس منه
دون جهد منك ولا قدرة . والارض تعطيك الثمر بمجرد أن تبذر فيها الحب وتسقيه . . فالزرع
ينبت بقدرة الله . . والليل والنهار يتعاقبان حتى تستطيع أن تنام لترتاح ، وأن تسعى لحياتك . .
لا أنت أتيت بضوء النهار ، ولا أنت الذي صنعت ظلمة الليل ، ولكنك تأخذ الراحة في الليل
والعمل في النهار بقدرة الله دون أن تفعل شيئا .

كل هذه الاشياء لم يخلقها الانسان ، ولكنه خلق ليحدها في الكون تعطيه بلا مقابل ولا جهد
منه . ألا تستحق أن نقول الحمد لله على نعمة تسخير الكون لخدمة الانسان؟ إنها تقتضي
وجوب الحمد .

وآيات الله سبحانه وتعالى في كونه تستوجب الحمد . . فالحياة التي وهبها الله لنا ، والآيات التي

أودعها في كونه لتدلنا على أن لهذا الكون خالقاً عظيماً . فالكون بشمسهِ وقمرهِ ونجومهِ وأرضهِ وكل ما فيه مما يفوق قدرة الانسان . . ولا يستطيع أحد أن يدعيه لنفسهِ . فلا أحد مهما بلغ علمهِ يستطيع أن يدعي أنه خلق الشمس أو أوجد النجوم أو وضع الأرض أو وضع قوانين الكون أو أعطى غلافها الجوي . . أو خلق نفسه أو خلق غيره .
هذه الآيات كلها أعطتنا الدليل على وجود قوة عظمى ، وهي التي أوجدت وهي التي خلقت .
وهذه الآيات ليست ساكنة ، لتجعلنا في سكونها ننساها ، بل هي متحركة لتلفتنا الى خالق هذا الكون العظيم .

فالشمس تشرق في الصباح فتذكرنا باعجاز الخلق ، وتغيب في المساء لتذكرنا بعظمة الخالق . .
وتعاقب الليل والنهار يحدث أماننا كل يوم علمنا نلتفت ونفיק . . والمطر ينزل من السماء ليذكرنا بألوهية من أنزله . . والزرع يخرج من الأرض يسقي بماء واحد . ومع ذلك فإن كل نوع له لون وله شكل وله مذاق وله رائحة ، وله تكوين يختلف عن الآخر ، ويأتي الحصاد فيخنتفي الثمر والزرع . . ويأتي موسم الزراعة فيعود من جديد .

كل شيء في هذا الكون متحرك ليذكرنا اذا نسينا ، ويعلمنا أن هناك خالقاً عظيماً .
ونستطيع أن نمضي في ذلك بلا نهاية فنعم الله لا تعد ولا تحصى . . وكل واحدة منها تدلنا على وجود الحق سبحانه وتعالى ، وتعطينا الدليل الايماني على ان لهذا الكون خالقاً مبدعاً . . وانه لا أحد يستطيع أن يدعي أنه خلق الكون أو خلق ما فيه . . فالقضية محسومة لله . . و الحمد لله { لأنه وضع في نفوسنا الإيمان الفطري ثم أيده بإيمان عقلي بآياته في كونه .
بل إن كل شيء في هذا الكون يقتضي الحمد ، ومع ذلك فإن الانسان يمتدح الوجود وينسى الموجود!! فأنت حين ترى زهرة جميلة مثلاً أو زهرة غاية في الإبداع .

. أو أي خلق من خلق الله يشيع في نفسك الجمال تمتدح هذا الخلق . . فتقول : ما أجمل هذه الزهرة أو هذه الجوهرة أو هذا المخلوق . . ولكن المخلوق الذي امتدحته ، لم يعط صفة الجمال لنفسه . . فالزهرة لا دخل لها أن تكون جميلة أو غير جميلة ، والجوهرة لا دخل لها في عظمة خلقها . . وكل شيء في هذا الكون لم يضع الجمال لنفسه وإنما الذي وضع الجمال فيه هو الله سبحانه وتعالى ، فلا نخلط وتمدح المخلوق وننسى الخالق . . بل قل : الحمد لله الذي أوجد في الكون ما يذكرنا بعظمة الخالق ودقة الخلق .

ومنهج الله سبحانه وتعالى يقتضي منا الحمد ، لان الله أنزل منهجه ليرينا طريق الخير ويبعدنا عن طريق الشر .

فمنهج الله الذي أنزله على رسله قد عرفنا ان الله تبارك وتعالى هو الذي خلق لنا هذا الكون وخلقنا . . فدقة الخلق وعظمته تدلنا على أن هناك خالقاً عظيماً . . ولكنها لا تستطيع أن تقول

لنا من هو ، ولا ماذا يريد منا . ولذلك أرسل الله رسله ، ليقولوا لنا إن الذي خلق هذا الكون وخلقنا هو الله تبارك وتعالى وهذا يستوجب الحمد .

ومنهج الله بين لنا ماذا يريد الحق منا ، وكيف نعبده . . وهذا يستوجب الحمد . ومنهج الله جل جلاله أعطانا الطريق وشرع لنا اسلوب حياتنا تشريعاً حقاً . فالله تبارك وتعالى لا يفرق بين أحد منا . . ولا يفضل أحداً على احد إلا بالتقوى ، فكلنا خلق متساوون أمام الله جل جلاله . . إذن : فشريعة الحق ، وقول الحق ، وقضاء الحق ، هو من الله ، أما تشريعات الناس فلها هوى ، تميز بعضها عن بعض . . وتأخذ حقوق بعض لتعطيها للآخرين ، لذلك نجد في كل منهج بشري ظلما بشريا .

فالدول الشيوعية أعضاء اللجنة المركزية فيها هم أصحاب النعمة والترف . بينما الشعب كله في شقاء . . لأن هؤلاء الذي شرعوا اتبعوا هواهم . ووضعوا مصالحهم فوق كل مصلحة . . وكذلك في الدول الرأسمالية . أصحاب رأس المال يأخذون كل الخير . ولكن الله سبحانه وتعالى حين نزل لنا المنهج قضى بالعدل بين الناس . . وأعطى كل ذي حق حقه . وعلمنا كيف تستقيم الحياة على الأرض عندما تكون بعيدة عن الهوى البشري خاضعة لعدل الله ، وهذا يوجب الحمد . والحق سبحانه وتعالى ، يستحق منا الحمد لأنه لا يأخذ منا ولكنه يعطينا . فالبشر في كل عصر يحاولون استغلال البشر . . لأنهم يطمعون لما في ايديهم من ثروات وأموال ، ولكن الله سبحانه وتعالى لا يحتاج الى ما في أيدينا ، إنه يعطينا ولا يأخذ منا ، عنده خزائن كل شيء مصداقا لقوله جل جلاله : { وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ } [الحجر : 21] فالله سبحانه وتعالى دائم العطاء لخلقه ، والخلق يأخذون دائما من نعم الله ، فكأن العبودية لله تعطيك ولا تأخذ منك وهذا يستوجب الحمد .

والله سبحانه وتعالى في عطائه يجب أن يطلب منه الانسان ، وأن يدعو به وان يستعين به ، وهذا يتوجب الحمد لأنه يقينا الذل في الدنيا . فأنت إن طلبت شيئا من صاحب نفوذ ، فلا بد ان يحدد لك موعدا أو وقت الحديث ومدة المقابلة ، وقد يضيق بك فيقف لينهي اللقاء . . ولكن الله سبحانه وتعالى بابه مفتوح دائما . . فأنت بين يديه عندما تريد ، وترفع يديك الى السماء وتدعو وقتما تحب ، وتسأل الله ما تشاء ، فيعطيك ما تريده إن كان خيرا لك . . ويمنع عنك ما تريده ان كان شرا لك .

والله سبحانه وتعالى يطلب منك ان تدعوه وان تسأله فيقول : { وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ } [غافر : 60] ويقول سبحانه وتعالى : { وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي

وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ } [البقرة : 186] والله سبحانه وتعالى يعرف ما في نفسك ،
ولذلك فإنه يعطيك دون أن تسأل . واقرأ الحديث القدسي :
يقول رب العزة :

« من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين » .
والله سبحانه وتعالى عطاؤه لا ينفد ، وخزائنه لا تفرغ ، فكلما سألته جل جلاله كان لديه المزيد ،
ومهما سألته فإنه لا شيء عزيز على الله سبحانه وتعالى ، إذا أراد أن يحقق لك . .
واقراً قول الشاعر :

حسب نفسي عزا بأني عبد ... يحتفي بي بلا مواعيد رب
هو في قدسه الاعز ولكن ... أنا ألقى متى وأين أحب
إذن : عطاء الله سبحانه وتعالى يستوجب الحمد . . ومنعه العطاء يستوجب الحمد .
ووجود الله سبحانه وتعالى الواجب الوجود يستوجب الحمد . . فالله يستحق الحمد لذاته ، ولولا
عدل الله لبغى الناس في الارض وظلموا ، ولكن يد الله تبارك وتعالى حين تبطش بالظالم تجعله
عبرة . . فيخاف الناس الظلم . . وكل من أفلت من عقاب الدنيا على معاصيه وظلمه
واستبداده سيلقى الله في الآخرة ليوفيه حسابه . . وهذا يوجب الحمد . . أن يعرف المظلوم أنه
سينال جزاءه فتهداً نفسه ويطمئن قلبه ان هناك يوماً سيرى فيه ظالمه وهو يعذب في النار . .
فلا تصيبه الحسرة ، ويخف احساسه بمرارة الظلم حين يعرف ان الله قائم على كونه لن يفلت من
عدله أحد .

وعندما نقول : { الحمد لله } فنحن نعبر عن انفعالات متعددة . . وهي في مجموعها تحمل
العبودية والحب والثناء والشكر والعرفان . . وكثير من الانفعالات التي تملأ النفس عندما نقول :
« الحمد لله » كلها تحمل الثناء العاجز عن الشكر لكمال الله وعطائه . . هذه الانفعالات تأتي
من النفس وتستقر في القلب . . ثم تفيض من الجوارح على الكون كله .

فالحمد ليس ألفاظاً تردد باللسان ، ولكنها تمر أولاً على العقل ليوعي معنى النعم . . ثم بعد ذلك
تستقر في القلب فينفع بها . . وتنتقل الي الجوارح فأقوم واصلي لله شاكراً ويهتز جسدي كله ،
وتفيض الدمعة من عيني . . وينتقل هذا الانفعال كله الي من حولي .
ونفس ذلك قليلاً . . هب اني في أزمة أو كرب أو شيء سيؤدي الي فضيحة . . وجاءني من
يفرج كربى فيعطيني مالا أو يفتح لي طريقاً . . أول شيء اني سأعقل هذا الجميل فأقول انه
يستحق الشكر . . ثم ينزل هذا المعنى الي قلبي فيهتز القلب الي صانع هذا الجميل . . ثم تنفع
جوارحي لأترجم هذه العاطفة إلي عمل يرضيه على جميل صنعه . ثم أحدث الناس عن جميله

وكرمهم فيسارعون إلى الالتجاء إليه . . فتتسع دائرة الحمد وتنزل النعم على الناس . . فيمرون بنفس ما حدث لي فتتسع دائرة الشكر والحمد . .

والحمد لله تعطينا المزيد من نعم الله مصداقا لقوله تبارك وتعالى : { وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ } [إبراهيم : 7] وهكذا نعرف ان الشكر على النعمة يعطينا مزيدا من النعمة . . فنشكر عليها فتعطينا المزيد وهكذا يظل الحمد دائما والنعمة دائمة . . اننا لو استعرضنا حياتنا كلها فكل حركة فيها تقتضي الحمد ، عندما ننام ويأخذ الله سبحانه

وتعالى أرواحنا ، ثم يردها اليها عندما نستيقظ ، فإن هذا يوجب الحمد ، فالله سبحانه وتعالى يقول : { اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ } [الزمر : 42] وهكذا فإن مجرد استيقاظنا من النوم ، وان الله سبحانه وتعالى رد علينا أرواحنا ، وهذا الرد يستوجب الحمد ، فإذا قمنا من السرير فالله سبحانه وتعالى هو الذي يعطينا القدرة على الحركة ، ولولا عطاؤه ما استطعنا ان نقوم . . وهذا يستوجب الحمد . . فإذا تناولنا افطارنا فالله هيا لنا طعاما من فضله ، فهو الذي خلقه ، وهو الذي انبته ، وهو الذي زرقنا به ، وهذا يستوجب الحمد . . فإذا نزلنا الى الطريق يسر الله لنا ما ينقلنا الى مقر اعمالنا وسخره لنا ، سواء كنا نملك سيارة او نستخدم وسائل المواصلات ، فله الحمد ، واذا تحدثنا مع الناس فالله سبحانه وتعالى هو الذي اعطى السنننا القدرة على النطق ولو شاء لجعلها خرساء لا تنطق . . وهذا يستوجب الحمد ، فإذا ذهبنا الى اعمالنا ، فالله يسر لنا عملا نرتق منه لناكل حلالا . . وهذا يستوجب الحمد .

واذا عدنا الى بيوتنا فالله سخر لنا زوجاتنا ورزقنا بأولادنا وهذا يستوجب الحمد . اذن فكل حركة حياة في الدنيا من الانسان تستوجب الحمد . . ولهذا لا بد ان يكون الانسان حامدا دائما . . بل ان الانسان يجب ان يحمد الله على اي مكروه أصابه؛ لأنه قد يكون الشيء الذي يعتبره شرا هو عينه الخير .

فالله تعالى يقول : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَجِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرْتُوا النِّسَاءَ كَرِهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْنَهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبِينَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا } [النساء : 19] اذن فأنت تحمد الله لأن قضاءه خير . . سواء أحببت القضاء أو كرهته فإنه خير لك . . لأنك لا تعلم والله سبحانه وتعالى يعلم . وهكذا من موجبات الحمد أن تقول الحمد لله على كل ما يحدث لك في دنياك . فأنت بذلك ترد الامر الى الله الذي خلقك . . فهو أعلم بما هو خير لك .

فاتحة الكتاب تبدأ بالحمد لله رب العالمين . . لماذا قال الله سبحانه وتعالى رب العالمين؟ نقول إن

{ الحمد لله } تعني حمد الألوهية . فكلمة الله تعني المعبود بحق . . فالعبادة تكليف والتكليف يأتي من الله لعبيده . . فكأن الحمد اولا لله . . ثم يقتضي بعد ذلك أن يكون الحمد لربوبية الله على ايجادنا من عدم وامدادنا من عدم . . لأن المتفضل بالنعم قد يكون محمودا عند كل الناس . . لكن التكليف يكون شاقا على بعض الناس . . ولو علم الناس قيمة التكليف في الحياة . . حمدوا الله أن كلفهم بالفعل ولا تفعل . . لأنه ضمن عدم تصادم حركة حياتهم . . فتمضي حركة الحياة متساندة منسجمة . اذن فالنعمة الاولى هي أن المعبود ابغنا منهج عبادته ، والنعمة الثانية أنه رب العالمين .

في الحياة الدنيا هناك المطيع والعاصي ، والمؤمن وغير المؤمن . . والذين يدخلون في عطاء الالوهية هم المؤمنون . . أما عطاء الربوبية فيشمل الجميع . . ونحن نحمد الله على عطاء ألوهيته ، ونحمد الله على عطاء ربوبيته ، لأنه الذي خلق ، ولأنه رب العالمين . . الكون كله لا يخرج عن حكمه . . فليطمئن الناس في الدنيا ان النعم مستمرة لهم بعطاء ربوبيه . . فلا الشمس تستطيع أن تغيب وتقول لن أشرق ولا النجوم تستطيع أن تصطدم بعضها ببعض في الكون ، ولا الأرض تستطيع أن تمنع إنبات الزرع . . ولا الغلاف الجوي يستطيع أن يبتعد عن الأرض فيختنق الناس جميعا . .

اذن فالله سبحانه وتعالى يريد ان يطمئن عباده انه رب لكل ما في الكون فلا تستطيع اى قوى تخدم الانسان ان تمتنع عن خدمته . . لأن الله سبحانه وتعالى مسيطر على كونه وعلى كل ما خلق . . انه رب العالمين وهذه توجب الحمد . . ان يهيئ الله سبحانه وتعالى للانسان ما يخدمه ، بل جعله سيدا في كونه . . ولذلك فإن الانسان المؤمن لا يخاف الغد . . وكيف يخافه والله رب العالمين . اذا لم يكن عنده طعام فهو واثق ان الله سيرزقه لأنه رب العالمين .

. واذا صادفته ازمة فقلبه مطمئن الي ان الله سيفرج الازمة ويزيل الكرب لأنه رب العالمين . . واذا اصابته نعمة ذكر الله فشكره عليها لانه رب العالمين الذي انعم عليه . فالحق سبحانه وتعالى يحمد على انه رب العالمين . . لا شيء في كونه يخرج عن مراده الفعلي . . اما عطاء الالوهية فجزاؤه في الآخرة . . فالدنيا دار اختبار للايمان ، والآخرة دار الجزاء . . ومن الناس من لا يعبد الله . . هؤلاء متساوون في عطاء الربوبية مع المؤمنين في الدنيا . . ولكن في الآخرة يكون عطاء الالوهية للمؤمنين وحدهم . . فنعلم الله لأصحاب الجنة ، وعطاءات الله لمن آمن . . واقرا قوله تبارك وتعالى . { قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نَفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ } [الأعراف : 32] على ان الحمد لله ليس في الدنيا فقط . . بل هو في الدنيا والآخرة . . الله محمود دائما . . في الدنيا بعطاء ربوبيته لكل خلقه . . وعطاء الوهيته لمن آمن به وفي الآخرة

بعطائه للمؤمنين من عباده . . . واقراً قوله جل جلاله : { وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقْنَا وَعَدُّهُ
وَأُورَثْنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ } [الزمر : 74] وقوله تعالى : {
دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَأَخْرَجُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ } [
يونس : 10] فاذا انتقلنا الى قوله تعالى : { الرحمن الرحيم } فمن موجبات الحمد أن الله
سبحانه وتعالى رحمن رحيم . . . يعطي نعمه في الدنيا لكل عباده عطاء ربوبية ، وعطاء الربوبية
للمؤمن والكافر . . . وعطاء الربوبية لا ينقطع الا عندما يموت الانسان . . .
والله لا يحجب نعمه عن عبده في الدنيا . . . ونعم الله لا تعد ولا تحصى ومع كل التقدم في
الآلات الحاسبة والعقول الالكترونية وغير ذلك فإننا لم نجد أحدا يتقدم ويقول انا سأحصى نعم
الله . . . لأن موجبات الاحصاء ان تكون قادرا عليه . . . فانت لا تقبل على عد شيء الا اذا كان
في قدرتك ان تحصيه . . . ولكن مادام ذلك خارج قدرتك وطاقاتك فانك لا تقبل عليه . . .
ولذلك لن يقبل احد حتى يوم القيامة على احصاء نعم الله تبارك وتعالى لان احدا لا يمكن ان
يحصيها .

ولابد ان نلتفت الى ان الكون كله يضيق بالانسان ، وان العالم المقهور الذي يخدمنا بحكم القهر
والتسخير يضيق حين يرى العاصين . . . لان المقهور مستقيم على منهج الله قهرا . . . فحين يرى
كل مقهور الانسان الذي هو خدمته عاصيا يضيق .

واقراً الحديث القدسي لتعرف شيئا عن رحمة الله بعباده . . . يقول الله عز وجل : « ما من يوم
تطلع شمسهُ إلا وتنادي السماء تقول يا رب إنذن لي أن أسقط كسفا على ابن آدم؛ فقد طعم
خيرك ومنع شكرك وتقول البحار يا رب إنذن لي أن أغرق ابن آدم فقد طعم خيرك ومنع شكرك
. وتقول الجبال يا رب إنذن لي أن أطبق على ابن آدم فقد طعم خيرك ومنع شكرك . فيقول الله
تعالى : دعوهم دعوهم لو خلقتهم لرحمتهم إنهم عبادي فإن تابوا إلي فأنا حبيبهم ، وإن لم
يتوبوا فأنا طيبهم »

رواه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده » .

تلك تجليات صفة الرحمن وصفة الرحيم . . . وكيف ضمنت لنا بقاء كل ما يخدمنا في هذا الكون
مع معصية الانسان . . . انها كلها تخدمنا بعطاء الربوبية وتبقى في خدمتنا بتسخير الله لها لانه رحمن
رحيم . . .

بعض الناس قد يتساءل هل تتكلم الارض والسماء وغيرها من المخلوقات في عالم الجماد
والنبات والحيوان؟ نقول نعم ان لها لغة لا نعرفها نحن وانما يعرفها خالقها . . . بدليل انه منذ الخلق
الاول ابلغنا الحق تبارك وتعالى ان هناك لغة لكل هذه المخلوقات . . . واقراً قوله جل جلاله : {
ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ } [

فصلت : 11] إذن فالأرض والسماء فهمت كلتاهما عن الله . . وقالت له سبحانه وتعالى {
 أَتَيْنَا طَائِعِينَ } ألم يُعَلِّمَ اللهُ سليمان منطق الطير ولغة النمل؟ ألم تسبح الجبال مع داود؟ إذن كل
 خلق الله له ادراكات مناسبة له . . بل له عواطف . . فعندما تكلم الله سبحانه وتعالى عن قوم
 فرعون . . قال : { كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ *
 كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ * فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ } [الدخان
 : 25-29] إذن فالسماوات والأرض لهما انفعال . . انفعال يصل الى مرحلة البكاء . . فهما
 لم تبكيا على فرعون وقومه . . ولكنهما تبكيا حزنا عندما يفارقهما الانسان المؤمن المصلي
 المطبق لمنهج الله . . ولقد قال علي بن ابي طالب رضي الله عنه : (إذا مات المؤمن بكى عليه
 موضعان موضع في الارض وموضع في السماء . . اما الموضع في الارض فهو مكان مصلاه الذي
 اسعده وهو يصلي فيه . واما الموضع في السماء فهو مصعد عمله الطيب) .

مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (4) إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (5)

اذا كانت كل نعم الله تستحق الحمد . . فإن { مالك يَوْمِ الدِّينِ } تستحق الحمد الكبير . . لأنه
 لو لم يوجد يوم للحساب ، لنجا الذي ملأ الدنيا شروراً . دون أن يجازى على ما فعل . . وكان
 الذي التزم بالتكليف والعبادة وحرم نفسه من متع دنيوية كثيرة إرضاء لله قد شقي في الحياة
 الدنيا . . ولكن لأن الله تبارك وتعالى هو { مالك يَوْمِ الدِّينِ } . . أعطى الاتزان للوجود كله . .
 هذه الملكية ليوم الدين هي التي حمت الضعيف والمظلوم وأبقت الحق في كون الله . . إن الذي
 منع الدنيا أن تتحول إلى غابة يفتك فيها القوي بالضعيف والظالم بالمظلوم هو أن هناك آخرة
 وحسابا ، وأن الله سبحانه وتعالى هو الذي سيحاسب خلقه .
 والإنسان المستقيم استقامته تنفع غيره؛ لأنه يخشى الله ويعطي كل ذي حق حقه ويعفو ويسامح .
 إذن كل من حوله قد استفاد من خلقه الكريم ومن وقوفه مع الحق والعدل .
 أما الإنسان العاصي فيشقى به المجتمع لأنه لا احد يسلم من شره ولا احد الا يصيبه ظلمه . .
 ولذلك فإن { مالك يَوْمِ الدِّينِ } هي الميزان . . تعرف أنت ان الذي يفسد في الأرض تنتظره
 الآخرة . . لن يفلت مهما كانت قوته ونفوذه ، فتطمئن اطمئنانا كاملاً إلى أن عدل الله سينال
 كل ظالم .

على أن { مالك يَوْمِ الدِّينِ } لها قراءتان . . { مالك يَوْمِ الدِّينِ } . . وملك يوم الدين .
 والقراءتان صحيحتان . . والله تبارك وتعالى وصف نفسه في القرآن الكريم بأنه : { مالك يَوْمِ
 الدين } . . ومالك الشيء هو المتصرف فيه وحده . . ليس هناك دخل لأي فرد آخر . . أنا
 أملك عباةتي . . وأملك متاعي ، وأملك منزلي ، وانا المتصرف في هذا كله أحكم فيه بما أراه . .
 فمالك يوم الدين . . معناها أن الله سبحانه وتعالى سيصرف أمور العباد في ذلك اليوم بدون

أسباب . . وأن كل شيء سيأتي من الله مباشرة . . دون ان يستطيع أحد أن يتدخل ولو ظاهراً .

ففي الدنيا يعطى الله الملك ظاهراً لبعض الناس . . ولكن في يوم القيامة ليس هناك ظاهر . .
فالامر مباشر من الله سبحانه وتعالى . . ولذلك يقول الله في وصف يوم الدين : { كَلَّا بَلْ
تُكذِّبُونَ بِالذِّينِ } [الانفطار : 9] فكأن الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان في الدنيا لتمضي بها
الحياة . . ولكن في الآخرة لا توجد أسباب . الملك في ظاهر الدنيا من الله يهبه لمن يشاء . .
واقراً قوله تعالى : { قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعْزِزُ مَنْ
تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } [آل عمران : 26] ولعل قوله
تعالى : « تنزع » تلفتنا إلى أن أحدا في الدنيا لا يريد ان يترك الملك .

. ولكن الملك يجب ان ينتزع منه انتزاعاً بالرغم عن ارادته . . والله هو الذي ينزع الملك ممن

يشاء . .

وهنا نتساءل هل الملك في الدنيا والآخرة ليس لله؟ . . نقول الأمر في كل وقت لله . . ولكن الله
تبارك وتعالى استخلف بعض خلقه أو مكنهم من الملك في الأرض . . ولذلك نجد في القرآن
الكريم قوله تعالى : { أَمْ تَرَىٰ إِلَىٰ الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّي
الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا
مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ } [البقرة : 258] والذي حاج
ابراهيم في ربه كافر منكر للألوهية . . ومع ذلك فإنه لم يأخذ الملك بذاته . . بل الله جل جلاله
هو الذي آتاه الملك . . اذن الله تبارك وتعالى هو الذي استخلف بعض خلقه ومكنهم من ملك
الأرض ظاهرياً . . ومعنى ذلك انه ملك ظاهر للناس فقط . . أن بشراً أصبح ملكاً . . ولكن
الملك ليس نابعا من ذات من يملك . . ولكنه نابع من أمر الله . . ولو كان نابعا من ذاتية من
يملك لبقى له ولم ينزع منه . . والملك الظاهر يمتحن فيه العباد ، فيحاسبهم الله يوم القيامة . .
كيف تصرفوا؟ وماذا فعلوا؟ . . ويمتحن فيه الناس هل سكتوا على الحاكم الظالم؟ . . وهل
استحبوا المعصية؟ أم أنهم وقفوا مع الحق ضد الظلم؟ . . والله سبحانه وتعالى لا يمتحن الناس
ليعلم المصلح من المفسد . . ولكنه يمتحنهم ليكونوا شهداء على أنفسهم . . حتى لا يأتي واحد
منهم يوم القيامة ويقول : يا رب لو أنك أعطيتني الملك لا تبعث طريق الحق وطبقت منهجك .
وهنا يأتي سؤال . . اذا كان الله سبحانه وتعالى يعلم كل شيء فلماذا الامتحان؟ . . نقول اننا اذا
أردنا ان نضرب مثلا يقرب ذلك الى الأذهان . . والله المثل الاعلى . . نجد ان الجامعات في كل
انحاء الدنيا تقيم الامتحانات لطلابها . . فهل اساتذة الجامعة الذي علموا هؤلاء الطلاب يجهلون
ما يعرفه الطالب ويريدون ان يحصلوا منه على العلم؟ . . طبعا لا . . ولكن ذلك يحدث حتى اذا

رسب الطالب في الامتحان . . وجاء يجادل واجهوه بإجابته فيسكت . . ولو لم يعقد الامتحان
لادعي كل طالب انه يستحق مرتبة الشرف .

إذا قال الحق تبارك وتعالى : { مالك يَوْمَ الدين } . . أي الذي يملك هذا اليوم وحده يتصرف
فيه كما يشاء . . وإذا قيل : { مالك يَوْمَ الدين } . . فتصرفه أعلى على المالك لأن المالك لا
يتصرف إلا في ملكه . . ولكن المملك يتصرف في ملكه ومملك غيره .

. فيستطيع أن يصدر قوانين بمصادرة أو تأميم ما يملكه غيره .

الذين قالوا : { مالك يَوْمَ الدين } اثبتوا لله سبحانه وتعالى انه مالك هذا اليوم يتصرف فيه كما
يشاء دون تدخل من احد ولو ظاهرا : والذين يقرأون ملك . . يقولون ان الله سبحانه وتعالى في
ذلك اليوم يقضي في امر خلقه حتى الذين مَلَكَهُمْ في الدنيا ظاهرا . . ونحن نقول عندما يأتي يوم
القيامة لا مالك ولا مملك الا الله .

الله تبارك وتعالى يريد ان يطمئن عباده . . انهم اذا كانوا قد ابتلوا بمالك او ملك يطغى عليهم
فيوم القيامة لا مالك ولا مملك الا الله جل جلاله . . عندما تقول مالك او ملك يوم الدين . .
هناك يوم وهناك الدين . . اليوم عندنا من شروق الشمس الي شروق الشمس . . هذا ما نسيمه
فكلها يوما . . واليوم في معناه ظرف زمان تقع فيه الاحداث . . والمفسرون يقولون : { مالك
يَوْمَ الدين } اي مالك أمور الدين لأن ظرف الزمان لا يملك . . نقول ان هذا بمقاييس ملكية
البشر ، فنحن لا نملك الزمن . . الماضي لا نستطيع ان نعيده ، والمستقبل لا نستطيع ان نأتي به
. . ولكن الله تبارك وتعالى هو خالق الزمان . . والله جل جلاله لا يحده زمان ولا مكان . .

كذلك قوله تعالى : « مالك يوم الدين » لا يحده زمان ولا مكان . . وقرأ قوله سبحانه : {
وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ } [الحج
: 47] وقوله تعالى : { تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ } [

المعارج : 4] وإذا تأملنا هاتين الايتين نعرف معنى اليوم عند الله تبارك وتعالى . . ذلك ان الله
جل جلاله هو خالق الزمن . . ولذلك فانه يستطيع ان يخلق يوما مقداره ساعة . . ويوما كأيام
الدنيا مقداره أربع وعشرون ساعة . . ويوما مقداره ألف سنة . . ويوما مقداره خمسون الف سنة
ويوما مقداره مليون سنة . . فذلك خاضع لمشيئة الله .

ويوم الدين موجود في علم الله سبحانه وتعالى . بأحداثه كلها بجنته وناره . . وكل الخلق الذين
سيحاسبون فيه . . وعندما يريد ان يكون ذلك اليوم ويخرج من علمه جل جلاله الي علم خلقه
. . سواء كانوا من الملائكة او من البشر أو الجان يقول : كن . . فالله وحده هو خالق هذا اليوم
. . وهو وحده الذي يحدد كل أبعاده . . واليوم نحن نحدهه ظاهرا بانه اربع وعشرون ساعة . .
ونحدهه بأنه الليل والنهار . . ولكن الحقيقة أن الليل والنهار موجودان دائما على الارض . .

فعندما تتحرك الارض ، كل حركة هي نهاية نهار في منطقة وبداية نهار في منطقة اخرى . . وبداية ليل في منطقة ونهاية ليل في منطقة اخرى .

. ولذلك في كل لحظة ينتهي يوم ويبدأ يوم . . وهكذا فإن الكرة الارضية لو أخذتها بنظرة شاملة لا ينتهي عليها نهار أبدا . . ولا ينتهي عنها ليل أبدا . . إذن فاليوم نسبي بالنسبة لكل بقعة في الارض . . ولكنه في الحقيقة دائم الوجود على كل الكرة الارضية .

والله سبحانه وتعالى يريد أن يطمئن عباده . . أنهم إذا أصابهم ظلم في الدنيا . . فإن هناك يوم لا ظلم فيه . . وهذا اليوم الامر فيه لله وحده بدون أسباب . . فكل انسان لو لم يدركه العدل والقصاص في الدنيا فإن الآخرة تنتظره . . والذي أتبع منهج الله وقيد حركته في الحياة يخبره الله سبحانه وتعالى ان هناك يوم سياتخذ فيه أجره . . وعظمة الآخرة أنها تعطيك الجنة . . نعيم لا يفوتك ولا تفوته .

ولقد دخل أحد الأشخاص على رجل من الصالحين . . وقال له : أريد أن أعرف . . أنا من أهل الدنيا أم من أهل الآخرة؟ . . فقال له الرجل الصالح . . ان الله أرحم بعباده ، فلم يجعل موازينهم في أيدي أمثالهم . . فميزان كل انسان في يد نفسه . . لماذا؟ . . لأنك تستطيع أن تغش الناس ولكنك لا تغش نفسك . . ميزانك في يديك . . تستطيع أن تعرف أنت من أهل الدنيا أم من أهل الآخرة .

قال الرجل كيف ذلك؟ فرد العبد الصالح : اذا دخل عليك من يعطيك مالا . . ودخل عليك من يأخذ منك صدقة . . فبأيهما تفرح؟ . . فسكت الرجل . . فقال العبد الصالح : اذا كنت تفرح بمن يعطيك مالا فأنت من اهل الدنيا . . واذا كنت تفرح بمن يأخذ منك صدقة فأنت من أهل الآخرة . . فإن الانسان يفرح بمن يقدم له ما يحبه . . فالذي يعطيني مالا يعطيني الدنيا . . والذي يأخذ مني صدقة يعطيني الآخرة . . فإن كنت من أهل الآخرة . . فافرح بمن يأخذ منك صدقة . . أكثر من فرحك بمن يعطيك مالا .

ولذلك كان بعض الصالحين اذا دخل عليه من يريد صدقة يقول مرحبا بمن جاء يحمل حسناتي الي الآخرة بغير أجر . . ويستقبله بالفرحة والترحاب .

قول الحق سبحانه وتعالى : { مالك يَوْمَ الدين } . . هي قضية ضخمة من قضايا العقائد . . لأنها تعطينا أن البداية من الله ، والنهاية الي الله جل جلاله . . وبما أننا جميعا سنلقى الله ، فلا بد أن نعمل لهذا اليوم . . ولذلك فإن المؤمن لا يفعل شيئا في حياته إلا وفي باله الله . . وأنه سيحاسبه يوم القيامة . . ولكن غير المؤمن يفعل ما يفعل وليس في باله الله . . وعن هؤلاء يقول الحق سبحانه : { والذين كفروا أَعْمَاهُمْ كَسْرَابٍ بِقَيْعَةٍ يُحْسَبُهُ الظَّمَانُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللهُ عِنْدَهُ فَوْقَهُ حِسَابَهُ وَاللهُ سَرِيعُ الحِسَابِ } . .

[النور : 39] وهكذا من يفعل شيئاً وليس في باله الله . . فسيفاجأ يوم القيامة بأن الله تبارك وتعالى الذي لم يكن في باله موجود وانه جل جلاله هو الذي سيحاسبه .

وقوله تعالى : { مالك يَوْمَ الدين } هي أساس الدين . . لأن الذي لا يؤمن بالآخرة يفعل ما يشاء . . فمادام يعتقد انه ليس هناك آخره وليس هناك حساب . . فمم يخاف؟ . . ومن أجل مَنْ يقيد حركته في الحياة . .

ان الدين كله بكل طاعاته وكل منهجه قائم على أن هناك حساباً في الآخرة . . وأن هناك يوماً نقف فيه جميعاً أمام الله سبحانه وتعالى . . ليحاسب المخطئ ويثيب الطائع . . هذا هو الحكم في كل تصرفاتنا الايمانية . . فلو لم يكن هناك يوم نحاسب فيه . . فلماذا نصلي؟ . . ولماذا نصوم؟ . . ولماذا نتصدق؟ . .

ان كل حركة من حركات منهج السماء قائمة على اساس ذلك اليوم الذي لن يفلت منه أحد . . والذي يجب علينا جميعاً أن نستعد له . . ان الله سبحانه وتعالى سمى هذا اليوم بالنسبة للمؤمنين يوم الفوز العظيم . . والذي يجعلنا نتحمل كل ما نكره ونجاهد في سبيل الله لنستشهد . . وننفق اموالنا لنعين الفقراء والمساكين . . كل هذا أساسه أن هناك يوماً سنقف فيه بين يدي الله . . والله تبارك وتعالى سماه يوم الدين . . لأنه اليوم الذي سيحاسب فيه كل انسان على دينه عمل به أم ضيعه . . فمن آمن واتبع الدين سيكافأ بالخلود في الجنة . . ومن أنكر الدين وأنكر منهج الله سيجازى بالخلود في النار . .

ومن عدل الله سبحانه وتعالى ان هناك يوماً للحساب . . لأن بعض الناس الذين ظلموا وبغوا في الأرض ربما يفلتوا من عقاب الدنيا . . هل هؤلاء الذين أفلتوا في الدنيا من العقاب هل يفلتوا من عدل الله؟ . . أبداً لم يفلتوا . . بل إنهم انتقلوا من عقاب محدود الى عقاب خالد . . وافلتوا من العقاب بقدرة البشر في الدنيا . . الى عقاب بقدرة الله تبارك وتعالى في الآخرة . . ولذلك لا بد من وجود يوم يعيد الميزان . . فيعاقب فيه كل من أفسد في الارض وأفلس من العقاب . . بل إن الله سبحانه وتعالى يجعل انساناً يفلس من عقاب الدنيا . . فلا تعتقد أن هذا خير له بل انه شر له . . لانه أفلس من عقاب محدود إلى عقاب أبدي .

والحمد الكبير لله بأنه { مالك يَوْمَ الدين } . . وهو وحده الذي سيقضي بين خلقه . . فالحمد سبحانه وتعالى يعامل خلقه جميعاً معاملة متساوية . . وأساس التقوى هو يوم الدين . . وقبل ان نتكلم عن قول الحق تبارك وتعالى : { إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ } . . لا بد أن نتحدث عن قضية مهمة .

. . فهناك نوعان من الرؤية . . الرؤية العينية أي بالعين . . والرؤية الإيمانية أي بالقلب . . وكلاهما مختلف عن الآخر . . رؤية العين هي أن يكون الشيء أمامك تراه بعينيك ، وهذه ليس فيها

قضية إيمان . . فلا تقول أنني أؤمن أنني أراك أمامي لانك تراني فعلا . . مادمت تراني فهذا يقين . . ولكن الرؤية الايمانية هي أن تؤمن كأنك ترى ما هو غيب أمامك . . وتكون هذه الرؤية أكثر يقينا من رؤية العين . . لأنها رؤية إيمان ورؤية بصيرة . . وهذه قضية مهمة جدا .

« وقد روى عمر بن الخطاب قال : بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم اذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر . لا يرى عليه أثر السفر . ولا يعرفه منا أحد . حتى جلس الى النبي صلى الله عليه وسلم . فأسند ركبتيه الى ركبتيه . ووضع كفيه على فخذيه قال : يا محمد أخبرني عن الاسلام؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الاسلام أن تشهد أن لا اله الا الله . وأن محمدا رسول الله . وتقيم الصلاة . وتؤتي الزكاة . وتصوم رمضان . وتحج البيت ان استطعت اليه سبيلا قال : صدقت . فعجبنا له يسأله ويصدقه . قال : فأخبرني عن الايمان .

قال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر . وتؤمن بالقدر؛ خيره وشره قال : صدقت . قال : فأخبرني عن الاحسان ، قال : أن تعبد الله كأنك تراه . فان لم تكن تراه فانه يراك .

قال : فأخبرني عن الساعة

قال : ما المسئول عنها بأعلم من السائل

قال : فأخبرني عن أماراتها

قال : أن تلد الأمة ربتها . وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان .

قال : ثم انطلق فلبث مليا . . ثم قال لي النبي صلى الله عليه وسلم : يا عمر أتدري من

السائل؟

قلت : الله ورسوله أعلم

قال : فإنه جبريل اناكم يعلمكم دينكم «

قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك » .

هو بيان للرؤية الايمانية في النفس المؤمنة . . فالانسان حينما يؤمن ، لا بد أن يأخذ كل قضاياها برؤية ايمانية . . حتى اذا قرأ آية عن الجنة فكأنه يرى أهل الجنة وهم ينعمون . . واذا قرأ آية عن أهل النار اقشعر بدنه . . وكأنه يرى أهل النار وهم يعذبون .

ذات يوم « شاهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أحد صحابته وكان اسمه الحارث . . فقال له :

كيف أصبحت يا حارث؟

فقال : أصبحت مؤمنا حقا

قال الرسول : فانظر ما تقول . فإن لكل قول حقيقة . فما حقيقة إيمانك؟

قال الحارث : عزفت نفسي عن الدنيا . فأسهرت ليلي . وأظمأت نھاري . وكأني أنظر إلى عرش

ري بارزا . وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها . وكأني أنظر إلى أهل النار يتصاغون فيها . (يتصايحون فيها) .

قال النبي « يا حارث عرفت فالزم »

ولذلك نجد أن الحق سبحانه وتعالى وهو يخاطب الرسول صلى الله عليه وسلم . . يقول : { أَمْ }
تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ { [الفيل : 1] يأخذ بعض المستشرقين هذه الآية في محاولة للطعن في القرآن الكريم . . فقوله تعالى : { أَمْ تَرَ } . . ورسول الله صلى الله عليه وسلم ولد في عام الفيل . . انه لم ير لأنه كان طفلاً عمره أيام أو شهور ، لو قال الله سبحانه وتعالى أَمْ تعلم لقلنا علم من غيره . . فالعلم تحصل عليه انت او يعطيه لك من عَلِمَهُ . . اي يعلمك غيرك من البشر . . ولكن الله سبحانه وتعالى قال : { أَمْ تَرَ } . .

نقول ان هذه قضية من قضايا الايمان . . فما يقوله الله سبحانه وتعالى هو رؤية صادقة بالنسبة للانسان المؤمن . . فالقرآن هو كلام متعبد بتلاوته حتى قيام الساعة . . وقول الله : { أَمْ تَرَ } . . معناها ان الرؤية مستمرة لكل مؤمن بالله يقرأ هذه الآية . . فما دام الله تبارك وتعالى قال : { أَمْ تَرَ } . . فأنت ترى بإيمانك ما تعجز عينك عن أن تراه . . هذه هي الرؤية الايمانية ، وهي أصدق من رؤية العين . . لأن العين قد تخدع صاحبها ولكن القلب المؤمن لا يخدع صاحبه أبدا .

على أن هناك ما يسمونه ضمير الغائب . . اذا قلت زيد حضر . . فهو موجود أمامك . . ولكن إذا قلت قابلت زيدا . . فكأن زيدا غائب عنك ساعة قلت هذه الجملة . . قابلته ولكنه ليس موجوداً معك ساعة الحديث . .

اذن فهناك حاضر وغائب ومتكلم . . الغائب هو من ليس موجوداً أو لا نراه وقت الحديث . . والحاضر هو الموجود وقت الحديث . . والمتكلم هو الذي يتحدث . . وقضايا العقيدة كلها ليس فيها مشاهدة ، ولكن الايمان بما هو غيب عنا يعطينا الرؤية الايمانية التي هي كما قلنا أقوى من رؤية البصر .

فألله سبحانه وتعالى حين يقول { الحمد لله رب العالمين } . . { لله } غيب و { رب العالمين } غيب . . و { الرحمن الرحيم } . . « غيب » . . و { مالك يوم الدين } غيب . . وكان السياق اللغوي يقتضي أن يقال إياه نعبد . . ولكن الله سبحانه وتعالى غير السياق ونقله من الغائب الي الحاضر . . وقال : { إِيَّاكَ نَعْبُدُ } فانتقل الغيب الي حضور المخاطب . . فلم يقل إياه نعبد . . ولكنه قال : { إِيَّاكَ نَعْبُدُ } . . فأصبحت رؤية يقين ايماني .

فأنت في حضرة الله سبحانه وتعالى الذي غمرك بالنعيم ، وهذه تراها وتحيط بك لأنه { رب العالمين } . . وجعلك تطمئن الي قضائه لأنه { الرحمن الرحيم } أي أن ربوبيته جل جلاله

ليست ربوبية جبروت بل هي ربوبية { الرحمن الرحيم } فإذا لم تحمده وتؤمن به بفضل نعمه التي تحسها وتعيش فيها .

فاحذر من مخالفة منهجه لأنه « مالك يوم الدين » .

حين يستحضر الحق سبحانه وتعالى ذاته بكل هذه الصفات . . التي فيها فضائل الألوهية ، ونعم الربوبية . . والرحمة التي تمحو الذنوب والرهبنة من لقاؤه يوم القيامة تكون قد انتقلت من صفات الغيب الى محضر الشهود . . استحضرت جلال الألوهية لله وفيوضات رحمته . . ونعمه التي لا تحد وقيوميته يوم القيامة . .

عندما تقرأ قوله تعالى : { إِيَّاكَ نَعْبُدُ } فالعبارة هنا تفيد الخصوصية . . بمعنى أنني اذا قلت لانسان انني سأقابلك ، قد أقابله وحده ، وقد أقابله مع جمع من الناس . ولكن اذا قلت اياك سأقابل . . فمعنى ذلك ان المقابلة ستكون خاصة . .

الحق سبحانه وتعالى حين قال : { إِيَّاكَ نَعْبُدُ } قصر العبادة على ذاته الكريمة . . لأنه لو قال نعبدك وحدك فهي لا تؤدي المعنى نفسه . . لأنك قد تقول نعبدك وحدك ومعك كذا وكذا . ولكن اذا قلت { إِيَّاكَ نَعْبُدُ } وقدمت إياك . . تكون قد حسمت الأمر بأن العبادة لله وحده فلا يجوز العطف عليها . . فالعبادة خضوع لله سبحانه و تعالى بمنهجه افعال ولا تفعل . . ولذلك جعل الصلاة أساس العبادة ، والسجود هو منتهى الخضوع لله . . لأنك تأتي بوجهك الذي هو أكرم شيء فيك وتضعه على الأرض عند موضع القدم . فيكون هذا هو منتهى الخضوع لله . . ويتم هذا امام الناس جميعا في الصلاة . لإعلان خضوعك لله امام البشر جميعا . ويستوي في العبودية الغني والفقير والكبير والصغير . . حتى يطرد كل منا الكبر والاستعلاء من قلبه امام الناس جميعا فيساوى الحق جل جلاله بين عباده في الخضوع له وفي اعلان هذا الخضوع .

وقول الحق سبحانه وتعالى : { إِيَّاكَ نَعْبُدُ } تنفي العبودية لغير الله . . أي لا نعبد غير الله ولا يعطف عليها أبدا . . اذن { إِيَّاكَ نَعْبُدُ } أعطت تخصيص العبادة لله وحده لا إله غيره ولا معبود سواه . . وعلينا أن نلتفت الي قوله تبارك وتعالى : { لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ } [الأنبياء : 22] وهكذا فإننا عندما نقول { الحمد لله } فإننا نستحضر موجبات الحمد وهي نعم الله ظاهرة وباطنة . . وحين نقول { رَبِّ الْعَالَمِينَ } نستحضر نعم الربوبية في خلقه وإخضاع كونه . . وحين نستحضر { الرحمن الرحيم } فاننا نستحضر الرحمة والمغفرة ومقابلة الاساءة بالاحسان وفتح باب التوبة . . وحين نستحضر : { مالك يوم الدين } نستحضر يوم الحساب وكيف أن الله تبارك وتعالى سيجازيك على أعمالك . . فإذا استحضرنا هذا كله نقول : { إِيَّاكَ نَعْبُدُ } أي أننا نعبد الله وحده . . اذن عرفنا المطلوب منا

وهو العبادة .

وهنا نتوقف قليلا لتحدث عما يطلقون عليه في اللغة « العلة والمعلول » إذا أراد ابنك ان ينجح في الامتحان فإنه لابد أن يذاكر .

. وعلة المذاكرة هي النجاح . . فكأن النجاح ولد في ذهني اولا بكل ما يحققه لي من ميزات ومستقبل مضمون وغير ذلك مما أريده وأسعى اليه .

إذن فالدافع قبل الواقع . . أي أنك استحضرت النجاح في ذهنك . . ثم بعد ذلك ذاكرت لتجعل النجاح حقيقة واقعة . وأنت إذا أردت مثلا أن تسافر الى مكان ما فالسيارة سبب يحقق لك ما تريد وقطع الطريق سبب آخر . ولكن الدافع الذي جعلني أنزل من بيتي واركب السيارة وأقطع الطريق هو اني أريد أن أسافر الى الاسكندرية مثلا . . الدافع هنا وهو الوصول الى الاسكندرية . . هو الذي وجد في ذهني أولا ثم بعد ذلك فعلت كل ما فعلته لتحقيقه .

والله سبحانه وتعالى خلقنا في الحياة لنعبده . . مصداقا لقوله تبارك وتعالى : { وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ } [الذاريات : 56] إذن فعلة الخلق هي العبادة . . ولقد تم الخلق لتحقيق العبادة وتصحيح واقعا . . ولكن « العلة والمعلول » لا تنطبق على أفعال الله سبحانه وتعالى . . نقول ليس هناك علة تعود على الله جل جلاله بالفائدة . لأن الله تبارك وتعالى غني عن العالمين . . ولكن العلة تعود على الخلق بالفائدة . . فالله سبحانه وتعالى خلقنا لنعبده . ولكن علة الخلق ليس لأن هذه العبادة ستزيد شيئا في ملكه . . وإنما عبادتنا تعود علينا نحن بالخير في الدنيا والآخرة . .

أن أفعال الله لا تعطل ، والمأمور بالعبادة هو الذي سينتفع بها .

ولكن هل العبادة هي الجلوس في المساجد والتسبيح أو أنها منهج يشمل الحياة كلها . . في بيتك وفي عملك وفي السعي في الارض؟ . . ولو أراد الله سبحانه وتعالى من عباده الصلاة والتسبيح فقط لما خلقهم مختارين بل خلقهم مقهورين لعبادته ككل ما خلق ما عدا الانس والجن . . والله تبارك وتعالى له صفة القهر . . من هنا فانه يستطيع أن يجعل من يشاء مقهورا على عبادته . . مصداقا لقوله جل جلاله : { لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ * إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ } [الشعراء : 3-4] فلو أراد الله ان يخضعنا لمنهجه قهراً لا يستطيع أحد أن يشذ عن طاعته . . وقد أعطانا الله الدليل على ذلك بأن في أجسادنا وفي أحداث الدنيا ما نحن مقهورون عليه . . فالجسد مقهور لله في أشياء كثيرة . القلب ينبض ويتوقف بأمر الله دون ارادة منا . . والمعدة تمضم الطعام ونحن لا ندري عنها شيئا . . والدورة الدموية في اجسادنا لا ارادة لنا فيها . . وأشياء كثيرة في الجسد البشري كلها مقهورة لله سبحانه وتعالى . . وليس لإرادتنا دخل في عملها . . وما يقع على في الحياة من أحداث أنا مقهور فيه .

. لا أستطيع أن أمنعه من الحدوث . . فلا أستطيع أن أمنع سيارة أن تصدمني . . ولا طائرة أن تحترق بي . . ولا كل ما يقع علي من أقدار الله في الدنيا . .

اذن فمنطقة الاختيار في حياتي محددة . . لا أستطيع أن أتحكم في يوم مولدي . . ولا فيمن هو أبي ومن هي أمي . . ولا في شكلي هل أنا طويل أم قصير؟ جميل أم قبيح أو غير ذلك . اذن فمنطقة الاختيار في الحياة هي المنهج أن أفعل أو لا أفعل . الله سبحانه وتعالى له من كل خلقه عبادة القهر . . ولكنه يريد من الانس والجن عبادة المحبوبة . . ولذلك خلقنا ولنا اختبار في أن نأتيه أو لا نأتيه . . في أن نطيعه أو نعصيه . في أن نؤمن به أو لا نؤمن .

فإذا كنت تحب الله فأنت تأتيه عن اختيار . تتنازل عما يغضبه حبا فيه ، وتفعل ما يطلبه حبا فيه وليس قهرا . . فاذا تخلت عن اختيارك الى مرادات الله في منهجه . . تكون قد حققت عبادة المحبوبة لله تبارك وتعالى . . وتكون قد اصبحت من عباد الله وليس من عبيد الله . . فكلنا عبيد لله سبحانه وتعالى ، والعبيد متساوون فيما يقهرون عليه . ولكن العباد الذين يتنازلون عن منطقة الاختيار لمعاد الله في التكليف . . ولذلك فإن الحق جل جلاله . . يفرق في القرآن الكريم بين

العباد والعبيد . . يقول تعالى : { وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ } [البقرة : 186] ويقول سبحانه وتعالى : { وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا * وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا * وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا } [الفرقان : 63-65] وهكذا نرى أن الله سبحانه وتعالى أعطى أوصاف المؤمنين وسماهم عبادا . ولكن عندما يتحدث عن البشر جميعا يقول عبيد . . مصداقا لقوله تعالى : { ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْت

أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ } [آل عمران : 182] ولكن قد يقول قائل : أن الله تبارك وتعالى يقول في كتابه العزيز : { وَيَوْمَ يَخْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ } [الفرقان : 17] الحديث هنا عن العاصين والضالين . ولكن الله سبحانه وتعالى قال عنهم عباد . نقول إن هذا في الآخرة . . وفي الآخرة كلنا عباد لأننا مقهورون لطاعة الله الواحد المعبود تبارك وتعالى . . لأن الاختيار البشري ينتهي ساعة الاحتضار . . ونصبح جميعا عباداً لله مقهورين على طاعته لا اختيار لنا في شيء . والله سبحانه وتعالى قد أعطى الانسان اختياره في الحياة الدنيا في العبودية فلم يقهره في شيء ولا يلزم غير المؤمن به بأي تكليف .

. بل إن المؤمن هو الذي يلزم نفسه بالتكليف ومنهج الله فيدخل في عقد ايماني مع الله تبارك وتعالى . . ولذلك نجد أن الله جل جلاله لا يخاطب الناس جميعا في التكليف . . وانما يخاطب الذين آمنوا فقط فيقول : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ

قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ } [البقرة : 183] ويقول سبحانه : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا
بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ } [البقرة : 153] أي أن الله جل جلاله لا يكلف إلا
المؤمن الذي يدخل في عقد ايماني مع الله .
وسيد المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم عندما نضعه في معيار العبادية يكون القمة فهو صلى
الله عليه وسلم الذي حقق العبادية المرادة لله من خلق الله كما يحبها الله . .
اذن فالذي يقول غاية الخلق كله محمد عليه الصلاة والسلام . . نقول ان هذا صحيح ، لأنه
صلى الله عليه وسلم حقق العبادية المثلى المطلوبة من الله تبارك وتعالى . . والتي هي علة الخلق .
. وهكذا نعرف المقامات العالية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عند خالقه .
والله تبارك وتعالى قرن العبادة له وحده بالاستعانة به سبحانه . . فقال جل جلاله : { إِيَّاكَ نَعْبُدُ
وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ } أي لا نعبد سواك ولا نستعين إلا بك . والاستعانة بالله سبحانه وتعالى تخرجك
عن ذل الدنيا فأنت حين تستعين بغير الله فإنك تستعين ببشر مهما بلغ نفوذه وقوته فكأها في
حدود بشريته . .

ولأننا نعيش في عالم أغيار فإن القوى يمكن أن يصبح ضعيفا . . وصاحب النفوذ يمكن أن يصبح
في لحظة واحدة طريداً شريداً لا نفوذ له . . ولو لم يحدث هذا . فقد يموت ذلك الذي تستعين به
فلا تجد احدا يعينك .

ويريد الله تبارك وتعالى أن يحرر المؤمن من ذل الدنيا . . فيطلب منه أن يستعين بالحي الذي لا
يموت . . وبالقوي الذي لا يضعف ، وبالقاهر الذي لا يخرج عن أمره أحد . . واذا استعنت بالله
سبحانه وتعالى كان الله جل جلاله بجانبك . وهو وحده الذي يستطيع أن يحول ضعفك الي قوة
وذلك الي عز . . والمؤمن دائما يواجه قوي أكبر منه . . ذلك أن الذين يجاربون منهج الله
يكونون من الأقوياء ذوي النفوذ الذي يحبون أن يستعبدوا غيرهم . . فالمؤمن سيدخل معهم في
صراع . . ولذلك فإن الحق يحض عباده المؤمنين بأنه معهم في الصراع بين الحق والباطل . . وقوله
تعالى : « وإياك نستعين » مثل : « إياك نعبد » . . أي نستعين بك وحدك وهي دستور الحركة
في الحياة . . لأن استعان معناها طلب المعونة ، أي أن الانسان استنفد أسبابه ولكنها خذلتة . .
حينئذ لايد أن يتذكر أن له ربا لا يعبد سواه . لن يتخلى عنه بل يستعين به . . وحين تتخلى
الأسباب فهناك رب الأسباب وهو موجود دائما . . لا يغفل عن شيء ولا تفوته همسة في الكون
. . ولذلك فإن المؤمن يتجه دائما الى السماء . . والله سبحانه وتعالى يكون معه .

اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (6) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ
(7)

بعد أن آمنت بالله سبحانه وتعالى إلهاً ورباً . . واستحضرت عطاء الألوهية ونعم الربوبية
وفيوضات رحمة الله على خلقه . وأعلنت أنه لا إله إلا الله . وقولك : { إِيَّاكَ نَعْبُدُ } أي أن
العبادة لله تبارك وتعالى لا نشرك به شيئاً ولا نعبد إلا إياه . . وأعلنت انك ستستعين بالله وحده
بقولك : { وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ } . فانك قد أصبحت من عباد الله . ويعلمك الله سبحانه وتعالى
الدعاء الذي يتمناه كل مؤمن . . ومادامت من عباد الله ، فإن الله جل جلاله سيستجيب لك .
. مصداقاً لقوله سبحانه : { وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ
فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ } [البقرة : 186] والمؤمن لا يطلب الدنيا أبداً . .
لماذا؟ . . لأن الحياة الحقيقية للانسان في الآخرة . فيها الحياة الأبدية والنعيم الذي لا يفارقه
ولا تفارقه . فالمؤمن لا يطلب مثلاً أن يرزقه الله مالا كثيراً ولا أن يمتلك عمارة مثلاً . . لأنه يعلم
أن كل هذا وقتي وزائل . . ولكنه يطلب ما ينجيه من النار ويوصله الى الجنة . .
ومن رحمة الله تبارك وتعالى أنه علمنا ما نطلب . . وهذا يستوجب الحمد لله . . وأول ما يطلب
المؤمن هو الهداية والصراط المستقيم : { اهدنا الصراط المستقيم } .
والهداية نوعان : هداية دلالة وهداية معونة . هداية الدلالة هي للناس جميعاً . . وهداية المعونة
هي للمؤمنين فقط المتبعين لمنهج الله . والله سبحانه وتعالى هدى كل عباده هداية دلالة أي دلهم
على طريق الخير وبينه لهم . . فمن أراد أن يتبع طريق الخير اتبعه . . ومن أراد ألا يتبعه تركه الله
لما أراد . .
هذه الهداية العامة هي أساس البلاغ عن الله . فقد بين لنا الله تبارك وتعالى في منهجه بافعل ولا
تفعل ما يرضيه وما يغضبه . . وأوضح لنا الطريق الذي نتبعه لنهتدي . والطريق الذي لو سلكناه
حق علينا غضب الله وسخطه . . ولكن هل كل من بين له الله سبحانه وتعالى طريق الهداية
اهتدى؟ . . نقول لا . . وقرأ قوله جل جلاله : { وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُوا الْعَمَى عَلَى
الهُدَى فَأَخَذْتَهُمْ صَاعِقَةً الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ } [فصلت : 17] اذن هناك من لا
يأخذ طريق الهداية بالاختيار الذي أعطاه الله له . . فلو أن الله سبحانه وتعالى أرادنا جميعاً
مهديين . . ما استطاع واحد من خلقه أن يخرج على مشيئته . ولكنه جل جلاله خلقنا مختارين
لنأتيه عن حب ورغبة بدلاً من أن يقهرنا على الطاعة . . ما الذي يحدث للذين اتبعوا طريق
الهداية والذين لم يتبعوه وخالفوا مراد الله الشرعي في كونه؟
الذين اتبعوا طريق الهداية يعينهم الله سبحانه وتعالى عليه ويحببهم في الايمان والتقوى ويحببهم في
طاعته .

. وقرأ قوله تبارك وتعالى : { والذين اهتدوا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ } [محمد : 17] أي
أن كل من يتخذ طريق الهداية يعينه الله عليه . . ويزيده تقوى وحباً في الدين . . أما الذين إذا

جاءهم الهدى ابتعدوا عن منهج الله وخالفوه . . فإن الله تبارك وتعالى يتخلى عنهم ويتركهم في ضلالهم . وقرأ قوله تعالى : { وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ } [الزخرف : 36] والله سبحانه وتعالى قد بين لنا المحرومين من هداية المعونة على الايمان وهم ثلاثة كما بيَّنهم لنا في القرآن الكريم : { ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ } [النحل : 107] { ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ } [المائدة : 108] { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ } [البقرة : 258] اذن فالمطرودون من هداية الله في المعونة على الايمان . . هم الكافرون والفاسقون والظالمون . . الحق سبحانه وتعالى يقول : { اهدنا الصراط المستقيم } ما هو الصراط؟ . . إنه الطريق الموصلة الى الغاية . ولماذا نص على أنه الصراط المستقيم . لأن الله سبحانه وتعالى وضع لنا في منهجه الطريق المستقيم . . وهو أقصر الطرق الى تحقيق الغاية . . فأقصر طريق بين نقطتين هو الطريق المستقيم . ولذلك إذا كنت تقصد مكانا فأقصر طريق تسلكه هو الطريق الذي لا اعوجاج فيه ولكنه مستقيم تماما . . ولا تحسب أن البعد عن الطريق المستقيم يبدأ باعوجاج كبير . بل باعوجاج صغير جدا ولكنه ينتهي الى بُعد كبير . .

ويكفي أن تراقب قضبان السكة الحديد . . عندما يبدأ القطار في اتخاذ طريق غير الذي كان يسلكه فهو لا ينحرف في أول الأمر إلا بضعة ملليمترات . . أي أن أول التحويلة ضيق جدا وكلما مشيت اتسع الفرق وازداد اتساعا . بحيث عند النهاية تجد أن الطريق الذي مشيت فيه يبعد عن الطريق الأول عشرات الكيلو مترات وربما مئات الكيلو مترات . . إذن فأبي انحراف مهما كان بسيطا يبعدك عن الطريق المستقيم بعدا كبيرا . . ولذلك فإن الدعاء : { اهدنا الصراط المستقيم } أي الطريق الذي ليس فيه اعوجاج ولو بضعة ملليمترات . . الطريق الذي ليس فيه مخالفة تبعدنا عن طريق الله المستقيم .

لذلك فإن الانسان المؤمن يطلب من الله سبحانه وتعالى أن يهديه الى أقصر الطرق للوصول الى الغاية . . وما هي الغاية؟ انها الجنة والنعيم في الآخرة . . ولذلك نقول يا رب اهدنا وأعنا على أن نسلك الطريق المستقيم وهو طريق المنهج ليوصلنا الى الجنة دون أن يكون فيه أي اعوجاج يبعدنا عنها .

ولقد قال الله سبحانه وتعالى في حديث قدسي . انه اذا قال العبد : { اهدنا الصراط المستقيم } يقول جل جلاله : هذا لعبدي ولعبدي ما سأل .

يقول الحق تبارك وتعالى : { صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ } ما معنى { الذين أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ } ؟ . . اقرأ الآية الكريمة : { وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا } [النساء : 69] وأنت حين تقرأ الآية الكريمة فأنت تطلب من الله تبارك وتعالى أن تكون مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين . . أي أنك تطلب من الله جل جلاله . . أن يجعلك تسلك نفس الطريق الذي سلكه هؤلاء لتكون معهم في الآخرة . . فكأنك تطلب الدرجة العالية في الجنة . . لأن كل من ذكرناهم لهم مقام عال في جنة النعيم . . وهكذا فإن الطلب من الله سبحانه وتعالى هو أن يجعلك تسلك الطريق الذي لا اعوجاج فيه . والذي يوصلك في أسرع وقت الى الدرجة العالية في الآخرة . وعندما نعرف أن الله سبحانه وتعالى قال : (هذا لعبدي ولعبدتي ما سألت) . . تعرف أن الاستجابة تعطيك الحياة العالية في الآخرة وتمتلك بنعيم الله . ليس بقدرات البشر كما يحدث في الدنيا . . ولكن بقدرة الله تبارك وتعالى . . وإذا كانت نعم الدنيا لا تعد ولا تحصى . . فكيف بنعم الآخرة؟ لقد قال الله سبحانه وتعالى عنها : { هُمْ مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ } [ق : 35] أي أنه ليس كل ما تطلبه فقط ستجده أمامك بمجرد وروده على خاطرك ولكن مهما طلبت من النعم ومهما تمنيت فالله جل جلاله عنده مزيد . . ولذلك فإنه يعطيك كل ما تشاء ويزيد عليه بما لم تطلب ولا تعرف من النعم . . وهذا تشبيه فقط ليقرب الله تبارك وتعالى صورة النعيم إلى أذهاننا ، ولكن الجنة فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . وبما أن المعاني لا بد أن توجد أولاً في العقل ثم يأتي اللفظ المعبر عنها . . فكل شيء لا نعرفه لا توجد في لغتنا ألفاظ تعبر عنه . فنحن لم نعرف اسم التليفزيون مثلاً إلا بعد أن اخترع وصار له مفهوم محدد . تماماً كما لم نعرف اسم الطائرة قبل أن يتم اختراعها . . فالشيء يوجد أولاً ثم بعد ذلك يوضع اللفظ المعبر عنه . ولذلك فإن مجامع اللغات في العالم تجتمع بين فترة واخرى . لتضع أسماء لأشياء جديدة اخترعت وعرفت مهمتها . .

ومادام ذلك هو القاعدة اللغوية ، فإنه لا توجد الفاظ في لغة البشر تعبر عن النعيم الذي سيعيشه اهل الجنة لأنه لم تره عين ولم تسمع به أذن ولا خطر على القلب . . ولذلك فإن كل ما نقرؤه في القرآن الكريم يقرب لنا الصورة فقط .

ولكنه لا يعطينا حقيقة ما هو موجود . ولذلك نجد الله سبحانه وتعالى حين يتحدث عن الجنة في القرآن الكريم يقول : { مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ } [محمد : 15] أي أن هذا ليس حقيقة الجنة ولكنها مثل فقط يقرب ذلك الى الازهان . . لأنه لا توجد ألفاظ في

لغات البشر يمكن أن تعطينا حقيقة ما في الجنة .

وقوله تعالى : { غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ } . . أي غير الذين غضبت عليهم يا رب من الذين عصوا . ومنعت عنهم هداية الاعانة . . الذين عرفوا المنهج فخالفوه وارتكبوا كل ما حرمه الله فاستحقوا غضبه .

ومعنى غير { المغضوب عَلَيْهِمْ } أي يا رب لا تيسر لن الطريق الذي نستحق به غضبك . كما استحقه أولئك الذين غيروا وبدلوا في منهج الله ليأخذوا سلطة زمنية في الحياة الدنيا وليأكلوا أموال الناس بالباطل . .

وقد وردت كلمة { المغضوب عَلَيْهِمْ } في القرآن الكريم في قوله تعالى : { قُلْ هَلْ أَنْبَيْتُكُمْ بِشَرِّ مِمَّنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتِ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ } [المائدة : 60] وهذه الآيات نزلت في بني اسرائيل . وقول الله تعالى : « ولا الضالين » هناك الضال والمُضِل . . الضال هو الذي ضل الطريق فاتخذ منهجا غير منهج الله . . ومشى في الضلالة بعيدا عن الهدى وعن دين الله . . ويقال ضل الطريق أي مشى فيه وهو لا يعرف السبيل الى ما يريد أن يصل إليه . . أي أنه تاه في الدنيا فأصبح وليا للشيطان وابتعد عن طريق الله المستقيم . . هذا هو الضال . . ولكن المضل هو من لم يكتف بأنه ابتعد عن منهج الله وسار في الحياة على غير هدى . . بل يحاول أن يأخذ غيره الى الضلالة . . يغري الناس بالكفر وعدم اتباع المنهج والبعد عن طريق الله . . وكل واحد من العاصين يأتي يوم القيامة يحمل ذنوبه . . الا المضل فانه يحمل ذنوبه وذنوب من اضلهم . مصداقا لقوله سبحانه : { لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّوهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ } [النحل : 25] أي أنك وأنت تقرأ الفاتحة . . فأنت تستعبد بالله أن تكون من الذين ضلوا . . ولكن الحق سبحانه وتعالى لم يأت هنا بالمضلين . نقول انك لكي تكون مضلا لابد أن تكون ضالا أولا . . فالاستعاذة من الضلال هنا تشمل الاثنين . لأنك مادمت قد استعذت من أن تكون ضالا فلن تكون مضلا أبدا .

بقي أن نتكلم عن ختم فاتحة الكتاب . بقولنا آمين أسوة برسول الله صلى الله عليه وسلم الذي علمه جبريل عليه السلام أن يقول بعد قراءة الفاتحة آمين ، فهي من كلام جبريل لرسول الله صلى الله عليه وسلم وليست كلمة من القرآن .

وكلمة آمين معناها استجب يا رب فيما دعونك به من قولنا : { اهدنا الصراط المستقيم * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ } أي أن الدعاء هنا له شيء مطلوب تحقيقه . وآمين دعاء لتحقيق المطلوب . . وكلمة آمين اختلف العلماء فيها . . أهي عربية أم غير عربية .

وهنا يثور سؤال . . كيف تدخل كلمة غير عربية في قرآن حكم الله بأنه عربي . . ؟ نقول أن

ورود كلمة ليست من أصل عربي في القرآن الكريم . لا ينفي أن القرآن كله عربي . بمعنى أنه اذا خوطب به العرب فهموه . . وهناك الفاظ دخلت في لغة العرب قبل أن ينزل القرآن . . ولكنها دارت على الألسن بحيث أصبحت عربية وألفتها الاذان العربية . .

فليس المراد بالعربي هو أصل اللغة العربية وحدها . . وانما المراد أن القرآن نزل باللغة التي لها شيوع على ألسنة العرب . وما دام اللفظ قد شاع على اللسان قولاً وفي الآذان سمعاً . فإن الأجيال التي تستقبله لا تفرق بينه وبين غيره من الكلمات التي هي من أصل عربي . . فاللفظ الجديد أصبح عربياً بالاستعمال وعند نزول القرآن كانت الكلمة شائعة شيوع الكلمة العربية . واللغة ألقاها يصطلح على معانيها . بحيث إذا أطلق اللفظ فهم المعنى . واللغة التي نتكلمها لا تخرج عن اسم وفعل وحرف . . الاسم كلمة والفعل كلمة والحرف كلمة . . والكلمة لها معنى في ذاتها ولكن هل هذا المعنى مستقل في الفهم أو غير مستقل . . اذا قلت محمد مثلاً فهمت الشخص الذي سمي بهذا الاسم فصار له معنى مستقل . . واذا قلت كتب فهمت أنه قد جمع الحروف لتقرأ على هيئة كتابة . . ولكن اذا قلت ماذا وهي حرف فليس هناك معنى مستقل . . واذا قلت « في » دلّت على الظرفية ولكنها لم تدلنا على معنى مستقل . بل لا بد ان تقول الماء في الكوب . . أو فلان على الفرس . . غير المستقل في الفهم نسميه حرفاً لا يظهر معناه إلا بضم شيء له . . والفعل يحتاج الي زمن ، ولكن الاسم لا يحتاج الي زمن . . اذن الاسم هو ما دل على معنى مستقل بالفهم وليس الزمن جزءاً منه . . والفعل ما دل على فعل مستقل بالفهم والزمن جزء منه . . والحرف دل على معنى غير مستقل . . ما هي علامة الفعل هي أنك تستطيع أن تسند اليه تاء الفاعل . . أي تقول كتبت والفاعل هو المتكلم . . ولكن الاسم لا يضاف اليه تاء الفاعل فلا تقول محمدت .

. اذا رأيت شيئاً يدل على الفعل أي يحتاج الي زمن . . ولكنه لا يقبل تاء الفاعل فانه يكون اسم على فعل .

أمين من هذا النوع ليست فعلاً فهي اسم مدلوله مدلول الفعل . . معناه استجب . . فأنت حين تسمع كلمة « آه » انما اسم لفعل بمعنى أتوجع . . وساعة تقول « أف » اسم فعل بمعنى اتضجر . . وآمين اسم فعل بمعنى استجب . . ولكنك تقولها مرة وأنت القارئ ، وتقولها مرة وأنت السامع . فساعة تقرأ الفاتحة تقول آمين . . أي أنا دعوت يا رب فاستجب دعائي . . لأنك لشدة تعلقك بما دعوت من الهداية فانك لا تكفي بقول اهدنا ولكن تطلب من الله الاستجابة . واذا كنت تصلي في جماعة فأنت تسمع الامام وهو يقرأ الفاتحة . . ثم تقول آمين . لأن المأموم أحد الداعين . . الذي دعا هو الامام ، وعندما قلت آمين فأنت شريك في الدعاء . ولذلك فعندما دعا موسى عليه السلام أن يطمس الله على اموال قوم فرعون ويهلكهم قال الله

لموسى : { قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ } [يونس : 89] أي أن الخطاب من الله سبحانه وتعالى موجةً الى موسى وهارون . ولكن موسى عليه السلام هو الذي دعا . . وهارون أمن على دعوة موسى فأصبح مشاركا في الدعاء .

الم (1)

بدأت سورة البقرة بقوله تعالى : { الم } . . وهذه الحروف حروف مقطعة ومعنى مقطعة أن كل حرف ينطق بمفرده . لأن الحروف لها أسماء ولها مسميات . . فالناس حين يتكلمون ينطقون بمسمى الحرف وليس باسمه . . فعندما تقول كتب تنطق بمسميات الحروف . فإذا أردت أن تنطق بأسمائها . تقول كاف وتاء وباء . . ولا يمكن أن ينطق بأسماء الحروف إلا من تعلم ودرس ، أما ذلك الذي لم يتعلم فقد ينطق بمسميات الحروف ولكنه لا ينطق بأسمائها ، ولعل هذه أول ما يلفتنا . فرسول الله صلى الله عليه وسلم كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب ولذلك لم يكن يعرف شيئاً عن أسماء الحروف . فإذا جاء ونطق بأسماء الحروف يكون هذا إعجازاً من الله سبحانه وتعالى . . بأن هذا القرآن موحى به إلى محمد صلى الله عليه وسلم . . ولو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم درس وتعلم لكان شيئاً عادياً أن ينطق بأسماء الحروف . ولكن تعال إلى أي أمي لم يتعلم . . إنه يستطيع أن ينطق بمسميات الحروف . . يقول الكتاب وكوب وغير ذلك . . فإذا طلبت منه أن ينطق بأسماء الحروف فإنه لا يستطيع أن يقول لك . إن كلمة كتاب مكونة من الكاف والتاء والألف والباء . . وتكون هذه الحروف دالة على صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم في البلاغ عن ربه . وأن هذا القرآن موحى به من الله سبحانه وتعالى .

ونجد في فواتح السور التي تبدأ بأسماء الحروف . تنطق الحروف بأسمائها وتجسد الكلمة نفسها في آية أخرى تنطق بمسمياتها . فألم في أول سورة البقرة نطقها بأسماء الحروف ألف لام ميم . بينما تنطقها بمسميات الحروف في شرح السورة في قوله تعالى : { أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ } [الشرح : 1] وفي سورة الفيل في قوله تعالى : { أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ } [الفيل : 1] ما الذي جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم . . ينطق { الم } في سورة البقرة بأسماء الحروف . . وينطقها في سورتي الشرح والفيل بمسميات الحروف . لا بد أن رسول الله عليه الصلاة والسلام سمعها من الله كما نقلها جبريل عليه السلام إليه هكذا . إذن فالقرآن أصله السماع لا يجوز أن تقرأه إلا بعد أن تسمعه . لتعرف أن هذه تُقرأ ألف لام ميم والثانية تقرأ ألم . . مع أن الكتابة واحدة في الاثنين . . ولذلك لا بد أن تستمع إلى فقيه يقرأ القرآن قبل أن تتلوه . . والذي يتعب الناس أنهم لم يجلسوا إلى فقيه ولا استمعوا إلى قارئ . . ثم بعد ذلك يريدون أن يقرأوا القرآن كأبي كتاب . نقول لا . . القرآن له تميز خاص . . إنه ليس كأبي كتاب تقرأه .

. لأنه مرة يأتي باسم الحرف . ومرة يأتي بمسميات الحرف . وأنت لا يمكن أن تعرف هذا إلا إذا
استمعت لقارئ يقرأ القرآن .

والقرآن مبني على الوصل دائما وليس على الوقف ، فإذا قرأت في آخر سورة يونس مثلا : {
وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ } [109] لا تجد النون عليها سكون بل تجد عليها فتحة ، موصولة بقول
الله سبحانه وتعالى بسم الله الرحمن الرحيم . ولو كانت غير موصولة لوجدت عليها سكونا .
اذن فكل آيات القرآن الكريم مبنية على الوصل . . ما عدا فواتح السور المكونة من حروف
فهي مبنية على الوقف . . فلا تقرأ في أول سورة البقرة : { الم { والميم عليها ضمة . بل تقرأ
ألفا عليها سكون ولا ما عليها سكون وميما عليها سكون . اذن كل حرف منفرد بوقف . مع أن
الوقف لا يوجد في ختام السور ولا في القرآن الكريم كله .

وهناك سور في القرآن الكريم بدأت بحرف واحد مثل قوله تعالى : { ص والقرآن ذي الذكر } [ص : 1]
{ ن والقلم وما يسطرون } [القلم : 1] ونلاحظ أن الحرف ليس آية مستقلة .
بينما « ألم » في سورة البقرة آية مستقلة . و : « حم » . و : « عسق » آية مستقلة مع أنها
كلها حروف مقطعة . وهناك سور تبدأ بآية من خمسة حروف مثل « كهيعص » في سورة مريم .
. وهناك سور تبدأ بأربعة حروف . مثل « المص » في سورة « الأعراف » . وهناك سور تبدأ
بأربعة حروف وهي ليست آية مستقلة مثل « المر » في سورة « الرعد » متصلة بما بعدها . .
بينما تجد سورة تبدأ بحرفين هما آية مستقلة مثل : « يس » في سورة يس . و « حم » في سورة
غافر وفصلت . . و : « طس » في سورة النمل . وكلها ليست موصولة بالآية التي بعدها . .
وهذا يدلنا على أن الحروف في فواتح السور لا تسير على قاعدة محددة .

« ألم » مكونة من ثلاث حروف تجدها في ست سور مستقلة . . فهي آية في البقرة وآل عمران
والعنكبوت والروم والسجدة ولقمان . و « الر » ثلاثة حروف ولكنها ليست آية مستقلة . بل
جزء من الآية في أربع سور هي : يونس ويوسف وهود وإبراهيم . . و : « المص » من أربعة
حروف وهي آية مستقلة في سورة « الأعراف » و « المر » أربعة حروف ، ولكنها ليست آية
مستقلة في سورة الرعد إذن فالمسألة ليست قانونا يعمم ، ولكنها خصوصية في كل حرف من
الحروف .

وإذا سألت ما هو معنى هذه الحروف؟ . . نقول إن السؤال في أصله خطأ . . لأن الحرف لا
يسأل عن معناه في اللغة إلا إن كان حرف معنى . . والحروف نوعان : حرف مَبْنَى وحرف معنى .
حرف المبنى لا معنى له إلا للدلالة على الصوت فقط .

. أما حروف المعاني فهي مثل في . ومن . . وعلى . . (في) تدل على الظرفية . . و (مِنْ)
تدل على الابتداء و (إلى) تدل على الانتهاء . . و (على) تدل على الاستعلاء . . هذه كلها

حروف معنى .

وإذا كانت الحروف في أوائل السور في القرآن الكريم قد خرجت عن قاعدة الوصل لأنها مبنية على السكون لا بد أن يكون لذلك حكمة . . أولاً لنعرف قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حَسَنَةٌ والحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَلِهَا ، لا أقولُ ألم حرف ولكن ألفٌ حَرْفٌ ولأَمْ حرفٌ ومِيمٌ حرفٌ »

ولذلك ذكرت في القرآن كحروف استقلالية لنعرف ونحن نتعبد بتلاوة القرآن الكريم أننا نأخذ حسنة على كل حرف . فإذا قرأنا بسم الله الرحمن الرحيم . يكون لنا بالباء حسنة وبالسين حسنة وبالميم حسنة فيكون لنا ثلاثة حسنات بكلمة واحدة من القرآن الكريم . والحسنة بعشر أمثالها . وحينما نقرأ « ألم » ونحن لا نفهم معناها نعرف أن ثواب القرآن على كل حرف نقرؤه سواء فهمناه أم لم نفهمه . . وقد يضع الله سبحانه وتعالى من أسرارها في هذه الحروف التي لا نفهمها ثواباً وأجرًا لا نعرفه .

ويريدنا بقراءتها أن نحصل على هذا الأجر . .

والقرآن الكريم ليس إعجازاً في البلاغة فقط . ولكنه يحوي إعجازاً في كل ما يمكن للعقل البشري أن يحوم حوله . فكل مفكر متدبر في كلام الله يجد إعجازاً في القرآن الكريم . فالذي درس البلاغة رأى الإعجاز البلاغي ، والذي تعلم الطب وجد إعجازاً طبياً في القرآن الكريم . وعالم النباتات رأى إعجازاً في آيات القرآن الكريم ، وكذلك عالم الفلك . . وإذا أراد إنسان منا أن يعرف معنى هذه الحروف فلا تأخذها على قدر بشرتنا . . ولكن تأخذها على قدر مراد الله فيها . . وقدراتنا تتفاوت وأفهامنا قاصرة . فكل منا يملك مفْتاحاً من مفاتيح الفهم كل على قدر علمه . . هذا مفتاح بسيط يفتح مرة واحدة وآخر يدور مرتين . . وآخر يدور ثلاث مرات وهكذا . . ولكن من عنده العلم يملك كل المفاتيح ، أو يملك المفتاح الذي يفتح كل الأبواب . .

ونحن لا يجب أن نجهد أذهاننا لفهم هذه الحروف . فحياة البشر تقتضي منا في بعض الأحيان أن نضع كلمات لا معنى لها بالنسبة لغيرنا . . وإذن كانت تمثل أشياء ضرورية بالنسبة لنا . تماماً ككلمة السر التي تستخدمها الجيوش لا معنى لها إذا سمعتها . ولكن بالنسبة لمن وضعها يكون ثمنها الحياة أو الموت . . فخذ كلمات الله التي تفهمها بمعانيها . . وخذ الحروف التي لا تفهمها بمراديات الله فيها . فالله سبحانه وتعالى شاء أن يبقى معناها في الغيب عنده . والقرآن الكريم لا يؤخذ على نسق واحد حتى نتنبه ونحن نتلوه أو نكتبه .

لذلك تجد مثلاً بسم الله الرحمن الرحيم مكتوبة بدون ألف بين الباء والسين . ومرة تجدها مكتوبة بالألف في قوله تعالى : { اقرأ باسم ربك الذي خلق } [العلق : 1] وكلمة تبارك مرة تكتب

بالألف ومرة بغير الألف . . ولو أن المسألة رتابة في كتابة القرآن لجاءت كلها على نظام واحد .
ولكنها جاءت بهذه الطريقة لتكون كتابة القرآن معجزة وألفاظه معجزة .

ونحن نقول للذين يتساءلون عن الحكمة في بداية بعض السور بحروف . . نقول إن لذلك حكمة
عند الله فهمناها أو لم نفهمها . . والقرآن نزل على أمة عربية فيها المؤمن والكافر . . ومع ذلك
لم نسمع أحداً يطعن في الأحرف التي بدأت بها السور . وهذا دليل على أنهم فهموها بملكاتهم
العربية . . ولو أنهم لم يفهموها لطنعوا فيها .

وأنا أنصح من يقرأ القرآن الكريم للتعبد . . ألا يشغل نفسه بالتفكير في المعنى . أما الذي يقرأ
القرآن ليستنبط منه فليقف عند اللفظ والمعنى . . فإذا قرأت القرآن لتتعبد فاقرأه بسر الله فيه .
. ولو جلست تبحث عن المعنى . . تكون قد حددت معنى القرآن الكريم بمعلوماتك أنت .
وتكون قد أخذت المعنى ناقصاً نقص فكر البشر . . ولكن اقرأ القرآن بسر الله فيه .

إننا لو بحثنا معنى كل لفظ في القرآن الكريم فقد أخرجنا الأمي وكل من لم يدرس اللغة العربية
دراسة متعمقة من قراءة القرآن . ولكنك تجد أمياً لم يقرأ كلمة واحدة ومع ذلك يحفظ القرآن كله
. فإذا قلت كيف؟ نقول لك بسر الله فيه .

والكلام وسيلة إفهام وفهم بين المتكلم والسامع . المتكلم هو الذي بيده البداية ، والسامع يفاجأ
بالكلام لأنه لا يعلم مقدماً ماذا سيقول المتكلم . . وقد يكون ذهن السامع مشغولاً بشيء آخر
. . فلا يستوعب أول الكلمات . . ولذلك قد تنبهه بحروف أو بأصوات لا مهمة لها إلا التنبيه
للكلام الذي سيأتي بعدها . وإذا كنا لا نفهم هذه الحروف . فوسائل الفهم والإعجاز في القرآن
الكريم لا تنتهي ، لأن القرآن كلام الله . والكلام صفة من صفات المتكلم . . ولذلك لا يستطيع
فهم بشري أن يصل إلى منتهى معاني القرآن الكريم ، إنما يتقرب منها . لأن كلام الله صفة من
صفاته . . وصفة فيها كمال بلا نهاية .

فإذا قلت إنك قد عرفت كل معنى للقرآن الكريم . . فإنك تكون قد حددت معنى كلام الله
بعلمك . . ولذلك جاءت هذه الحروف إعجازاً لك . حتى تعرف إنك لا تستطيع أن تحدد معاني
القرآن بعلمك . .

إن عدم فهم الانسان لأشياء لا يمنع انتفاعه بها . فالريفي مثلاً ينتفع بالكهرباء والتليفزيون وما
يذاع بالقمر الصناعي وهو لا يعرف عن أي منها شيئاً . فلماذا لا يكون الله تبارك وتعالى قد
أعطانا هذه الحروف نأخذ فائدتها ونستفيد من أسرارها ويتنزل الله بها علينا بما أودع فيها من
فضل سواء أفهم العبد المؤمن معنى هذه الحروف أو لم يفهمها .

وعطاء الله سبحانه وتعالى وحكمته فوق قدرة فهم البشر . . ولو أراد الانسان أن يحوم بفكره
وخواطره حول معاني هذه الحروف لوجد فيها كل يوم شيئاً جديداً . لقد خاض العلماء في

البحث كثيراً . . وكل عالم أخذ منها على قدر صفائه ، ولا يدعي أحد العلماء أن ذلك هو الحق المراد من هذه الحروف . . بل كل منهم يقول والله أعلم بمراده . ولذلك نجد عالماً يقول (أ ل ر) و (حم) و (ن) وهي حروف من فواتح السور تكون اسم الرحمن . . نقول إن هذا لا يمكن أن يمثل فهما عاماً لحروف بداية بعض سور القرآن . . ولكن ما الذي يتبعكم أو يرهقكم في محاولة إيجاد معان لهذه الحروف؟! . .

لو أن الله سبحانه وتعالى الذي أنزل القرآن يريد أن يفهمنا معانيها . . لأوردها بمعنى مباشر أو أوضح لنا المعنى . فمثلاً أحد العلماء يقول إن معنى (ألم) هو أنا الله اسمع وأرى . . نقول لهذا العالم لو أن الله أراد ذلك فما المانع من أن يورده بشكل مباشر لفهمه جميعاً . . لا بد أن يكون هناك سر في هذه الحروف . . وهذا السر هو من أسرار الله التي يريدنا أن ننتفع بقراءتها دون أن نفهمها . .

ولا بد أن نعرف أنه كما أن للبصر حدوداً . وللأذن حدوداً وللمس والشم والتذوق حدوداً ، فكذلك عقل الإنسان له حدود يتسع لها في المعرفة . . وحدود فوق قدرات العقل لا يصل إليها .

والإنسان حينما يقرأ القرآن والحروف الموجودة في أوائل بعض السور يقول إن هذا امر خارج عن قدرته العقلية . . وليس ذلك حجراً أو سداً لباب الاجتهاد . . لأننا إن لم ندرك فإن علينا أن نعتزف بحدود قدراتنا أمام قدرات خالقنا سبحانه وتعالى التي هي بلا حدود . وفي الايمان هناك ما يمكن فهمه وما لا يمكن فهمه . . فتحريم أكل لحم الخنزير أو شرب الخمر لا نتظر حتى نعرف حكمته لنمتنع عنه . ولكننا نمتنع عنه بإيمان أنه ما دام الله قد حرمه فقد أصبح حراماً .

ولذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما عرفتم من محكمه فاعملوا به ، وما لم تدركوا فآمنوا به » .

والله سبحانه وتعالى يقول : { هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ } [آل عمران : 7] اذن فعدم فهمنا للمتشابه لا يمنع أن نستفيد من سر وضعه الله في كتابه . . ونحن نستفيد من أسرار الله في كتابه فهمناها أم لم نفهمها .

ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ (2)

في الآية الثانية من سورة البقرة وصف الله سبحانه وتعالى القرآن الكريم بأنه الكتاب . وكلمة (قرآن) معناها أنه يُقرأ ، وكلمة (كتاب) معناها أنه لا يحفظ فقط في الصدور ، ولكن يُدَوَّن في

السطور ، ويبقى محفوظاً إلى يوم القيامة ، والقول بأنه الكتاب ، تمييز له عن كل كتب الدنيا ، وتمييز له عن كل الكتب السماوية التي نزلت قبل ذلك ، فالقرآن هو الكتاب الجامع لكل احكام السماء ، منذ بداية الرسالات حتى يوم القيامة ، وهذا تأكيد لارتفاع شأن القرآن وتفردته وسماويته ودليل على وحدانية الخالق ، فمنذ فجر التاريخ ، نزلت على الأمم السابقة كتب تحمل منهج السماء ، ولكن كل كتاب وكل رسالة نزلت موقوتة ، في زمانها ومكانها ، تؤدي مهمتها لفترة محددة وتجاه قوم محددين .

فرسالة نوح عليه السلام كانت لقومه ، وكذلك ابراهيم ولوط وشعيب وصالح عليهم السلام . . كل هذه رسالات كان لها وقت محدود ، تمارس مهمتها في الحياة ، حتى يأتي الكتاب وهو القرآن الكريم الجامع لمنهج الله سبحانه وتعالى . ولذلك بُشر في الكتب السماوية التي نزلت قبل بعثة محمد عليه الصلاة والسلام بأن هناك رسولا سيأتي ، وأنه يحمل الرسالة الخاتمة للعالم ، وعلى كل الذين يصدقون بمنهج السماء أن يتبعوه . . وفي ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : { الذين يَتَّبِعُونَ الرِّسُولَ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ } [من الآية 157 سورة الأعراف] والقرآن هو الكتاب ، لأنه لن يصل إليه أي تحريف أو تبديل ، فرسالات السماء السابقة ائتمن الله البشر عليها ، فنسوا بعضها ، وما لم ينسوه حرفوه ، وأضافوا إليه من كلام البشر ، ما نسبوه إلى الله سبحانه وتعالى ظلما وبهتاناً ، ولكن القرآن الكريم محفوظ من الخالق الأعلى ، مصداقاً لقوله تعالى : { إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ } [الحجر : 9] ومعنى ذلك ألا يرتاب انسان في هذا الكتاب ، لأن كل ما فيه من منهج الله محفوظ منذ لحظة نزوله إلى قيام الساعة بقدره الله سبحانه وتعالى .

يقول الحق جل جلاله : { لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ } . والإعجاز الموجود في القرآن الكريم هو في الأسلوب وفي حقائق القرآن وفي الآيات وفيما روى لنا من قصص الأنبياء السابقين ، وفيما صحح من التوراة والانجيل ، وفيما أتى به من علم لم تكن تعلمه البشرية ولا زالت حتى الآن لا تعلمه ، كل ذلك يجعل القرآن لا ريب فيه ، لأنه لو اجتمعت الإنس والجن ما استطاعوا أن يأتوا بآية واحدة من آيات القرآن ، ولذلك كلما تأملنا في القرآن وفي أسلوبه ، وجدنا أنه بحق لا ريب فيه ، لأنه لا أحد يستطيع أن يأتي بآية ، فما بالك بالقرآن .

فهذا الكتاب ارتفع فوق كل الكتب ، وفوق مدارك البشر ، يوضح آيات الكون ، وآيات المنهج ، وله في كل عصر معجزات .

إن كلمة الكتاب التي وصف الله سبحانه وتعالى بها القرآن تمييزاً له عن كل الكتب السابقة ، تلفتنا إلى معان كثيرة ، تحدد لنا بعض أساسيات المنهج التي جاء هذا الكتاب ليبلغنا بها . وأول

هذه الأساسيات ، أن نزول هذا الكتاب ، يستوجب الحمد لله سبحانه وتعالى . وقرأ في سورة الكهف : { الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً * قِيَمًا لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا } [الكهف : 21] ويلفت الله سبحانه وتعالى عباده الى أن إنزاله القرآن على رسوله صلى الله عليه وسلم يستوجب الحمد من البشر جميعاً ، لأن فيه منهج السماء ، وفيه الرحمة من الله لعباده ، وفيه البشارة بالجنة والطريق إليها ، وفيه التحذير من النار وما يقود إليها ، وهذا التحذير أو الإنذار هو رحمة من الله تعالى لخلقه . لأنه لو لم ينذرهم لفعلوا ما يستوجب العذاب ، ويجعلهم يخلدون في عذاب اليم . ولكن الكتاب الذي جاء ليلفتهم الى ما يغضب الله ، حتى يتجنبوه ، إنما جاء برحمة تستوجب الحمد ، لأنها أرتنا جميعاً ، الطريق الى النجاة من النار ، ولو لم ينزل الله سبحانه وتعالى الكتاب ، ما عرف الناس المنهج الذي يقودهم الى الجنة ، وما استحق احد منهم رضا الله ونعيمه في الآخرة .

وفي سورة الكهف ، نجد تأكيداً آخر . . ان كتاب الله ، وهو القرآن الكريم لن يستطيع بشر أن يبدل منه كلمة واحدة ، وقرأ قوله جل جلاله : { واتل ما أوحى إليك من كتاب ربك لا مبدل لكلماته ولن تجد من دونه ملتحداً } [الكهف : 27] وبين الله سبحانه وتعالى لنا أن هذا الكتاب ، جاء لنفع الناس ، ولنفع العباد ، وأن الله ليس محتاجاً لخلقه ، فهو قادر على أن يقهر من يشاء على الطاعة ، ولا يمكن لخلق من خلق الله أن يخرج من كون الله عن مرادات الله ، وقرأ قوله سبحانه وتعالى : { طسم * تلك آيات الكتاب المبين * لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين * إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين } [الشعراء : 1 - 4] ويأتي الله سبحانه وتعالى بالقسم الذي يلفتنا الى أن كل كلمة من القرآن هي من عند الله ، كما ابلغها جبريل عليه السلام لمحمد صلى الله عليه وسلم في قوله سبحانه : { فلا أقسم بمواقع النجوم * وإنه لقسم لو تعلمون عظيم * إنه لقرآن كريم * في كتاب مكنون * لا يمسه إلا المطهرون * تنزيل من رب العالمين } [الواقعة : 75 - 80] ثم يلفتنا الحق سبحانه وتعالى الى ذلك الكتاب الذي هو منهج للانسان على الأرض ، فبعد أن بين لنا جل جلاله ، بما لا يدع مجالاً للشك أن الكتاب منزل من عنده ، وأنه يصحح الكتب السابقة كالتوراة ، والانجيل والتي أئتمن الله عليها البشر ، فحرفوها وبدلوها ، وهذا التحريف أبطل مهمة المنهج الإلهي بالنسبة لهذه الكتب ، فجاء الكتاب الذي لم يصل اليه تحريف ولا تبديل ، ليبقى منهجاً لله ، الى ان تقوم الساعة .

أول ما جاء به هذا الكتاب هو إيمان القمة ، بأنه لا إله إلا الله الواحد الأحد . . والله سبحانه وتعالى يقول : { الم * الله لا إله إلا هو الحي القيوم * نزل عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين

يَدِيهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ { [آل عمران : 1 - 3] وهكذا نعرف ان الكتاب نزل ليؤكد لنا ، ان الله واحد أحد ، لا شريك له ، وأن القرآن يشتمل على كل ما تضمنته الشرائع السماوية من توراة وانجيل ، وغيرها من الكتب .

فالقرآن نزل ليفرق بين الحق الذي جاءت به الكتب السابقة ، وبين الباطل الذي أضافه أولئك الذي ائتمنوا عليها .

ثم يحدد الحق تبارك وتعالى لنا مهمتنا في أن هذا الكتاب مطلوب أن نبغفه للناس جميعاً ، وقرأ قوله سبحانه : { المص * كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذَكَرَى لِلْمُؤْمِنِينَ } [الأعراف : 1 - 2] فالخطاب هنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكل خطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم في القرآن الكريم ، يتضمن خطاباً لأمتة جميعاً ، فالرسول صلى الله عليه وسلم كلف بأن يبلغ الكتاب للناس ، ونحن مكلفون بأن نتبع المنهج نفسه ونبغ ما جاء في القرآن للناس حتى يكون الحساب عدلاً ، وأنهم قد بلغوا منهج الله ، ثم كفروا به أو تركوه ، إذن فإبلاغ الكتاب من المهمات الأساسية التي حددها الله سبحانه وتعالى بالنسبة للقرآن . والكتاب فيه رد على حجج الكفار وأباطيلهم . وقرأ قول الله تبارك وتعالى : { الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ * أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ } [يونس : 1 - 2] وفي هذه الآيات الكريمة : يلفتنا الله سبحانه وتعالى إلى حقيقتين . . الحقيقة الأولى هي أن الكفار يتخذون من بشرية الرسول حجة بأن هذا الكتاب ليس من عند الله . وكان الرد هو : أن كل الرسل السابقين كانوا بشراً ، فما هو العجب في أن يكون محمد صلى الله عليه وسلم رسولاً بشراً . واللفتة الثانية هي ان هذا القرآن مكتوب بالحروف نفسها التي خلقها الله لنا لنكتب بها ، ومع ذلك فإن القرآن الكريم نزل مستخدماً لهذه الحروف التي يعرفها الناس جميعاً ، معجزاً في ألا يستطيع الانس والجن ، مجتمعين أن يأتوا بسورة واحدة منه . ثم يلفتنا الحق سبحانه وتعالى لفتة اخرى الى أن هذا الكتاب محكم الآيات ، ثم بينه الله لعباده ، وقرأ قوله جل جلاله في سورة هود : { الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ * أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ } .

[هود : 1 - 2] هذه هي بعض الآيات في القرآن الكريم ، التي أراد الله سبحانه وتعالى أن يلفتنا فيها الى معنى الكتاب ، فأياته من عند الله الحكيم الخبير ، وكل آية فيها اعجاز مُتَّحَدَّى به الإنس والجن ، وهذا الكتاب لا بد أن يبلغ للناس جميعاً ، فالكتاب ينذرهم ألا يعبدوا إلا الله ، ليكون الحساب عدلاً في الآخرة ، فمن أنذر وأطاع كان له الجنة ، ومن عصى كانت له النار والعياذ بالله .

ثم يلفتنا الله الى ان هذا الكتاب فيه قصص الأنبياء السابقين منذ آدم عليه السلام ، يقول جل جلاله : { الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقِصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ } [يوسف : 1 - 3] وهكذا نجد أن القرآن الكريم ، قد جاء ليقص علينا أحسن القصص بالنسبة للأنبياء السابقين ، والأحداث التي وقعت في الماضي ، ولم يأت القرآن بهذه القصص للتسلية أو للترفيه ، وإنما جاء بها للموعظة ولتكون عبرة إيمانية ، ذلك أن القصص القرآني يتكرر في كل زمان ومكان . ففرعون هو كل حاكم طغى في الأرض ، ونصب نفسه إلهاً ، وقارون هو كل من أنعم الله عليه فنسب النعمة الى نفسه ، وتكبر وعصى الله ، وقصة يوسف هي قصة كل اخوة حقدوا على أخ لهم ، وتآمروا عليه ، وأهل الكهف هم كل فتية آمنوا بربهم ، فنشر الله لهم من رحمته في الدنيا والآخرة ، ما عدا قصة واحدة هي قصة مريم وعيسى عليهما السلام ، فهي معجزة لن تتكرر ولذلك عرف الله سبحانه وتعالى اباطها ، فقال عيسى بن مريم وقال مريم ابنة عمران . والكتاب الذي أنزله الله سبحانه وتعالى فيه لفظة الى آيات الله في كونه . وقرأ قوله تعالى : { الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ * اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَحَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ } [الرعد : 1 - 2] وهكذا بين لنا الله في الكتاب آياته في الكون ولفتنا إليها ، فالسماوات مرفوعة بغير عمد نراها ، والشمس والقمر مسخران لخدمة الانسان ، وهذه كلها آيات لا يستطيع أحد من خلق الله أن يدعيها لنفسه أو لغيره ، فلا يوجد ، حتى يوم القيامة من يستطيع ان يدعي انه رفع السماء بغير عمد ، أو أنه خلق الشمس والقمر وسخرهما لخدمة الانسان . ولو تدبر الناس في آيات الكون لآمنوا ولكنهم في غفلة عن هذه الآيات . ثم يحدد الحق سبحانه وتعالى مهمة هذا الكتاب وكيف أنه رحمة للناس جميعاً ، فيقول جل جلاله : { الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ * اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ }

[إبراهيم : 1 - 2] أي أن مهمة هذا الكتاب هي أن يخرج الناس من ظلمات الجهل والكفر والشرك الى نور الايمان ، لأن كل كافر مشرك تحيط به ظلمات ، يرى الآيات فلا يبصرها ، ويعرف أن هناك حساباً وآخرة ولكنه ينكرهما ، ولا يرى إلا الحياة الدنيا القصيرة غير المأمونة في كل شيء ، في العمر والرزق والمتعة ، ولو تطلع الى نور الايمان ، لرأى الآخرة وما فيها من نعيم أبدي ولعميل من أجلها ، ولكن لأنه تحيط به الظلمات لا يرى . . والطريق لأن يرى هو هذا الكتاب ، القرآن الكريم لأنه يخرج الناس إذا قرأوه من ظلمات الجهل والكفر الى نور الحقيقة

واليقين . وبين الحق سبحانه وتعالى أن الذين يلتفتون الى الدنيا وحدها ، هم كالأنعام التي تأكل وتشرب ، بل ان الانعام افضل منهم ، لأن الانعام تقوم بمهمتها في الحياة ، بينما هم لا يقومون بمهمة العبادة ، فيقول الحق تبارك وتعالى : { الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ * رَبَّمَا يُودُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ * ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ } [الحجر : 1 - 3] هكذا يخبرنا الحق أن آيات كتابه الكريم ومنهجه لا تؤخذ بالتمني ، ولكن لابد أن يعمل بها ، وأن الذين كفروا في تمتعهم بالحياة الدنيا لا يرتفعون فوق مرتبة الأنعام ، وأنهم يتعلقون بأمل كاذب في أن النعيم في الدنيا فقط ، ولكن الحقيقة غير ذلك وسوف يعلمون . وهكذا بعد أن تعرضنا بإيجاز لبعض الآيات التي ورد فيها ذكر الكتاب انه كتاب يبصرنا بقضية القمة في العقيدة وهي أنه لا إله إلا الله وأن محمداً صلى الله عليه وسلم رسول الله ، وهو بهذا يخرج الناس من الظلمات الى النور .

وأن يلفتهم الى آيات الكون . . وأن يعرفوا أن هناك آخرة ونعيماً أبدياً وشقاءً أبدياً ، وأن يقيم الدليل والحجة على الكافرين ، وأن قوله تعالى : { ذَلِكَ الْكِتَابُ } يحمل معنى التفوق الكامل الشامل على كل ما سبقه من كتب . وأنه سيظل كذلك حتى قيام الساعة ولذلك وصفه الحق تبارك وتعالى بأنه « كتاب » ليكون دليلاً على الكمال .

ولابد أن نعرف أن ذلك ليست كلمة واحدة . . وإنما هي ثلاث كلمات . . « ذا » اسم اشارة . . « واللام » تدل على الابتعاد ورفعة شأن القرآن الكريم ، و « ك » لمخاطبة الناس جميعاً بأن القرآن الكريم له عمومية الرسالة الى يوم القيامة .

ونحن عندما نقرأ سورة البقرة نستطيع أن نقرأ آيتها الثانية بطريقتين . . الطريقة الأولى أن نقول { الم * ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ } ثم نصمت قليلاً ونضيف : { هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ } والطريقة الثانية أن نقول : { الم * ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ } ثم نصمت قليلاً ونضيف : فيه هدى للمتقين » وكلتا الطريقتين توضح لنا معنى لا ريب أي لا شك .

. أو نفي للشك وجزم مطلق أنه كتاب حكيم منزل من الخالق الأعلى . وحتى نفهم المنطلق الذي نأخذ منه قضايا الدين ، والتي سيكون دستورنا في الحياة ، فلا بد ان نعرف ما هو الهدى ومن هم المتقون؟ الهدى هو الدلالة على طريق يوصلك الى ما تطلبه . فالإشارات التي تدل المسافر على الطريق هي هدى له لأنها تبين له الطريق الذي يوصله الى المكان الذي يقصده . . والهدى يتطلب هادياً ومهدياً وغاية تريد أن تحققه . فإذا لم يكن هناك غاية أو هدف فلا معنى لوجود الهدى لأنك لا تريد أن تصل الى شيء . . وبالتالي لا تريد من أحد أن يدللك على طريق

اذن لابد أن نوجد الغاية أولاً ثم نبحث عن يوصلنا إليها .

وهنا نتساءل من الذي يحدد الهدف ويحدد لك الطريق للوصول إليه؟ اذا اخذنا بواقع حياة الناس فإن الذي يحدد لك الهدف لا بد أن تكون واثقا من حكمته . . والذي يحدد لك الطريق لا بد أن يكون له من العلم ما يستطيع به أن يدلك على أقصر الطرق لتصل الى ما تريد . فاذا نظرنا الى الناس في الدنيا نجد أنهم يحددون مطلوبات حياتهم ويحددون الطريق الذي يحقق هذه المطلوبات . . فالذي يريد أن يبني بيتا مثلا يأتي بمهندس يضع له الرسم ، ولكن الرسم قد يكون قاصرا على أن يحقق الغاية المطلوبة فيظل يغير ويبدل فيه . ثم يأتي مهندس على مستوى أعلى فيضع تصورا جديداً للمسألة كلها . . وهكذا يكون الهدف متغيرا وليس ثابتا . وعند التنفيذ قد لا توجد المواد المطلوبة فنغير ونبدل لنأتي بغيرها ثم فوق ذلك كله قد تأتي قوة أعلى فتوقف التنفيذ أو تمنعه . إذن فأهداف الناس متغيرة تحكمها ظروف حياتهم وقدراتهم . . والغايات التي يطلبونها لا تتحقق لقصور علم البشر وامكانياته . اذن فكلنا محتاجون الى كامل العلم والحكمة ليرسم لنا طريق حياتنا . . وأن يكون قادرا على كل شيء ، ومالكا لكل شيء ، والكون خاضعا لارادته حتى نعرف يقينا أن ما نريده سيتحقق ، وأن الطريق الذي سنسلكه سيوصلنا الى ما نريده . وينبها الله سبحانه وتعالى الى هذه القضية فيقول :

{ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى } [البقرة : 120]

ان الله يريد أن يلفت خلقه الى انهم إذا أرادوا أن يصلوا الى الهدف الثابت الذي لا يتغير فليأخذوه عن الله . وإذا أرادوا أن يتبعوا الطريق الذي لا توجد فيه أي عقبات أو متغيرات . . فليأخذوا طريقهم عن الله تبارك وتعالى . . إنك اذا اردت باقيا . . فخذ من الباقي ، واذا أردت ثابتا . . فخذ من الثابت . ولذلك كانت قوانين البشر في تحديد أهدافهم في الحياة وطريقة الوصول اليها قاصرة .

. علمت أشياء وغابت عنها أشياء . . ومن هنا فهي تتغير وتتبدل كل فترة من الزمان . ذلك أن من وضع القوانين من البشر له هدف يريد أن يحققه ، ولكن الله جل جلاله لا هوى له . . فإذا أردت أن تحقق سعادة في حياتك ، وأن تعيش آمنا مطمئنا . . فخذ الهدف عن الله ، وخذ الطريق عن الله . فإن ذلك ينجيك من قلق متغيرات الحياة التي تتغير وتتبدل . والله قد حدد لخلقهم ولكل ما في كونه أقصر طريق لبلوغ الكون سعادته . والذين لا يأخذون هذا الطريق يتعبون أنفسهم ويتعبون مجتمعهم ولا يحققون شيئا . اذن فالهدف يحققه الله لك ، والطريق يبينه الله لك . . وما عليك إلا أن تجعل مراداتك في الحياة خاضعة لما يريد الله .

ويقول الله سبحانه وتعالى : { هُدَىٰ لِلْمُتَّقِينَ } . . ما معنى المتقين؟ متقين جمع متق . والاتقاء من

الوقاية . . والوقاية هي الاحتراس والبعد عن الشر . . لذلك يقول الحق تبارك وتعالى : { يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ } [التحريم : 6] أي اعملوا بينكم وبين النار وقاية . احترسوا من أن تقعوا فيها . . ومن عجيب أمر هذه التقوى أنك تجد الحق سبحانه وتعالى يقول في القرآن الكريم والقرآن كله كلام الله « اتقوا الله » ويقول : « اتقوا النار » . كيف نأخذ سلوكا واحدا تجاه الحق سبحانه وتعالى وتجاه النار التي سيعذب فيها الكافرون؟!

الله تعالى يقول : « اتقوا النار » . أي لا تفعلوا ما يغضب الله حتى لا تعذبوا في النار . . فكأنك قد جعلت بينك وبين النار وقاية بأن تركت المعاصي وفعلت الخير .
وقول تعالى : « اتقوا الله » كيف نتقيه بينما نحن نطلب من الله كل النعم وكل الخير دائما . كيف يمكن أن يتم هذا؟ وكيف نتقي من نحب؟ .

نقول ان لله سبحانه وتعالى صفات جلال وصفات جمال . . صفات الجلال تجدها في القهار والجبار والمذل . . والمنتقم . والضار . كل هذا من متعلقات صفات الجلال . . بل إن النار من متعلقات صفات الجلال .

أما صفات الجمال فهي الغفار والرحيم وكل الصفات التي تنزل بها رحمت الله وعطاءاته على خلقه . فاذا كنت تقي نفسك من النار وهي من متعلقات صفات الجلال لا بد أن تقي نفسك من صفات الجلال كلها . لأنه قد يكون من متعلقاتها ما أشد عذابا وايلاما من النار . . فكأن الحق سبحانه وتعالى حين يقول : « اتقوا النار » . و : « اتقوا الله » يعني أن نتقي غضب الله الذي يؤدي بنا الى أن نتقي كل صفات جلاله . . ونجعل بيننا وبينها وقاية . فمن اتقى صفات جلال الله أخذ صفات جماله .

. ولذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا كانت آخر ليلة من رمضان تجلى الجبار بالمغفرة » وكان المنطق يقتضي أن يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم (تجلى الرحمن بالمغفرة) ولكن مادامت هناك ذنوب ، فالمقام لصفة الجبار الذي يعذب خلقه بذنوبهم . فكأن صفة الغفار تشفع عند صفة الجبار . . وصفة الجبار مقامها للعاصين ، فتأتي صفة الغفار لتشفع عندها ، فيغفر الله للعاصين ذنوبهم ، وجمال المقابلة هنا حينما يتجلى الجبار بجبروته بالمغفرة فساعة تأتي كلمة جبار . . يشعر الانسان بالفرع والخوف والرعب . لكن عندما تسمع (تجلى الجبار بالمغفرة) فإن السعادة تدخل الى قلبك . لأنك تعرف أن صاحب العقوبة وهو قادر عليها قد غفر لك . والنار ليست آمرة ولا فاعلة بذاتها ولكنها مأمورة . اذن فاستعد منها بالأمر أو بصفات الجمال في الأمر .

يقول الحق سبحانه وتعالى { هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ } ولقد قلنا ان الهدى هدى الله . . لأنه هو الذي

حدد الغاية من الخلق ودلنا على الطريق الموصل اليها . فكون الله هو الذي حدد المطلوب ودلنا على الطريق اليه فهذه قمة النعمة . . لانه لم يترك لنا أن نحدد غايتنا ولا الطريق اليها . فرحمنا بذلك مما سنتعرض له من شقاء في أن نخطئ ونصيب بسبب علمنا القاصر ، فنشقى وندخل في تجارب ، ونمشي في طرق ثم نكتشف أننا قد ضللنا الطريق فنتجه الى طريق آخر فيكون اضل وأشقى .

وهكذا نتخبط دون أن نصل الى شيء . . وأراد سبحانه أن يجنبنا هذا كله فأنزل القرآن الكريم . كتابا فيه هداية للناس وفيه دلالة على أقصر الطرق لكي نتقي عذاب الله وغضبه . والله سبحانه وتعالى قال : { هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ } أي أن هذا القرآن هدى للجميع . . فالذي يريد أن يتقي عذاب الله وغضبه يجد فيه الطريق الذي يحدد له هذه الغاية . . فالهدى من الحق تبارك وتعالى للناس جميعا . ثم خص من آمن به بهدى آخر ، وهو أن يعينه على الطاعة . اذن فهناك هدى من الله لكل خلقه وهو أن يدهم سبحانه وتعالى ويبين لهم الطريق المستقيم . هذا هو هدى الدلالة ، وهو أن يدل الله خلقه جميعا على الطريق الى طاعته وجنته . وقرأ قوله تبارك وتعالى : { وَأَمَّا تُمُودٌ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى } [فصلت : 17] اذن الحق سبحانه وتعالى دهم على طريق الهداية . . ولكنهم أحبوا طريق الغواية والمعصية واتبعوه . . هذه هداية الدلالة . . أما هداية المعونة ففي قوله سبحانه : { وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ } [محمد : 17] وهذه هي دلالة المعونة . . وهي لا تحقق إلا لمن آمن بالله واتبع منهجه وأقبل على هداية الدلالة وعمل بما . . والله سبحانه وتعالى لا يعين من يرفض هداية الدلالة ، بل يتركه يضل ويشقى .

. ونحن حين نقرأ القرآن الكريم نجد أن الله تبارك وتعالى : يقول لنبيه ورسوله صلى الله عليه وسلم : { إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ } [القصص : 56] وهكذا نفى الله سبحانه وتعالى عن رسوله صلى الله عليه وسلم أن يكون هاديا لمن أحب . . ولكن الحق يقول لرسوله صلى الله عليه وسلم : { وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } [الشورى : 52] فكيف يأتي هذا الاختلاف مع أن القائل هو الله .

نقول : عندما تسمع هذه الايات اعلم أن الجهة منفكة . . يعني ما نفى غير ما أثبت . . ففي غزوة بدر مثلا أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم حفنة من الحصى قذفها في وجه جيش قريش . يأتي القرآن الكريم الى هذه الواقعة فيقول الحق سبحانه : { وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى } [الأنفال : 17] نفي للحدث وإثباته في الآية نفسها . . كيف رمى رسول الله صلى الله عليه وسلم . . مع أن الله تبارك وتعالى قال : { وَمَا رَمَيْتَ }؟! نقول إنه في هذه الآية الجهة منفكة . الذي رمى هو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكن الذي أوصل الحصى الى كل جيش قريش

لتصيب كل مقاتل فيهم هي قدرة الله سبحانه وتعالى . فما كان لرمية رسول الله صلى الله عليه وسلم حفنة من الحصى يمكن أن تصل الى كل جيش الكفار ، ولكن قدرة الله هي التي جعلت هذا الحصى يصيب كل جندي في الجيش .

أما قول الحق سبحانه وتعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم : { وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ }

فهي هداية دلالة . أي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بتبليغه للقرآن وبيانه لمنهج الله قد دل الناس كل الناس على الطريق المستقيم وبينه لهم . وقوله تبارك وتعالى : { إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ } . . أي إنك لا توصل الهداية الى القلوب لأن الله سبحانه وتعالى هو الذي يهدي القلوب ويزيدها هدى وإيمانا . ولذلك أطلقها الله تبارك وتعالى قضية إيمانية عامة في قوله : { قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ } فالقرآن الكريم يحمل هداية الدلالة للذين يريدون أن يجعلوا بينهم وبين غضب الله وعذابه وقاية .

الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (3)

بعد أن بين الله سبحانه وتعالى لنا أن هذا الكتاب وهو القرآن الكريم { هُدَى لِلْمُتَّقِينَ } . . أي أن فيه المنهج والطريق لكل من يريد أن يجعل بينه وبين غضب الله وقاية . . أراد أن يعرفنا صفات هؤلاء المتقين ومن هم . . وأول صفة هي قوله تعالى : { الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ } . . ما هو الغيب الذي جعله الله أول مرتبة في الهدى . . وفي الوقاية من النار ومن غضب الله؟ . . الغيب هو كل ما غاب عن مدركات الحس . فالأشياء المحسنة التي نراها ونلمسها لا يختلف فيها أحد . . ولذلك يقال ليس مع العين أين . . لأن ما تراه لا تريد عليه دليلا . . ولكن الغيب لا تدركه الحواس . . إنما يدرك بغيرها . .

ومن الدلالة على دقة التعريف أنهم قالوا أن هناك خمس حواس ظاهرة هي : السمع والبصر والشم والذوق واللمس . . ولكن هناك أشياء تدرك بغير هذه الحواس . . لنفرض أن أمامنا حقيبتين . . الشكل نفسه والحجم نفسه . هل تستطيع بحواسك الظاهرة أن تدرك أيهما أثقل من الأخرى؟ . هل تستطيع الحواس الخمس أن تقول لك أي الحقيبتين أثقل؟ . لا . . لا بد أن تحمل واحدة منهما ثم تحمل الأخرى لتعرف أيهما أثقل . .

بأي شيء أدركت هذا الثقل؟ . . بحاسة العضل . . لأن عضلاتك أجهدت عندما حملت إحدى الحقيبتين ، ولم تجهد عندما حملت الثانية . . فعرفت بالدقة أيهما أثقل . . لا تقل باللمس؛ لأنك لو لمست أحدهما ثم لمست الأخرى لا تعرف أيهما أثقل . . إذن فهناك حاسة العضل التي تقيس بما ثقل الأشياء . .

ولنفرض أنك دخلت محلا لبيع القماش ، وأمامك نوعان من قماش واحد . . ولكن أحدهما أرق

من الآخر . . بمجرد أن تضع القماشين بين أناملك تدرك أن أحدهما رقيق والآخر أكثر سمكا . .
بأي حاسة أدركت هذا؟ ليس بحاسة اللمس ولكن بحاسة البينة وحكمها لا يخطئ . .
وعندما تشعر بالجوع . . بأي حاسة أدركت أنك جوعان؟ . . ليس بالحواس الظاهرة . . وكذلك
عندما تظمأ . . ما هي الحاسة التي أدركت بها أنك محتاج الى الماء . . وعندما تكون نائما . . أي
حاسة تلك التي توقظك من النوم . . لا أحد يعرف . .
اذن هناك ملكات في النفس وهي الحواس الظاهرة . . وهناك ادراكات في النفس . . وهي
حواس لا يعلمها إلا خالقها . . لذلك عندما يأتي العلماء ليضعوا تعريفا للنفس البشرية نقول لهم
: ماذا تعرفون عن هذه النفس؟! . . انكم لا تعلمون إلا ظاهرا من الحياة الدنيا . . ولكن هناك
أشياء داخل النفس لا تعرفونها . . هناك ادراكات لا يعلم عنها الانسان شيئا ، وهي ادراكات
كثيرة ومتعددة .

. لذلك يخطئ من يقول إن ما لا يدرك بالحواس البشرية الظاهرة هو غيب . . لأن هناك ملكات
وادراكات متعددة تعمل بغير علم منا .

لو أعطى لطالب تمرين هندسي فحلله وأتى بالجواب . . هل نقول أنه عليم غيبا؟ . . لأن حل
التمرين كان غيبا عنه ثم وصل اليه . . لا . . لأن هناك مقدمات وقوانين أوصلته الى هذا الحل .
. والغيب بلا مقدمات ولا قوانين تؤدي اليه ، وهل عندما تعلن الأرصاد الجوية أن غدا يوم مطير
شديد الرياح . . أتكون قد علمت غيبا؟ . . لا . . لأنها أخذت المقدمات ووصلت بها الى نتائج
وهذا ليس غيباً . .

وإذا جاء أحد من الدجالين وقال لك ان ما سرق منك عند فلان . . أيكون قد علم الغيب؟ .
. لا . . لأنه يشترط في الغيب ألا يكون معلوما لمثلك . . وما سرق منك معلوم لمثلك . .
فالسارق والذي بيعت له المسروقات يعرفان من الذي سرق ، وما الذي حدث . . والشرطة
تستطيع بالمقدمات والبصمات والبحث أن تصل الى السارق ومن اشترى المسروقات . . وإذا
جاءك دجال من الذين يسخرون الجن . . والمعروف أن الجن مستورعنا يمتاز بخفة الحركة وسرعتها
. . والله سبحانه وتعالى يقول عن الشيطان : { إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ } [
الأعراف : 27] فقد يكون هذا المستعان به من الجن قد رأى شيئا . . أو انتقل من مكان إلى
آخر . . فيعرف شيئا لا تعرفه أنت . . هذا لا يكون غيباً لأنك جهلته ، ولكن غيرك يعلمه
بقوانينه التي خلقها الله له . . والعلماء الذين يكتشفون أسرار الكون . . أيقال إنهم أطلعوا على
الغيب؟ . . لا . . لأن هؤلاء العلماء اكتشفوا موجوداً له مقدمات فوصلوا الى هذه النتائج فهو
ليس غيباً .

ولكن ما هو الغيب؟ . .

هو الشيء الذي ليس له مقدمات ولا يمكن أن يصل اليه علم خَلِقَ من خلق الله حتى الملائكة .
 . وقرأ قول الحق سبحانه وتعالى حينما عَلَّمَ آدم الأسماء كلها وعرضهم على الملائكة قال جل
 جلاله : { وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ
 صَادِقِينَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ
 بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنْ عَلَّمْتُ الْغَيْبِ . . ولذلك
 تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ } [البقرة : 31 - 33] والجن أيضا لا يعلم الغيب . . ولذلك
 عندما مات سليمان عليه السلام . . وكان الله سبحانه وتعالى قد سَخَّرَ له الجن لم تعلم الجن بموته
 إلا عندما أكلت دابة الأرض عصاه . . وقرأ قوله تبارك وتعالى : { فَلَمَّا فَصَّيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا
 دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا
 لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ }

[سبأ : 14] إذن فالغيب هو ما لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى . . وقرأ قول الحق جل جلاله
 : { عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ
 وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا } [الجن : 26 - 27] وهكذا فإن الرسل لا يعلمون الغيب . . ولكن الله
 سبحانه وتعالى يعلمهم بما يشاء من الغيب ويكون هذا معجزة لهم ولمن اتبعوهم .
 وقمة الغيب هي الايمان بالله سبحانه وتعالى . . والايمان بملائكته وكتبه ورسله والايمان باليوم
 الآخر . . كل هذه أمور غيبية ، وحينما يخبرنا الله تبارك وتعالى عن ملائكته ونحن لا نراهم . .
 نقول مادام الله قد أخبرنا بهم فنحن نؤمن بوجودهم . . وإذا أخبرنا الحق سبحانه وتعالى عن اليوم
 الآخر . . فمادام الله قد أخبرنا فنحن نؤمن باليوم الآخر . . لأن الذي أخبرنا به هو الله جل
 جلاله . . آمنت به أنه اله . . واستخدمت في هذا الايمان الدليل العقلي الذي جعلني أؤمن بأن
 لهذا الكون إلهًا وخالقًا . . وما يأتي عن الله حيثية الايمان به أن الله سبحانه وتعالى هو القائل .
 ولا بد أن نعرف أن وجود الشيء مختلف تماما عن ادراك هذا الشيء . . فأنت لك روح في
 جسدك تهبك الحياة . . أرايتها؟ . . أسمعتها؟ . . أذقتها؟ . . أشمعتها؟ . . ألمستها؟ . . الجواب
 طبعًا لا . . فبأي وسيلة من وسائل الادراك تدرك أن لك روحا في جسدك؟ بأثرها في إحياء
 الجسد . .

إذن فقد عرفت الروح بأثرها ، والروح مخلوق لله . . فكيف تريد وأنت عاجز أن تدرك مخلوقا في
 جسدك وذاتك وهو الروح بآثارها . . ان تدرك الله سبحانه وتعالى بجواسك .
 ونحن إذا آمننا بالقمة الغيبية وهو الله جل جلاله . . فلا بد أن نؤمن بكل ما يخبرنا عنه وإن لم نره
 . . ولقد أراد الله تبارك وتعالى رحمة بعقولنا أن يقرب لنا قضية الغيب فأعطانا من الكون المادي
 أدلة على أن وجود الشيء ، وادراك هذا الوجود شيان منفصلان تماما . .

فالجراثيم مثلا موجودة في الكون تؤدي مهمتها منذ بداية الخلق . . وكان الناس يشاهدون آثار الأمراض في أجسادهم من ارتفاع في الحرارة وحمى وغير ذلك وهم لا يعرفون السبب . . فلما ارتقى العلم وأذن الله لخلقه أن يروا هذا الوجود للجراثيم . . جعل الله العقول قادرة على أن تكتشف المجهر . . الذي يعطينا الصورة مكبرة . . لأن العين قدرتها البصرية أقل من أن تدرك هذه المخلوقات الدقيقة . . فلما اكتشف العلم المجهر . . استطعنا أن نرى هذا الجراثيم . . ونعرف أن لها دورة حياة وتكاثر إلى غير ما يكشفه الله لنا من علم كما تقدم الزمن . . إن عدم قدرتنا على رؤية أي شيء لا يعني أنه غير موجود .

. ولكن آلة الإدراك وهي البصر عاجزة عن أن تراه ، لأنه غاية في الصغر . . فاذا جئت بالمجهر كبر لك هذا الميكروب ليدخل في نطاق وسيلة رؤيتك وهي العين . . ورؤيتنا للجراثيم والميكروبات ليست دليلا على أنها خلقت ساعة رأيناها . . بل هي موجودة تؤدي مهمتها . . سواء رأيناها أو لم نرها .
فلو حدثنا أحد عن الميكروبات والجراثيم قبل أن نراها رؤية العين . . هل كنا نصدق؟ . . والله سبحانه وتعالى ترك بعض خلقه غير مدرك في زمنه لبعض حقائق الكون ليرتقي الانسان ويدرك بعد ذلك . . وكان المفروض أنه يزداد ايمانا . . عندما يدرك ويعرف الخلق بالدليل المادي أن ما هو غيب عنهم موجود وان كنا لا نراه . .

والله تبارك وتعالى قد أعطانا من آياته في الكون ما يجعلنا ندرك أن لهذا الكون خالقا . . فالشمس والقمر والنجوم والأرض والانسان والحيوان والجماد لا يستطيع أحد أن يدعي انه خلقهم . . ولا أحد يمكن أن يدعي أنه خلق نفسه أو غيره . . ولا يمكن لهذا الكون بهذا النظام الدقيق أن يوجد مصادفة؛ لأن المصادفات أحداث غير مرتبة أو غير منظمة . . ولو وجد هذا الكون بالصدفة لتصادمت الشمس والقمر والنجوم والأرض ولاختل الليل والنهار . . ولكن كل ما في الكون من آيات يؤكد لنا أن هناك قوة هائلة هي التي خلقت ونظمت وأبدعت . . فإذا جاءنا رسول يبلغنا أن الله سبحانه وتعالى هو الذي خلق هذا الكون فلا بد أن نصدقه . . ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : { وَتَقِيْمُوْنَ الصَّلَاةَ } . . والصلاة هي إدامة ولاء العبودية للحق تبارك وتعالى وهي لا تسقط عن الانسان أبدا . . فالانسان يصلي وهو واقف ، فإن لم يستطع يصلي وهو جالس . فإن لم يستطع ، فيصلي وهو راقد . . ولا تسقط الصلاة عن الانسان من ساعة التكليف إلى ساعة الوفاة كل يوم خمس مرات . .
ويقول الحق تبارك وتعالى : { وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُوْنَ } . . وحين نتكلم عن الرزق يظن كثير من الناس أن الرزق هو المال . . نقول له لا . . الرزق هو ما ينتفع به فالقوة رزق ، والعلم رزق ، والحكمة رزق ، والتواضع رزق . . وكل ما فيه حركة للحياة رزق . . فإن لم يكن عندك مال

لتنفق منه ف عندك عافية تعمل بما لتحصل على المال . . وتتصدق بما على العاجز والمريض . .
وان كان عندك حلم . . فإنك تنفقه بأن تقى الأحمق من تصرفات قد تؤذي المجتمع وتؤذيك . .
وان كان عندك علم انفقته لتعلم الجاهل . . وهكذا نرى : { وَمَا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ } تستوعب
جميع حركة الحياة .

وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (4)

الحق سبحانه وتعالى في هذه الآية الكريمة يعطينا صفات أخرى من صفات المؤمنين . . فبعد أن
ابلغنا أن من صفات المؤمنين الايمان بالغيب واقامة الصلاة والانفاق مما رزقهم الله . . يأتي بعد
ذلك الى صفات أخرى . .

فهؤلاء المؤمنون هم : { وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ } أي بالقرآن الكريم الذي أنزله الله
سبحانه وتعالى . . و « بما أنزل من قبلك » وهذه لم تأت في وصف المؤمنين إلا في القرآن الكريم
. . ذلك أن الاسلام عندما جاء كان عليه أن يواجه صنفين من الناس . . الصنف الأول هم
الكفار وهم لا يؤمنون بالله ولا برسول مبلغ عن الله . . وكان هناك صنف آخر من الناس . .
هم أهل الكتاب يؤمنون بالله ويؤمنون برسول عن الله وكتب عن الله . .
والاسلام واجه الصنفين . . لأن أهل الكتاب ربما ظنوا أنهم على صلة بالله . . يؤمنون به
ويتلقون منه كتباً ويتبعون رسلاً وهذا في نظرهم كاف . . نقول لا . . فالإسلام جاء ليؤمن به
الكافر ، ويؤمن به أهل الكتاب ، ويكون الدين كله لله . .

والله سبحانه وتعالى في كتبه التي أنزلها أخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن اسمه
وأوصافه . . وطلب من أهل الكتاب الذين سيدركون رسالته صلى الله عليه وسلم أن يؤمنوا به .
. ولقد أعطى الله جل جلاله أوصاف رسول الله صلى الله عليه وسلم لأهل الكتاب حتى إنهم
كانوا يعرفونه كما يعرفون أبناءهم . . بل كانت معرفتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم وزمنه
وأوصافه معرفة يقينية . . وكان يهود المدينة يقولون للكفار . . أَطَّلَ زمن رسول سنؤمن به
ونقتلكم قتل عاد وإرم . . فلما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا أول من حاربه وأنكر
نبوته . . فأوصاف رسول الله عليه الصلاة والسلام موجودة في التوراة والانجيل . . ولذلك كان
أهل الكتاب يندرون الكفار بأنهم سيؤمنون بالرسول الجديد ويسودون به العرب . . وقرأ قول
الحق سبحانه وتعالى :

{ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا
فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ } [البقرة : 89]

أي أن رسالة محمد صلى الله عليه وسلم لم تكن مفاجئة لأهل الكتاب بل كانوا ينتظرونها . .
كانوا يؤكدون أنهم سيؤمنون بما كما تأمرهم بها كتبهم . . ولكنهم رفضوا الايمان وأنكروا الرسالة

عندما جاء زمنها . .

ثم يقول سبحانه وتعالى : { وبالآخرة هُم يُوقِنُونَ } ونلاحظ هنا أن كلمة (وبالآخرة) قد جاءت . . لأنك اذا تصفحت التوراة التي هي كتاب اليهود ، أو قرأت التلمود لا تجد شيئا عن اليوم الآخر .

. فقد أخذوا الأمر المادي فقط من كتبهم . . والله تبارك وتعالى أكد الايمان باليوم الآخر حتى عرف الذين يقولون آمنا بالله وكتبه ورسله ولا يلتفتون الى اليوم الآخر أنهم ليسوا بمؤمنين . . فلو لم يجرى هذا الوصف في القرآن الكريم ربما قالوا إن الاسلام موافق لما عندنا . . ولكن الله جل جلاله يريد تصوير الايمان تصويرا كامليا بأن الايمان بالله قمة ابتداء والايمان باليوم الآخر قمة انتهاء . . فمن لم يؤمن بالآخرة وأنه سيلقى الله وسيحاسبه . . وأن هناك جنة ينعم فيها المؤمن ، ونارا يعذب فيها الكافر يكون ايمانه ناقصا . . ويكون قد اقترب من الكافر الذي جعل الدنيا غايته وهدفه . .

فالمؤمن يتبع منهج الله في الدنيا ليستحق نعيم الله في الآخرة . . فلو أن الآخرة لم تكن موجودة ، لكان الكافر أكثر حفا من المؤمن في الحياة . . لأنه أخذ من الدنيا ما يشتهي ولم يقيد نفسه بمنهج ، بل أطلق لشهواته العنان . . بينما المؤمن قيّد حركته في الحياة طبقا لمنهج الله وتعب في سبيل ذلك . ثم يموت الاثنان وليس بعد ذلك شيء . . فيكون الكافر هو الفائز بنعم الدنيا وشهواتها . والمؤمن لا يأخذ شيئا . والأمر هنا لا يستقيم بالنسبة لقضية الايمان . . ولذلك كان الايمان بالله قمة الايمان بداية والايمان بالآخرة قمة الايمان نهاية .

أَوْلَيْكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأَوْلَيْكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (5)

قوله تعالى : (أولئك) اشارة الى الذين تنطبق عليهم كل الصفات التي بينها الله سبحانه وتعالى في الآيتين السابقتين . . فأولئك الذين تنطبق عليهم هذه الصفات وصلوا الى الهدى أي الى الطريق الموصل للإيمان . . ووصلوا إلى الفلاح ، وهو الهدف من الإيمان . . وقوله تعالى : { أولئك على هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأَوْلَيْكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } تشمل الجميع . . ولكن لماذا استخدم الله تبارك وتعالى { أولئك } مرتين؟ تلك من بلاغة القرآن الكريم ، ولماذا دمج الخبرين بعضهما مع بعض؟ حتى نعرف أنه ليس في الاسلام إيمانان بل إيمان واحد يترتب عليه جزاء واحد . . وسيلته الهدى ، وغايته الفلاح . . ولو نظر الى التكليفات التي هي الهدى الموصلة الى الغاية نجد أن الله سبحانه وتعالى رفع المهتدي على الهدى . . لنعرف أن الهدى لم يأت ليقيد حركتك في الحياة ويستدلك ، وانما جاء ليرفعك . . إن السطحيين يعتقدون أن الهدى يقيد حركة الانسان في الحياة ويمنعه من تحقيق شهواته العاجلة .

. ولكن الهدى في الحقيقة يرفع الانسان ويحفظه من الضرر ، ومن غضب الله ، ومن افساد المجتمع الذي سيكون هو أول من يعاني منه . . لذلك قال تبارك وتعالى : { على هُدًى } . . و (على) تفيد الاستعلاء . فاذا قلت أنت على الجواد فإنك تعلوه . . كأن المهتدى حين يلزم نفسه بالمنهج لا يذل . . ولكنه يرتفع الى الهدى ويصبح الهدى يأخذه من خير الى خير . . وذلك بعكس الضلالة التي تأخذ الانسان الى أسفل . . ولذلك حين تقرأ في القرآن الكريم قوله تعالى : { وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ } [سبأ : 24] ترى ما يفيد الارتفاع والعلو في الهداية ، وما يفيد الانخفاض والنزول في الضلالة؛ وإنما كان العلو في الهدى . . لأن المنهج قَيَّدَ حركة حياتك اعزازا لك لعلوك وسمو مقامك في أنك لا تأخذ من بشر تشريعا . . ولا تأخذ من ذاتك حركة . . وإنما يرتفع بك لتلقي عن الله سبحانه وتعالى . . وهذا علو كبير . . ولكن عند الضلالة قال : « في ضلال » . . و (في) تدل على الظرفية المحيطة . . وهو كما وصفه الله سبحانه وتعالى في آية أخرى بقوله جل جلاله : { بلى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } [البقرة : 81] أحاطت به الخطيئة . . أي لا يستطيع أن يفلت منها لأنه مطرووف في الضلال . . وما دامت الخطيئة محيطة به فلا يجد منفذا لأنها تحكمه . . وما دامت تحكمه فلا يمكن أن يصل إلى هدى مطلقا . . فالحق سبحانه وتعالى حينما قال : { أولئك على هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } . . اختار لفظا عليه دلالة دنيوية تقرب المعنى الى السامع . .

ما هو الفلاح؟ . . المعنى العام هو الفوز والمُفْلِحُ هو الفائز . ومعنى الآية الكريمة أولئك هم الفائزون وقال : « هم المفلحون » .

. لأن الفلاح مأخوذ من شق الأرض للبذر . . ومنه سُمِّيَ الفلاح الذي صفته شق الأرض ورمي البذور فيها . .

والحق سبحانه تعالى جاء بهذا اللفظ بالنسبة للآخرة لأنه يريد أن يأتي لنا مع الشيء بدليله . . وهناك فرق بين أمر غيبي عنا لا نعرفه . . وأمر غيبي يستدل عليه بمشهود . . فالدين يقيّد حريتك في الحياة في أن تفعل ولا تفعل . . ومنهج الله جاء ليقول لك إفعل كذا ولا تفعل كذا . . وكثير من الناس يظن أن ذلك تقييد لحركة حياة المؤمن واثقال عليه . . لأنه أخذ منه حرية حركته فقيدها . .

ان الله تبارك وتعالى حين يقول لك لا تفعل . . معناها عند السطحيين أنه ضيق عليك ما تريد أن تفعل . . وحين يقول لك افعل . . معناها يكون قد ضيق عليك في شيء لا تريد أن تفعله . . فمثلا : حين يطلب منك الزكاة . . فالزكاة في ظاهرها نقص المال ، وإن كانت في حقيقتها بركة ونماء . . ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ما نقصت صدقة من مال ، وما زاد الله

عبدا بعفو إلا عزا ، وما تواضع أحد لله إلا رفعه »

فالحق سبحانه وتعالى اذا قيد حركتك في الحياة . . لا تظن أن هذا تضيق عليك . . بل ان هذا لفائدتك . . لأنه لم يأمرك وحدك ، ولكن الأمر للناس جميعا حين يقول جل جلاله : لا تسرق . . فقد قالها للناس جميعا ولذلك تكون أنت الرابع . . لأنه قيدك وأنت فرد من أن تسرق من غيرك . . ولكنه قيد ملايين الناس من أن يسرقوا منك . . اذن فالله لم يضيق عليك ، ولكنه حمى مالك من الناس كل الناس . . قيدك وأنت فرد أن تسرق من مال غيرك ، وقيد ملايين أن يسرقوا من مالك . . فمن الفائز؟ . . أنت طبعاً . .

وقوله تعالى : { وأولئك هم المفلحون } (المفلحون) من مادة فلح . . فاذا كانت الأرض صماء فحينما نشقها ونبذرها تعطي محصولا عظيما ، العملية أخذناها أبا عن جد . فالأرض حين تشق وتُبذَر تُعطي محصولا وافرا . . واذا كانت هذه العملية أخذت أبا عن جد . . يأتي السؤال من الذي علم آدم البذر والزرع؟ . . نقول علمه الله سبحانه وتعالى كما علمه الأسماء . . وكما علمه ما يمكنه به أن يباشر مهمته في الأرض . .

والحق جل جلاله لم يكن يترك آدم في حياته على الأرض دون أن يعلمه ما يضمن استمرار حياته وحياة أولاده . . يعلمه على الأقل بدايات . . ثم بعد ذلك تتطور هذه البدايات بما يكشفه الله من علمه لخلقه . . وبعد ذلك جاءت القرون المتقدمة فاستطعنا أن نستخدم آلات حديثة متطورة تقوم بعملية الحرث والبذر . .

ولكن الحقيقة الثابتة التي لم تتغير منذ بداية الكون ولن تتغير حتى نهايته . . هي أن مهمة الانسان أن يحرث ويضع البذرة في الأرض ويسقيها . . أما نمو الزرع نفسه فلا دخل للانسان فيه .

. وكذلك الثمر الذي ينتجه لا عمل للإنسان فيه . .

ولقد نبهنا الله تبارك وتعالى الى هذه الحقيقة حتى لا نغتر بحركتنا في الحياة ونقول إننا نحن الذين نزرع . . واقرأ قول الحق جل جلاله في سورة الواقعة : { أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ * أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ * لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ * إِنَّا لَمُعْرِمُونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ } [

الواقعة : 63-67] وهكذا ظلت مهمة الفلاحة في الأرض مقتصرة على الحرث والسقي والبذر ، وحينما تلقى الحبة في الأرض يخلق الله في داخلها الغذاء الذي يكفيها حتى تستطيع أن تأخذ غذاءها من الأرض . . واذا جئت بحبة وبللتها تجد أنها قد نبت لها ساق وجذور . . من أين جاء هذا النمو؟ . . من تكوين الحبة نفسه ، والله تبارك وتعالى قد قدر في كل حبة من الغذاء ما يكفيها حتى تستطيع أن تتغذى من الأرض . . وعلى قدر كمية الغذاء المطلوبة يكون حجم الحبة . . وحين تضعها في الأرض فإنها تبدأ أولا بأن تغذي نفسها . . بحيث ينبت لها ساق وجذور وورقتان تتنفس منهما . . كل هذا لا دخل لك فيه ولا عمل لك فيه . . وتبدأ الحبة

تأخذ غذاءها من الأرض والهواء . . لتنمو حتى تصبح شجرة كبيرة تنتج الثمر من نوع البذرة
نفسه .

ومن هنا جاءت كلمة (المفلحون) . . ليعطينا الحق جل جلاله من الأمور المادية المشهودة ما
يعين عقولنا المحدودة على فهم الغيب . . فيشبه التكليف جزاءه في الآخرة بالبذور والفلاحة . .
أولا لأنك حين ترمي بذرة في الأرض تعطيك بذورا كثيرة . .
واقراً قول الله سبحانه وتعالى :

{ مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةٌ حَبَّةٌ
وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ } [البقرة : 261]

وإذا كانت الأرض وهي المخلوقة من الله تمك أضعاف أضعاف ما أعطيتها . . فكيف بالخالق؟ .
. وكم يضاعف لك من الثواب في الطاعة؟ . . هذا هو السبب في أن الحق تبارك وتعالى يقول :
{ وأولئك هم المفلحون } . . حتى يلفتنا بمادة الفلاحة . . وهي شيء موجود نراه ونشاهده كل
يوم .

وكما أن التكليف يأخذ منك أشياء ليضاعفها لك . . كذلك الأرض أخذت منك حبة ولم تعطك
مثل ما أخذت ، بل أعطتك بالحبة سبعمائة حبة . . وهكذا نستطيع أن نصل بشيء مشهود
يُفَصِّلُ لنا شيئا غيبيا .

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْتَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (6)

وبعد ان تحدث الحق سبحانه وتعالى عن المؤمنين وصفاتهم . . وجزائهم في الآخرة وما ينتظرهم من
خير كبير . . اراد ان يعطينا تبارك وتعالى الصورة المقابلة وهم الكافرون . . وبين لنا ان الايمان
جاء ليهيمن على الجميع يحقق لهم الخير في الدنيا والآخرة . . فلا بد أن يكون هناك شر يحاربه
الإيمان . . ولولا وجود هذا الشر . . أكان هناك ضرورة للإيمان . . إن الانسان المؤمن يقى
نفسه ومجتمعه وعالمه من شرور يأتي بها الكفر . . والكافرون قسمان . . قسم كفر بالله اولا ثم
استمع الى كلام الله . . واستقبله بفطرته السليمة فاستجاب وآمن . . وصنف آخر مستفيد من
الكفر ومن الطغيان ومن الظلم ومن اكل حقوق الناس وغير ذلك . . وهذا الصنف يعرف ان
الإيمان اذا جاء فانه سيسلبه جاها دنيويا ومكاسب يحققها ظلما وعدوانا . .

اذن الذين يقفون امام الايمان هم المستفيدون من الكفر . . ولكن ماذا عن الذين كانوا كفارا
واستقبلوا دين الله استقبالا صحيحا . .

هؤلاء قد تفتح قلوبهم فيؤمنون . والكفر معناه الستر . . ومعنى كَفَرَ (أي) سَتَرَ . . وكفر بالله
أي ستر وجود الله جل جلاله . . والذي يستر لابد ان يستر موجودا ، لأن الستر طارئ على
الوجود . . والاصل في الكون هو الايمان بالله . . وجاء الكفار يحاولون ستر وجود الله . فكأن

الأصل هو الايمان ثم طرأت الغفلة على الناس فستروا وجود الله سبحانه وتعالى . . ليقبوا على سلطانهم او سيطرتهم او استغلاهم او استعلائهم على غيرهم من البشر . .
ولفظ الكفر في ذاته يدل على ان الايمان سبق ثم بعد ذلك جاء الكفر . . كيف؟ . .
لأن الخلق الاول وهو آدم الذي خلقه الله بيديه . . ونفخ فيه من روحه وأسجد له الملائكة . .
وعلمه الاسماء كلها . .
سجود الملائكة وتعليم الاسماء أمر مشهدي بالنسبة لآدم . . والكفر ساعتها لم يكن موجودا . .
وكان المفروض ان ادم بعد ان نزل الى الارض واستقر فيها . . يلقن ابنائه منهج عبادة الله لأنه نزل ومعه المنهج في (افعل ولا تفعل) وكان على ابناء آدم ان يلقنوا ابنائهم المنهج وهكذا . .
ولكن بمرور الزمن جاءت الغفلة في أن الايمان يقيد حركة الناس في الكون . . فبدأ كل من يريد ان يخضع حياته لشهوة بلا قيود يتخذ طريق الكفر . . والعاقل حين يسمع كلمة كفر . . يجب عليه أن يتنبه إلى أن معناها ستر لموجود واجب الوجود . . فكيف يكفر الانسان ويشارك في ستر ما هو موجود . . لذلك تجد ان الحق سبحانه وتعالى يقول : { كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ }

[البقرة : 29] وهكذا يأتي هذا السؤال . . ولا يستطيع الكافر له جوابا!! لأن الله هو الذي خلقه وأوجده . . ولا يستطيع احد منا ان يدعي انه خلق نفسه او خلق غيره . . فالوجود بالذات دليل على قضية الايمان . . ولذلك يسألهم الحق تبارك وتعالى كيف تكفرون بالله وتستترون وجود من خلقكم؟ . .
والخلق قضية محسومة لله سبحانه وتعالى لا يستطيع احد ان يدعيها . . فلا يمكن ان يدعي أحد أنه خلق نفسه . . قضية انك موجود توجب الايمان بالله سبحانه وتعالى الذي اوجدك . . انه عين الاستدلال على الله . . واذا نظر الانسان حوله فوجد كل ما في الكون مسخر لخدمته والاشياء تستجيب له فظن بمرور الزمن ان له سيطرة على هذا الكون . . ولذلك عاش وفي ذهنه قوة الاسباب . . يأخذ الاسباب وهو فاعلها فيجدها قد اعطته واستجابت له . . ولم يلتفت الى خالق الاسباب الذي خلق لها قوانينها فجعلها تستجيب للانسان . . وقد اشار الحق تبارك وتعالى الى ذلك في قوله جل جلاله : { كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُفٍ * أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى } [العلق : 6-7] ذلك ان الانسان يحرق الارض فتعطيه الثمر . . فيعتقد انه هو الذي اخضع الارض ووضع لها قوانينها لتعطيه ما يريد . . يضغط على زر الكهرباء فينير المكان فيعتقد انه هو الذي اوجد هذه الكهرباء! يركب الطائرة . . وتسير به في الجو فيعتقد انه هو الذي جعلها تطير . . وينسى الخصائص التي وضعها الله سبحانه وتعالى في الغلاف الجوي ليستطيع ان يحمل هذه

الطائرة . . يفتح التليفزيون ويرى أمامه احداث العالم فيعتقد ان ذلك قد حدث بقدرته هو . . وينسى ان الله تبارك وتعالى وضع في الغلاف الجوي خصائص جعلته ينقل الصوت والصورة من اقصى الدنيا الى اقصاها في ثوان معدودة . . وهكذا كل ما حولنا يظن الانسان انه اخضعه بذاته . . بينما كل هذا مسخر من الله سبحانه وتعالى لخدمة الانسان . . وهو الذي خلق ووضع القوانين . . نقول له انك لو فهمت معنى ذاتية الاشياء ما حدثتك نفسك بذلك . . الشيء الذاتي هو ما كان بذاتك لا يتغير ولا يتخلف ابدا . . انما الامر الذي ليس بذاتك هو الذي يتغير . .

واذا نظرت إلى ذاتيتك تلك التي اغرتك واطغتك . . ستفهم ان كلمة ذاتية هي ألا تكون محتاجا الى غيرك بل كل شيء من نفسك . . وانت في حياتك كلها ليس لك ذاتية . . لأن كل شيء حولك متغير بدون ارادتك . . وانت طفل محتاج إلى أبيك في بدء حياتك . . فاذا كبرت وأصبح لك قوة واستجابات الاحداث لك فإنك لا تستطيع ان تجعل فترة الشباب والفتوة هذه تبقى .

. فالزمن يملك ولكن لفترة محدودة . . فاذا وصلت الى مرحلة الشيخوخة فستحتاج الى من يأخذ بيدك ويعينك . . ربما على ادق حاجاتك وهي الطعام والشراب . .

إذن فأنت تبدأ بالطفولة محتاجا إلى غيرك . . وتنتهي بالشيخوخة محتاجا إلى غيرك . . وحتى عندما تكون في شبابك قد يصيبك مرض يقعدك عن الحركة . . فاذا كانت لك ذات حقيقية فأدفع هذا المرض عنك وقل لن امراض . . انك لا تستطيع . .

والله سبحانه وتعالى اوجد هذه المتغيرات حتى ينتهي الغرور من الانسان نفسه . . ويعرف انه قوي قادر بما اخضع الله له من قوانين الكون . . لنعلم اننا جميعا محتاجون الى القادر ، وهو الله سبحانه وتعالى ، وان الله غني بذاته عن كل خلقه . . يغير ولا يتغير . . يبيت وهو دائم الوجود . . يجعل من بعد قوة ضعفا وهو القوي دائما . . ما عند الناس ينفد وما عنده تبارك وتعالى لا ينفد أبداً . . هو الله في السماوات والأرض .

اذن فليست لك ذاتية حتى تدعي انك اخضعت الكون بقدراتك . . لانه ليس لك قدرة ان تبقى على حال واحد وتجعله لا يتبدل ولا يتغير . . فكيف تكفر بالله تبارك وتعالى وتستر وجوده . . كل ما في الكون وما في نفسك شاهد ودليل على وجود الحق سبحانه وتعالى . .

قلنا ان الكافرين صنفان . . صنف كفر بالله وعندما جاء الهدى حكم عقله وعرف الحق فأمن . . والصنف الآخر مستفيد من الكفر . . ولذلك فهو متشبث به مهما جاءه من الايمان والادلة اليمانية فإنه يعاند ويكفر . . لانه يريد ان يحتفظ بسلطاته الدنيوية ونفوذه القائم على الظلم والطغيان . . ولا يقبل ان يُجَرَّدَ منهما ولو بالحق . . هذا الصنف هو الذي قال عنه الله تبارك وتعالى : { إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْتَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ }

إنهم لم يكفروا لأن بلاغا عن الله سبحانه وتعالى لم يصلهم . . ولم يكفروا لأنهم في حاجة الى ان يلفتهم رسول او نبي الى منهج الله . . هؤلاء اتخذوا الكفر صناعة ومنهج حياة . . فهم مستفيدون من الكفر لأنه جعلهم سادة ولأنهم متميزون عن غيرهم بالباطل . . ولأنهم لو جاء الايمان الذي يساوي بين الناس جميعا ويرفض الظلم ، لأصبحوا أشخاصا عاديين غير مميزين في أي شيء . .

هذا الكافر الذي اتخذ الكفر طريقا لجاه الدنيا وزخرفها . . سواء أندرته أو لم تنذره فانه لن يؤمن . . انه يريد الدنيا التي يعيش فيها . . بل ان هؤلاء هم الذين يقاومون الدين ويحاربون كل من آمن . . لأنهم يعرفون ان الايمان سيسلبهم مميزات كثيرة . . ولذلك فإن عدم ايمانهم ليس عن ان منهج الايمان لم يبلغهم . . او ان أحدا لم يلفتهم الى آيات الله في الأرض . . ولكن لأن حياتهم قائمة ومبنية على الكفر .

خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةً وَهُمْ عَدَابٌ عَظِيمٌ (7)

وكما اعطانا الحق سبحانه وتعالى أوصاف المؤمنين يعطينا صفات الكافرين . . وقد يتساءل بعض الناس إذا كان هذا هو حكم الله على الكافرين؟ فلماذا يطلب رسول الله صلى الله عليه وسلم الإيمان منهم وقد ختم الله على قلوبهم؟! ومعنى الختم على القلب هو حكم بالألّا يخرج من القلب ما فيه من الكفر . . ولا يدخل إليه الإيمان . .

نقول أن الله سبحانه وتعالى غني عن العالمين . . فإن استغنى بعض خلقه عن الإيمان واختاروا الكفر . . فإن الله يساعده على الاستغناء ولا يعينه على العودة إلى الإيمان . . ولذلك فإن الحق سبحانه وتعالى يقول في حديث قدسي :

« أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه حين يذكرني . . فإن ذكرني في نفسه ، ذكرته في نفسي ، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه ، وإن اقترب إلي شبرا تقربت إليه ذراعا ، وإن اقترب إلي ذراعا اقتربت إليه باعا وإن أتاني يمشي أتيتته هرولة » .

وقد وضح الحديث القدسي أن الله تبارك وتعالى يعين المؤمنين على الإيمان ، وأن الله جل جلاله كما يعين المؤمنين على الإيمان . . فإنه لا يهمه أن يأتي العبد إلى الإيمان أو لا يأتي . . ولذلك نجد القرآن دقيقا ومحكما بأن من كفروا قد اختاروا الكفر بإرادتهم . واختيارهم للكفر كان أولا قبل أن يختم الله على قلوبهم . . والخالق جل جلاله أغنى الشركاء عن الشرك . . ومن أشرك به فإنه في غنى عنه .

إن الذين كفروا . . أي ستروا الإيمان بالله ورسوله . . هؤلاء يختم الله بكفرهم على آلات الإدراك كلها . . القلب والسمع والبصر . والقلب أداة إدراك غير ظاهرة . . وقد قدم الله القلب على السمع والبصر في تلك الآية لأنه يريد أن يعلمنا منافذ الإدراك . . وفي القرآن الكريم يقول الحق

تبارك وتعالى : { وَاللّٰهُ اَخْرَجَكُمْ مِّنْ بُطُوْنِ اُمَّهَاتِكُمْ لَّا تَعْلَمُوْنَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْاَبْصَارَ وَالْاَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُوْنَ } [النحل : 78]

وهكذا يعلمنا الله أن منافذ العلم في الإنسان هي السمع والأبصار والأفئدة . . ولكن في الآية الكريمة التي نحن بصددنا قدم الله القلوب على السمع والأبصار . . أن الله يعلم أنهم اختاروا الكفر . . وكان هذا الاختيار قبل أن يختتم الله على قلوبهم . . واختتم على القلوب . . معناه أنه لا يدخلها إدراك جديد ولا يخرج منها إدراك قديم . . ومهما رأت العين أو سمعت الأذن . . فلا فائدة من ذلك لأن هذه القلوب محتومة بخاتم الله بعد أن اختار أصحابها الكفر وأصروا عليه . . وفي ذلك يصفهم الحق جل جلاله : { صُمُّ بِكُمْ عُمِّي فَهَمْ لَا يَرْجِعُوْنَ } [البقرة : 18] ولكن لماذا فقدوا كل أدوات الإدراك هذه؟ .

. لأن الغشاوة التفت حول القلوب الكافرة ، فجعلت العيون عاجزة عن تأمل آيات الله . . والسمع غير قادر على التلقي من رسول الله صلى الله عليه وسلم . . إذن فهؤلاء الذين اختاروا الكفر وأصروا عليه وكفروا بالله رغم رسالاته ورسله وقرآنه . . ماذا يفعل الله بهم؟ أنه يتخلى عنهم . . ولأنه سبحانه وتعالى غني عن العالمين فإنه ييسر لهم الطريق الذي مشوا فيه ويعينهم عليه . . وقرأ قوله تبارك وتعالى : { وَمَنْ يَعِشْ عَنِ الذِّكْرِ الرَّحْمٰنِ نُقِصْ لَهُ شَيْطٰنًا فَهُوَ لَهُ قَرِيْنٌ } [الزخرف : 36] ويقول جل جلاله : { هَلْ اُنْبِئُكُمْ عَلٰى مَنْ تَنْزَلُ الشَّيَاطِيْنُ * تَنْزَلُ عَلٰى كُلِّ اَفَّاكٍ اٰثِيْمٍ } [الشعراء : 221-222]

ومن عظمة علم الله تبارك وتعالى أنه يعلم المؤمن ويعلم الكافر . . دون أن يكون جل جلاله تدخل في اختيارهم . . فعندما بعث الله سبحانه وتعالى نوحا عليه السلام . . ودعا نوح إلى منهج الله تسعمائة وخمسين عاما . . وقبل أن يأتي الطوفان علم الله سبحانه وتعالى أنه لن يؤمن بنوح عليه السلام إلا من آمن فعلا . . فطلب الله تبارك وتعالى من نوح أن يبني السفينة لينجو المؤمنون من الطوفان . . وقرأ قوله جل جلاله : { وَاَوْحٰى اِلٰى نُوحٍ اِنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ اِلَّا مَنْ قَدْ اٰمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوْا يَفْعَلُوْنَ * وَاَصْنَعِ الْفُلَكَ بِاَعْيُنِنَا وَّوْحٰىنَا وَلَا تَخَاطَبُنِيْ فِي الَّذِيْنَ ظَلَمُوْا اِنَّهُمْ مُّغْرَقُوْنَ } [هود : 36-37]

وهكذا نرى أنه من عظمة علم الله سبحانه وتعالى . . أنه يعلم من سيصر على الكفر وأنه سيموت كافرا . . وإذا كانت هذه هي الحقيقة فلماذا يطلب الله تبارك وتعالى من رسوله صلى الله عليه وسلم أن يبلغهم بالمنهج وبالقرآن؟ . . ليكونوا شهداء على أنفسهم يوم القيامة . . فلا يأتي هؤلاء الناس يوم المشهد العظيم ويجادلون بالباطل . . أنه لو بلغهم الهدى ودعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم لآمنوا . . ولكن لماذا يختم الله جل جلاله على قلوبهم؟ . . لأن القلب هو

مكان العقائد . . . ولذلك فإن القضية تناقش في العقل فإذا انتهت مناقشتها واقتنع بها الإنسان تماماً فإنها تستقر في القلب ولا تعود إلى الذهن مرة أخرى وتصبح عقيدة وإيمانا . . . والحق سبحانه وتعالى يقول : { فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارَ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبَ الَّتِي فِي الصُّدُورِ } [الحج : 46]

وإذا عمى القلب عن قضية الإيمان . . . فلا عين ترى آيات الإيمان . . . ولا أذن تسمع كلام الله . . . وهؤلاء الذين اختاروا الكفر على الإيمان لهم في الآخرة عذاب عظيم . . . ولقد وصف الله سبحانه وتعالى العذاب بأنه أليم . . . وبأنه مهين . . . وبأنه عظيم . . . العذاب الأليم هو الذي يسبب ألماً شديداً . . . والعذاب المهين هو الذي يأتي لأولئك الذين رفعهم الله في الدنيا . . . وأحياناً تكون الإهانة أشد إيلاماً للنفس من ألم العذاب نفسه . . . أولئك الذين كانوا أئمة الكفر في الدنيا . . . يأتي بهم الله تبارك وتعالى يوم القيامة أمام من اتبعوهم فيهمينهم . . . أما العذاب العظيم فإنه منسوب إلى قدرة الله سبحانه وتعالى . . . لأنه بقدرات البشر تكون القوة محدودة . . . أما بقدرات الله جل جلاله تكون القوة بلا حدود . . . لأن كل فعل يتناسب مع فاعله . . . وقدرة الله سبحانه وتعالى عظيمة في كل فعل . . . وبما أن العذاب من الله جل جلاله فإنه يكون عذاباً عظيماً .

وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ (8)

الناس في الحياة الدنيا على ثلاثة أحوال : إما مؤمن ، وإما كافر ، وإما منافق .
والله سبحانه وتعالى في بداية القرآن الكريم في سورة البقرة . . . أراد أن يعطينا وصف البشر جميعاً بالنسبة للمنهج وأنهم ثلاث فئات : الفئة الأولى هم المؤمنون ، عَرَفْنَا الله سبحانه وتعالى صفاتهم في ثلاث آيات ، في قوله تعالى :

{ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ * أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمفلحُونَ }
والفئة الثانية هم الكفار ، وعرفنا الله سبحانه وتعالى صفاتهم في آيتين في قوله تعالى :
{ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةً وَهُمْ عَدَابٌ عَظِيمٌ }

وجاء للمنافقين فعرف صفاتهم في ثلاث عشرة آية متتابعة ، لماذا . . . ؟ لخطورتهم على الدين ، فالذي يهدم الدين هو المنافق ، أما الكافر فنحن نتقيه ونحذره ، لأنه يعلن كفره .
إن المنافق ، يتظاهر أمامك بالإيمان ، ولكنه يبطن الشر والكفر ، وقد تحسبه مؤمناً ، فتطلعته على أسرارك ، فيتخذها سلاحاً لطعن الدين . . . وقد خلق الله في الإنسان ملكات متعددة ، ولكن يعيش الإنسان في سلام مع نفسه ، لا بد أن تكون ملكاته منسجمة وغير متناقضة .

فالمؤمن ملكاته منسجمة ، لأنه اعتقد بقلبه في الإيمان ونطق لسانه بما يعتقد ، فلا تناقض بين ملكاته أبداً . .

والكافر قد يقال إنه يعيش في سلام مع نفسه ، فقد رفض الإيمان وأنكره بقلبه ولسانه وينطق بذلك ، ولكن الذي فقد السلام مع ملكاته هو المنافق ، أنه فقد السلام مع مجتمعه وفقد السلام مع نفسه ، فهو يقول بلسانه ، ما لا يعتقد قلبه ، يظهر غير ما يبطن ، ويقول غير ما يعتقد ، ويخشى أن يكشفه الناس ، فيعيش في خوف عميق ، وهو يعتقد أن ذلك شيء مؤقت سينتهي .

ولكن هذا التناقض يبقى معه إلى آخر يوم له في الدنيا ، ثم ينتقل معه إلى الآخرة ، فينقض عليه ، ليقوده إلى النار ، وقرأ قوله تبارك وتعالى : { حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَقَالُوا لَوْلَا جِئُونَا بِشَاهِدٍ عَلَىٰ نَفْسِنَا قَالَوا أَلَمْ نَقُلْ لَكَ اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ } [فصلت : 20-21]

إذن كل ملكاتهم انقضت عليهم في الآخرة ، فالسلام الذي كانوا يتمنونونه لم يحققوه لا في حياتهم ولا في آخرتهم ، فلسان المنافق يشهد عليه ، ويدها تشهدان عليه ، ورجلاه تشهدان عليه ، والجلود تشهد عليه ، فماذا بقي له؟

بينه وبين ربه تناقض ، وبينه وبين نفسه تناقض ، وبينه وبين مجتمعه تناقض ، وبينه وبين آخرته تناقض . وبينه وبين الكافرين تناقض . يقول لسانه ما ليس في قلبه ، وبماذا وصف الحق سبحانه وتعالى المنافقين؟ قال تعالى :

{ وَمَنْ النَّاسَ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ } [البقرة : 8]

هذه أول صفات المنافقين في القرآن الكريم ، يعلنون الإيمان وفي قلوبهم الكفر ، ولذلك فإن إيمانهم كله تظاهر ، إذا ذهبوا للصلاة لا تكتب لهم ، لأنهم يتظاهرون بها ، ولا يؤدونها عن إيمان ، وإذا أدوا الزكاة ، فإنها تكون عليهم حسرة ، لأنهم ينفقونها وهم لها كارهون ، لأنها في زعمهم نقص من مالهم . لا يأخذون عليها ثوابا في الآخرة ، وإذا قتل واحد منهم في غزوة ، انتابهم الحزن ، والأسى ، لأنهم أهدروا حياتهم ولم يقدموها في سبيل الله . وهكذا يكون كل ما يفعلونه شقاء بالنسبة لهم .

أما المؤمن فحين يصلي أو يؤدي الزكاة أو يستشهد في سبيل الله فهو يرجو الجنة ، وأما المنافقون فإنهم يفعلون كل هذا ، وهم لا يرجون شيئا . فكأنهم بنفاقهم قد حكم عليهم الله سبحانه وتعالى بالشقاء في الدنيا والآخرة ، فلا هم في الدنيا لهم متعة المؤمن فيما يفعل في سبيل الله ، ولا هم في الآخرة لهم ثواب المؤمن فيما يرجو من الله .

يَخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (9)

وتأتي الصفة الثانية من صفات المنافقين ، وهي صفة تدل على غفلتهم وحمق تفكيرهم ، فإنهم يحسبون أنهم بنفاقهم يخدعون الله سبحانه وتعالى ، وهل يستطيع بشر أن يخدع رب العالمين؟ إن الله عليم بكل شيء ، عليم بما نخفي وما نعلن ، عليم بالسر وما هو أخفى من السر ، وهل يوجد ما هو أخفى من السر؟ نقول نعم ، السر هو ما أسررت به لغيرك ، فكأنه يعلمه اثنان ، أنت ومن أسررت إليه . ولكن ما هو أخفى من السر ، ما تبقيه في نفسك ولا تخبر به أحدا ، أنه يظل في قلبك لا تسر به لإنسان ، والله سبحانه وتعالى يقول : { وَإِنْ تَجَهَّرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَ وَأَخْفَى } [طه : 7]

فلا يوجد مخلوق ، يستطيع أن يخدع خالقه ، ولكنهم من غفلتهم ، يحسبون أنهم يستطيعون خداع الله جل جلاله . وفي تصرفهم هذا لا يكون هناك سلام بينهم وبين الله . بل يكون هناك مقت وغضب .

وهم في خداعهم يحسبون أيضا أنهم يخدعون الذين آمنوا ، بأنهم يقولون أمامهم غير ما يبتغون ، ولكن هذا الخداع شقاء عليهم ، لأنهم يعيشون في خوف مستمر ، وهم دائما في قلق أو خوف من أن يكشفهم المؤمنون ، أو يستمعوا إليهم في مجالسهم الخاصة ، وهم يتحدثون بالكفر ويسخرون من الإيمان ، ولذلك إذا تحدثوا لابد أن يتأكدوا أولا من أن أحدا من المؤمنين لا يسمعهم ، ويتأكدوا ثانيا من أن أحدا من المؤمنين لن يدخل عليهم وهم يتحدثون ، والخوف يملأ قلوبهم أيضا ، وهم مع المؤمنين ، فكل واحد منهم يخشى أن تفلت منه كلمة ، تفضح نفاقه وكفره .

وهكذا فلا سلام بينهم وبين المؤمنين . . والحقيقة أنهم لا يخدعون إلا أنفسهم . فالله سبحانه وتعالى ، يعلم نفاقهم ، والمؤمنون قد يعلمون هذا النفاق ، فإن لم يعلموه ، فإن الله يخبرهم به ، واقرأ قول الحق سبحانه وتعالى : { وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ } [محمد : 30]

ألم يأت المنافقون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ليشهدوا أنه رسول الله ففضحهم الله أمام رسوله وأنزل قوله تعالى : { إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ } [المنافقون : 1]

جاء المنافقون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يشهدون بصدق رسالته ، والله سبحانه وتعالى يعلم أن هذه الشهادة حق وصدق ، لأنه جل جلاله ، يعلم أن رسوله صلى الله عليه وسلم ، صادق الرسالة ، ولكنه في الوقت نفسه يشهد بأن المنافقين كاذبون . كيف؟

كيف يتفق كلام الله مع ما قاله المنافقون ثم يكونون كاذبين؟

نقول : لأن المنافقين قالوا بألسنتهم ما ليس في قلوبهم ، فهم شهدوا بألسنتهم فقط أن محمدا صلى الله عليه وسلم رسول الله ولكن قلوبهم منكرة لذلك ، مكذبة به ، ولذلك فإن ما قاله

المنافقون رغم أنه حقيقة إلا أنهم يكذبون ، ويقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم ، لأن الصدق هو أن يوافق الكلام حقيقة ما في القلب ، وهؤلاء كذبوا ، لأنهم في شهادتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكونوا يعبرون عن واقع في قلوبهم ، بل قلوبهم تُكذِّبُ ما يقولون .

وهناك آيات كثيرة في القرآن الكريم يفضح الله سبحانه وتعالى فيها المنافقين وبنبي رسوله صلى الله عليه وسلم بما يضمرونه في قلوبهم ، إذن فخداعهم للمؤمنين ، رغم أنه خداع بشر لبشر ، إلا أنه أحيانا تفلت ألسنتهم ، فتعرف حقيقتهم ، وإذا لم يفلت اللسان ، جاء البيان من الله سبحانه وتعالى ليفضحهم ، وتكون حصيلة هذا كله ، أنهم لا يخدعون أحدا ، فالله يعلم سرهم وجهرهم ، فمرة يعين الله المؤمنين عليهم فيكشفونهم ، ومرة تفلت ألسنة المنافقين فيكشفون أنفسهم .

إذن فسلوك المنافق ، لا يخدع به إلا نفسه ، وهو الخاسر في الدنيا والآخرة ، عندما يؤدي عملا إيمانيا ، فالله يعلم أنه نفاق ، وعندما يحاول أن يخدع المؤمنين ، ينكشف ، والنتيجة أنهم يعتقدون بأنهم حققوا لأنفسهم نفعا ، بينما هم لم يحققوا لأنفسهم إلا الخسران المبين .

فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (10)

فالله سبحانه وتعالى ، شبه ما في قلوب المنافقين بأنه مرض ، والمرض أولا يورث السقم ، فكأن قلوبهم لا تملك الصحة الإيمانية التي تحيي القلب فتجعله قويا شابا ، ولكنها قلوب مريضة ، لماذا كانت مريضة؟ لقد أتعبها النفاق وأتعبها التنافر مع كل ما حولها ، وأحست أنها تعيش حياة ملوثة الكذب ، فاضطراب القلب ، جعله مريضا ، ولا يمكن أن يشفى إلا بإذن الله ، وعلاجه هو الإيمان الحقيقي الصادق ، ذلك الذي يعطيه الشفاء ، والله سبحانه وتعالى يقول : { وَنُنزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا } [الإسراء : 82]

إذن فالإيمان والقرآن هما شفاء القلوب ، كلاهما بعيد عن قلوب هؤلاء المنافقين ، فكأن المرض يزداد في قلوبهم مع الزمن ، والله سبحانه وتعالى بنفاقهم وكفرهم يزيدهم مرضا . وهذه هي الصفة الثالثة للمنافقين . . أنهم أصحاب قلوب مريضة سقيمة ، لا يدخلها نور الإيمان ، ولذلك فهي قلوب ضعيفة ، ليس فيها القوة اللازمة لمعرفة الحق . وهي قلوب خائفة من كل ما حولها ، مرتعبة في كل خطواتها ، مضطربة بين ما في القلب وما على اللسان ، والمرضى لا يقوى على شيء وكذلك هذه القلوب لا تقوى على قول الحق ، ولا تقوى على الصدق ، ولا ترى ما حولها ، تلك الرؤية التي تتناسب وتتفق مع فطرة الإيمان ، التي وضعها الله تعالى في القلوب ، ولذلك إذا دخل المنافقون في معركة في صفوف جيش المسلمين . . فأول ما يبحثون عنه هو الهرب من

المعركة ، يبحثون عن محباً يختفون فيه ، أو مكان لا يراهم فيه أحد ، والله سبحانه وتعالى يصفهم بقوله : { لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأًا أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدْخَلًا لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَكْمَحُونَ } [التوبة : 57] لماذا؟ لأنهم أصحاب قلوب مريضة ، لا تقوى على شيء ، ومرضاها يجعلها تحرب من كل شيء ، وتختفي . وليت الأمر يقتصر عند هذا الحد ، ولكن ينتظرهم في الآخرة عذاب أليم ، غير العذاب الذي عانوه من قلوبهم المريضة في الدنيا ، فيما كانوا يكذبون على الله وعلى رسوله ، ينتظرهم في الآخرة عذاب أليم أشد من عذاب الكافرين ، والله سبحانه وتعالى يقول : { إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ } [النساء : 145]

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (11)

الفساد في الأرض هو أن تعمد إلي الصالح فتنفسده ، وأقل ما يطلب منك في الدنيا ، أن تدع الصالح لصلاحه ، ولا تتدخل فيه لتفسده ، فإن شئت أن ترتقي إيماناً ، تأت للصلاح ، وترد من صلاحه ، فإن جئت للصلاح وأفسدته فقد أفسدت فسادين ، لأن الله سبحانه وتعالى ، أصلح لك مقومات حياتك في الكون ، فلم تتركها على الصلاح الذي خلقت به ، وكان تركها في حد ذاته ، بعدا عن الفساد ، بل جئت إليها ، وهي صالحة بخلق الله لها فأفسدتها ، فأنت لم تستقبل النعمة الممنوحة لك من الله ، بأن تتركها تؤدي مهمتها في الحياة ، ولم تزد في مهمتها صلاحاً ، ولكنك جئت إلى هذه المهمة فأفسدتها . . فلو أن هناك بئرا يشرب منها الناس ، فهذه نعمة لضرورة حياتهم ، تستطيع أنت بأسباب الله في كون الله أن تأتي وتصلحها ، بأن تبطن جدرانها بالحجارة ، حتى تمنع انهيار الرمال داخلها ، أو أن تأتي بجبل وإناء حتى تعين الناس على الوصول إلى مياهها ، ولكنك إذا جئت وردمتها تكون قد أفسدت الصالح في الحياة . وهكذا المنافقون . . أنزل الله تعالى منهجاً للحياة الطيبة للإنسان على الأرض ، وهؤلاء المنافقون بدلوا كل ما في جهدهم لإفساد هذا المنهج ، بأن تأمروا ضده وادعوا أنهم مؤمنون به ليطعنوا الإسلام في داخله .

ولقد تنبه أعداء الإسلام ، إلى أن هذا الدين القوي الحق ، لا يمكن أن يتأثر بطعنات الكفر ، بل يواجهها ويتغلب عليها . فما قامت معركة بين حق وباطل إلا انتصر الحق ، ولقد حاول أعداء الإسلام أن يواجهوه سنوات طويلة ، ولكنهم عجزوا ، ثم تنبهوا إلى أن هذا الدين لا يمكن أن يهزم إلا من داخله ، وأن استخدام المنافقين في الإفساد ، هو الطريقة الحقيقية لتفريق المسلمين ، فانطلقوا إلى المسلمين اسماً ليتخذوا منهم الحربة التي يوجهونها ضد الإسلام ، وظهرت مذاهب واختلافات ، وما أسموه العلمانية واليسارية وغير ذلك ، كل هذا قام به المنافقون في الإسلام وغلفوه بغلاف إسلامي ، ليفسدوا في الأرض ويحاربوا منهج الله . وإذا لفت المؤمنون نظرهم إلى أنهم يفسدون في الأرض ، وطلبوا منهم أن يمتنعوا عن الإفساد ،

ادعوا أنهم لا يفسدون ولكنهم يصلحون ، وأي صلاح في عدم اتباع منهج الله والخروج عليه بأي حجة من الحجج؟

أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ (12)

وهكذا يعطينا الله سبحانه وتعالى حكمه عليهم بأنهم كما أنهم يخدعون أنفسهم ولا يشعرون ويحسبون أنهم يخدعون الله سبحانه وتعالى والمؤمنين . كذلك فإنهم يفسدون في الأرض ويدعون أنهم يصلحون ، ولكنهم في الحقيقة مفسدون لماذا؟ . . لأن في قلوبهم كفراً وعداء لمنهج الله ، فلو قاموا بأي عمل يكون ظاهره الإصلاح ، فحقيقته هي الإفساد ، تماماً كما ينطقون بألسنتهم بما ليس في قلوبهم .

والكون لا يصلح إلا بمنهج الله ، فالله سبحانه وتعالى هو الذي خلق ، وهو الذي أوجد ، وهو أدرى بصنعه وبما يفسدها وبما يصلحها ، لأنه هو الصانع ، ولا يوجد من يعلم سر ما يصلح صنعه أكثر من صانعها .

ونحن في المنهج الدنيوي إذا أردنا إصلاح شيء اتجهنا لصانعه؛ فهو الذي يستطيع أن يدلنا على الإصلاح الحقيقي لهذا الشيء ، فإذا لم يكن صانعه موجوداً في البلدة نفسها اتجهنا إلى من دربه الصانع على الإصلاح ، أو إلى ما يسمونه « الكتالوج » الذي يبين لنا طريق الإصلاح ، وبدون هذا لا نصلح ، بل نفسد ، والعجيب أننا نتبع هذه الطريقة في حياتنا الدنيوية ، ثم نأتي إلى الإنسان والكون ، فبدلاً من أن نتجه إلى صانعه وخالقه لناخذ عنه منهج الإصلاح ، وهو أدرى بصنعه ، نتجه إلى خلق الله يضعون لنا المناهج التي تفسد ، وظاهرها الإصلاح لكنها تزيد الأمور سوءاً والغريب أننا نسمي هذا فلاحاً ، ونسميه تقدماً . ولكن لماذا لا نتجه إلى الصانع أو الخالق ، الذي أوجد وخلق؟ هو سبحانه وتعالى أدرى بخلقه وبما يصلحهم وما يفسدهم . ومادام الحق سبحانه وتعالى ، قد حكم على المنافقين ، بأنهم هم المفسدون فذلك حكم يقيني ، وكل من يحاول أن يغير من منهج الله ، أو يعطل تطبيقه بحجة الإصلاح ، فهو مفسد وإن كان لا يشعر بذلك ، لأنه لو أراد إصلاحاً لاتجه إلى ما يصلح الكون ، وهو المنهج السماوي الذي أنزله خالق هذا الكون وصانعه ، وهذا المنهج موجود ومبَلَّغ ولا يخفى على أحد .

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ (13)

والسفهاء في قصد المنافقين هم الفقراء ، ولكن ما معنى السفه في اللغة : السفه معناه الطيش والحمق والخفة في تناول الأمور ، فهل تنطبق صفة السفه على المؤمنين ، الذين آمنوا بالله ، أو

أما تنطبق على أولئك الذين لم يؤمنوا بالله؟ إذا كنتم تعتقدون أن الذين آمنوا هم السفهاء فلماذا تدعون الإيمان كذبا ، لتكونوا سفهاء؟ لاشك أن هناك تناقضاً موجوداً في كل تصرفات المنافقين

فالرسول صلى الله عليه وسلم يدعوهم للإيمان ، والمسلمون يدعوهم للإيمان ، ولكنهم يصفون الذين آمنوا بأنهم سفهاء أي فقراء لا يملكون شيئاً ، لأن سادة قريش لم يؤمنوا . . وهم يدعون أن الذين آمنوا ، تصرفوا تصرفاً أحمق ، طائشاً ، ولكن الغفلة هي المرض الذي يملأ قلوبهم لا يجعلهم ينتبهون إلى حقيقة مهمة ، وهي أنهم يتظاهرون بالإيمان ، ويدعون الإيمان ثم يصفون المؤمنين بالسفهاء ، إذا كان هؤلاء سفهاء كما تدعون . فهل تتظاهرون بالإيمان لتصبحوا سفهاء مثلهم؟! .

إن المنطق لا يستقيم ويدل على سفاهة عقول المنافقين ، أن هذه العقول . لم تنتبه إلى أنها حينما وصفت المسلمين بالسفهاء ، قد أدانت نفسها ، لأن المنافقين يدعون أنهم مؤمنون ، إذن فكل تصرفات المنافقين فيها تناقض . تناقض مع العقل والمنطق ، هذا التناقض يأتي من تناقض ملكات النفس بعضها مع بعض . فاللسان يكذب القلب . والعمل يكذب العقيدة . والتظاهر بالإيمان يحملهم مشقة الإيمان ولا يعطيهم شيئاً من ثوابه . ولو كان لهم عقول ، لتنبهوا إلى هذا كله ، ولكنهم لا يشعرون وهم يمضون في هذا الطريق ، طريق النفاق ، إنهم يجسدون السفاهة بعينها ، بكل ما تحمله من حمق واستخفاف ، وعدم التنبه إلى الحقيقة ، والرعونة التي يتصرفون بها ، والله سبحانه وتعالى حين وصفهم بالسفهاء ، كان وصفاً دقيقاً ، لحالتهم وطريقة حياتهم .

وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شِيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ (14)

وهكذا يرينا الحق سبحانه ، أن كل منافق له أكثر من حياة يحرص عليها ، والحياة لكي تستقيم ، يجب أن تكون حياة واحدة منسجمة مع بعضها البعض ، ولكن انظر إلى هؤلاء . . مع المؤمنين يقولون آمنا ، ويتخذون حياة الإيمان ظاهراً ، أي أنهم يمثلون حياة الإيمان ، كما يقوم الممثل على المسرح بتمثيل دور شخصية غير شخصيته تماماً . . حياتهم كلها افتعال وتناقض ، فإذا بعدوا عن الذين آمنوا ، يقول الحق تبارك وتعالى : { وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شِيَاطِينِهِمْ } .

وانظر إلى دقة الأداء القرآني ، الشيطان هو الدس الخفي ، الحق ظاهر وواضح ، أما منهج الشيطان وتآمره فيحدث في الخفاء لأنه باطل والنفس لا تخجل من حق أبداً ، ولكنها تخشى وتحاف وتحاول أن تخفي الباطل .

ولنضرب لذلك مثلاً بسيطاً ، رجل يجلس مع زوجته في منزله ، وطرق الباب طارق ، ماذا يحدث؟ يقوم الرجل بكل اطمئنان ، ويفتح الباب ليرى من الطارق ، فإن وجده صديقاً أو قريباً

أكرمه ورحب به وأصر على أن يدخل ليضيفه . وتقوم الزوجة بإعداد الطعام أو الشراب الذي سيقدم للضيف ، تأخذ هذه الحالة نفسها إذا كان الإنسان مع زوجة غيره في شقته وطرق الباب طارق ، يحدث ارتباك عنيف ، ويبحث الرجل عن مكان يخفي فيه المرأة التي معه ، أو يبحث عن باب خفي ليخرجها منه ، أو يحاول أن يطفىء الأنوار ويمنع الأصوات لعل الطارق يحس أنه لا يوجد أحد في المكان فينصرف ، وقبل أن يُجرح تلك المرأة المحرمة عليه ، فإنه يفتح الباب بحرص ، وينظر يمينا ويسارا ليتأكد هل يراه أحد ، وعندما لا يجد أحدا يسرع بدفع المرأة إلى الخارج ، لأنها إثم يريد أن يتخلص منه ، وإذا نزل ليوصلها يمشي بعيدا عنها ، ويظل يرقب الطريق ، ليتأكد من أن أحدا لم يره ، وعندما يركبان السيارة ينطلقان بأقصى سرعة .

هذا هو الفرق بين منهج الإيمان ، ومنهج الشيطان ، الحادثة واحدة ، ولكن الذي اختلف هو الحلال والحرام . انظر كيف يتصرف الناس في الحلال . . في النور . . في الأمان ، وكيف يتصرفون في الحرام ومنهج الشيطان في الظلام وفي الخفية وبحرصون على ألا يراهم أحد ، ومن هنا تأتي دقة التعبير القرآني . . { وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ } .

إن منهج الشيطان يحتاج إلى خلوة ، إلى مكان لا يراك فيه أحد ، ولا يسمعك فيه أحد ، لأن العلن في منهج الشيطان يكون فضيحة ، ولذلك تجد غير المستقيم يحاول جاهدا أن يستر حركته في عدم الاستقامة ، ومحاولته أن يستتر هي شهادة منه بأن ما يفعله جريمة وقبح ، ولا يصح أن يعلمه أحد عنه ، ومادام لا يصح أن يراه أحد في مكان ما ، فاعلم أنه يحس أن ما يفعله في هذا المكان هو من عمل الشيطان الذي لا يقره الله ، ولا يرضى عنه .

ولابد أن نعلم أن القيم ، هي القيم ، حتى عند المنحرف ، وقوله تعالى : { وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا } معناها أنهم عندما يتظاهرون بالإيمان يأخذون جانب العلن ، بل ربما افتعلوه ، وكان المفروض أن يكون المقابل عندما يخلون إلى شياطينهم أن يقولوا : لم نؤمن . وهناك في اللغة جملة اسمية وجملة فعلية ، الجملة الفعلية ، تدل على التجدد ، والجملة الاسمية تدل على الثبوت ، فالمنافقون مع المؤمنين يقولون آمنا ، إيمانهم غير ثابت ، متذبذب ، وعندما يلقون الكافرين ، لو قالوا لم نؤمن ، لأخذت صفة الثبات ، ولكنهم في الفترة بين لقائهم بالمؤمنين ، ولقائهم بالكافرين ، الكفر متجدد ، لذلك قالوا : { إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ } .

اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (15)

أن هؤلاء المنافقين قوم لا حول لهم ولا قوة ، ولكن الله سبحانه وتعالى ، وهو القادر القوي حينما يستهزئ بهم يكون الاستهزاء أليماً ، وإذا كان المنافق ، قد أظهر بلسانه ما ليس في قلبه ، فإن الله سبحانه وتعالى يعامله بمثل فعله ، فإذا كان له ظاهر وباطن ، يعامله في ظاهر الدنيا ،

معاملة المسلمين ، وفي الآخرة يوم تبلى السرائر يجعله في الدرك الأسفل من النار ، لا يسويه بالكافر لأن ذنب المنافق أشد .

{ الله يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ } والاستهزاء هو السخرية ، فهم يأتون يوم القيامة محاولين أن يتمسكوا بالظاهر ، فيظهر الله سبحانه وتعالى لهم باطنهم . والحق سبحانه وتعالى يقول : { وَيَلِّ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةً } [الهمزة : 1] .

والهمزة هو الذي يسخر من الناس ولو بالإشارة . .

يرى إنسانا مصابا بعاهة في قدمه ، يمشي وهو يعرج فيحاول أن يقلده بطريقة تشير السخرية ، إما بالإشارة وإما بالكلام ، وهناك همز وهمزه . . الهمز الاستهزاء والسخرية من الناس ، علامة عدم الإيمان ، لأننا كلنا مخلوقون من إله واحد ، فهذه الصفة التي سخرت فيها من إنسان أعرج مثلا ، لا عمل له فيها ، ولا حول له ولا قوة . . والإنسان لم يصنع نفسه ، والحقيقة أنك تسخر من صنع الله ، والذي يسخر من خلق الله إنسان غبي لأنه سخر من خلق الله في عيب ، ولم يقدر ما تفضل الله به عليه ، كما أنه سخر من عيب ولم يفتن إلى أن الحق سبحانه وتعالى قد أعطى ذلك الإنسان خصالا ومميزات ربما لم يعطها له ، والله سبحانه وتعالى يقول : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ } [الحجرات : 11] .

إن مجموع كل إنسان ، يساوي مجموع كل إنسان آخر ، وذلك هو عدل الله ، فإذا كنت أحسن من إنسان في شيء فابحث عن النقص فيك . فإن استهزأت بمؤمن في شيء ، فالاستهزاء غير مفصول عن صنعة الله ، إذن فمن المنطق عندما قالوا : { إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ } أن يرد الله عليهم { الله يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ } أي يزيدهم في هذا الطغيان ، لأن المد هو أن تزيد الشيء ، ولكن مرة تزيد في الشيء من ذاته ، ومرة تزيد عليه من غيره ، قد تأتي بخيط وتفرده إلى آخره ، وقد تصله بخيط آخر ، فتكون مددته من غيره ، فالله يزيدهم في طغيانهم . وقوله تعالى « يعمهون » العمه يختلف عن العمى ، والخلاف في الحرف الأخير ، العمى عمى البصر ، والعمه عمى البصيرة ، ويعمهون أي يتخبطون ، لأن العمه ينشأ عنه التخبط سواء التخبط الحسي ، من عمى البصر ، أو التخبط في القيم ومنهج الحياة من عمى البصيرة . والله تعالى يقول : { فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارَ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبَ الَّتِي فِي الصُّدُورِ } فكأنما العمى المادي ، قد لا يكون ، ولكن يكون هناك عمى البصيرة ، وقرأ قوله تعالى : { قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسى } [طه : 125-126] .

فكأن عمى البصيرة في الدنيا ، يعمي بصر الإنسان ، عن رؤية آيات الله في كونه ، ويعميه عن الإيمان والمنهج . .

أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالََةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (16)

يعطينا الحق سبحانه وتعالى صفة أخرى من صفات المنافقين ، فيصفهم بأنهم الذين اشتروا الضلالة بالهدى . ومادام هناك شراء ، فهناك صفقة ، تتطلب مشتريا وبائعا ، وقد كانت السلعة في الماضي تشتري بسلعة أخرى ، أما الآن فإن كل شيء يشتري بالمال ، ماذا اشتروا؟ إن هؤلاء المنافقين اشتروا الضلالة ، واشتروها بأي ثمن؟! . . . اشتروها بالهدى! الباء في اللغة تدخل على المتروك ، عندما تشتري شيئا تترك ثمنه ، إذن كأن هؤلاء قد تركوا الهدى واشتروا الضلالة ، ولكن هل كان معهم هدى ساعة الصفقة؟ .

إن الحال يقتضي أن يكون معهم هدى ، كأن يهدي إنسان ثم يجد أن الهدى لا يحقق له النفع الدنيوي الذي يطلبه فيتركه ليشتري به الضلال ليحقق به ما يريد ، والهدى الذي كان معهم ، قد يكون هدى الفطرة ، فكأن هؤلاء كان يمكنهم أن يختاروا الهدى فاختروا الضلالة .

والله سبحانه وتعالى يهدي كل الناس ، هدى دلالة ، فمن اختار الهدى يزد . وقرأ قوله تعالى :

{ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُوا الْعَمَىٰ عَلَىٰ الْهُدَىٰ } [فصلت : 17]

وقول الحق { فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ } التجارة بيع وشراء ، الشاري مستهلك ، والبائع قد يكون منتجا ، أو وسيطا بين المنتج والمستهلك . ما حظ البائع من البيع والشراء؟ أن يكسب فإذا ما كسب قيل ربحت تجارته . وإذا لم يكسب ولم يخسر ، أو إذا خسر ولم يكسب ، ففي الحالين لا يحقق ربحا ، ونقول ما ربحت تجارته . .

فقوله تعالى { فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ } يدل على أنهم خسروا كل شيء لأنهم لم يربحوا ، فكأنهم لم يحققوا شيئا له فائدة ، وخسروا الهدى ، أي خسروا الريح ورأس المال . ما ربحت تجارتهم ربما يكونون لم يكسبوا ولم يخسروا ، ولكن هم قدموا الهدى ثمنا للضلال فلم يربحوا وضاع منهم الهدى ، أي رأس مالهم . .

ونفسية المنافق إذا أردت أن تحددها ، فهو إنسان بلا كرامة ، بلا رجولة لا يستطيع المواجهة ، بلا قوة ، يحاول أن يمكر في الخفاء ، ولذلك تكون صورته حقيرة أمام نفسه ، حتى لو استطاع أن يخفي عيوبه عن الناس ، فيكفي أنه كاذب أمام نفسه لتكون صورته حقيرة أمام نفسه ، وفي ذلك يقول الشاعر :

إذا أنا لم آت الدنية خشية ... من الناس كان الناس أكرم من نفسي

كفى المرء عارا أن يرى عيب نفسه ... وإن كان في كُنٍّ عن الجن والأنس

فالهم رأيك في نفسك . . والتمزق الذي عند المنافق أنه يريد أن يخفي عيوبه عن الناس .

مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا

يُبْصِرُونَ (17)

يريد الحق سبحانه وتعالى أن يقرب صفات التمزق في المنافقين إلى فهمنا ، ولذلك فهو يضرب لنا الأمثال ، والأمثال جمع مثل وهو الشبيه الذي يقرب لنا المعنى ويعطينا الحكمة ، والأمثال باب من الأبواب العريقة في الأدب العربي . فالمثل أن تأتي بالشيء الذي حدث وقيل فيه قولة موجزة ومعبرة ، رأى الناس أن يأخذوا هذه المقولة لكل حالة مشابهة .

ولنضرب مثلاً لذلك ، ملك من الملوك ، أراد أن يخاطب فتاة من فتيات العرب ، فأرسل خاطبة اسمها عصام لترى هذه العروس وتساءل عنها وتخبره ، فلما عادت قال لها ما وراءك يا عصام؟ أي بماذا جئت من أخبار ، قالت : له أبدي المخض عن الزيد . المخض هو أن تأتي باللبن الحليب وتحضه في القربة حتى ينفصل الزبد عن اللبن ، فصار الاثنان السؤال والجواب يضربان مثلاً . تأتي لمن يجيئك تنتظر منه أخباراً فتقول له : ما وراءك يا عصام . ولا يكون اسمه « عصام » . . ولم ترسله لاستطلاع أخبار ، بينما تريد أن تسمع ما عنده من أخبار .

وحيثما تريد مثلاً . . أن تصور تنافر القلوب . . وكيف أنها إذا تنافرت لا تلتئم أبداً . . ويريد الشاعر أن يقرب هذا المعنى فيقول :

إن القلوب إذا تنافر ودها ... مثل الزجاج كسرهما لا يشعب (أي لا يجبر)

وساعة تنكسر الزجاج لا تستطيع اصلاحها . . ولكي يسهل هذا المعنى عليك وتفهمه في يسر وسهولة . . فإنك لا تستطيع أن تصور أو تشاهد معركة بين قلبين . . لأن هذه مسألة غيبية . . فتأتي بشيء مشاهد وتضرب به المثل . . وبذلك يكون المعنى قد قرب . . لأنك شبهته بشيء محسوس . . تستطيع أن تفهمه وتشاهده . .

ولقد استخدم الله سبحانه وتعالى الأمثال في القرآن الكريم في أكثر من موضع . . ليقرب من أذهاننا معنى الغيبيات التي لا نعرفها ولا نشاهدها . . ولذلك ضرب لنا الأمثال في قمة الإيمان . . وحدانية الله سبحانه وتعالى . . وضرب لنا المثل بنوره جل جلاله . . الذي لا نشهده وهو غيب عنا . . وضرب لنا الأمثال بالنسبة للكفار والمنافقين . . لنعرف فساد عقيدتهم وننتبه لها . . وضرب لنا الأمثال فيما يمكن أن يفعله الكفر بالنعمة . . والطغيان في الحق . . وغير ذلك من الأمثال . . قال الله تعالى : { وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا } [الإسراء : 89]

وقد ضرب الله جل جلاله لنا الأمثال في الدنيا وفي الآخرة ، وفي دقة الخلق . . وقمة الإيمان . . ومع ذلك فإن الناس منصرفون عن حكمة هذه الأمثال . . كافرون بها . . مع أن الحق تبارك وتعالى . . ضربها لنا لتقرب لنا المعنى .

. تشبيها بماديات نراها في حياتنا الدنيا . . وكان المفروض أن تزيد هذه الأمثال الناس إيمانا . .
لأنها تقرب لهم معاني غائبة عنهم . . ولكنهم بدلا من ذلك ازدادوا كفرا!!
ولابد قبل أن نتعرض للآية الكريمة : { مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ
ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ } . . أن نتحدث عن بعض الأمثال التي ضربت
في القرآن الكريم . . لنرى كيف أن الله سبحانه وتعالى حدثنا عن قضايا غيبية بمحسبات دنيوية :
ضرب الله تبارك وتعالى لنا مثلا بالقيمة الإيمانية . . وهي أنه لا إله إلا الله . . وكيف أن هذه رحمة
من الله سبحانه وتعالى . . يجب أن نسجد له شكرا عليها . . لأن فيها وقاية لنا من شقاء . .
ومع ذلك فإن الله تبارك وتعالى يريد بعباده الرحمة ، ولكن بعض الناس يريد أن يشقي نفسه
فيشرك بالله جل جلاله . . وبدلا من أن يأخذ طريق الإيمان الميسر . . يأخذ طريق الكفر
والنفاق والشرك بالله الذي يملك كل شيء في الدنيا والآخرة . . يقول الحق جل جلاله : {
ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلَّ
أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ } [الزمر : 29]

بهذه الصورة المحسة التي نراها . . ولا يختلف فيها اثنان . . يريد الله تبارك وتعالى أن يقرب إلى
أذهاننا صورة العابد لله وحده ، وصورة المشرك بالله . . ويعطينا المثل في عبد مملوك لشركاء . .
رجل مملوك لعشرة مثلا . . وليس هؤلاء الشركاء العشرة متفقين . . بل هم متشاكسون أي أنهم
مختلفون . . ورجل آخر مملوك لسيد واحد . . أيهما يكون مستريحا يعيش في رحمة؟ . . طبعا
المملوك لسيد واحد في نعمة ورحمة . . لأنه يتبع أمرا واحدا ونهيا واحدا . . ويطيع ربا واحدا . .
ويطلب رضا سيد واحد . . أما ذلك الذي يملكه شركاء حتى لو كانوا متفقين . . فسيكون لكل
واحد منهم أمر ونهي . . ولكل واحد منهم طلب . . فما بالك إذا كانوا مختلفين؟ أحد الشركاء
يقول له تعال . . والآخر يقول له لا تأت ، وأحد الشركاء يأمره بأمر ، والآخر يأمره بأمر
مناقض . . ويختار أيهما يرضي وأيهما يغضب؟ . . وهكذا تكون حياته شقاء وتناقضا . .
إن الله سبحانه وتعالى يريد أن يقرب لنا الصورة . . في قضية هي قمة اليقين . . وهي الإيمان
بالواحد الأحد . . يريدنا أن نلمس هذه الصورة . . بمثل نراه ونشاهده . . وأن نرى فيض الله
برحمته على عباده . . وبمضي الحق سبحانه ليلفتنا إلى أن نفكر قليلا في مثل يضربه لنا في القرآن
الكريم : { وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا
يُوجَّهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ }

[النحل : 76]

فالحق تبارك وتعالى في هذه الآية الكريمة . . يطلب منا أن نفكر في مثل مادي محسوس . . أيهما
خير؟ . . أذلك الصنم الذي يعبد الكفار وهو لا يأتي لهم بخير أبدا . . لأنه لا يستطيع أن ينفع

نفسه فكيف يأتي بالخير لغيره . . بل هو عبء على من يتخذونه إلهًا . . فإنهم يجب أن يضعوه وأن يحملوه من مكان إلى آخر إذا أرادوا تغيير المعبد أو الرحيل . . وإذا سقط فتهشمت أجزاء منه . . فإنه يجب أن يصلحوها . .

إذن فزيادة على أنه يأتي لهم بخير . . فإنه عبء عليهم يكلفهم مشقة . . ويحتاج منهم إلى عناية ورعاية . .

أعبادة مثل هذا الصنم خير؟ أم عبادة الله سبحانه الذي منه كل الخير وكل النعم . . والذي يأمر بالعدل . . فلا يفضل أحدا من عباده على أحد . . والذي يعطي لعباده الصراط المستقيم . . الذي لا اعوجاج فيه . . والموصل إلى الجنة في الآخرة . . إن الله سبحانه وتعالى يشرح بهذا المثل غباء فكر المشركين الذين يعبدون الأصنام ويتركون عبادة الله تبارك وتعالى .

وهكذا يعطينا هذان المثلان توضيحا لقضية الوحدانية والألوهية . . ثم يأتي الله سبحانه وتعالى بمثل آخر . . يضرب لنا مثلا لنوره . . هذا النور الإلهي الذي يضيء الدنيا والآخرة . . فيضيء

القلوب المؤمنة . . إنه يريد أن يضرب لنا مثلا لهذا النور بشيء مادي محس . . فيقول جل

جلاله : { اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } [النور : 35]

كأن الله سبحانه وتعالى . . يريدنا أن نعرف بتشبيه محس . . أن مثل نوره كمشكاة . . والمشكاة هي (الطاقة) . . وهي فجوة في الحائط بالبيت الريفي . . ونحن نضع المصباح في هذه الطاقة . . إذن المصباح ليس في الحجرة كلها . . ولكن نوره مركز في هذه الطاقة فيكون قويا في هذا الحيز الضيق . . ولكن المصباح في زجاجة . . تحفظه من الهواء من كل جانب . . فيكون الضوء أقوى . . صافيا لا دخان فيه . . كما أن الزجاج يعكس الأشعة فيزيد تركيزه . . والزجاجة غير عادية ولكنها : « كوكب دري » . . أي هي مضيئة بذاتها وكأنها كوكب . . ووقودها من شجرة مباركة يملؤها النور لا شرقية ولا غربية . . أي يملؤها النور من الوسط ويخرج صافيا . . والزيت مضيء بذاته دون أن تمسه النار . . فهي نور على نور . . أيكون جزء من هذه المشكاة ذات المساحة الصغيرة مظلمًا؟ .

. أم تكون كلها مليئة بالنور القوي؟ .

وهذا ليس نور الله تبارك وتعالى عن التشبيه والوصف ، ولكنه مثل فقط للتقريب إلى الأذهان . . فكأن نور الله يضيء كل ركن وكل بقعة . . ولا يترك مكانا مظلمًا . . فهو نور على نور . . ولقد أراد أحد الشعراء أن يمدح الخليفة وكانت العادة أن يشبه الخليفة . . بالأشخاص البارزين

ذوي الصفات الحسنة . . فقال :

إقدام عمرو في سماحة حاتم ... في حلم أحنف في ذكاء إياس
وكل هؤلاء الذين ضرب بهم الشاعر المثل كانوا مشهورين بهذه الصفات . . فعمرو كان مشهوراً
بالإقدام والشجاعة . . وحاتم كان مشهوراً بالسماحة . . وأحنف يضرب به المثل في الحلم . .
وإياس شعلة في الذكاء . . وهنا قام أحد الحاضرين وقال : الأمير أكبر من كل شيء ممن شبهته
بهم . . فقال أبو تمام على الفور :

لا تنكروا ضربي له من دونه ... مثلاً شروداً في الندى والباس
فالله قد ضرب الأقل لنوره ... مثلاً من المشكاة والنبراس

فأعجب أحمد بن المعتصم والحاضرون من ذكائه وأمر بأن تضاعف جائزته . والله سبحانه وتعالى
. . يضرب لنا المثل بما سيشهده المؤمنون في الجنة . . فيقول جل جلاله : { مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ
الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ
وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى } [محمد : 15]

هذه ليست الجنة . . ولكن هذا مثل يقرب الله سبحانه وتعالى لنا به الصورة بأشياء موجودة في
حياتنا . . لأنه لا يمكن لعقول البشر أن تستوعب أكثر من هذا . . والجنة فيها ما لا عين رأت
ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . . ومن هنا فإنه لا توجد أسماء في الحياة تعبر عما في
الجنة . . وقرأ قوله تعالى : { فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ }
[السجدة : 17]

فإذا كانت النفس لا تعلم . . فلا توجد ألفاظ تعبر عما يوجد في الجنة . . والمثل متى شاع
استعماله بين الناس سمي مثلاً . . فأنت إذا رأيت شخصاً مغتراً بقوته . . وتريد أن تفهمه أنك
أقوى منه تقول له . . إن كنت ريحاً فقد لاقيت إعصاراً . . ولا توجد ربح ولا إعصار فيما
يحدث بينكما . . وإنما المراد المعنى دون التقييد بمدلول الألفاظ .
فالحق سبحانه وتعالى . . يريد أن يعطينا صورة . . عما في داخل قلوب المنافقين . . من
اضطراب وذبذبة وتردد في استقبال منهج الله . . وفي الوقت نفسه ما يجري في القلوب غيب عنا
. . وأراد الله أن يقرب هذا المعنى إلينا . . فقال : { مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا } . . أي
حاول أن يوقد ناراً . . والذي يحاول أن يوقد ناراً .

. لا بد أن له هدفاً . . والهدف قد يكون الدفاء وقد يكون الطهي . . وقد يكون الضوء وقد
يكون غير ذلك . . المهم أن يكون هناك هدف لإيقاد النار . .
يقول الحق سبحانه وتعالى : { فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَّا
يُبْصِرُونَ } . . ذلك أنهم في الحيرة التي تملأ قلوبهم . . كانوا قد سمعوا من اليهود أن زمن نبي

جديد قد أتى . . فقررروا أن يؤمنوا به . . ولكن إيمانهم لم يكن عن رغبة في الإيمان . . ولكنه كان عن محاولة للحصول على أمان دنيوي . . لأن اليهود كانوا يتوعدونهم ويقولون أتى زمن نبي سنؤمن به ونقتلكم به قتل عاد وإرم . . فأراد هؤلاء المنافقون أن يتقوا هذا القتل الذي يتوعدهم به اليهود . . فتصوروا أنهم إذا أعلنوا أنهم آمنوا بهذا النبي نفاقاً أن يحصلوا على الأمان . . إن الحق سبحانه وتعالى يعطينا هذه الصورة . . إنهم أوقدوا هذه النار . . لتعطيهم نورا يريهم طريق الإيمان . . وعندما جاء هذا النور بدلا من أن يأخذوا نور الإيمان انصرفوا عنه . . وعندما حدث ذلك ذهب الله بنورهم . . فلم يبق في قلوبهم شيء من نور الإيمان . . فهم الذين طلبوا نور الإيمان أولا . . فلما استجاب الله لهم انصرفوا عنه . . فكأن الفساد في ذاتهم . . وكأنهم هم الذين بدأوا بالفساد . . وساعة فعلوا ذلك ذهب الله بنور الإيمان من قلوبهم .

ونلاحظ هنا دقة التعبير القرآني . . في قوله تعالى : { ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ } ولم يقل ذهب الله بضوئهم . . مع أنهم أوقدوا النار ليحصلوا على الضوء . . ما هو الفرق بين الضوء والنور؟ . . إذا قرأنا قول الحق سبحانه وتعالى : { هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا } [يونس : 5]

نجد أن الضوء أقوى من النور . . والضوء لا يأتي إلا من إشعاع ذاتي . . فالشمس ذاتية الإضاءة . . ولكن القمر يستقبل الضوء ويعكس النور . . وقبل أن تشرق الشمس تجد في الكون نورا . . ولكن الضوء يأتي بعد شروق الشمس . . فلو أن الحق تبارك وتعالى قال ذهب الله بضوئهم . . لكان المعنى أنه سبحانه ذهب بما يعكس النور . . ولكنه أبقى لهم النور . . ولكن قوله تعالى : { ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ } . . معناها أنه لم يبق لهم ضوء ولا نورا . . فكأن قلوبهم يملؤها الظلام . . ولذلك قال الله بعدها؛ { وَتَرَكْهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَّا يُبْصِرُونَ } . . لنعلم أنه لا يوجد في قلوبهم أي نور ولا ضوء إيماني . . كل هذا حدث بظلمهم هم وانصرافهم عن نور الله . . ونلاحظ هنا أن الحق سبحانه وتعالى . . لم يقل وتركهم في ظلام . . بل قال : « في ظلمات » . . أي أنها ظلمات متراكمة .

. ظلمات مركبة لا يستطيعون الخروج منها أبدا . .

من أين جاءت هذه الظلمات؟ . . جاءت لأنهم طلبوا الدنيا ولم يطلبوا الآخرة . . وعندما

جاءهم نور الإيمان انصرفوا عنه فصرف الله قلوبهم . .

مثلا إذا أخذنا قصة زعيم المنافقين عبد الله بن أبيّ ، نرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم

دخل المدينة وأهلها يستعدون لتتويج عبد الله بن أبي ملكا عليها . . وعندما وصل رسول الله

صلى الله عليه وسلم انصرف الناس عن عبد الله بن أبي إلى استقبال الرسول عليه الصلاة

والسلام . . فوصول الرسول عليه الصلاة والسلام ضيع على عبد الله بن أبي المُلْك . . ولقد

كان من الممكن أن يؤمن . . وأن يلتمس النور من رسول الله صلى الله عليه وسلم . . ولو آمن حينئذ ربما أعطى في الآخرة ملكاً دائماً . . يفوق الملك الذي كان سيحصل عليه في الدنيا . . ولكن لأن في قلبه الدنيا وليس الدين . . ولأنه يريد رفعة في الدنيا . . ولا يريد جنة في الآخرة ، فقد ملأ الحقد قلبه فكان ظلمة . . وملأ الحسد قلبه فكان ظلمة . . وملأت الحسرة قلبه فكانت ظلمة . . وملأت الكراهية والبغضاء قلبه فكانت ظلمة . . إذن هي ظلمات متعددة . . وهكذا في قلب كل منافق ظلمات متعددة . . ظلمة الحقد على المؤمنين وظلمة الكراهية لهم . . وظلمة تمني هزيمة الإيمان . . وظلمة تمني أن يصيبهم سوء وشر . . وظلمة التمزق والألم من الجهد الذي يبذله للتظاهر بالإيمان وفي قلوبهم الكفر . . كل هذه ظلمات . . ولكن لا تحاول أن تأخذها بمقاييس عقلك . . والمفروض أن المثل هنا لتقريب المعنى . . لأنك إذا قرأت قول الحق سبحانه وتعالى : { وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا [الإسراء : 45] }

كيف يكون الحجاب مستورا؟ . . مع أن الحجاب هو الساتر الذي يستر شيئاً عن شيء . . ولكن الحق سبحانه وتعالى يريدنا أن نفهم . . أنه برغم أن الحجاب يستر شيئاً عن شيء ، فإن الحجاب نفسه مستور لا نراه . . وبعض العلماء يقولون : إن مستورا اسم مفعول . . وهو في معنى اسم الفاعل ساتر . . نقول لا . . واقرأ قوله تبارك وتعالى : { جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًا } [مريم : 61]

مأتيا اسم مفعول واسم الفاعل آتى . . ويقول البعض وضع اسم المفعول مكان اسم الفاعل . . نقول أنك لم تفهم . . هل وعد الله يلح في طلب العبد . . أم أن العبد يلح في طلبه بعمله فكأنه ذاهب إليه . . والموعود هو المستفيد وليس الوعد . . إذن من دقة القرآن الكريم . . أنه يريد أن ينبهنا إلى أن الموعود هو الذي يسعى للقاء الوعد . . وليس الوعد هو الذي يطلب لقاء الموعود فيستخدم اسم الفاعل .

فحين يقول الحق سبحانه وتعالى : { وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ } . . نفى النور عنهم . . والنور لا علاقة له بالسمع ولا بالشم ولا باللمس . . ولكنه قانون البصر . . وانظر إلى دقة التعبير القرآني . . إذا امتنع النور امتنع البصر . . أي أن العين لا تبصر بذاتها . . ولكنها تبصر بانعكاس النور على الأشياء ثم انعكاسه على العين . .

واقرأ قوله تعالى : { وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ فَمَحْوَنَاتٍ لِّلَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً } [الإسراء : 12]

فكأن الذي يجعل العين تبصر هو الضوء أو النور . . فإذا ضاع النور ضاع الإبصار . . ولذلك فأنت لا تبصر الأشياء في الظلام . . وهذه معجزة قرآنية اكتشفها العلم بعد نزول القرآن .

صَمُّكُمْ عُمِّي فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ (18)

فالحق سبحانه وتعالى . . بعد أن أخبرنا أنه بظلم هؤلاء المنافقين لأنفسهم . . ذهب بنور الإيمان من قلوبهم فهم لا يبصرون آيات الله . . أراد أن يلفتنا إلى أنه ليس البصر وحده هو الذي ذهب . . ولكن كل حواسهم تعطلت . . فالسمع تعطل فهم صم . . والنطق تعطل فهم بكم . . والبصر تعطل فهم عمى . . وهذه هي آلات الإدراك في الإنسان . . وقرأ قوله تبارك وتعالى : { وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } [النحل : 78]

إذن كونهم في ظلمات لا يبصرون معناها أنها قد تعطلت وسائل الإدراك الأخرى؛ فأذاهم صمَّت فهي لا تسمع منهج الحق ، وألسنتهم تعطلت عن نقل ما في قلوبهم وأبصارهم لا ترى آيات الله في الكون إذن فآلات إدراكهم هدى الله معطلة عندهم . . وقوله تعالى : { فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ } . . أي لن تعود إليهم هذه الوسائل ليدركوا نور الله في كونه . الإدراك غير موجود عندهم . . ولذلك فلا تطمعوا أن يرجعوا إلى منهج الإيمان أبدا . . لقد فسدت في قلوبهم العقيدة . . فلم يفرقوا بين ضر عاجل وما هو نفع آجل . . نور الهداية كان سيجعلهم يبصرون الطريق إلى الله . . حتى يسيروا على بينة ولا يتعشروا . . ولكنهم حينما جاءهم النور رفضوه وانصرفوا عنه . . فكأنهم انصرفوا عن كل ما يهديهم إلى طريق الله!! . . فإله سبحانه وتعالى في هذه الآية الكريمة . . أعطانا وصفا آخر من صفات المنافقين هو أن أدوات الإدراك التي خلقها الله جل جلاله معطلة عندهم . . ولذلك فإن الإصرار على هدايتهم وبذل الجهد معهم لن يأتي بنتيجة . . لأن الله تبارك وتعالى بنفاقهم وظلمهم عطل وسائل الهداية التي كان من الممكن أن يعودوا بها إلى طريق الحق .

أَوْ كَصَيْبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ (19)

وقول الحق سبحانه وتعالى : { أَوْ كَصَيْبٍ مِنَ السَّمَاءِ } . . الصيب هو المطر . . والله تبارك وتعالى ينزل الماء فتقوم به الحياة . . مصداقا لقوله جل جلاله : { وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ } [الأنبياء : 30]

ومن البديهي أننا نعرف أن إنزال المطر . . هو من قدرة الله سبحانه وتعالى وحده . . ذلك أن عملية المطر فيها خلق بحساب . . وفيها عمليات تتم كل يوم بحساب أيضا . . وفيها عوامل لا يقدر عليها إلا الله سبحانه وتعالى . . فمسألة المطر أعدت الأرض لها حين الخلق . . فكانت ثلاثة أرباع الأرض من الماء والرابع من اليابسة . . لماذا؟ من حكم الله في هذا الخلق أن تكون

عملية البخر سهلة وممكنة . . ذلك أنه كلما اتسع سطح الماء يكون البخر أسهل . . وإذا ضاق السطح تكون عملية البخر أصعب . . فإذا جننا بكوب مملوء بالماء ووضعناه في حجرة مغلقة يوماً . . ثم عدنا إليه نجد أن حجم الماء نقص بمقدار سنتيمتر أو أقل . . فإذا أخذنا الماء الذي في هذا الكوب وقذفناه في الحجرة . . فإنه يخففي في فترة قصيرة . . لماذا؟ ؛ لأن سطح الماء أصبح واسعاً فتمت عملية البخر بسرعة .

والله سبحانه وتعالى حين خلق الأرض . . وضع في الخلق حكمة المطر في أن تكون مساحة الماء واسعة لتتم عملية البخر بسهولة . . وجعل أشعة الشمس التي تقوم بعملية البخر من سطح الماء . . وتم ذلك بحساب دقيق . . حتى لا تغرق الأمطار الأرض أو يحدث فيها جفاف . . ثم سخر الريح لتدفع السحاب إلى حيث يريد الله أن ينزل المطر . . وقمم الجبال الباردة ليصطدم بها السحاب فينزل المطر . . كل هذا بحساب دقيق في الخلق وفي كل مراحل المطر . . ومادام الماء هو الذي به الحياة على الأرض . . فقد ضرب الله لنا به المثل كما ضرب لنا المثل بالنار وضوئها . . فكلها أمثلة مادية لتقرب إلى عقولنا ما هو غيب عنا . . فالماء يعطينا الحياة .

لكن هؤلاء المنافقين . لم يلتفتوا إلى هذا الخير . الذي ينزل عليهم من السماء من غير تعب أو جهد منهم . بل التفتوا إلى أشياء ثانوية ، كان من المفروض أن يرحبوا بها لأنها مقدمات خير لهم . فالمطر قبل أن ينزل من السماء لابد أن يكون هناك شيء من الظلمة في السحاب الذي يأتي بالمطر . فيحجب أشعة الشمس إن كنا نحارا . ويخفي نور القمر والنجوم إن كنا ليلاً . هذه الظلمة مقدمات الخير والماء . . إنهم لم يلتفتوا إلى الخير الذي ملأ الله به سبحانه وتعالى الأرض . بل التفتوا إلى الظلمة فنفروا من الخير . . كذلك صوت الرعد ونور البرق .

الرعد يستقبله الإنسان بالأذن وهي آلة السمع . والبرق تستقبله العين . . وصوت الرعد قوي ، أقوى من طاقة الأذن . ولذلك عندما يسمعه الإنسان يفزع ، ويحاول أن يمنع استقبال الأذن له ، بأن يضع أنامله في أذنيه .

وهؤلاء المنافقون لم يضعوا الأنامل . ولكن كما قال الله سبحانه وتعالى : { يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ } ولم يقل أناملهم . وذلك مبالغة في تصوير تأثير الرعد عليهم . فكأنهم من خوفهم وذعرهم يحاول كل واحد منهم أن يدخل كل إصبعه في أذنه . ليحميه من هذا الصوت المخيف . فكأنهم يببالغون في خوفهم من الرعد .

ونلاحظ هنا أن الحديث ليس عن فرد واحد ، ولكن عن كثيرين . . لأنه سبحانه وتعالى يقول « أصابعهم » نقول أن الأمر لجماعة يعني أمراً لكل فرد فيها ، فإذا قال المدرس للتلاميذ أخرجوا

أفلامكم ، فمعنى ذلك أن كل تلميذ يخرج قلمه . . وإذا قال رئيس الجماعة اركبوا سياراتكم ، فمعنى ذلك أن كل واحد يركب سيارته . . لذلك فإن معنى { يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ } أن كل واحد منهم يضع إصبعيه في أذنيه . .

لماذا يفعلون ذلك؟! أنهم يفعلونه خوفا من الموت . لأن الرعد والبرق يصاحبهما الصواعق أحيانا ، ولذلك فإنهم من مبالغتهم في الخوف يحس كل واحد منهم أن صاعقة ستقتله . . فكأنهم يستقبلون نعمة الله سبحانه وتعالى بغير حقيقتها . . هم لا يرون النعمة الحقيقية في أن هذا المطر يأتي لهم بعوامل استمرار الحياة . ولكنهم يأخذون الظاهر في البرق والرعد . وكذلك المنافقون . . لا يستطيع الواحد منهم أن يصبر على شهوات نفسه وتزواتها . . إنه يريد ذلك العاجل ولا ينظر إلى الخير الحقيقي الذي وعد الله به عباده المؤمنين في الآخرة . . وهو ينظر إلى التكاليف كأنها شدة ومسألة تحمل النفس بعض المشاق . ويغفل عن حقيقة جزاء التكاليف في الآخرة . وكيف أنها ستوفر لهم النعيم الدائم . . تماما كما ينظر الإنسان إلى المطر على أنه ظلمة ورعد وبرق ، وينسى أنه بدون هذا المطر من المستحيل أن تستمر حياته . .

هم يأخذون هذه الظواهر على أنها كل شيء . بينما هي في الحقيقة تأتي لوقت قصير وتخفي ، فهي قصيرة كالحياة الدنيا ، وقتية . ولكن نظرهم إليها وقتية ومادية لأنهم لا يؤمنون إلا بالدنيا وغفلوا عن الآخرة . . غفلوا عن ذلك الماء التي يبقى فترة طويلة ، وتبها إلى تلك الظواهر الوقتية التي تأتي مع المطر فخافوا منها وكان خوفهم منها يجعلهم لا يحسون بما في المطر من خير . والمنافقون يريدون أن يأخذوا خير الإسلام دون أن يقوموا بواجبات هذا الدين!!

ثم يلفتنا الحق سبحانه وتعالى إلى قضية هامة . وهي أن خوفهم من زوال متع الدنيا ونفوذها لن يفعل لهم شيئا . لأن الله محيط بالكافرين . . والإحاطة معناها السيطرة التامة على الشيء بحيث لا يكون أمامه وسيلة للإفلات ، وقدرة الله سبحانه وتعالى محيطة بالكافرين وغير الكافرين . . إذن عدم التفاتهم للنفع الحقيقي ، وهو منهج الله ، لا يعطيهم قدرة الإفلات من قدرة الله سبحانه وتعالى في الدنيا والآخرة .

يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (20)

أن الله سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا إلى أن البرق الذي هو وقتي وزمنه قليل . هو الذي يسترعي انتباههم . ولو آمنوا لأضاء نور الإيمان والإسلام طريقهم . ولكن قلوبهم مملوءة بظلمات الكفر فلا يرون طريق النور . . والبرق يخطف أبصارهم ، أي يأخذها دون إرادتهم . فالخطف يعني أن الذي يخطف لا ينتظر الإذن ، والذي يتم الخطف منه لا يملك القدرة على منع الخاطف . والخطف غير الغصب . فالغصب أن تأخذ الشيء برغم صاحبه .

ولكن . . ما الفرق بين الأخذ والخطف والغصب؟ . الأخذ أن تطلب الشيء من صاحبه فيعطيه لك . أو تستأذنه . أي تأخذ الشيء بإذن صاحبه . والخطف أن تأخذه دون إرادة صاحبه ودون أن يستطيع منعك .

والغصب أن تأخذ الشيء رغم إرادة صاحبه باستخدام القوة أو غير ذلك بحيث يصبح عاجزا عن منعك من أخذ هذا الشيء . ولنضرب لذلك مثلا والله المثل الأعلى . إذا دخل طفل على محل للحلوى وخطف قطعة منها ، يكون صاحب المحل لا قدرة له على الخطف لأن الحدث فوق قدرات المخطوف منه ، فهو بعيد وغير متوقع للشيء ، فلا يستطيع منع الخطف . . أما الغصب فهو أن يكون صاحب المحل متنبها ولكنه لا يملك القدرة على منع ما يحدث ، وإذا حاول أن يقاوم . . فإن الذي سيأخذ الشيء بالرغم عنه لا بد أن يكون أقوى منه . أي أن قوة المُعْتَصِب ، تكون أقوى من المُعْتَصَب منه .

وقوله تعالى : { يَكَادُ الْبَرْقُ يُخْطِفُ أَبْصَارَهُمْ } .

لا بد أن نتنبه إلى قوله تعالى « يكاد » أي يكاد أو يقترب البرق من أن يخطف أبصارهم . وليس للإنسان القدرة أن يمنع هذا البرق من أن يأخذ انتباه البصر .

وقوله تعالى { كَلِمًا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ } .

أي أنهم يمشون على قدر النور الدنيوي . الذي يعطيه لهم البرق . فلا نور في قلوبهم . ولذلك إذا أظلم عليهم توقفوا ، لأنه لا نور لهم .

وقوله تعالى { وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ } .

يدعي بعض المستشرقين أن ذلك يتعارض مع الآية الكريمة التي تقول { صُمُّكُمْ بَعْثٌ عُيِّيَ لَهُمْ لَأَيَّرِجْعُونَ } كيف يكونون صما بكما عميا . . أي أن منافذ الإدراك عندهم لا تعمل ، ونحن هنا نتحدث عن العمى الإيماني ، ثم يقول تبارك وتعالى { وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ } مع أنهم صم وبكم وعمي؟ . .

نقول أن قول الحق سبحانه وتعالى : { صُمُّكُمْ بَعْثٌ عُيِّيَ } أي لا يرون آيات الله ويقين الإيمان ، ولا يسمعون آيات القرآن ويعقلونها . . إذن فوسائل إدراكهم للمعنويات تتعطل . ولكن وسائل إدراكهم بالنسبة للمحسّات تبقى كما هي . فالمنافق الذي لا يؤمن بيوم القيامة ، لا يرى ذلك العذاب الذي ينتظره في الآخرة .

ولو شاء الله سبحانه وتعالى أن يذهب بسمعهم وأبصارهم .

بالنسبة للأشياء الحسة . لاستطاع لأنه قادر على كل شيء ، ولكنه سبحانه وتعالى لم يشأ ذلك . حتى لا يأتوا مجادلين في الآخرة ، من أنهم لو كان لهم بصر لرأوا آيات الله . ولو كان لهم سمع

لتدبروا القرآن . فأبقى الله لهم أبصارهم وأسماعهم . لتكون حجة عليهم ، بأن لهم بصرا ولكنهم انصرفوا عن آيات الله إلى الأشياء التي تأتيهم بفائدة عاجلة في الدنيا مهما جاءت بغضب الله . وأن لهم سمعا يسمعون به كل شيء من خطط المؤامرات على الإسلام . وضرب الإيمان وغير ذلك . فإذا تليت عليهم آيات الله فأثم لا يسمعوها . وفي ذلك يقول الله سبحانه وتعالى : { وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا } [محمد : 16]

أي أنهم يسمعون ولا يعقلون ولا يدخل النور إلى قلوبهم ، فكأنهم صم عن آيات الله لا يسمعوها . والحق سبحانه وتعالى يريد أن يعطينا مثل المنافقين بأنهم لا يلتفتون إلى القيم الحقيقية في الحياة . ولكنهم يأخذون ظاهرها فقط . يريدون النفع العاجل ، وظلمات قلوبهم . لا تجعلهم يرون نور الإيمان . وإنما يبهرهم بريق الدنيا مع أنه زائل ووقتي . فيخطف أبصارهم . ولأنه لا نور في قلوبهم ، فإذا ذهب عنهم الدنيا ، تحيط بهم الظلمات من كل مكان لأنهم لا يؤمنون بالآخرة . مع أن الله سبحانه وتعالى لو شاء لذهب بسمعهم وأبصارهم ، لأنهم لا يستخدمونها الاستخدام الإيماني المطلوب . والمفروض أن وسائل الإدراك هذه . تزيدنا إيمانا . . ولكن هؤلاء لا يرون إلا متاع الدنيا . ولا يسمعون إلا وسوسة الشيطان ، فالمهمة الإيمانية لوسائل الإدراك توقفت ، وكأن هذه الوسائل غير موجودة .

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (21)

بعد أن حدثنا الله سبحانه وتعالى عن صفات المنافقين في ثلاث عشرة آية وأعطانا أوصافهم الظاهرة . وأعطانا أمثلة لما يحدث في قلوبهم كي يعرفهم المؤمنون ظاهرا وباطنا . ويجذروهم ولا يأمنوا لهم . بين لنا كيف أن المنافقين لم يكفروا بالله كإله فقط . ويستروا وجوده ، ولكن كفروا به كرب . والرب عطاؤه مكفول لكل من خلق مؤمنهم وكافرهم ، فهو سبحانه وتعالى الذي استدعاهم للوجود وخلقهم . ولذلك فإنه سبحانه يضمن لهم رزقهم وحياتهم . والله سبحانه وتعالى لا يحرم خلقا من خلقه من عطاء ربوبيته في الدنيا . فالشمس تشرق على المؤمن والكافر . والمطر ينزل على من قال لا إله إلا الله ومن ستر وجوده تعالى : والهواء يتنفس به ذلك الذي يقيم الصلاة والذي لم يركع ركعة في حياته . . والطعام يأكله الذي يحب الله والذي يكفر بنعم الله . . ذلك أن هذه عطاءات ربوية يعطيها الله تعالى لكل خلقه في الدنيا . . أما عطاءات الألوهية ، فهي للمؤمنين في الدنيا والآخرة . فالله سبحانه وتعالى يلفت انتباه خلقه إلى أن عطاء الربوبية من الله سبحانه وتعالى لهم يكفي ليؤمنوا بالله ويعبدوه .

والحق سبحانه وتعالى حينما يخاطب الناس في القرآن الكريم ، ذلك الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فلا بد أن يكون الخطاب للناس في كل زمان ومكان . منذ نزول القرآن الكريم إلى يوم القيامة .

وخطاب الله سبحانه وتعالى خاص بقضية الإيمان في القمة ، وهي الخضوع لإله واحد لا شريك له

وقوله تعالى { الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ } معناه أن من مقتضيات العبادة . أن الله هو خالق الناس جميعا . وليس في قضية الخلق كما قلنا شبهة؛ لأنه لا أحد يستطيع أن يدعي أنه خلق نفسه ، أو خلق هذا الكون ، بل إن الحق سبحانه وتعالى يطلب منا أن نحترم السببية المباشرة في وجودنا؛ فالأب والأم هنا سبب في وجود الإنسان . فنجد الله سبحانه وتعالى يقول : { وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا } [الإسراء : 23]

وهكذا نرى أن الحق قد احترم السببية في الموجد ، مع أنه سبحانه وتعالى الموجد الذي خلق كل شيء . ولكن الله يحترم عمل الإنسان . مع أنه سبب فقط ، فالمال هو مال الله ، يعطيه لمن يشاء . لكننا نجد الحق سبحانه وتعالى هو يحث على الصدقة يقول : { مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا } [البقرة : 245]

فكانه سبحانه احترم عمل الإنسان في الحصول على المال ، رغم أن المال مال الله . فقال وهو الخالق الأعظم : { مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا } وهكذا تتجلى رحمة الحق بالخلق .

الله يقول : « وَلَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ » نتقي ماذا؟ نتقي صفات الجلال في الله . فالله سبحانه وتعالى له صفات جلال وصفات جمال ، صفات الجلال هي « الجبار والقهار والمتكبر والقوي والقادر والمقتدر والضار » وغيرها من صفات الجلال .

فالله سبحانه وتعالى يريدنا أن نجعل بيننا وبين صفات الجلال وقاية حتى لا نغضب الله ، فيعاملنا بمتعلقات صفات جلاله ، وأن نتمسك بصفات جمال الله : الرحيم الودود ، الغفار ، التواب ، فإذا نجحنا في ذلك كان لنا نجاة من النار التي هي أحد جنود الله ، ومتعلقات جلاله .

على أننا لا بد أن نتنبه إلى أن الله سبحانه وتعالى حينما يقول « يا أيها الناس » إنما يخاطب كل الناس ، فإذا أراد الحق سبحانه وتعالى مخاطبة المؤمنين قال : « يا أيها الذين آمنوا » أي يا أيها الذين آمنتم بالله إلهها ، ودخلتم معه في عقد إيماني .

الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (22)

فبعد أن بين لنا الحق سبحانه وتعالى أن عطاء ربوبيته الذي يعطيه لخلقه جميعاً ، المؤمن والكافر ، كان يكفي لكي يؤمن الناس ، كل الناس . . أخذ يبين لنا آيات من عطاء الربوبية . وبلغنا إليها لعل من لم يؤمن عندما يقرأ هذه الآيات يدخل الإيمان في قلبه . فيبلغنا الله سبحانه وتعالى إلى خلق الأرض في قوله تعالى :

{ الذي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا } .

والأرض هي المكان الذي يعيش في الناس ولا يستطيع أحد أن يدعي أنه خلق الأرض أو أوجدها . إذن فهي آية ربوبية لا تحتاج لكي نتنبه إليها إلى جهد عقلي . لأنها بديهيات محسومة لله سبحانه وتعالى . وقوله تعالى : « فراشا » توحى بأنه أعد الأرض إعداداً مريحاً للبشر . كما تفرش على الأرض شيئاً ، تجلس عليه أو تنام عليه ، فيكون فراشا يريحك . ونحن نتوارث الأرض جيلاً بعد جيل . وهي تصلح لحياتنا جميعاً . ومنذ أن خلقت الأرض إلى يوم القيامة . ستظل فراشا للإنسان .

قد يقول بعض الناس أنك إذا نمت على الأرض فقد تكون غير مريحة تحتك فيها حصى أو غير ذلك مما يضايقك . نقول أن الإنسان الأول كان ينام عليها مستريحاً . . إذن فضرورة النوم ممكنة على الأرض .

وعندما تقدمت الحضارة وزادت الرفاهية ظلت الأرض فراشاً رغم ما وجد عليها من أشياء لينة . فكأن الله تعالى . قد أعدها لنا إعداداً يتناسب مع كل جيل . فكل جيل رفته في العيش بسبب تقدم الحضارة كشف الله سبحانه من العلم ما يطوع له الأرض ويجعلها فراشاً .

ونلاحظ أن الله سبحانه وتعالى في آية أخرى يقول : { جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا } [الزخرف :

[10

والمهد هو فراش الطفل ، ولا بد أن يكون مريحاً لأن الطفل إذا وجد في الفراش أي شيء يتعبه . فإن لا يملك الإمكانيات التي تجعله يريحه ، ولذلك تمهد الأم لطفلها مكان نومه ، حتى ينام نوماً مريحاً . ولكن الذي يمهد الأرض لكل خلقه هو الله سبحانه وتعالى . يجعلها فراشاً لعباده . وإذا قرأت قوله تعالى : { هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامشوا فِي مَنَاقِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ } [

الملك : 15]

فإن معنى ذلك أن الحق سبحانه جعل الأرض مطيعة للإنسان ، تعطيه كل ما يحتاج إليه . ويأتي الحق سبحانه وتعالى إلى السماء فيقول : « والسماء بناءً » والبناء يفيد المتانة والتماسك . أي أن السماء وهي فوقك لا نرى شيئاً يحملها حتى لا تسقط عليك . إنها سقف متماسك متين . . ويؤكد الحق هذا المعنى بقوله تعالى : { وَيُؤَسِّدُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ لِأَنَّهَا يَأْذَنُ } [

الحج : 65]

وفي آية أخرى يقول : { وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا } [الأنبياء : 32]

والهدف من هذه الآيات كلها . أن نظمئن ونحن نعيش على الأرض أن السماء لن تتساقط علينا لأن الله يحفظها .

إذن من آيات الحق سبحانه وتعالى في الأرض أنه جعلها فراشاً أي ممهدة ومرجحة لحياة الإنسان . وحفظ السماء بقدرته جل جلاله ، فهي ثابتة في مكانها ، لا تهدد سكان الأرض وتفزعهم ، بأنها قد تسقط عليهم ، ثم جاء بآية أخرى :

{ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ }

فكأن الحق سبحانه وتعالى وضع في الأرض وسائل استبقاء الحياة . فلم يترك الإنسان على الأرض دون أن يوفر له وسائل استمرار حياته . فالمطر ينزل من السماء ، والسماء هي كل ما علاك فأظلك . فینبت به الزرع والثمر ، وهذا رزق لنا ، والناس تختلف في مسألة الرزق . والرزق هو ما ينتفع به ، وليس هو ما تحصل عليه . فقد تريح مالاً وافراً ولكنك لا تنفقه ولا تستفيد منه فلا يكون هذا رزقك ولكنه رزق غيرك ، وأنت تظل حارساً عليه ، لا تنفق منه قرشاً واحداً ، حتى توصله إلى صاحبه . والرزق في نظر معظم الناس هو المال ، قال عليه الصلاة والسلام :

« يقول ابن آدم مالي مالي . . وهل لك يا ابن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفريت ، ولبست فأبليت ، أو تصدقت فأمضيت » .

هذا هو رزق المال . وهو جزء من الرزق . ولكن هناك رزق الصحة . ورزق الولد . ورزق الطعام . ورزق في البركة . وكل نعمة من الله سبحانه وتعالى هي رزق وليس المال وحده .

فالحق سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا بهذه الآية الكريمة إلى أن نفكر قليلاً ، فيمن خلق هذا الكون . نعرف أنه قبل أن يخلق الإنسان خلق له عناصر بقائه . ولكن هذا الإعداد لم يتوقف عند

الحياة المادية . بل إن الله كما أعد لنا مقومات حياتنا المادية أعد لنا مقومات حياتنا الروحية ، أو القيم في الوجود . وإذا قرأت في سورة الرحمن قوله تعالى : { الرحمن * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ

الإنسان * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ } [الرحمن : 1-4]

لوجدت القرآن يعطينا قيم الحياة ، التي بدونها تصبح الدنيا كلها لا قيمة لها . لأن الدنيا امتحان أو اختبار حياة قادمة في الآخرة . فإذا لم تأخذها بمهمتها في أنها الطريق الذي يوصلك إلى الجنة . أهدرت قيمتها تماماً .

ولم تعد الدنيا تعطيك شيئاً إلا العذاب في الآخرة .

وقد ربط الحق سبحانه وتعالى الرزق في هذه الآية بالسماء فقال سبحانه :

{ فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ }

ليلفتنا إلى أن الرزق ، لا يأتي إلا من أعلى ، وضرب الله سبحانه وتعالى المثل بالماء لأنه رزق

مباشر محسوس منا ، والماء ينزل من السماء في أنقى صورته مقطراً . كل ما يأتيها من السماء . فيه علو . ينزل ليزيد حياة القيم ارتقاءً ، عملية لو أراد البشر أن يقوموا بما ما استطاعوا لأنها كانت ستكون ملايين الجنيات ، لتعطينا ماءً لا يكفي أسرة واحدة . ولكن الله سبحانه وتعالى أنزل من السماء ماءً في أنقى صورته لينبت به الثمرات ، التي تضمن استمرار الحياة في هذا الكون .

وبعد أن نفهم هذه النعم كلها . والإعجاز الذي فيها ونستوعبها يقول الحق تبارك وتعالى : { فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ } .

« أندادا » جمع نَد ، والند هو النظير أو الشبيه . وأي عقل فيه ذرة من فكر يبتعد عن مثل هذا ، فلا يجعل لله تعالى شبيهاً ولا نظيراً ولا يُشَبِّهُهُ بالله تعالى أحداً . فالله واحد في قدرته ، واحد في قوته ، واحد في خلقه . واحد في ذاته ، وواحد في صفاته .

ولا توجد مقارنة بين صفات الحق سبحانه وتعالى وصفات الخلق . والله خلق لكل منا عقلاً يفكر به ، لو عرضت هذه المسألة على العقل لرفضها تماماً ، لأنها لا تتفق مع عقل أو منطق ، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

{ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ }

أي تعرفون هذا جيداً بعقولكم لأن طبيعة العقل ترفض هذا تماماً .

فمنذا الذي يستطيع أن يدعي أنه خلقكم والذين من قبلكم؟! ومنذا الذي يستطيع أن يدعي ولو كذبا ، أنه هو الذي جعل الأرض فراشاً ، وجعل السماء سقفاً محفوظاً ، أو أنزل المطر وأنبت الزرع؟ لا أحد . إذن فأنتم تعلمون أن العقل كله لله وحده ، ومادام لا يوجد معارض ولا يمكن أن يوجد . فالقضية محسومة للحق تبارك وتعالى .

والحق سبحانه وتعالى يقول : { وَمَنْ النَّاسُ مَنِ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً يُجْبُوهُمْ كُفْبِ اللَّهِ

والذين آمنوا أشد حُباً لله } [البقرة : 165]

لماذا اتخذ هؤلاء الناس لله تعالى أندادا؟ لأنهم يريدون ديناً بلا منهج . يريدون أن يرضوا فطرة الإيمان التي خلقها الله فيهم . وفي الوقت نفسه يتبعون شهواتهم . عندما فكروا في هذا وجدوا أن أحسن طريقة هي أن يختاروا إلهاً بلا منهج ، لا يطلب منهم شيئاً ، ولذلك كل دعوة منحرفة تجد أنها تبيح ما حرم الله ، وتحل الإنسان من كل التكاليف الإيمانية كالصلاة والزكاة والجهاد وغيرها . أما الذين آمنوا . فإنهم يعرفون أن الله سبحانه وتعالى إنما وضع منهجه لصالح الإنسان : فالله لا يستفيد من صلاتنا ولا من زكاتنا . ولا من منهج الإيمان شيئاً ، ولكننا نحن الذين نستفيد من رحمة الله . ومن نعم الله ومن جنته في الآخرة .

ولأن الذين آمنوا يعرفون هذا فإنهم يحبون الله حبا شديداً ، والذين كفروا رغم كل ما يدعون فإنهم ساعة العسرة يلجأون إلى الله سبحانه وتعالى باعتباره وحده الملجأ والملاذ . وقرأ قوله تبارك

وتعالى : { وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضَّرَّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَائِماً فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ } [يونس : 12]

لماذا لم يستدع الأنداد؟ لأن الإنسان لا يغش نفسه أبداً في ساعة الخطر ، ولأن هؤلاء يعرفون بعقولهم أنه لا يمكن أن يوجد لله أنداد . ولكنه يتخذهم لأغراض دنيوية . فإذا جاء الخطر . يلجأ إلى الله سبحانه وتعالى . لأنه يعلم يقينا أنه وحده الذي يكشف الضر ، فحلاق الصحة الذي يعالج الناس دجلا . إذا مرض ابنه أسرع به إلى الطبيب لأنه يغش الناس . ولكنه لا يمكن أن يغش نفسه .

ولقد كان الأصمعي واقفاً عند الكعبة ، فسمع إعرابياً يدعو ويقول :
« يا رب أنت تعلم أبي عاصيك وكان من حقه علي ألا أدعوك وأنا عاص . ولكني أعلم أنه لا إله إلا أنت فلمن أذهب . » فقال الأصمعي : يا هذا إن الله يغفر لك لحسن مسألتك » .

وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (23)

بعد أن بين الحق سبحانه وتعالى لنا أن هؤلاء الذين يتخذون من دون الله أنداداً لا يعتمدون على منطق ولا عقل . ولكنهم يعتمدون على شهوات دنيوية عاجلة . أراد أن يأتي بالتحدي بالنسبة للقرآن الكريم المعجزة الخالدة لرسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يثبت لهم أن الله سبحانه وتعالى إذا كان قد جعل خلق الكون إعجازاً محسناً . فإن القرآن منهج معجز إعجازاً قيماً . قال الله جل جلاله :

{ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْخَطَابِ هَذَا لِكُلِّ كَافِرٍ وَمُنَافِقٍ غَيْرِ مُؤْمِنٍ ، لِأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ رَيْبٌ ، بَلْ هُمْ يُؤْمِنُونَ بِأَنَّ الْقُرْآنَ مُوحى بِهِ مِنَ اللَّهِ ، مَبْلَغٌ إِلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالوحي المنزل من السماء .

والريب : هو الشك . وقوله تعالى : { إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ } أي إن كنتم في شك . من أين يأتي هذا الشك والمعجزة تحيط بالقرآن ورسوله صلى الله عليه وسلم ؟ ما هي مبررات الشك ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم لا يقرأ ولا يكتب ولم يعرف بالبلاغة والشعر بين قومه حتى يستطيع أن يأتي من عنده بهذا الكلام المعجز الذي لم يستطع فطاحل شعراء العرب الذين تمسوا في البلاغة واللغة أن يأتوا بآية من مثله . هذه واحدة . والثانية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يكذب أبداً ولم يعرف عنه كذب قبل تكليفه بالرسالة بل كانوا يلقبونه صلى الله عليه وسلم بالصادق الأمين . والذين كانوا يلقبون رسول الله صلى الله عليه وسلم هم الذين اتهموه بأن هذا القرآن ليس من عند الله . أيصدق رسول الله عليه الصلاة والسلام مع الناس . ويكذب على الله؟! . . هذا مستحيل .

الكلام الذي جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو القرآن لم يكن أحد ليستطيع أن يأتي به من فطاحل علماء البلاغة العرب . والعلم الذي نزل في القرآن الكريم . لم يكن يعرفه بشر في ذلك الوقت . فكيف جاء النبي الأُمي بهذا الكلام المعجز . وبهذا العلم الذي لا يعلمه البشر؟! لو جلس إلى معلم أو قرأ كتب الحضارات القديمة . لقالوا ربما استنبط منها ، ولكنه لم يفعل ذلك .

فمن أين دخل الريب إلى قلوبهم؟ لاشك أنه دخل من باب الباطل . والباطل لا حجة له . وبلا شك لقد فضحوا أنفسهم بأنهم لا يرتابون في القرآن ولكنهم كانوا يريدونه أن ينزل على سيد من سادة قريش . وقرأ قول الحق سبحانه وتعالى : { وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ

الْقُرَيْبِينَ عَظِيمٍ } [الزخرف : 31]

وهؤلاء المرتابون لم يجدوا حجة يواجهون بها القرآن ، فقالوا ساحر ، وهل للمسحور إرادة مع الساحر؟ إذا كان ساحرا فلماذا لم يسحركم أنتم؟ وقالوا مجنون .

والجنون يتصرف بلا منطق . . يضحك بلا سبب . ويبكي بلا سبب . ويضرب الناس بلا سبب . ولذلك رد الحق سبحانه عليهم بقوله تعالى : { ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ * مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ

بِمَجْنُونٍ * وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مُمْنُونَ * وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ } [القلم : 1-4]

فهل يكون الجنون على خلق عظيم؟ إذن فأسباب الريب كلها أو الأسباب التي تثير الشك غير موجودة . وغير متوافرة . ولا يوجد سبب حقيقي واحد يجعلهم يشكون في أن القرآن ليس من عند الله . ولكنهم هم القائلون كما يروي لنا الحق تبارك وتعالى : { وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بَعْدَابٍ أَلِيمٍ } [الأنفال : 32]

إذن فكل أسباب الشك غير موجودة وأسباب اليقين هي الموجودة ومع ذلك ارتابوا وشكوا .

وقوله سبحانه وتعالى :

{ مَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا }

فالقرآن الكريم وجد في اللوح المحفوظ قبل أن يخلق الإنسان ، وعندما جاء وقت مباشرته لمهمته في الكون نزل من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا دفعة واحدة ثم أنزله الله سبحانه وتعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم بقدر ما احتاجت إليه المناسبات والأحداث .

إذن فقوله « نزلنا » أي نزل من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا دفعة واحدة . وقوله تعالى «

أنزل » أي أنزله آيات على محمد صلى الله عليه وسلم بحسب اقتضاء الأحداث والمناسبات .

الحق سبحانه وتعالى يقول : « على عبدنا » وهذه محتاجة إلى وقفة . فالله جل جلاله . له عبيد وله عباد . كل خلق الله في كونه عبيد لله سبحانه وتعالى . لا يستطيعون الخروج عن مشيئة الله أو

إرادته . هؤلاء هم العبيد . ولكن العباد هم الذين اتحدت مراداتهم مع ما يريد الله سبحانه

وتعالى . . تخلوا عن اختيارهم الدنيوي ، ليصبحوا طائعين لله باختيارهم ، أي أنهم تساوا مع المقهورين في أنهم اختاروا منهج الله وتركوا أي اختيار يخالفه .

هؤلاء هم العباد ، وإذا قرأت القرآن الكريم تجد أن الله سبحانه وتعالى يشير إلى العباد بأنهم الصالحون من البشر فيقول الحق تبارك وتعالى : { وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ } [البقرة : 186]
هذا ليس لكل خلق الله ، ولكنه للعباد . الذين إذا قال الله تعالى لهم افعلوا فافعلوا وإذا قال الله لا تفعلوا لم يفعلوا . أي أنهم لا يخالفون بقدرتهم على الاختيار منهج الله سبحانه وتعالى . ولذلك في الجهاد لا يقول الحق سبحانه وتعالى عن المجاهدين أنهم عبيد . بل يقول جل جلاله : { فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا } [الإسراء : 5]

وبعض المستشرقين الذين يحاولون الطعن في القرآن الكريم يقولون أن كلمة عباد قد جاءت في وصف غير المؤمن في قوله تعالى :

{ أَنَأْتُمْ أَضَلُّلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ } [الفرقان : 17]

نقول : إنكم لم تفهموا أن هذا ساعة الحساب في الآخرة ، وفي الآخرة كلنا عباد لأننا كلنا مقهورون فلا اختيار لأحد في الآخرة وإنما الاختيار البشري ينتهي ساعة الاحتضار ، ثم يصبح الإنسان بعد ذلك مقهوراً .

فنحن جميعاً في الآخرة عباد ولكن الفرق بين العبيد والعباد هو في الحياة الدنيا فقط . والعبودية هي أرقى مراتب القرب من الله تعالى . لأنك تأتي إلى الله طائعاً . منفذاً للمنهج باختيارك . ولقد عرض على رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكون ملكاً رسولاً ، أو عبداً رسولاً . فاختار أن يكون عبداً رسولاً . وإذا أردنا أن نعرف معنى العبودية نقرأ في سورة الإسراء : { سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ } [الإسراء : 1]
لنرى أنه في أعلى درجات الأنعام من الله سبحانه وتعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم في المعجزة الكبرى التي لم تحدث لبشر قبله صلى الله عليه وسلم سواء كان رسولاً أو غير رسول ، ولن تحدث لبشر بعده . . ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صعد إلى السماوات السبع بالروح وبالجسد ثم عاد إلى الأرض . وتجاوز رسول الله صلى الله عليه وسلم منزلة جبريل فتجاوز سدرة المنتهى وهي المكان الذي ينتهي إليه علم خلق الله من البشر والملائكة المقربين .

وبشرية الرسول أخذت جدلاً كبيراً منذ بدأت الرسائل السماوية . وحتى عصرنا هذا . واقراً

قوله تعالى : { فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا } [هود : 27]

وقوله تعالى : { فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّثْنَا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذَا لَفِيَ ضَلَالٍ وَسُعْرٍ } [القمر : 24]

وقوله تعالى : { وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا }
[الإسراء : 94]

وقوله تعالى : { وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ } [المؤمنون : 34]
إذن فبشرية الرسول اتخذت حجة للذين لا يريدون أن يؤمنوا والرسول مبلغ عن الله . ولا بد أن يكون من جنس القوم الذين أرسل إليهم . ولا بد أن يكون قد عاش بينهم فترة قبل الرسالة واشتهر بالأمانة والصدق حتى لا يكذبوه . وفي الوقت نفسه هو قدرة . ولذلك لا بد أن يكون من جنس قومه . لأنه سيطبق المنهج عملياً أمامهم . ولو كان من جنس آخر لقالوا لا نطبق ما كلفتنا به يا رب . لأن هذا رسول الله مخلوق من غير مادتنا . ومقهور على الطاعة .
إذن فبشرية الرسول حتمية . وكل من يحاول أن يعطي الرسول صفة غير البشرية . إنما يحاول أن ينقص من كمالات رسالات الله ، والله سبحانه وتعالى ليس عاجزاً ، عن أن يحول البشر إلى ملائكة وقرأ قوله تعالى : { وَلَوْ نَشَاءُ لَجْعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُقُونَ } [الزخرف : 60]

إذن فبشرية الرسول هي من تمام الرسالة .

ثم يأتي التحدي من الله سبحانه وتعالى { فَاتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ } والمطلوب أن يأتي العرب بسورة من مثل ما جاء به القرآن الكريم .
الشهود الذين يطلب الله دعوتهم هم شهود ضعفاء . شهود من البشر وليست شهادة من الله بالغيب .

والله سبحانه وتعالى وضع في هذه الآية معظم الشكوك لنفحصها ، ولنصل فيما بعد ذلك إلى جوهر الإعجاز القرآني .

والحق سبحانه وتعالى تدرج في التحدي مع الكافرين . فطلب منهم أن يأتوا بمثل القرآن ، ثم طلب عشر سور من مثله . ثم تدرج في التحدي فطلب سورة واحدة . والنزل في التحدي من القرآن كله إلى عشر سور . إلى سورة واحدة . دليل ضد من تحداهم . فلا يستطيعون أن يأتوا بمثل القرآن ، فيقول : إذن فأتوا بعشر سور . فلا يستطيعون ويصبح موقفهم مدعاة للسخرية . فيقول : فأتوا بسورة . وهذا منتهى الاستهانة بالذين تحداهم الله سبحانه وتعالى وإثباتاً لأنهم لا يقدرين على شيء . وكلمة بمثل . معناها أن الحق سبحانه وتعالى يطلب المثل ولا يطلب نص القرآن وهذا إمعان وزيادة في إظهار عجز القوم الذين لا يؤمنون بالله ويشككون في القرآن .
وقوله تعالى : { وادعوا شُهَدَاءَكُمْ } .

معناه أن الله سبحانه وتعالى زيادة في التحدي يطالبهم بأن يأتوا هم بالشهداء ويعرضوا عليهم الآية ليحكم هؤلاء الشهود إذا كان ما جاءوا به مثل القرآن أم لا . أليس هذا إظهار منتهى

القوة لله سبحانه وتعالى لأنه لم يشترط شهداء من الملائكة ولا شهداء من الذين اشتهر عنهم الصدق . وأنهم يشهدون بالحق . بل ترك الحق سبحانه لهم أن يأتوا بالشهداء وهؤلاء الشهداء لن يستطيعوا أن يشهدوا أن كلام هؤلاء المشككين يماثل سورة من القرآن .
الله سبحانه وتعالى طلب منهم أن يأتوا بأي شهداء متحيزين لهم . وأطلقها سبحانه وتعالى على كل أجناس الأرض فقال : { مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ } ولكن إياكم أن تقولوا يشهد الله بأن ما جئنا به مثل القرآن . لأنكم تكونون قد كذبتهم على الله وادعيتهم شيئاً لم يقله سبحانه وتعالى .

ولكن ما معنى قوله تعالى : { إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ } صادقين في ماذا؟ وما هو الصدق؟ الصدق يقابل الكذب ، والصدق والكذب ، كل منهما نسبي . كلنا يعلم أن هناك كلاماً غير مفيد ، فإذا قلت محمد وسكتَ فمن يسمعك سيسألك ، ماذا تقصد بقولك محمد؟ وسؤاله دليل على أنه لم يستفد شيئاً ، ولكنه لو سألك من عندك؟ وأجبت محمد فكأنك تخبره بأن عندك محمداً وهذه كلمة واحدة لكنك فهمتها بالمعنى الذي أخذته من كلام السائل . إذن فلا تقل كلمة واحدة ولكن قل كلاماً مفيداً . إذن فالكلام المفيد هو الذي يسكت السامع عليه . وكل متكلم قبل أن ينطق بالكلام يكون عنده نسبة ذهنية لما سيقول ، يعبر عنها بنسبة كلامية . ولكن هناك نسبة خارجية لما يقول تمثل الواقع .

أي أنك لو قلت محمد مجتهد فلا بد أن يكون هناك شخص اسمه محمد . ولا بد أن يكون مجتهداً فعلاً . لتتطابق النسبة الكلامية . مع النسبة الواقعية . فإذا لم يكن هناك شخص اسمه محمد . أو كان هناك شخص اسمه محمد ولكنه ليس مجتهداً ، فإن النسبة الكلامية تخالف النسبة الواقعية . والصدق أن تتطابق النسبة الكلامية والنسبة الواقعية . « والكذب » ألا تتطابق النسبة الكلامية مع النسبة الواقعية . . هذا المفهوم ضرورة لعرض معنى الآية الكريمة .
إذن فقوله تعالى « صادقين » أي أن تتطابق النسبة الكلامية التي ستقولونها مع نسبة واقعية تستطيعون أن تدللوا عليها . فإن لم يحدث ذلك فأنتم كاذبون .
فالله سبحانه وتعالى يريد منكم الدليل على صدقكم .

فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (24)

بعد أن تحدث الله سبحانه وتعالى عن الأدلة التي يستند إليها المشككون في القرآن الكريم . وهي أدلة لا تستند إلى عقل ولا إلى منطق . تحداهم بأن يأتوا بسورة مثل القرآن ، وأن يستعينوا بمن يريدون من دون الله ، لأن القرآن كلام الله ، والله سبحانه هو القائل . وبما أنهم يحاولون التشكيك في أن القرآن كلام الله . وأنه منزل من عند الله ، فليستعينوا بمن يريدون ليأتوا بآية من

مثله ، لأن التحدي هنا لا يمكن أن يتم إلا إذا استعانوا بجميع القوى ما عدا الله سبحانه وتعالى .
ثم يأتي الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك بالنتيجة قبل أن يتم التحدي . لأن الله سبحانه وتعالى يعلم
أنهم لن يفعلوا ولن يستطيعوا .

إن قوله سبحانه : { فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا } معناه أنه حكم عليهم بالفشل وقت نزول
القرآن وبعد نزول القرآن إلي يوم القيامة . لأن الله لا يخفى عن علمه شيء . فهو بكل شيء
عليم . وكلمة « لم تفعلوا » عندما تأتي قد تثير الشك . فنحن نعرف أن مجيء إن الشرطية يثير
الشك . . لأن الأمر لكي يتحقق يتعلق بشرط . وأنت إن قلت إن ذاكرت تنجح ، ففي المسألة
شك . . أما إذا قلت كقول الحق { إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ } فمعنى ذلك أن نصر الله آت لا
محالة .

و « إن » حرف و « إذا » ظرف ، وكل حدث يحتاج إلى مكان وزمن . فإذا جئت بأداة الشرط
فمعنى ذلك أنك تقر بها من عنصر تكوين الفعل والحدث . فإذا أردت أن تعبر عن شيء
سيتحقق تقول إذا ، وإذا أردت أن تشكك فيه تقول « إن » والله سبحانه وتعالى قال « فإن لم
تفعلوا » ولأن الفعل ممكن الحدث أراد أن يرجح الجانب المانع فقال « ولن تفعلوا » هذا أمر
اختياري . فإذا تكلمت عن أمر اختياري ثم حكمت أنه لن يحدث . فكأن قدرتك هي التي
منعته من الفعل . فلا يقال أنك قهرته على ألا يفعل . لا . علمت أنه لن يفعل . فاستعداداته لا
يمكن أن تمكنه من الفعل .

وهذه أمور ضمن اخبارات القرآن الكريم في القضايا الغيبية التي أخبر عنها ، فعندما يقول الله
سبحانه وتعالى { وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ } معناه أنهم مصدقون ولكن ألسنتهم لا تعترف
بذلك . وقوله تعالى « فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا » معناه أن الشك مفتعل في نفوسهم؛ هم لا
يريدون أن يؤمنوا ولذلك يأتون بسبب مفتعل لعدم الإيمان . لقد استقر فكرهم على أنهم لا
يؤمنون ، ومادام هذا هو ما قرروه . فإنكم ستظلون تبحثون عن أسباب ملفقة لعدم الإيمان .
وقوله تعالى : { فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ } .

الحق سبحانه وتعالى يريد هنا أن يلفتنا إلى صورة أخرى عن عجز هؤلاء الكفار . فهم بحثوا عن
أعذار ، ليبرروا بها عدم إيمانهم وتظاهروا بأنهم يشكون في القرآن الكريم . يقول لهم : لو كانت
لكم قدرة وذاتية فعلا فامنعوا أنفسكم من دخول النار يوم القيامة . كما منعتم أنفسكم من
الإيمان في الدنيا .

وهذا وعيد من الله . لقد أعطاهم ذاتية الاختيار في الدنيا ولم يختاروا قهراً بل اختاروا عدم الإيمان
بمشيئة الاختيار التي أعطاه الله لهم . ولكن هناك وقت ليس فيه اختيار وهو الآخرة فحاولوا أن
تتقوا في الآخرة عذاب النار يوم القيامة . ولكن لن يكون لأحد اختيار . فالله سبحانه وتعالى

يقول في ذلك اليوم : { لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ } [غافر : 16]
 ويقول جل جلاله : { يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ } [الانفطار : 19]
 فإرادتكم التي منعتكم من الإيمان . . لن تقيكم يومئذ من عذاب النار ، وقرأ قوله تعالى :
 { إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ } [الأنبياء : 98]
 لماذا هم وما يعبدون؟ لأن العابد يرتجي نفع المعبود . فكأتهما عندما يرى كل منهما الآخر في
 العذاب . تكون الحسرة أشد . ولذلك فإن الحجارة والأصنام التي يعبدونها ستكون معهم في النار
 يوم القيامة . وليس هذا عقاباً للأحجار والأصنام . لأنها خلق مقهور لله مسبح له ، ولكن هذه
 الأصنام والأحجار تكون راضية وهي تحرق الذين كفروا بالله . وتقول : « عبدونا ونحن أعبد لله
 من المستغفرين بالأسحار » .

وقوله تعالى : { أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ } الله سبحانه وتعالى يخبرهم وهم في الدنيا ، أن النار أعدت
 للكافرين . وقوله تعالى النار أعدت للكافرين تطمين غاية الاطمئنان للمؤمن . وإرهاب غاية
 الإرهاب للكافر . . وقوله تعالى « أعدت » معناها أنها موجودة فعلاً وإن لم نكن نراها . وأنها
 مخلوقة وإن كانت محجوبة عنا .

ورسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« عرضت عليّ الجنة ولو شئت أن آتيكم منها بقطاف لفعلت » .
 وهذا دليل على أنها موجودة فعلاً .

والمؤمن حينما يعلم أن الجنة موجودة فعلاً وأن الإيمان سيقوده إليها فإنه يحس بالسعادة ويشتاق
 للجنة . فإذا سمع قول الحق سبحانه وتعالى : { أولئك هم الوارثون * الذين يرثون الفردوس هم
 فيها خالدون } [المؤمنون : 10-11]

ساعة تقرأ هذه الآية الكريمة تعرف أن الله سبحانه وتعالى سيجعلك في الجنة تأخذ ما كان لغيرك .
 لأن الميراث يأتيك من غيرك . وقد سبق علم الله سبحانه وتعالى خلق الناس جميعاً . وقبل أن
 يخلق أعد لكل خلقه مقعداً في النار ومقعداً في الجنة . الذين سيدخلون النار خالدون فيها ،
 مقاعدهم في الجنة ستكون خالية ، فيأتي الله سبحانه وتعالى يعطيها للمؤمنين ليرثوها فوق
 مقاعدهم ومنازلهم في الجنة . والحق سبحانه وتعالى يقول : « أعدت » فهي موجودة فعلاً .

وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ
 ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَهُمْ فِيهَا أزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ
 (25)

وبعد أن بين الله سبحانه وتعالى لنا مصير الكافرين الذين يشككون في القرآن ليتخذوا من ذلك
 عذراً لعدم الإيمان . قال : إذا كنتم قد اخترتم عدم الإيمان ، بما أعطيتكم من اختيار في الدنيا ،

فإنكم في الآخرة لن تستطيعوا أن تتقوا النار . ولن تكون لكم إرادة .

ثم يأتي الحق تبارك وتعالى بالصورة المقابلة . والقرآن الكريم إذا ذكرت الجنة يأتي الله بعدها بالصورة المقابلة وهي العذاب بالنار . وإذا ذكرت النار بعذابها وهيبها ذكرت بعدها الجنة . وهذه الصورة المتقابلة لها تأثير على دفع الإيمان في النفوس . فإذا قرأ الإنسان سورة للعذاب ثم جاء بعدها النعيم فإنه يعرف أنه قد فاز مرتين . فالذي يزحج عن النار ولا يدخلها يكون ذلك فوزاً ونعمة ، فإذا دخل الجنة تكون نعمة أخرى ، ولذلك فإن الله تعالى يقول : { فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ } [آل عمران : 185]

ولم يقل سبحانه ومن أدخل الجنة فقد فاز . لأن مجرد أن تزحج عن النار فوز عظيم . . وفي الآخرة . وبعد الحساب يضرب الصراط فوق جهنم ، ويعبر من فوقه المؤمنون والكافرون . فالمؤمنون يجتازون الصراط المستقيم كل حسب عمله منهم من يمر بسرعة البرق . ومنهم من يمر أكثر بطأً وهكذا ، والكافرون يسقطون في النار . ولكن لماذا يمر المؤمنون فوق الصراط . والله سبحانه وتعالى قال : { وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا * ثُمَّ نُنجِي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنُذِرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا } [مريم : 71-72]

لأن مجرد رؤية المؤمنين لجهنم نعمة كبرى ، فحين يرون العذاب الرهيب الذي أنجاهم الإيمان منه يحس كل منهم بنعمة الله عليه . أنه أنجاه من هذا العذاب . وأهل النار وأهل الجنة يرى بعضهم بعضاً . فأهل الجنة حينما يرون أهل النار يحسون بعظيم نعمة الله عليهم . إذ أنجاهم منها ، وأهل النار حين يرون أهل الجنة يحسون بعظيم غضب الله عليهم أن حرّمهم من نعيمه ، فكان هذه الرؤية نعيم لأهل الجنة وزيادة في العذاب لأهل النار . . والله سبحانه وتعالى يقول :

« وبشر » والبشارة هي الأخبار بشيء سار قادم لم يأت وقته بعد . فأنت إذا بشرت إنساناً بشيء أعلنته بشيء سار قادم . والبشارة هنا جاءت بعد الوعيد للكافرين .

والإنذار هو اخبار بأمر مخيف . لم يأت وقته بعد .

ولكن البشارة تأتي أحيانا في القرآن الكريم ويقصد بها الكفار . وقرأ قوله تعالى : { وَيَلِّ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ * يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تَتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا فَبَشْرَهُ بِعَدَابِ أَلِيمٍ } [الجاثية : 7-8]

البشارة هنا تهكمية من الله سبحانه وتعالى . فالحق تبارك وتعالى يريد أن يزيد عذاب الكفار ، فعندما يسمعون كلمة « فبشرهم » يعتقدون أنهم سيشمعون خبراً ساراً ، فيأتي بعدها العذاب الأليم ليزيدهم غما على غم .

يقول الحق سبحانه وتعالى : { وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ } .

البشرى هنا إعلام بخير قادم للمؤمنين ، والإيمان هو الرصيد القلبي للسلوك . لأن من يؤمن

بقضية يعمل من أجلها ، التلميذ يذاكر لأنه مؤمن أنه سينجح ، وكل عمل سلوكي لابد أن يوجد من ينبوع عقيدي . والإيمان أن تنسجم حركة الحياة مع ما في القلب وفق مراد الله سبحانه وتعالى : ونظام الحياة لا يقوم إلا على إيمان . . فكأن العمل الصالح ينبوعه الإيمان . ولذلك يقول القرآن الكريم : { والعصر * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ } [العصر : 1-3]

وفي آية أخرى : { وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ } [فصلت : 33]

ولكن هل يكفي الإعلان عن كوني من المسلمين؟ لا بل لابد أن يقترن هذا الإعلان بالعمل بمرادات الله سبحانه وتعالى .

الحق سبحانه وتعالى يُريدُ أن يلفتنا . . إلى أن قولنا « لا إله إلا الله محمد رسول الله » . . لابد أن يصاحبه عمل بمنهج الإسلام . . ذلك أن نطقنا بالشهادة لا يزيد في ملك الله شيئاً . . فالله تبارك وتعالى شهد بوحداية ألوهيته لنفسه ، وهذه شهادة الذات للذات . . ثم شهد الملائكة شهادة مشهد لأنهم يرونه سبحانه وتعالى . . ثم شهد أولو العلم شهادة دليل بما فتح عليهم الله جل جلاله من علم . . وفي ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : { شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } [آل عمران : 18]

ولكن الحق سبحانه وتعالى يريد من المؤمنين أن يعملوا بالمنهج . . لماذا؟ . . حتى لا تتعاند حركة الحياة بل تتساند . . ومادامت حركة الحياة مستقيمة . . فإنها تصبح حياة متساندة وقوية . . وعندما انتشر الإسلام في بقاع الأرض لم يكن الهدف أن يؤمن الناس فقط لمجرد الإيمان . . ولكن لابد أن تنسجم حركة الحياة مع منهج الإسلام . . فإذا ابتعدت حركة الحياة عن المنهج . . حينئذ لا يخدم قضية الدين أن يؤمن الناس أو لا يؤمنوا . . ولذلك لابد أن ينص على الإيمان والعمل الصالح . . { وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ } . . والصلوات هي جمع صالحة . . والصالحة هي الأمر المستقيم مع المنهج ، وضدها الفساد . . وحين يستقبل الإنسان الوجود . . فإن أقل الصالحات هو أن يترك الصالح على صلاحه أو يزيده صلاحاً .

الحق تبارك وتعالى يبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات بجنات تجري من تحتها الأنهار . . والجنات جمع جنة ، وهي جمع لأنها كثيرة ومتنوعة . . وهناك درجات في كل جنة أكثر من الدنيا . . وقرأ قوله تبارك وتعالى : { انظر كيف فضلنا بعضهم على بعضٍ وللاخرة أكبر درجاتٍ وأكثر تفضيلاً } [الإسراء : 21]

الجنات نفسها متنوعة . . فهناك جنات الفردوس ، وجنات عدن ، وجنات نعيم .

. وهناك دار الخلد ، ودار السلام ، وجنة المأوى . . وهناك عِلْيُون الذي هو أعلى وأفضل الجنات . . وأعلى ما فيها التمتع برؤية الحق تبارك وتعالى . . وهو نعيم يعلو كثيرا عن أي نعيم في الطعام والشراب في الدنيا . .

والطعام والشراب بالنسبة لأهل الجنة لا يكون عن جوع أو ظمأ . . وإنما عن مجرد الرغبة والتمتع . والله جل جلاله في هذه الآية يَعُدُّ بأمرٍ غيبي . . ولذلك فإنه لكي يقرب المعنى إلى ذهن البشر . . لا بد من استخدام ألفاظ مشهودة وموجودة . . أي عن واقع نشهده . . واقرأ ، قوله تبارك وتعالى : { فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } [السجدة : 17

[

إذن ما هو موجود في الجنة لا تعلمه نفس في الدنيا . . ولا يوجد لفظ في اللغة يعبر عنه . . ولا ملكة من ملكات المعرفة كالسمع والنظر قد رآته . . ولذلك استخدم الحق تبارك وتعالى الألفاظ التي تتناسب مع عقولنا وإدراكنا . . فقال تعالى : { جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ } . . على أن هناك آيات أخرى تقول : { تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ } ما الفرق بين الاثنين . . تجري تحتها الأنهار . . أي أن نبع الماء من مكان بعيد وهو يمر من تحتها . . أما قوله تعالى : { تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ } فكأن الأنهار تنبع تحتها . . حتى لا يخاف إنسان من أن الماء الذي يأتي من بعيد يقطع عنه أو يجف . . وهذه زيادة لاطمئنان المؤمنين أن نعيم الجنة باق وخالد . .

ومادام هناك ماء فهناك خضرة ومنظر جميل ولا بُدَّ أن يكون هناك ثمر . . وفي قوله تعالى : { كَلَّمَا رَزَقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رَزَقُوا قَالَُوا هَذَا الَّذِي رَزَقْنَا مِن قَبْلُ وَأَتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا } . . حديث عن ثمر الجنة . . وثمر الجنة يختلف عن ثمر الدنيا . . إنك في الدنيا لا بد أن تذهب إلى الثمرة وتأتي بها أو يأتيك غيرك بها . . ولكن في الجنة الثمر هو الذي يأتي إليك . . بمجرد أن تشتهيته تجده في يدك . . وتعتقد أن هناك تشابها بين ثمر الدنيا وثمر الجنة . . ولكن الثمر في الجنة ليس كثمر الدنيا لا في طعمه ولا في رائحته . . وإنما يرى أهل الجنة ثمرها ويتحدثون يقولون ربما تكون هذه الثمرة هي ثمرة المانجو أو التين الذي أكلناه في الدنيا . . ولكنها في الحقيقة تختلف تماما . . قد يكون الشكل متشابها ولكن الطعم وكل شيء مختلف . .

في الدنيا كل طعام له فضلات يخرجها الإنسان . . ولكن في الآخرة لا يوجد لطعام فضلات بل أن الإنسان يأكل كما يشاء دون أن يحتاج إلى إخراج فضلات ، وذلك لاختلاف ثمار الدنيا عن الآخرة في التكوين . .

إذن ففي الجنة الأنهار مختلفة والثمار مختلفة .

. والجنة يكون الرزق فيها من الله سبحانه وتعالى الذي يقول « للشيء كن فيكون » . . ولا أحد

يقوم بعمل . ثم يقول الحق تبارك وتعالى : { وَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ }

الزوجة هي متعة الإنسان في الدنيا إن كانت صالحة . . والمنغصة عليه إن كانت غير صالحة . .
وهناك منغصات تستطيع أن تضعها المرأة في حياة زوجها تجعله شقياً في حياته . . كأن تكون
سليطة اللسان أو دائمة الشجار . . أولاً تعطي اهتماماً لزوجها أو تحاول إثارتها بأن تجعله يشك
فيها . . أما في الآخرة فتزول كل هذه المنغصات وتزول بأمر الله . فالزوجة في الآخرة مطهرة من
كل ما يكرهه الزوج فيها ، وما لم يحبه في الدنيا يختفي . فالمؤمنون في الآخرة مطهرون من كل
نقائص الدنيا ومتاعبها وأولها الغل والحقد . . وقرأ قوله جل جلاله : { وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ
مِّنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ } [الحجر : 47]
فمقاييس الدنيا ستختفي وكل شيء تكرهه في الدنيا لن تجده في الآخرة . . فإذا كان أي شيء
قد نعص حياتك في الدنيا فإنه سيختفي في الآخرة . . والحق تبارك وتعالى ضرب المثل بالزوجات
لأن الزوجة هي متعة زوجها في الدنيا . . وهي التي تستطيع أن تحيل حياته إلى نعيم أو جحيم . .
وقوله تعالى : { وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } . . أي لا موت في الآخرة ولن يكون في الآخرة وجود
للموت أبداً ، وإنما فيها الخلود الدائم إما في الجنة وإما في النار .

إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ
رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ
إِلَّا الْفَاسِقِينَ (26)

بعد أن تحدث الحق تبارك وتعالى عن الجنة . . وأعطانا مثلاً يقرب لنا صور النعيم الهائلة التي
سينعم بها الإنسان في الجنة . . أراد أن يوضح لنا المنهج الإيماني الذي يجب أن يسلكه كل مؤمن
. . ذلك أن الله سبحانه وتعالى لا يكلف كافراً بعبادته . . ولكن الإنسان الذي ارتضى دخول
الإيمان بالله جل جلاله قد دخل في عقد إيماني مع الله تبارك وتعالى . . ومادام قد دخل العقد
الإيماني فإنه يتلقى عن الله منهجه في الفعل ولا تفعل . . وهذا المنهج عليه أن يطبقه دون أن
يتساءل عن الحكمة في كل شيء . . ذلك أن الإيمان هو إيمان بالغيب . . فإذا كان الشيء نفسه
غائباً عنا فكيف نريد أن نعرف حكمته . .
إن حكمة أي تكليف إيماني هي : أنه صادر من الله سبحانه وتعالى ، ومادام صادراً من الله فهو لم
يصدر من مُساوٍ لك كي تناقشه ، ولكنه صادر من إله وجبت عليك له الطاعة لأنه إله وأنت له
عابد . . فيكفي أن الله سبحانه وتعالى قال افعل حتى نفعل . . ويكفي أنه قال لا تفعل حتى لا
نفعل . .

الحكمة غائبة عنك . . ولكن صدور الأمر من الله هو الحكمة ، وهو الموجب للطاعة . . فأنا
أصلي لأن الله فرض الصلاة ، ولا أصلي كنوع من الرياضة . . وأنا أتوضأ لأن الله تبارك وتعالى
أمرنا بالوضوء قبل الصلاة . . ولكنني لا أتوضأ كنوع من النظافة . . وأنا أصوم لأن الله أمرني

بالصوم . . ولا أصوم حتى أشعر بجوع الفقير . . لأنه لو كانت الصلاة رياضة لاستبدلناها بالرياضة في الملاعب . . ولو أن الوضوء كان نظافة لقمنا بالاستحمام قبل كل صلاة . . ولو أن الصوم كان لشعر بالجوع ما وجب على الفقير أن يصوم لأنه يعرف معنى الجوع . . إذن فكل تكاليف من الله نفعلها لأن الله شرعها ولا نفعلها لأي شيء آخر . . وكل ما يأتي من الله من قرآن نستقبله على أنه كلام الله ولا نستقبله بأي صيغة أخرى . . ذلك هو الإيمان الذي يريد الله منا أن نتمسك به ، وأن يكون هو سلوك حياتنا .

تلك مقدمة كان لابد منها إذا أردنا أن نعرف معنى الآية الكريمة : { إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيُ أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا } وعندما ضرب الله مثلا بالبعوضة . . استقبله الكفار بالمعنى الدنيوي دون أن يفطنوا للمعنى الحقيقي . . قالوا كيف يضرب الله مثلا بالبعوضة ذلك المخلوق الضعيف . . الذي يكفي أن تضربه بأي شيء أو بكفكك فيموت؟ . لماذا لم يضرب الله تبارك وتعالى مثلا بالفيل الذي هو ضخمة الجثة شديدة القوة .

. أو بالأسد الذي هو أقوى من الإنسان وضرب لنا مثلا بالبعوضة فقالوا : « ماذا أراد الله بهذا مثلا » . . ولم يفطنوا إلى أن هذه البعوضة دقيقة الحجم خلقها معجزة . . لأن في هذا الحجم الدقيق وضع الله سبحانه وتعالى كل الأجهزة اللازمة لها في حياتها . . فلها عينان ولها خرطوم دقيق جدا ولكنه يستطيع أن يخرق جلد الإنسان . . ويخرج الأوعية الدموية التي تحت الجلد ليمتص دم الإنسان . .

والبعوضة لها أرجل ولها أجنحة ولها دورة تناسلية ولها كل ما يلزم لحياتها . . كل هذا في هذا الحجم الدقيق . . كلما دق الشيء احتاج إلى دقة خلق أكبر . . ونحن نشاهد في حياتنا البشرية أنه مثلا عندما اخترع الإنسان الساعة . . كان حجمها ضخما لدرجة أنها تحتاج إلى مكان كبير . . وكلما تقدمت الحضارة وارتقى الإنسان في صناعته وحضارته وتقدمه ، أصبح الحجم دقيقا وصغيرا ، وهكذا أخذت صناعة الساعات تدق . . حتى أصبح من الممكن صنع ساعة في حجم الخاتم أو أقل . . وعندما بدأ اختراع المذياع أو الراديو كان حجمه كبيرا . . والآن أصبح في غاية الدقة لدرجة أنك تستطيع أن تضعه في جيبك أو أقل من ذلك . . وفي كل الصناعات عندما ترتقي . . يصغر حجمها لأن ذلك محتاج إلى صناعة ماهر وإلى تقدم علمي . .

وهكذا حين ضرب الله مثلا بالبعوضة وما فوقها . . أي بما هو أقل منها حجما . . فإنه تبارك وتعالى أراد أن يلفتنا إلى دقة الخلق . . فكلما لطف الشيء وصغر حجمه احتاج إلى دقة الخلق . . ولكن الكفار لم يأخذوا المعنى على هذا النحو وإنما أخذوه بالمعنى الدنيوي البسيط الذي لا يمثل الحقيقة .

فإنه سبحانه وتعالى حينما ضرب هذا المثل . . استقبله المؤمنون بأنه كلام الله . . واستقبلوه بمنطق الإيمان بالله فصدقوا به سواء فهموه أم لم يفهموه . . لأن المؤمن يصدق كل ما يجيء من عند الله سواء عرف الحكمة أو لم يعلمها . . وقرأ قوله تبارك وتعالى : { وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شَفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَعَعْمَلٌ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ } [الأعراف : 52-53]

إن كل مصدق بالقرآن لا يطلب تأويله أو الحكمة في آياته . . ولذلك قال الكافرون : { مَا ذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا } ويأتي رد الحق تبارك وتعالى : { يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ } . . ومن هم الفاسقون؟ . . هم الذين ينقضون عهد الله . . أول شيء في الفسق أن ينقض الفاسق عهده .

. ويقال فسقت الرطبة أي بعدت القشرة عن النمر . . فعندما تكون الثمرة أو البلحة حمراء تكون القشرة ملتصقة بالثمرة بحيث لا تستطيع أن تنزعها منها . . فإذا أصبحت الثمرة أو البلحة رطبا تسود قشرتها وتبتعد عن الثمرة بحيث تستطيع أن تنزعها عنها بسهولة . . هذا هو الفاسق المبتعد عن منهج الله . . ينسلخ عنه بسهولة ويسر ، لأنه غير ملتصق به . . وعندما تبتعد عن منهج الله فإنك لا ترتبط بأوامره ونواهيه . . فلا تؤدي الصلاة مثلا وتفعل ما نهي الله عنه لأنك فسقت عن دينه . . والذي أوجد الفسق هو أن الإنسان خلق مختارا . . قادرا على أن يفعل أو لا يفعل . . وبهذا الاختيار أفسد الإنسان نظام الكون . . فكل شيء ليس للإنسان اختيار فيه تراه يؤدي مهمته بدقة عالية كالشمس والقمر والنجوم والأرض . . كلها تتبع نظاما دقيقا لا يحتل لأنها مقهورة . . ولو أن الإنسان لم يخلق مختارا . . لكان من المستحيل أن يفسق . . وأن يبتعد عن منهج الله ويفسد في الأرض . . ولكن هذا الاختيار هو أساس الفساد كله .

الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ
أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (27)

بعد أن شرح الله لنا مفهوم الإيمان . في أننا نتلقى عن الله وننفذ الحكم ولو لم نعرف الحكمة . فكل ما يأتي من الله نأخذه بمنطق الإيمان ، وهو أن الله الذي قال . وليس بمنطق الكفر والتشكك . فكل شيء عن الله حكمته أنه صادر عن الحق سبحانه وتعالى .

وأخبرنا الحق تبارك وتعالى أن الفاسقين هم المبتعدون عن منهج الله . وأراد الحق أن يبين لنا صفات الفاسقين . فحددها في ثلاث صفات . . أولا : الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه .

. ثانيا الذين يقطعون ما أمر الله به أن يوصل . ثالثا : الذين يفسدون في الأرض . ثم حدد لنا

الحق تبارك وتعالى حكمهم فقال : أولئك هم الخاسرون . والخسران أن الذي وصلوا إليه هو من عملهم . لأنهم تركوا المنهج وبدأوا يشرعون لأنفسهم بموى النفس . ولذلك يقول الحق جل جلاله عنهم : { أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين } [البقرة : 16]

إذن هم الذين اختاروا ، وهم الذين اشتروا الضلالة ودفعوا ثمنها من هدى الله . فكأنهم عقدوا صفقة خاسرة . لأن هدى الله هو الذي يقودنا إلى الحياة الخالدة والنعيم الذي لا يزول . والحق سبحانه وتعالى يعطينا الصورة في قوله تعالى : { إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ هُمْ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًّا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ } [التوبة : 111]

إذن فالمؤمنون باعوا لله سبحانه وتعالى أموالهم وأنفسهم ، وكانوا صادقين في عهدهم . أما الكفار والمنافقون ، فقد باعوا هدى الله ، واشتروا به ضلال الدنيا . فالحق سبحانه وتعالى ذكر لنا أول صفات الفاسقين أنهم لا عهد لهم . ليس بينهم وبين الناس فقط . ولكن لا عهد لهم مع الله أيضا . وكلما عاهدوا الله عهدا نقضوه . والله يحب الوفاء بالعهد . ولذلك يقول جل جلاله : { وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا } [الإسراء : 34]

ويقول تعالى : { وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ } [الأعراف : 102]

ما هو العهد الموثق الذي أخذه الله على عباده فنقضوه؟ أنه الإيمان الأول . الإيمان الفطري الموجود في كل منا . فالله سبحانه وتعالى أخذ من البشر جميعا عهدا ، فوفى به بعضهم ونقضه بعضهم .

والله سبحانه وتعالى ذكر لنا في القرآن الكريم . أن هناك عهدا موثقا بينه وبين ذرية آدم . فقال جل جلاله : { وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ } [الأعراف : 172] وهكذا أخذ الله عهدا على ذرية آدم بأن يؤمنوا به وأشهدهم أنه ربهم .

وجاءت الغفلة إلى القلوب بمرور الوقت . فنقضوا العهد واتخذوا آلهة من دون الله . إذن أول صفات الفاسقين أنهم نقضوا عهد الله . والذي ينقض عهدا مع بشر ، فسلكه هذا لا يقبله الحق سبحانه وتعالى حتى مع الكفار وغير المؤمنين . واقرا قوله تبارك وتعالى : { إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتَمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ

المتقين { [التوبة : 4]

وهكذا نرى أن الحق تبارك وتعالى حين أعلن براءته وبراءة رسوله صلى الله عليه وسلم وبراءة المؤمنين من كل كافر مشرك في قضية إيمانية كبرى . حرم الله فيها على الكفار والمنافقين أن يقتربوا من بيته الحرام في مكة ، احترام جل جلاله العهد . حتى مع المشركين . وطلب من المؤمنين أن يوفوا به . فإذا كان هذا هو المسلك الإيماني مع كل كافر ومشرك إن كنت قد عاهدته عهداً فأوف به إلى مدته . فكيف بالمشركين وقد عاهدوا الخالق الأعظم . ثم ينقضون عهده الموثق . أنهم قد خانوا منهج الله وعهده . وإذا لم يكن لهم عهد مع الله سبحانه وتعالى فهل يكون لهم عهد مع خلق الله؟! إذن فالفاسقون أول صفاتهم أنه لا عهد لهم مع خالقهم ولا عهد لهم مع الناس . ولذلك لا تأمن لهم أبداً .

ثم تأتي بعد ذلك الصفة الثانية للفاسقين في قوله تعالى :

{ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ } وما أمر الله به أن يوصل هو صلة الرحم . فقد أمرنا الله تعالى بأن نصل أرحامنا . فنحن كلنا أولاد آدم . والرسول صلى الله عليه وسلم يقول في حجة الوداع « كلكم لآدم وآدم من تراب » .

وهكذا نرى أن هناك روابط إنسانية يلفتنا الله سبحانه وتعالى إليها . وهذه الروابط . . تبدأ بالأسرة ثم تتسع لتشمل القرية أو الحي . ثم تتسع لتشمل الدولة والمجتمع ، ثم تتسع لتشمل المؤمنين جميعاً ، ثم تتسع لتشمل العالم كله . هذه هي الأخوة الإنسانية التي يريد الحق تبارك وتعالى أن يلفتنا إليها .

ولكن اللفتة هنا لا تقتصر على الناحية الإنسانية ، بل تسجل أن ما فعلوا معصية ، ومخالفة لأمر الله تعالى . فالله أمر بأن نصل الرحم . وجاء هؤلاء وخالفوا وعصوا ما أمر الله به . وقطعوا هذه الصلة . إذن فالمسألة فيها مخالفة لمنهج ، وعصيان لأمر من أوامر الله سبحانه وتعالى . فصلة الرحم توجد نوعاً من التكافل الاجتماعي بين البشر . فإذا حدث لشخص مصيبة . . أسرع أقاربه يقفون معه في محنته . ويحاول كل منهم أن يخفف عنه . هذا التلاحم بين الأسرة يجعلها قوية في مواجهة الأحداث . ولا يحس واحد منها بالضيق في هذا الكون ، لأنه متماسك مع أسرته ، متماسك مع حيه أو قريته . هكذا يختفي الحقد من المجتمع . ويختفي التفكك الأسري . . ولعلنا إذا نظرنا إلى المجتمعات الغربية التي يعترتها تفكك الأسرة .

نجد أن كل واحد منهم قد ضل طريقه وانحرف لأنه أحس بالضيق . فانحرف إلى المخدرات أو إلى الخمر أو إلى الزنا وغير ذلك من الرذائل التي نراها . جيل ضائع . من الذي أضاعه؟ عدم صلة الرحم .

وإذا تحدثنا عن الانحرافات التي نراها بين الشباب اليوم فلا نلوم الشباب ، ولكن نلوم الآباء والأمهات الذين تركوا أولادهم وبناتهم وأهدروا صلة الرحم . فشب جيل يعاني من عقد نفسية لا حدود لها ، إن الابن الذي يفقد جو الأسرة . يفقد ميزان حياته . والله سبحانه وتعالى يريد المؤمنين متضامنين متحابين خالين من كل العقد التي تحطم الحياة . إذن فعدم صلة الرحم تضعيع أجيالا بأكملها .

ونأتي بعد ذلك إلي الصفة الثالثة من صفات الفاسقين بقوله تعالى : { وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ } . نقول : كل ما في الكون مخلوق على نظام : « قَدَّرَ فَهَدَى » أي كل شيء له هدى لا بد أن يتبعه . ولكن الإنسان جاء في مجال الاختيار وأفسد قضية الصلاح في الكون .

ومن رحمة الله أنه جعل في كونه خلقا يعمل مقهورا . ليضبط حركة الكون الأعلى . فالشمس والنجوم والأرض وكل الكون ما عدا الإنس والجان . يسير وفق نظام دقيق . لماذا؟ لأنه يسير بلا اختيار له . والحق جل جلاله أخبرنا بأنه لكي يعتدل ميزان حياتنا . الاختيار الإنساني أن نبتعد عن منهج الله . لأن الله له صفة القهر . فهو يستطيع أن يخلقنا مقهورين ، ولكنه أعطانا الاختيار حتى نأتيه عن حب . وليس عن قهر . فأنت تحب الشهوات ولكنك تحب الله أكثر . فتقيد نفسك بمنهج الله . إذن فالاختيار لم يُعْطَ لنا لِنُفْسِدَ في الأرض . ولكنه أُعْطِيَ لنا . لنأتي الله سبحانه وتعالى طائعين ولسنا مقهورين .

ولذلك فكل منا مختار في أن يؤمن أو لا يؤمن . وهذا الاختيار يثبت محبوبة الله سبحانه وتعالى في قلوبنا . ولكن الإنسان بدلا من أن يأخذ الاختيار ليأتي الله عن حب . فينال الجزاء الأعظم . أخذه ليفسد في الأرض . .

والفساد أن تنقل مجال الفعل ولا تفعل . فتضع هذه مكان هذه . فينقلب الميزان أي أنك فيما قال الله فيه افعل . لا تفعل ، وفيما قال لا تفعل . تفعل . .

فتكون قد جعلت ميزان حياتك معكوسا . لماذا؟ لأننا غير محكومين بقاعدة كلية تنظم حياة الناس . فكل واحد سيضع قاعدة له . وكل واحد لن يفعل ما عليه . فيحدث تصادم في الحياة . وكل فساد يشكل قبحا في الوجود . فهب أنك تسير في الطريق . وترى عمارة مبنية حديثا . قد تسربت المياه من مواسيرها . عندما ترى ذلك تتأذى . لأن هناك قبحا في الوجود . في عدم أمانة إنسان في عمله . إذن فحين يفسد عامل واحد . بعدم الإخلاص في عمله . يفقد الكون نعمة يجهبها الله . في أن ترى الشيء الجميل . فتقول : الله . .

فكل إنسان غير أمين في عمله .

يفسد في الكون . وكل إنسان غير أمين في خلقه يفسد في الكون . ويعتدي على حرمت الآخريين وأموالهم . وهذا يجعل الكون قبيحا ، فلا يوجد إنسان يأمن على عرضه وماله . .

لقد أراد المعتدي أن يحقق ما ينفع به نفسه عاجلاً . ولكنه أحدث فساداً في الكون كذلك عندما يغش التاجر الناس . وعندما يكتسب الإنسان المال بالتهب والسرقه . فيفتح الله عليه أسوأ مصارف المال في الوجود . فهو أخذ الحسرة بالفساد في الأرض .

والفساد في الأرض أن تخرج الشيء عن حد اعتداله . فتسرف في شهواتك وتسرف في أطماعك . وتسرف في عقابك للناس . وتسرف باعتدائك على حقوق الغير . والفساد في الأرض . أن يوجد منهج مطبق غير منهج الله .

إن غياب منهج الله معناه أن يصبح كل منا عبد أهوائه . وإذا صارت الأمور حسب أهواء الناس . جاءت لهم حركة الحياة بالشقاء والشر بدلا من السعادة والأمن . أن ما نراه اليوم من شكوى الناس علامة على الفساد .

لأن معناها أن الناس تعاني ولا أحد يتحرك . ليرفع أسباب هذه الشكوى . ولن يستقيم أمر هذا الوجود ، ويتخلص من الفساد إلا إذا حكمنا منهج لا هوى له . والذي لا هوى له هو خالق البشر . واضع ميزان الكون .

وأول مظاهر الفساد . أن يوكل الأمر إلى غير أهله . لأنه إذا أعطى الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة . كما يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة » .

لماذا؟ لأن المجتمع حينئذ يكون مبنيا على النفاق واختلال الأمور ، لا على الإتيان والإخلاص . فالذي يجيد النفاق هو الذي يصل إلى الدرجات العلا ، والذي يتقن عمله لا يصل إلى شيء . وتكون النتيجة أن مجموعة من المنافقين الجهلة هم الذين يسيرون الأمور بدون علم . والفساد في الأرض هو أن يضيع الحق . ويضيع القيم . ويصبح المجتمع غابة . كل إنسان يريد أن يحقق هواه بصرف النظر عن حقوق الآخرين . ويحس من يعمل ولا يصل إلى حقه . . أنه لا فائدة من العمل ، فيتحول المجتمع كله إلى مجموعة من غير المنتجين .

والفساد في الأرض هو أن نجعل عقولنا هي الحاكمة . فلا نتأمل في ميزان الكون الذي خلقه الله ، وإنما نمضي بعقولنا نخطط . فنقطع الأشجار ونرمي مخلفات المصانع في الأنهار فنفسدها . ونأتي بالكيمائيات السامة نرش بها الزرع أو مجاري المياه والأنهار كما يحدث الآن فنملؤه سماً ثم نأكله ثم نجد التلوث قد ملأ الكون . وطبقة الأوزون قد أصابها ضرر واضح يعرض حياة البشر على الأرض لأخطار كبيرة . وتفسد مياه الأنهار . ولا تصبح صالحة للشرب ولا للري . ويضيع الخير من الدنيا بالتدريج . والفساد في الأرض . هو أن ينتشر الظلم . وتصبح الحياة سلسلة لا تنتهي من الشقاء . والفساد في الأرض هو أن تضيع الأمانة .

فتفسد المعاملات بين الناس . وتضيع الحقوق .

هذه هي بعض أوجه الفساد في الأرض . والله سبحانه وتعالى قد وضع قانونا كلياً ، هو منهجه ليتعامل به الناس . ولكن الناس تركوه . ومشوا يتخبطون في ظلام الجهل . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من استعمل رجلاً من عصابة ، وفيهم من هو أرضى الله منه ، فقد خان الله ورسوله والمؤمنين »

وهكذا يكون مدى حرص الإسلام على استقامة أمور الناس .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : { أولئك هم الخاسرون }

خسروا ماذا؟ خسروا دنياهم وآخرتهم وخسروا أنفسهم . لأن الإنسان له حياتان . . حياة قصيرة في الدنيا مليئة بالمتاعب . وحياة طويلة خالدة في الآخرة . والذي يبيع الحياة الأبدية ونعيمها وخلودها بحياة الدنيا التي لا يضمن فيها شيئاً ، يكون من الخاسرين . . فعمر الإنسان قد يكون يوماً أو شهراً أو عاماً . والحياة الدنيا مهما طالت فهي قصيرة . ومهما أعطت فهو قليل . فالذي يبيع آخرته بهذه الدنيا ، أيا كان راجحاً أم خاسراً؟ طبعاً يكون خاسراً . لأنه اشترى مالا يساوي بنعيم الله كله . .

وإذا كان الإنسان قد نسي الله سبحانه وتعالى وهو لاقية حتماً . ثم يبعث يوم القيامة ليجده أمامه . فيوفيه حسابه . أيا كان قد كسب أم خسراً؟! . . طبعاً يكون خاسراً . لأنه أوجب على نفسه عذاب الله . وأوجب على نفسه عقاب الله .

إن قوله تعالى : « الخاسرون » تدل على أن الصفقة انتهت وضاع كل شيء لأن نيتها كانت الخسران ، وليس الخسران موقوتاً ، ولا هو خسران يمكن أن يعوض في الصفقة القادمة . بل هو خسران أبدي ، والندم عليها سيكون شديداً . وقرأ قوله تبارك وتعالى : { إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا } [النبأ : 40]

لماذا يتمنى الكافر أن يكون تراباً؟ هول العذاب الذي يراه أمامه . وهول الخسران الذي تعرض له . وهذا دليل على شدة الندم . يوم لا ينفع الندم . على أنه سبحانه وتعالى تحدث في هذه الآية عن الخاسرين . ولكنه جل جلاله . تحدث في آية أخرى عن الأخرسين . فقال تعالى : { قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا * أولئك الذين كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا } [

الكهف : 103-105]

إذن فهناك خاسر . وهناك من أخسر منه . والأخسر هو الذي كفر بالله جل جلاله . ويوم القيامة . واعتقد أن حياته في الدنيا فقط . ولم يكن الله في باله وهو يعمل أي عمل ، بل كانت الدنيا هي التي تشغله . ثم فوجئ بالحق سبحانه وتعالى يوم القيامة . ولم يحتسب له أية حسنة ،

لأنه كان يقصد بحسناته الحياة الدنيا . فلا يوجد له رصيد في الآخرة .
والعجيب أنك ترى الناس . يعدون للحياة الدنيا إعدادا قويا .

فيرسلون أولادهم إلى مدارس لغات . ويتحملون في ذلك مالا يطبقون . ثم يدفعونهم إلى
الجامعات . أو إلى الدراسة في الخارج . هم في ذلك يعدونهم لمستقبل مظنون . وليس يقينا . لأن
الإنسان يمكن أن يموت وهو شاب . فيضيع كل ما أنفقوه من أجله . ويمكن أن ينحرف في آخر
مراحل دراسته . فلا يحصل على شيء . ويمكن أن يتم هذا الإعداد كله ، ثم بعد ذلك يرتكب
جريمة يقضي فيها بقية عمره في السجن . فيضيع عمره .
ولكن اليقين الذي لا شك فيه هو أننا جميعا سنلاقي الله سبحانه وتعالى يوم القيامة . وسبحاسبنا
على أعمالنا . ومع أن هذا يقين ، فإن كثيرا من الناس لا يلتفتون إليه . يسعون للمستقبل
المظنون . ولا يحس واحد منهم بيقين الآخرة . فتجد قليلا من الآباء هم الذين يبذلون جهدا
لحمل أبنائهم على الصلاة وعبادة الله والأمانة وكل ما يقرهم إلى الله . . أنهم ينسون النعيم
الحقيقي . ويجرون وراء الزائل فتكون النتيجة عليهم وبالا في الآخرة .

كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ مُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (28)

كيف في اللغة للسؤال عن الحال . والحق سبحانه وتعالى أوردتها في هذه الآية الكريمة ليس بغرض
الاستفهام ، ولكن لطلب تفسير أمر عجيب ما كان يجب أن يحدث . وبعد كل ما رواه الحق
سبحانه وتعالى في آيات سابقة من أدلة دامغة عن خلق السماوات والأرض وخلق الناس . . أدلة
لا يستطيع أحد أن ينكرها أو يخطئها . . فكيف بعد هذه الأدلة الواضحة تكفرون بالله؟ . .
كفركم لا حجة لكم فيه ولا منطق . . والسؤال يكون مرة للتوبيخ . . كأن تقول لرجل كيف
تسب أباك؟ أو للتعجب من شيء قد فعله وما كان يجب أن يفعله . . وكلاهما متلاقيان . سواء
كان القصد التوبيخ أو التعجب فالقصد واحد . . فهذا ما كان يجب أن يصح منك . ثم يأتي
الحق سبحانه وتعالى بأدلة أخرى لا يستطيع أحد أن ينكرها أو يكذب بها . . فيقول جل جلاله
: { وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ مُمِيتُكُمْ } .

وهكذا ينتقل الكلام إلى أصل الحياة والموت . فبعد أن بين الحق سبحانه وتعالى . . ماذا يفعل
الكافرون الفاسقون والمنافقون من إفساد في الأرض . . وقطع لما أمر الله سبحانه وتعالى به أن
يوصل . . صعد الجدل إلى حديث عن الحياة والموت . وقوله تعالى { كُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ }
قضية لا تحتمل الجدل . . ربما استطاعوا المجادلة في مساءلة عدم اتباع المنهج ، أو قطع ما أمر
الله به أن يوصل . . ولكن قضية الحياة والموت لا يمكن لأحد أن يجادل فيها . فالله سبحانه
وتعالى خلقنا من عدم . . ولم يدع أحد قط أنه خلق الناس أو خلق نفسه . . وعندما جاء رسول

الله صلى الله عليه وسلم وقال للناس أن الذي خلقكم هو الله . . لم يستطع أحد أن يكذبه ولن يستطيع . . ذلك أننا كنا فعلا غير موجودين في الدنيا . . والله سبحانه وتعالى هو الذي أوجدنا وأعطانا الحياة . .

وقوله تعالى : « ثم يميتكم » . . فإن أحدا لا يشك في أنه سيموت . . الموت مقدر على الناس جميعا . . والخلق من العدم واقع بالدليل . . والموت واقع بالحس والمشاهدة . . إن قضية الموت هي سبيلنا لمواجهة أي ملحد . . فإن قالوا إن العقل كاف لإدارة الحياة . . وأنه لا يوجد شيء اسمه غيب . . قلنا : الذي تحكم في الخلق إيجادا ، هو الذي يتحكم فيه موتا . . والحياة الدنيا هي مرحلة بين قوسين . . القوس الأول هو أن الله يخلقنا ويوجدنا . . وتمضي رحلة الحياة إلى القوس الثاني . . الذي تخمد فيه بشريتنا وتتوقف حياتنا وهو الموت . أي أننا في رحلة الحياة من الله وإليه . . إذن فحركة الحياة الدنيا هي بداية من الله بالحق ونهاية بالموت .

. إنهم عندما تحدثوا عن أطفال الأنابيب . . وهي عملية لعلاج العقم أكثر من أي شيء آخر . . ولكنهم صوروها تصويرا جاهليا . . وكل ما يحدث أنهم يأخذون بويضة من رحم الأم التي يكون المهبل عندها مسدودا أو لا يسمح بالتلقيح الطبيعي . . يأخذون هذه البويضة من رحم الأم . . ويخصبونها بالحيوانات المنوية للزوج . . ثم يزرعونها في رحم الأم . إنهم أخذوا من خلق الله وهي بويضة الأم والحيوان المنوي من الرجل . . وكل ما يفعلونه هو عملية التلقيح ومع ذلك يسمونه أطفال الأنابيب . . كأن الأنبوبة يمكن أن تخلق طفلا!! والحقيقة غير ذلك . . فبويضة الأم ، والحيوان المنوي للرجل هما من خلق الله . . وهم لم يخلقوا شيئا . . أننا نقول لهم : إذا كنتم تملكون الموت والحياة فامنعوا إنسانا واحدا أن يموت . . بدلا من إنفاق ألوف الجنيهات في معالجة عقم قد ينجح أو لا ينجح . . ابقوا واحدا على قيد الحياة . . ولن يستطيعوا . .

إن الموت أمر حسي مشاهد . . ولذلك فمن رحمة الله بالعقل البشري بالنسبة للأحداث الغيبية أن الله سبحانه وتعالى قربها لنا بشيء مشاهد . . كيف؟ . . عندما ينظر الإنسان إلى نفسه وهو حي . . لا يعرف كيف أحياه الله وكيف خلقه . . الله سبحانه وتعالى ذكر لنا غيب الخلق في القرآن الكريم فقال جل جلاله أنه خلق الإنسان من تراب ومن طين ومن حمأ مسنون ثم نفخ فيه من روحه . .

واقرا قول الحق سبحانه : { **إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ تُرَابٍ** } [الحج : 5]
وقوله تعالى : { **وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ طِينٍ** } [المؤمنون : 12]
وقوله تعالى : { **إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِّنْ طِينٍ لَّازِبٍ** } [الصافات : 11]
وقوله تعالى : { **وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ** } [الحجر : 26]

وقوله تعالى : { فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ } [ص : 72]
فالخلق تبارك وتعالى أخبرنا عن مرحلة في الخلق لم نشهدها . . ولكن الموت شيء مشهود لنا جميعا . .
ومادام مشهودا لنا ، يأتي الحق سبحانه وتعالى به كدليل على مراحل الخلق التي لم نشهدها .
فالموت نقض للحياة . . والحياة أخبرنا الله تبارك وتعالى بأطوارها . . ولكنها غيب لم نشهدها .

ولكن الذي خلق قال أنا خلقتك من تراب . . من طين . من حمأ مسنون . من صلصال
كالفخار . . فالماء وضع على تراب فأصبح طينا . . والطين تركناه فتغير لونه وأصبح صلصالا .
الصلصال . . جف فأصبح حمأ مسنونا ، ثم نحتته في صورة إنسان ونفخ الحق سبحانه وتعالى فيه
الروح فأصبح بشرا . . ثم يأتي الموت وهو نقض للحياة . . ونقض كل شيء يأتي على عكس
بنائه . .

بناء العمارة يبدأ من أسفل إلى أعلى . . وهدمها يبدأ من أعلى إلى أسفل .

. ولذلك فإن آخر مرحلة من رحلة ما . . هي أول خطوة في طريق العودة . . فإذا كنت مسافرا
إلى الإسكندرية . . فأول مكان في طريق العودة هو آخر مكان وصلت إليه .
أول شيء يخرج من الجسد هو الروح وهو آخر ما دخل فيه . . ثم بعد ذلك يتصلب الجسد
ويصبح كالحمأ المسنون . . ثم يتعفن فيصبح كالصلصال . . ثم يتبخر الماء الذي فيه فيعود ترابا
. . وهكذا يكون الموت نقض صورة الحياة . . متفقا مع المراحل التي بينها لنا الحق سبحانه
وتعالى . .

وقوله تعالى : { ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ } . . أي أن الله تبارك وتعالى يبعثكم ليحاسبكم . . لقد حاول
الكفار والملحدون وأصحاب الفلسفة المادية أن ينكروا قضية البعث . . وهم في هذا لم يأتوا
بجديد . . بل جاءوا بالكلام نفسه الذي قاله أصحاب الجاهلية الأولى . . وقرأ قوله تعالى عما
يقوله أصحاب الجاهلية الأولى : { وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا

الدهر } [الجاثية : 24]

وأمنية الكافر والمسرف على نفسه . . ألا يكون هناك بعث أو حساب . . والذين يتعجبون من
ذلك نقول لهم : أن الله سبحانه وتعالى الذي أوجدكم من عدم يستطيع أن يعيدكم وقد كنتم
موجودين . . يقول جل جلاله : { وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ

الأعلى في السماوات والأرض وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } [الروم : 27]

فإيجاد ما كان موجودا أسهل من الإيجاد من عدم على غير مثال موجود . . والله سبحانه وتعالى
يرد على الكفار فيقول سبحانه : { وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ

* قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ } [يس : 78-79]

وهكذا فإن البعث أهون على الله من بداية الخلق . . وكل شيء مكتوب عند الله سبحانه وتعالى في كتاب مبين . . وما أخذته الأرض من جسد الإنسان ترده يوم القيامة . . ليعود من جديد . وخلق السموات والأرض أكبر من خلق الإنسان . . وقرأ قوله تعالى : { خَلَقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَكْبَرَ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ } [غافر : 57] وقول الله سبحانه وتعالى : { ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ } . . هو اطمئنان لمن آمن . . ومادنا إليه نرجع ومنه بدأنا . . فالحياة بدايتها من الله ونهايتها إلى الله . . فلنجعلها هي نفسها لله . . ولا بد أن نلتفت إلى أن الله تبارك وتعالى أخفى عنا الموت زمانا ومكانا وسببا وعمرا . . لم يخفه ليحجبه ، وإنما أخفاه حتى نتوقعه في كل لحظة . . وهذا إعلام واسع بالموت حتى يسرع الناس إلى العمل الصالح . . وإلى المثوبة . لأنه لا يوجد عمر متيقن في الدنيا . . فلا الصغير آمن على عمره . . ولا الشاب آمن على عمره . . ولا الكهل آمن على عمره .

. ولذلك يجب أن يسارع كل منا في الخيرات . . حتى لا يفاجئه الموت . . فيموت وهو عاص .

ونلاحظ أن قصة الحياة جاء الله بها في آية واحدة . والرجوع إلى الله وهو يقين بالنسبة للمؤمنين يلزمهم بالمنهج ، فيعيشون من حلال . والتزامهم هذا هو الذي يقودهم إلى طريق الجنة . ويطمئنهم على أولادهم بعد أن يرحل الآباء من الدنيا .

فعمل الرجل الصالح ينعكس على أولاده من بعده . وقرأ قوله سبحانه وتعالى : { وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا } [النساء : 9]

إذن فصاحب الالتزام بالمنهج ، يطمئن إلى لقاء ربه ويطمئن إلى جزائه ، والذي لا يؤمن بالآخرة أخذ من الله الحياة فأفناها فيما لا ينفع . ثم بعد ذلك لا يجد شيئا إلا الحساب والنار . . وقرأ قوله تبارك وتعالى : { وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَاهُمْ كَسْرَابٍ بِقَيْعَةٍ يُحْسِبُهَا الظَّمَانُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ } [النور : 39] أي أن الكافر سيفاجأ في الآخرة بالله الذي لم يكن في باله أنه سيحاسبه على ما فعل . . وقوله تعالى { إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ } تقرأ قراءتان . بضممة على التاء . ومرة بفتحها على التاء . الأولى معناها . أننا نُجْبَرُ على الرجوع . فلا يكون الرجوع إلى الله تعالى بإرادتنا ، وهذا ينطبق على الكفار الذين يتمنون عدم الرجوع إلى الله . أما الثانية « تَرْجَعُونَ » فهذه فيها إرادة . وهي تنطبق على المؤمنين لأنهم يتمنون الرجوع إلى الله .

هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (29)

يذكرنا الله سبحانه وتعالى في هذه الآية أنه هو الذي خلق ما في الأرض جميعا . وقد جاءت هذه الآية بعد قوله تعالى : { فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ } لئلفتنا إلى أن ما في الأرض كله ملك لله جل جلاله ، وأنا لا نملك شيئا إلا ملكية مؤقتة . وأن ما لنا في الدنيا سيصير لغيرنا . وهكذا .

والحق سبحانه وتعالى حين خلق الحياة وقال { كُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ } كأن الحياة تحتاج إلى إمداد من الخالق للمخلوق حتى يمكن أن تستمر . فلا بد لكي تستمر الحياة أن يستمر الإمداد بالنعمة . ولكن النعمة تظل طوال فترة الحياة ، وعند الموت تنتهي علاقة الإنسان بنعم الدنيا . ولذلك لا بد أن يتنبه الإنسان إلى أن الأشياء مسخرة له في الدنيا لتخدمه . وأن هذا التسخير ليس بقدرات أحد . ولكن بقدرة الله سبحانه وتعالى . والإنسان لا يدري كيف تم الخلق . ولا ما هي مراحلها إلا أن يخبرنا الله سبحانه وتعالى بما . فهو جل جلاله يقول : { مَا أَشْهَدُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَصُدًا } [الكهف : 51]

وماداموا لم يشهدوا خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم . فلا بد أن نأخذ ذلك عن الله ما يبيننا به الله عن خلق السموات والأرض وعن خلقنا هو الحقيقة . وما يأتينا عن غير الله سبحانه وتعالى فهو ضلال وزيف . ونحن الآن نجد بحوثا كثيرة عن كيفية السموات والأرض وخلق الإنسان . وكلها لن تصل إلى حقيقة . بل ستظل نظريات بلا دليل . ولذلك قال الله سبحانه وتعالى : { وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَصُدًا } أي أن هناك من سيأتي ويضل . ويقول هكذا تم خلق السموات والأرض ، وهكذا خلق الإنسان . هؤلاء المضلون الذين جاءوا بأشياء هي من علم الله وحده . جاءوا تثبيتا لمنهج الإيمان . فلو لم يأت هؤلاء المضلون ، ولو لم يقولوا خلقت الأرض بطريقة كذا والسماء بطريقة كذا . لقلنا أن الله تعالى قد أخبرنا في كتابه العزيز أن هناك من سيأتي ويضل في خلق الكون وخلق الإنسان ولكن كونهم أتوا . فهذا دليل على صدق القرآن الذي أنبأنا بمجيئهم قبل أن يأتوا بقرون .

والاستفادة من الشيء لا تقتضي معرفة أسرارهِ . فنحن مثلا نستخدم الكهرباء مع أننا لا نعرف ما هي؟ وكذلك نعيش على الأرض ونستفيد بكل ظواهرها وكل ما سخره الله لنا . وعدم علمنا بسر الخلق والإيجاد لا يحرماننا هذه الفائدة . فهو علم لا ينفع وجهل لا يضر . والكون مسخر لخدمة الإنسان . والتسخير معناه التذليل ولا تتمرد ظواهر الكون على الإنسان . وإذا كانت هناك ظواهر في الكون تتمرد بقدر الله . مثل الفيضانات والبراكين والكوارث الطبيعية . نقول أن ذلك يحدث لئلفتنا الحق سبحانه وتعالى إلى أن كل ما في الكون لا يخدمنا بذاتنا .

ولا بسيطرتنا عليه ، وإنما يخدمنا بأمر الله له ، وإلا لو كانت المخلوقات تخدمك بذاتك . فأقدر عليها حينما تتمرد على خدمتك . وكل ما في الكون خاضع لطلاقة قدرة الله . حتى الأسباب

والمسببات خاضعة أيضا لطلاقة القدرة الالهية . فالأسباب والمسببات في الكون لا تخرج عن إرادة الله .

لذلك إذا تمرد الماء بالطوفان . وتمرد الرياح بالعاصفة . وتمردت الأرض بالزلازل والبراكين . فما ذلك إلا ليعرف الإنسان أنه ليس بقدرته أن يسيطر على الكون الذي يعيش فيه . وقرأ قوله سبحانه وتعالى : { أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ * وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ } [يس : 71-72]

والإنسان عاجز عن أن يخضع حيوانا إلا بتدليل الله له . . ومن العجيب أنك ترى الحيوانات تدرك ما لا يدركه الإنسان في الكون . فهي تحس بالزلازل قبل أن يقع . وتخرج من مكان الزلزال هاربة . بينما الإنسان لا يستطيع بعقله أن يفهم ما سيحدث .

والحق سبحانه وتعالى في قوله : { خَلَقَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا } يستوعب كل أجناس الأرض . ولذلك فإن الإنسان لا يستطيع أن يوجد شيئا إلا من موجود . أي أن الإنسان لم يتحدث شيئا في الكون . فأنت إذا أخذت حبة القمح . من أين جئنا بها؟ من محصول العام الماضي . . ومحصول العالم الماضي . من أين جاء؟ . . من محصول العام الذي قبله . وهكذا يظل تسلسل الأشياء حتى تصل إلى حبة القمح الأولى . من أين جاءت؟ جاءت بالخلق المباشر من الله . وكذلك كل ثمار الأرض إذا أعدتها للثمرة الأولى فهي بالخلق المباشر من الله سبحانه وتعالى . فإذا حاولت أن تصل إلى أصل وجود الإنسان . ستجد بالمنطق والعقل . . أن بداية الخلق هي من ذكر وأنثى . خُلِقَا بالخلق المباشر من الله . لأنك أنت من أبيك وأبوك من جدك . وجدك من أبيه . وهكذا تمضي حتى تصل إلى خلق الإنسان الأول . فنجد أنه لا بد أن يكون خلقا مباشرا من الله سبحانه وتعالى . وما ينطبق على الإنسان ينطبق على الحيوان وعلى النبات وعلى الجماد . فكل شيء إذا رددته لأصله تجد أنه لا بد أن يبدأ بخلق مباشر من الله سبحانه وتعالى .

بعض الناس يتساءل عن الرقي والحضارة وهذه الاختراعات الجديدة . أليس للإنسان فيها خلق؟ . . نقول فيها خلق من موجود . والله سبحانه وتعالى كشف من علمه للبشر ما يستطيعون باستخدام المواد التي خلقها الله في الأرض أن يرتقوا ويصنعوا أشياء جديدة . ولكننا لم نجد ولم نسمع عن إنسان خلق مادة من عدم .

الله سبحانه وتعالى هو الذي خلق كل ما في هذا الكون من عدم . ثم بعد ذلك تكاثرت المخلوقات بقوانين سخرها الله سبحانه وتعالى لها . ولكن كل هذا التطور راجع إلى أن الله خلق المخلوقات وأعطاهما خاصية التناسل والتزاوج لتستمر الحياة جيلا بعد جيل .

وكل خلق الله الذي تراه في الكون الآن قد وضع الله سبحانه وتعالى فيه من قوانين الأسباب ما يعطيه استمرارية الحياة من جيل إلى جيل حتى ينتهي الكون . فإذا قال لك إنسان : أنا أزرع

بذكائي وعلمي . فقل له : أنت تأتي بالبذرة التي خلقها الله . وتضعها في الأرض المخلوقة لله . وينزل الله سبحانه وتعالى الماء عليها من السماء . وتنبت بقدره الله الذي وضع فيها غذاءها وطريقة إنباتها . إذن فكل ما يحدث أنك تحرث الأرض . وترمي البذرة . يقول الحق سبحانه وتعالى : { أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ * أَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ } [الواقعة : 63-64]

صحيح أن الإنسان يقوم بحرث الأرض ورمي البذرة . وربما تعهد الزرع بالعناية الري . ولكن ليس في كل ما يفعله مهمة خلق . بل أن الله سبحانه وتعالى هو خالق كل شيء . ولو كنت تزرع بقدرتك فأت ببذرة من غير خلق الله . وأرض لم يخلقها الله . وماء لم ينزله الله من السماء . وطبعا لن تستطيع . . ولكن ما هو مصدر الأشياء التي استحدثت؟

نقول إن هناك فرقا بين وجود الشيء بالقوة . وجوده بالفعل . . فالنخلة مثلا حبة كانت موجودة بالقوة . كانت نواة . ثم زرعت فأصبحت موجودة بالفعل . وأنت لا عمل لك في الحالتين فلا أنت بقوتك خلقت النواة التي هي البذرة ولا أنت بفعلك جعلت النواة تكبر . لتصبح نخلة بالفعل . على أن هناك أشياء مطمورة في الكون . خلقها الله سبحانه وتعالى مع بداية الخلق . ثم تركها مطمورة في الكون . حتى كشفها الله لمن يبحث عن أسرارها في كونه . وكل كشف له ميلاد . إذا أخذنا مثلا ما تحت الثرى . أو الكنوز الموجودة تحت سطح الأرض . لقد ظلت مطمورة حتى هدى الله الإنسان إليها . وعلمه كيف يستخرجها . فالإنسان لم يبتدع مثلا أو يوجد البترول أو المعادن . ولكنها كلها كانت مطمورة في الكون حتى جاء الوقت الذي يجب أن تؤدي فيه دورها في الحياة . فدلنا الحق عليها ، فليس معنى أن الشيء كان غائبا عنا أنه لم يكن موجودا . أو أنه وجد لحظة اكتشافنا له . فالشيء الحادث الآن ، والشيء الذي سيحدث بعد سنوات . . خلق الله سبحانه وتعالى كل عناصره . وأودعها في الأرض لحظة الخلق . والإنسان بما يكشف الله له من علم يستطيع تركيب هذه العناصر . ولكنه لا يستطيع خلقها أو إيجادها . والحق سبحانه وتعالى يقول : { تَمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ } .

حينما يقول الله جل جلاله . استوى . . يجب أن نفهم كل شيء متعلق بذات الله على أنه سبحانه ليس كمثله شيء . فالله استوى والملوك تستوي على عروشها . وأنت تستوي على كرسيك . ولكن لأننا محكومون بقضية « ليس كمثله شيء » لا بد أن نعرف أن استواء الله سبحانه وتعالى ليس كمثله شيء .

والله حي . وأنت حي . هل حياتك كحياته؟ والله سبحانه وتعالى يعلم وأنت تعلم . هل علمك كعلمه؟ والله سبحانه وتعالى يقدر . وأنت تقدر . هل قدرتك كقدرته . طبعا لا . فعندما تأتي إلى « استوى » فلا تحاول أن تفهمها أبدا بالمفهوم البشري . . فالله سبحانه وتعالى يعلم ما في الأرض وما في السماء . وهو سبحانه يعلم المكان بكل ذراته . والموجودين في هذا المكان أو

المكين . بكل ذراته . وأنت تعرف ظاهر الأمر . . والله سبحانه وتعالى يعلم غيب السموات والأرض حتى يوم القيامة . وبعد يوم القيامة إذن فهو جل جلاله . ليس كمثله شيء . ولا يمكن أن تحيط أنت بعقلك بفعل يتعلق بذات الله سبحانه وتعالى . فعقلك قاصر عن أن يدرك ذلك . لذلك قل سبحانه الله . ليس كمثله شيء في كل فعل يتصل بذات الله : { استوى إلى السماء } هذا الكلام هو كلام الله . فالمتحدث هو الله عز وجل .

بعض الناس يقولون تلقينا القرآن وحفظناه . نقول لهم أن الذي حفظ القرآن هو الله سبحانه وتعالى . ومادام قد حفظ كلامه فهو جل جلاله يعلم أن الوجود كله لن يتعارض مع القرآن الكريم . . والله سبحانه وتعالى حفظ القرآن ليكون حجة له على الناس . ومادام الله جل جلاله هو الخالق . وهو القائل . فلا توجد حقيقة في الكون كله تتصادم مع القرآن الكريم . . وقرأ قوله سبحانه وتعالى : { إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ } [الحجر : 9]

وهذا من عظمة الله أن حفظ كلامه ليكون حجة على الناس . والله سبحانه وتعالى وجدت صفاته قبل أن توجد متعلقات هذه الصفات . فهو جل جلاله . خلق لأنه خالق . كأن صفة الخلق وجدت أولاً . وإلا كيف خلق أول خلقه . إن لم يكن سبحانه وتعالى خالقا؟ والله سبحانه وتعالى رزاق . قبل أن يوجد من يرزقه . وإلا فبأي قدرة رزق الله أول خلقه؟ والله سبحانه وتعالى خلق هذا الكون بكمال صفاته . وشهد أنه لا إله إلا هو قبل أن يشهد أي من خلق الله أنه لا إله إلا الله . وقرأ قوله تعالى : { شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ } [آل عمران : 18]

فالله سبحانه وتعالى شهد أنه لا إله إلا هو قبل أن يوجد أحد من خلقه يشهد بوحداية ألوهيته . شهد أنه لا إله إلا هو قبل أن يخلق الملائكة . ليشهدوا شهادة مشهدة بأنه لا إله إلا الله . وأولوا العلم شهادة علم . فكان شهادة الذات للذات . في قوله تعالى { شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ } هي التي يعتد بها ، وهي أقوى الشهادات؛ فالله ليس محتاجا من خلقه إلى امتداد الشهادة . الله سبحانه وتعالى : بعد أن خلق الأرض وخلق السماء واستتب له الأمر . قال { وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } أي لا تغيب ذرة من ملكه عن علمه . فهو عليم بكل ذرات الأرض وكل ذرات الناس . وكل ذرات الكون . والكون كله لا يفعل إلا بأذنه ومراده . وقرأ قوله تعالى : { يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنَّا جَعَلْنَا لَكُمُ الْفِطْرَةَ الْإِنْسَانِيَّةَ لِتَكُونَ لَكُمْ آيَاتٍ وَمَا يَكُونُ لَكُم مِّنْ حِجَّةٍ عَلَيْهِمْ وَأَنتُمْ لَهَا كَاذِبُونَ } [البقرة : 213]

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (30)

بعد أن أخبرنا الحق سبحانه وتعالى . أنه خلق جميع ما في الكون . أراد أن يخبرنا عن خلفه
لعمارة هذا الكون . فكأن القصة التي بدأ الله سبحانه وتعالى بها قصص القرآن كانت هي قصة
آدم أول الخلق . ولقد وردت هذه القصة في القرآن الكريم كثيرا لتدلنا لماذا أخبرنا الحق سبحانه
وتعالى بهذه القصة؟ وجاءت لتدلنا أيضا على صدق البلاغ عن الله . وقرأ قوله تعالى : { نَحْنُ
نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ } [الكهف : 13]

كلمة الحق التي جاءت هنا لتدلنا على أن هناك قصصا . ولكن بغير حق . والله سبحانه وتعالى
أراد أن يخرج قصصه عن دائرة القصص التي يتداولها الناس أو قصص التاريخ لإمكان مخالفتها
الواقع وتأني بغير حق . وهناك قصص تروي في الدنيا ولا واقع لها ، بل هي من قبيل الخيال .
وكلمة قصة . مأخوذة من قص الأثر . بمعنى أن يتبع قصاص الأثر في الصحراء الآثار التي
يشاهدها على الرمال حتى يصل إلى مراده . عندما يصل إلى نهاية الأثر . . ومادنا قد عرفنا أن
الله يقص الحق . نعرف أن قصص القرآن الكريم كلها أحداث وقعت فعلا . ولكل قصة في
القرآن عبرة . أو شيء مهم يريد الحق سبحانه وتعالى أن يلفتنا إليه . فمرة تكون القصة لتثبيت
النبي صلى الله عليه وسلم وتثبيت المؤمنين : وقرأ قوله تعالى : { وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ
الرِّسَالِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ } [هود : 120]

فكل قصة تثبت فؤاد الرسول والمؤمنين في المواقف التي تزلزلهم فيها الأحداث . وقصص القرآن
ليست لقتل الوقت . ولكن الهدف الأسمى للقصة هو تثبيت ونفع حركة الحياة الإيمانية . ولو
نظرنا إلى قصص القرآن الكريم نجد أنها تتحدث عن أشياء مضت وأصبحت تاريخا . والتاريخ
يربط الأحداث بأزمانها . وقد يكون التاريخ لشخص لا لحدث . ولكن الشخص حدث من
أحداث الدنيا . ولو قرأت تاريخ كل حدث لوجدت أنه يعبر عن وجهة نظر راويه . فكل قصص
التاريخ كتبت من وجهات نظر من رووها . ولذلك . فالقصة الواحدة تختلف باختلاف الراوي .
ولكن قصص القرآن الكريم . هو القصص الحق . . والعبرة في قصص القرآن الكريم أنها تنقل لنا
أحداثا في التاريخ . تتكرر على مر الزمن . ففرعون مثلا هو كل حاكم يريد أن يُعبدَ في الأرض .
وأهل الكهف مثلا هي قصة كل فئة مؤمنة هربت من طغيان الكفر وانعزلت لتعبد الله . وقصة
يوسف عليه السلام هي قصة كل أخوة نزغ الشيطان بينهم فجعلهم يحقدون على بعضهم .
وقصة ذي القرنين هي قصة كل حاكم مصلح أعطاه الله سبحانه الأسباب في الدنيا ومكنه في
الأرض . فعمل بمنهج الله وبما يرضي الله . وقصة صالح هي قصة كل قوم طلبوا معجزة من الله .
فحققها لهم فكفروا بها .

وقصة شعيب عليه السلام . . هي قصة كل قوم سرقوا في الميزان والمكيال .
وهكذا كل قصص القرآن . قصص تتكرر في كل زمان . حتى في الوقت الذي نعيش فيه تجد فيه

أكثر من فرعون . وأكثر من أهل كهف يفرّون بدينهم . وأكثر من قارون يعبد المال والذهب . .
ويحسب أنه استغنى عن الله . ولذلك جاءت شخصيات قصص القرآن مجهولة إلا قصة واحدة
هي قصة عيسى بن مريم ومريم ابنة عمران . لماذا؟ لأنها معجزة لن تتكرر . ولذلك عرفها الله لنا
فقال « مريم ابنة عمران » وقال « عيسى بن مريم » حتى لا يلتبس الأمر . وتدعي أي امرأة أنها
حملت بدون رجل . مثل مريم . نقول : لا . معجزة مريم لن تتكرر . ولذلك حددها الله تعالى
بالاسم . فقال : عيسى بن مريم . ومريم ابنة عمران . . أما باقي قصص القرآن الكريم فقد
جاءت مجهولة . فلم يقل لنا الله تعالى من هو فرعون موسى . ولا من هم أهل الكهف ولا من هو
ذو القرنين ولا من هو صاحب الجنين . إلي آخر ما جاء في القرآن الكريم . لأنه ليس المقصود
بهذه القصص شخصا بعينه . لا تتكرر القصة مع غيره ، وبعض الناس يشغلون أنفسهم بمن هو
فرعون موسى؟ ومن هو ذو القرنين . . الخ نقول لهم لن تصلوا إلى شيء لأن الله سبحانه وتعالى
قد روى لنا القصة دون توضيح للأشخاص . لنعرف أنه ليس المقصود شخصا بعينه . ولكن
المقصود هو الحكمة من القصة .

والقصص في القرآن لا ترد مكررة . وقد يأتي بعض منها في آيات . وبعض منها في آيات أخرى
 . ولكن اللقطة مختلفة . تعطينا في كل آية معلومة جديدة . بحيث أنك إذا جمعت كل الآيات التي
ذكرت في القرآن الكريم . تجد أمامك قصة كاملة متكاملة . كل آية تضيف شيئا جديدا .
وأكبر القصص في القرآن الكريم . قصة موسى عليه السلام . ويذكرنا القرآن الكريم بها دائما
لأن أحداثها تعالج قصة أسوأ البشر في التاريخ . وفي كل مناسبة يذكرنا الله بلقطة من حياة هؤلاء
 . واقراً قوله تعالى : { وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خَفَتْ عَلَيْهِ فَأَلْقَيْهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي

وَلَا تَحْزِينَا إِنَّا رَأَوْنَاهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ } [القصص : 7]

وفي آية أخرى يقول الحق سبحانه وتعالى : { إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ * أَنْ اقْذِيفِي فِي
التابوت فاقدفيه فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَهُ } [طه : 38-39]
والفهم السطحي يظن أن هذا تكرار ونقول لا . فقوله تعالى : { وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ
أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خَفَتْ عَلَيْهِ فَأَلْقَيْهِ فِي الْيَمِّ } .

وهذه اللقطة تدل على أن الله سبحانه وتعالى يعد أم موسى إعدادا إيمانيا للحدث . ولكن عند
وقوع الحدث تتغير القصة على نمط سريع { أَنْ اقْذِيفِي فِي التَّابُوتِ فاقدفيه فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمِّ
بِالسَّاحِلِ } .

كلام يناسب لحظة وقوع الحدث . . فالآية الأولى . . بينت لنا أن أم موسى أرضعته قبل أن
تضعه في التابوت . وأنها ستلقيه في اليم عندما يحدث خطر وتخاف عليه من القتل . وفيه تطمين
لها . ألا تخاف ولا تحزن . لأن الله منجيه . وفيها بشارتان : أن الله سيرده لأمه . وأن الله قد

اختاره رسولا .

نأتي إلى الآية الثانية التي تكمل لنا هذه اللقطة فتول { اذفيه في التابوت } هنا نعرف أن أم موسى ستلقيه في تابوت ، وهو ما لم يذكر في الآية السابقة . ثم بعد ذلك نعلم أن الله سبحانه وتعالى أصدر أمره إلى الماء أن يلقي التابوت إلى الساحل . وهذا ما لم يرد في الآية السابقة . ونعرف أيضا أن الذي سيأخذه وهو فرعون . ستكون بينهما عداوة متبادلة . . وهكذا نرى أن آيتي القصة . يكمل بعضهما بعضا . وليس هناك تكرار . والله سبحانه وتعالى في الآية الثانية يريد أن يثبت أنه ستكون هناك عداوة متبادلة بين موسى وفرعون . . كما أثبتت عداوة فرعون لله جل جلاله ولموسى ، فقال : { عَدُوِّي وَعَدُوُّ لَهٗ } ولكن العداوة لا تستقر إلا إذا كانت متبادلة . فتأتي آية ثالثة لتكمل الصورة . . في قوله تعالى : { فَالتَّقْطِهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا } [القصص : 8]

وهكذا بينت لنا الآية الكريمة كيف أن العداوة بين فرعون وموسى ستستقر حتى يقضى على فرعون . لأنه إذا كان إنسان عدوا لك . وأنت تقابل العداوة بالإحسان تحمد العداوة بعد قليل . إذن هذه الآيات ليست تكرارا ولكنها آيات تكمل القصة . . وتعطينا الصورة الكاملة . المتكاملة .

ولكن لماذا لم تأت قصة موسى متكاملة كقصة يوسف؟ لأن الله سبحانه وتعالى يريد أن يثبت بما نبينا عليه الصلاة والسلام والمؤمنين . فتأتي هنا لقطة وهنا لقطة . لتؤدي ما هو مطلوب من التثبيت بما لا يخل . . لأن الآيات تعطينا القصة متكاملة . وهكذا قصة آدم . جاءت لنا في آيات متعددة؛ لتعطينا في مجموعها قصة كاملة . وفي الوقت نفسه كل آية لها حكمة يحتاج إليها التوقيت الذي نزلت فيه . . فإله سبحانه وتعالى يروي لنا بداية الخلق . ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « كلكم بنو آدم وآدم خلق من تراب » . والحق سبحانه وتعالى يريد أن يعرفنا كيف بدأ الخلق . وقصة عداوة إبليس لآدم وذريته . . فتكلم الله سبحانه وتعالى عن أول البشر . عرفنا اسمه . وهو آدم عليه السلام . وتكلم عن المادة التي خلق منها . وتكلم عن المنهج الذي وضعه لآدم . وحدثنا عن النقاش الذي دار مع الملائكة . كما أخبرنا بأن آدم سيكون خليفة في الأرض . وأنه علمه الأسماء كلها ليقود حركة حياته . وعلمنا منطق علم الأشياء . وعلم مسمياتها . وحدثنا عن الحوار الذي حدث بين إبليس أمام ربه حينما أبي السجود .

وبين لنا حجة إبليس في الامتناع عن السجود ، وخطة إبليس ومدخله إلى قلوب المؤمنين بالإغواء والوسوسة وغير ذلك .

إذن فهناك أشياء كثيرة تتعرض لها قصة آدم ، ولو أن بشرا يريد أن يؤرخ لآدم ما استطاع أن يأتي

بكل هذه اللقطات . ولكن الحق سبحانه وتعالى جعل كل لقطة تأتي للتثبيت .

والآية الكريمة التي نحن بصدددها لم تأت في الأعراف ولا في الحجر ولا في الإسراء ولا في الكهف ولا في طه . وبهذا نعرف أنه ليس هناك تكرار . . فالله سبحانه وتعالى أخبر ملائكته أنه جاعل في الأرض خليفة . هنا لا بد لنا من وقفة . أخلق آدم كفرد . أم خلقه الله وكل ذريته مطمورة فيه إلى يوم القيامة ، إذا قرأنا القرآن الكريم نجد أن الله سبحانه وتعالى يقول : { وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ } [الأعراف : 11]

الخطاب هنا للجمع . لآدم وذريته . فكأنه سبحانه وتعالى يشير إلى أن الأصل الأول للخلق آدم ، وهو مطمور فيه صفات المخلوقين من ذريته إلى أن تقوم الساعة ورائه . أي أنه ساعة خلق آدم . . كان فيه الذرات التي سيأخذ منها الخلق كله . هذا عن هذا . . حتى قيام الساعة .

ولقد قلتُ إن كل واحد منا فيه ذرة أو جزيء من آدم ، فأولاد آدم أخذوا منه والجيل الذي بعدهم أخذ من الميكروب الحي الذي أودعه آدم في أولاده . والذين بعدهم أخذوا أيضا من الجزيء الحي الذي خُلِق في الأصل مع آدم . وكذلك الذين بعدهم . والذين بعدهم . والحياة لا بد أن تكون حلقة متصلة . كل منا يأخذ من الذي قبله ويعطي الذي بعده . ولو كان هناك حلقة مفقودة . لتوقفت الحياة . كأن يموت الرجل قبل أن يتزوج . فلا تكون له ذرية من بعده . تتوقف حلقة الحياة . فكون حلقة الحياة مستمرة . دليل أنها حياة متصلة . لم تتوقف . ومادامت الحياة من عهد آدم إلى يومنا هذا متصلة . فلا بد أن يكون في كل منا ذرة من آدم الذي هو بداية الحياة وأصلها . وانتقلت بعده الحياة في حلقات متصلة إلى يومنا هذا وستظل إلى يوم القيامة .

فأنا الآن حي . لأنني نشأت من ميكروب حي من أبي . وأبي أخذ حياته من ميكروب حي من أبيه . وهكذا حتى تصل إلى آدم ، إذن فأنت مخلوق من جزيء حي فيه الحياة لم تتوقف منذ آدم إلى يومنا هذا . ولو توقفت لما كان لك وجود .

إذن فحياة الذين يعيشون الآن موصولة بآدم . لم يطرأ عليها موت . والذين سيعيشون وقت قيام الساعة حياتهم أيضا موصولة بآدم أول الخلق . والحق سبحانه وتعالى . حين أمر الملائكة بالسجود لآدم . فإنهم سجدوا لآدم ولذريته إلى أن تقوم الساعة . وذرية آدم كانت مطمورة في ظهره . وشهدت الخلق الأول . إذن فقول الحق سبحانه وتعالى : { لَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ } فيه جزئية جديدة لقصة الخلق .

وقوله تعالى : { وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ } أي أن الله سبحانه وتعالى يطلب من سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام أن يقول أنه عند خلق آدم . خلقه خليفة في الأرض . والكلام هنا لا يعني أن الله سبحانه وتعالى يستشير أحدا في الخلق . بدليل أنه قال « إني جاعل » إذن فهو أمر مفروغ

منه . ولكنه إعلام للملائكة . . والله سبحانه وتعالى . عندما يحدث الملائكة عن ذلك فلأن لهم مع آدم مهمة . فهناك المديرات أمرا . والحفظة الكرام . وغيرهم من الملائكة الذين سيكلفهم الحق سبحانه وتعالى بمهام متعددة تتصل بحياة هذا المخلوق الجديد . فكان الإعلام . لأن للملائكة عملا مع هذا الخليفة .

قد يقول بعض الناس . أن حياة الإنسان على الأرض تخضع لقوانين ونواميس . نقول ما يدريك أن وراء كل ناموس ملكا؟

ولكن هذا الخليفة سيخلف من؟ قد يخلف بعضه بعضا . في هذه الحالة يكون هنا إعلام من الله بأن كل إنسان سيموت ويخلفه غيره . فلو كانوا جميعا سيعيشون ما خلف بعضهم بعضا . وقد يكون الإنسان خليفة لجنس آخر . ولكن الله سبحانه وتعالى . . نفى أن يخلف الإنسان جنسا آخر . وقرأ قوله جل جلاله : { . . . إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ * وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ } [إبراهيم : 19-20]

والخلق الجديد هو من نوع الخلق نفسه الذي أهلكه الله . والله سبحانه وتعالى يخبرنا أن البشر سيخلفون بعضهم إلى يوم القيامة . . فيقول جل جلاله : { فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ عَذَابًا } [مريم : 59]

ولكن هذا يطلق عليه خَلْفٌ . ولا يطلق عليه خليفة . والشاعر يقول :

ذهب الذين يعاش في اكنافهم ... وبقيت في خلف كجلد الأجر

ولكن الله جعل الملائكة يسجدون لآدم ساعة الخلق وجعل الكون مسخرا له فكأنه خليفة الله في أرضه . أمده بعطاء الأسباب . فخضع الكون له بإرادة الله . وليس بإرادة الإنسان . والله سبحانه وتعالى يقول في حديث قدسي : « يا ابن آدم تفرغ لعبادتي أملأ صدرك غنى وأسد فقرك . . . وإلا تفعل ملأت يدك شغلا ولم أسد فقرك »

إذن كلمة خليفة . تأخذ عدة معان . .

ماذا قالت الملائكة : { قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ } .

كيف عرف الملائكة ذلك؟ لا بد أن هناك حالة قبلها قاسوا عليها . أو أنهم ظنوا أن آدم سيطغى في الأرض . ولكن كلمة سفك وكلمة دم . كيف عرفتهما الملائكة وهي لم تحدث بعد؟ لا بد أنهم عرفوها من حياة سابقة . والله سبحانه وتعالى يقول : { وَالْجَانَ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ } [الحجر : 27]

فكان الجن قد خلق قبل الإنسان . وقوله تعالى : { إِنْ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ } . معنى ذلك أن علمك أيها المخلوق مناسب لمخلوقيتك . أما علم الله سبحانه وتعالى . . فهو أزلي لا نهائي .

ولكن هل قال الملائكة حين أخبرهم الله بخلق آدم ذلك علنا أم أسروه في أنفسهم؟ سواء قالوه أم أسروه . فقد علمه الله . لأنه يعلم ما يسرون وما يعلنون . وأنه يعلم السر وأخفى . فما هو السر . وما هو الأخرى من السر؟ السر هو ما أسرته إلى غيرك . فما أسر به إلى غيري . فهو السر . وما أخفيه في صدري ولا يطلع عليه أحد . هو أخفى من السر . فلا يقال أسرت إلا إذا بحت به لغيري . أما ما أخفيه في صدري . فلا يعلمه أحد إلا الله . فهذا هو ما أخفى من السر .

وعندما يقول الحق سبحانه وتعالى : { إني أعلم ما لا تعلمون } أراد أن يعطي القضية بعدها الحقيقي . وقد حكى القرآن الكريم قول الملائكة : { وَخُنْ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ } . والتسبيح هو التنزيه عما لا يليق بذات المنزه . والتقديس هو التطهير . . مأخوذ من القُدس وهو الدلو الذي كانوا يتطهرون به . ولذلك نحن نقول سُبُّوحٌ قُدُوسٌ . سُبُّوحٌ أي مُنزه عن كل ما لا يليق بجلاله . وقُدُوسٌ . أي مُطَهَّرٌ . . التسبيح يحتاج إلى مُسَبِّحٍ . وإلى ما نسبحه . والملائكة قالوا : { سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا } .

وهذا تسبيح وتنزيه لله سبحانه وتعالى . . والتسبيح والتنزيه لا يكونان إلا للكمال المطلق الذي لا تشويهه أية شائبة . . والكمال المطلق هو لله سبحانه وتعالى وحده . لذلك صرف الله السنة خلقه عن أن يقولوا كلمة سبحانك لغير الله تعالى . فلا تسمع في حياتك أن إنسانا قال لبشر سبحانك . وهكذا صرفت السنة الخلق عن أن تسبح لغير الله سبحانه وتعالى . وقول الملائكة : { وَخُنْ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ } كأن نقول سبحان الله وبحمده . ومعناها تنزيه لله سبحانه وتعالى في ذاته . . فلا تشبهه بذات . وفي صفاته . فلا تشبهه بصفات وفي أفعاله . فلا تشبهه بأفعال . . ولكن ما معنى كلمة وبحمده؟ معناها أننا ننزهك ونحمدك . أي يا رب تنزيهنا لك نعمة . ولذلك فإني أحمدك على أنك أعطيتني القدرة لأنزهك . . والتقديس هو تطهير الله سبحانه وتعالى من كل الأغيار . ولأنك يا ربي قدوس طاهر . لا يليق أن يرفع إليك إلا طاهر . ولا يليق أن يصدر عن خلقته بيدك إلا طاهر . .

إنه عرفنا معنى نسبح بحمدك ونقدس لك . ثم أراد الله بحكمته أن يرد على الملائكة فقال : { إني أعلم ما لا تعلمون } ولم يطلقها هكذا . ولكنه سبحانه أتى بالقضية التي تؤكد صدق الواقع . .

وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ

(31)

فالخلق سبحانه وتعالى . رد على الملائكة بهذه الآية الكريمة . لأنه علم آدم الأسماء كلها . . وكلمة كلها تفيد الإحاطة . ومعنى الإحاطة معرفة كل شيء عن هذه الأسماء . هنا يتبادر سؤال : هل علم الله سبحانه وتعالى آدم الأسماء منذ ساعة الخلق إلى قيام الساعة

مادام الحق سبحانه وتعالى يقول كلها . فما هو حكم تلك الأسماء التي هي لمخترعات ستأتي بعد خلق آدم بقرون طويلة؟

نقول إن الله سبحانه وتعالى . حين علم آدم الأسماء وميزه على الملائكة يكون قد أعطى ذلك الأدينى عنصرا موزه عن المخلوق من عنصر أعلى . فأدم مخلوق من طين . والملائكة مخلوقون من نور . وقدرات البشر لا تستطيع أن تعطي الأدينى شيئا أكثر من الأعلى . ولكن الله سبحانه وتعالى وحده هو الذي يعطي ذلك ليذكرنا أن ما نأخذه ليس بقدراتنا ولكن بقدرته هو سبحانه . ولذلك تجد سليمان وهو ملك ونبي . . أعطاه الله تعالى ملكا لا ينبغي لأحد من بعده . وميزه عن خلقه . يأتي الهدهد ليقول لسليمان : { أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبِيٍّ يَقِينٍ } . كيف يحيط الهدهد وهو طائر ضعيف محدود بما لم يحط به سليمان وهو الملك النبي الذي حكم الإنس والجن؟ لأن الله سبحانه وتعالى . . يكره الغرور من خلقه . ولذلك يأتي بآية تميز الأدينى عن الأعلى ليعلموا جميعا أن كل قدراتهم ليست بذاتهم . وإنما هي من الله . فيأتي موسى وهو الرسول والنبي . . فيتعلم من الخضر وهو العبد الصالح ما لم يكن يعلمه .

وقد خلق الله سبحانه المسميات وإن كنا لا نعرف وجودها وجعل الملائكة تتلقى أسماء هذه المسميات من آدم . وأن البعض يتساءل عن وسيلة تعليم الخالق الأكرم لآدم عليه السلام . وتعليم الخالق يختلف عن تعليم الخلق . لأن الخالق يعلم إلهاما . يقذف في قلب آدم أسماء المسميات كلها لكل ما في الكون من أسماء المخلوقات . .

إذن فالمشهد الأول . لآدم مع الملائكة . كان قد تم إيجاد كل المسميات وأهمها الله لآدم . بدليل أن الملائكة لم تتعرف على هذه المسميات . بينما عرفها آدم . وهنا لا بد لنا من وقفة . إن الكلام هو ناتج السمع . واللغة ناتج البيئة ، والله سبحانه وتعالى علم آدم الأسماء . وهذا العلم لا يمكن أن يأتي إلا إذا كان آدم قد سمع من الله سبحانه وتعالى . . ثم نطق . فأنت إذا أتيت بطفل عربي . . وتركته في لندن مثلا . . فتراه يتكلم الإنجليزية بطلاقة . . ولا يفهم كلمة واحدة من اللغة العربية . والعكس صحيح . إذا أتيت بطفل إنجليزي . وتركته في بلد عربي . يتكلم العربية . . ولا يعلم شيئا عن الإنجليزية . إذن فاللغة ليست وراثه ولا جنسا ولا بيئة .

ولكنها محاكاة يسمعها الإنسان فينطق بها . وإذا لم يسمع الإنسان شيئا وكان أصم فإنه لا يستطيع النطق بحرف واحد . فإذا كان آدم قد نطق بهذه الأسماء . فلا بد أنه سمع من الله سبحانه وتعالى . .

والعجيب أن الطريقة التي علم الله سبحانه وتعالى آدم بها . هي الطريقة نفسها التي تتبعها البشرية إلى يومنا هذا . فأنت لا تعلم الطفل بأن تقص عليه الأفعال . ولكن لا بد أن يبدأ تعليمه بالأسماء والمسميات . تقول له : هذا كوب . وهذا جبل وهذا بحر . وهذه شمس . وهذا قمر .

وبعد أن يتعلم المسميات . يستطيع أن يعرف الأفعال . ويتقدم في التعليم بعد ذلك . .
وهكذا نتعرف على النشأة الأولى للكلام . وطلاقة قدرة الله سبحانه وتعالى علمت آدم الأسماء .
وهنا نتوقف لنجيب عن سؤالين : الأول : إذا كان الله سبحانه وتعالى قد علم آدم الأسماء كلها .
فهل كان فيها أسماء ما سيستجد من مخترعات في العالم؟

نقول : إنه حتى لو تعلم آدم الأسماء التي يحتاج إليها في أولويات الوجود ويستخدمها في
متطلبات حياته على الأرض . فإذا جد جديد ، فإن أولاد آدم يستخدمون هذه الأسماء من
المقدمات والأسماء التي تعلموها . فما يجد في الوجود من أسماء . تدخل على اللغة . لم تأت من
فراغ . وإنما جاءت من اللغة التي تنطق بها وتكتب بها .

كذلك كل شيء في هذا الكون . لو أعدته الآن إلى أصله . تجد أن أصله من الله . فلو أعدت
البشرية إلى أصلها لابد أن تصل إلى أن الإنسان الأول خلقه الله سبحانه وتعالى . ولو أعدت
العلم إلى أصله . وكل علم يحتاج إلى معلم . نقول لك . . من الذي علم المعلم الأول . أليس
من البديهي أن العلم بدأ بمعلم علمه الله سبحانه وتعالى . وكان هذا هو المعلم الأول . . إذن
فالذي علم الأسماء لآدم هو الله سبحانه وتعالى . وهو علمها لأولاده . وأولاده علموها لأولادهم
وهكذا . .

يأتي السؤال الثاني : إذا كان الله هو المعلم للكلام . فلماذا اختلفت اللغات على الأرض وأصبح
هناك ألوان من اللغات والألسنة؟

نقول إن تنوع فترات التاريخ وانتشار الإنسان على الأرض جعل كل مجموعة من البشر تقترب
من بعضها لتكون لها لغة واحدة . وكل لغة موجودة مأخوذة من لغة قديمة . فالفرنسية والإنجليزية
والإيطالية . مأخوذة من اللاتينية . والعبرية والسريالية هما علاقة باللغة العربية . واللهجات التي
يتكلم بها العالم العربي صاحب اللغة الواحدة ، تختلف . . حتى أن لهجة الجزائر أو المغرب مثلا .
تجدها مختلفة عن اللهجة المصرية أو السودانية . ولكننا إذا تكلمنا باللغة العربية فهم بعضنا
بعضا ، ولغة هؤلاء جميعا في الأصل هي لغة القرآن . وهي العربية . ولكن في فترات الوهن
التاريخي الذي مر على العرب انعزلت البلاد العربية بعضها عن بعض ومضى كل مجتمع يأخذ
اللغة كمظهر اجتماعي .

فيسقط التفاهم بين اللهجات المختلفة .

وهكذا علم الله سبحانه وتعالى آدم الأسماء كلها . ثم عرضهم على الملائكة وقال لهم { أَنْبِئُونِي
بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } ؟ أي أن الله سبحانه وتعالى كرم آدم في العلم . وأعطاه علما لم
يعطه للملائكة . ثم جعل آدم هو الذي يعلمهم أسماء مسميات لم يعرفوها . وهذا دليل على
طلاقة قدرة الله سبحانه وتعالى . يفعل ما يشاء في كونه . وكما قلنا إن تمييز الأديني عن الأعلى .

لا يتم إلا بفعل الله وحده .

ولكي تقرب هذا إلى العقول : هب أن إنسانا ضعيفا يريد أن يحمل حملا ثقيلًا . . لا يقدر . وإذا كان هناك إنسان قوي يعينه فإنه لا يستطيع أن يعطيه من قوته ليحمل هذا الحمل . ولكن يعينه بأن يحمل عنه . أما الذي يستطيع أن يجعل هذا الضعيف قويا يمكنه أن يحمل هذا الحمل الثقيل فهو الله سبحانه وتعالى . . فالإنسان لا يستطيع أن يعطي إنسانا آخر من قوته . ولكن الله وحده هو القادر على أن يجعل الضعيف قويا والقوي ضعيفا .

وقوله تعالى : { إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } وهل يكذب الملائكة؟ إن الملائكة خلق من نور يسبحون الله . ويفعلون ما يؤمرون . . نقول إن قوله تعالى { أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } فيما قسمتم عليه الأحداث . أو فيما قلتموه ضربا بالغيب .

ولو أن الملائكة قاسوا حكمهم على حكم جنس آخر كان في الأرض كالجن مثلا الذين خلقوا قبل الإنسان . . يقول الحق تعالى أنكم أخطأتم في قياسكم هذا . أو إن كنتم صادقين فيما تنبأتم به من غيب؛ فلا يعلم الغيب إلا الله تعالى . فالقياسان جانبهما التوفيق .

وليس هذا طعنا في الملائكة . ولكنه تصحيح لهم . وتعريف لنا بأن الملائكة لا يعلمون الغيب . ولذلك فهم حينما قاسوا أو حكموا على غيب . . جانبهم التوفيق . لأن الله وحده هو علام الغيوب . والذي دفع الملائكة إلى أن يقولوا أو يبطنوا هذا الكلام هو جبههم الشديد لله تعالى . . وكراهيتهم لإفساد في كونه .

قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (32)

هذه الآية الكريمة . توضح لنا أن الله سبحانه وتعالى هو المعلم الأول في الكون . وإذا كان لكل علم معلم . فإن المعلم الأول لابد أن يكون هو الله سبحانه وتعالى . وإذا كنا نشاهد في عصرنا ألوانا من العلوم . . فهذه العلوم من تفاعل العقل الذي وهبه الله تعالى للإنسان . من المواد التي وضعها الله تعالى في الكون . بالمنطق والعلم الذي علمه الله للإنسان .

إن كل الاختراعات والابتكارات أخذت وجودها من مقدمات كانت سابقة عليها . فالماء مثلا كان موجودا منذ الأزل . والشمس كطاقة تبخر الماء لتصنع منه سحابا . فإذا استخدم الإنسان الطاقة الحرارية في تبخير الماء واستخدم البخار كطاقة ، فهناك قفزة حضارية في العلوم اسمها عصر البخار ، وهو الذي كانت تسير به القطارات والآلات في المصانع . وغير ذلك .

إن هذا التقدم في العلم ، إنما هو نابع من وجود العلم والطاقة ، وزاد عليهما القدوة العقلية للإنسان الممنوحة له من الخالق ، التي جعلته يفكر في استخدام الطاقة الناتجة من البخار ، فإذا توصل الإنسان لمراقبة شجرة ساقطة وهي تتدحرج إلى الأرض لأن جذعها أسطواني . فإنه أخذ من نظام هذه الشجرة ما يصنع منه العجلة التي كانت تطورا هاما في تاريخ العلم . .

إذن فساق الشجرة الأسطوانية هو الذي أعطى للإنسان فكرة العجلة ، فإذا طور الإنسان استخدام البخار وصنع قطارا يسير بالبخار . فهذا التطوير هو ابن للعلم السابق عن قدرة الطاقة الناتجة عن تبخير الماء . وكيفية صناعة العجلة . . فكل علم نابع من علم سابق . . يتربط مع إمكانات وهبها الله سبحانه وتعالى للإنسان . ولذلك عندما جاء الإسلام ليعرض العلم التجريبي أو المادي . جاء ليلفتنا إلى آيات الخالق في الكون . وطلب منا أن نتأمل في هذه الآيات . . ونعمل فيها العقل والإدراك . وقرأ قول الحق سبحانه وتعالى : { وَكَأَيِّن مِّن آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ } [يوسف : 105] وهكذا يلفتنا الله جل جلاله إلى آياته التي في السموات والأرض لنعمل فيها العقل والإدراك ، لتستنبط منها ما يعطينا الحضارة . . إن القرآن يطالبنا بأن نواصل العلم الذي علمه الله لآدم . وإذا كان تاريخ العلوم يحمل لنا أخبارا عن قوم لم يكونوا مؤمنين ومع هذا سبقونا في العلم والاستنباط ، فكان الواجب علينا نحن المؤمنين أن نتأمل آيات الله تعالى في الأرض . فنيوتن الذي لاحظ قوة جاذبية الأرض كان يراقب تفاحة تسقط من أعلى الشجرة وتصطدم بالأرض . فتوصل إلى قانون الجاذبية .

وإذا أردنا أن نأخذ لمحة من علم الله الذي علمه لنا . فيكفي أن ننظر إلى النواة ففي هذه النواة الصغيرة نخله كاملة . متى وضعت النواة في الأرض . نمت النخلة .

وأصبح لها وجود .

ولكي نوضح هذا كله نقول إن كل علم مبني على نظريات . النظرية الأولى تؤدي إلى الثانية . والثانية تؤدي إلى الثالثة . وهكذا . . ولكن بداية كل هذه العلوم لم تبدأ بنظرية ، ولكنها بدأت بما يسمونه البديهيات . أي الأشياء التي لا تحتاج إلى دليل . إنها الأشياء التي خلقها الله في الكون . وعلى هذه البديهيات بنيت النظريات الواحدة بعد الأخرى . حتى إذا أردت أن تعيدها إلى أصلها ، فإنك تصل في نهاية الأمر إلى أن العلم الأول من الله سبحانه وتعالى ، فالمعلم الأول علمه الله . والثمرة الأولى خلقها الله . وكل اكتشافات الإنسان منذ بداية الحياة وحتى قيام الساعة موجودة بالقوة . مثل النواة التي فيها النخلة . تنتظر التأمل والعمل . لتصبح اكتشافا بالفعل . والله سبحانه وتعالى وهو المعلم الأول . . وضع في كونه من العلم الكثير . ويحضرني قول الشاعر أحمد شوقي حين قال :

سبحانك اللهم خير معلم ... علمت بالقلم القرون الأولى

أرسلت بالتوراة موسى مرشدا ... وابن البتول فعلم الإنجيلا

وفجرت ينبوع البيان محمدا ... فسقى الحديث وناول التنزيلا

وكان شوقي يصوغ في أبياته أن كل علم هو منسوب إلى الله وحده . . وهكذا يتضح لنا . أن

قول الملائكة : { سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ } يتضمن الاعتراف بأن العلم كله مرجعه إلى الله . فالله سبحانه وتعالى هو مصدر العلم والحكمة . وقوله سبحانه وتعالى : { الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ } الذي يعلم كل شيء خافيا كان أو ظاهرا . والعلم كله منه . وأما الحكمة فتطلق في الأصل على قطعة الحديد التي توضع في فم الفرس لتلجمه حتى يمكن للراكب أن يتحكم فيه . ذلك أن الحصان حيوان مدلل شارد . يحتاج إلى ترويض . وقطعة الحديد التي توضع في فمه تجعله أكثر طاعة لصاحبه . وكان إطلاق صفة الحكيم على الخالق سبحانه وتعالى هو أنه جل جلاله يحكم المخلوقات حتى لا تسير بغير هدى . ودون دراية . والحكمة أن يوضع هدف لكل حركة لتنسجم الحركات بعضها مع بعض ، وبصير الكون محكوما بالحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . والحكيم العليم . هو الذي يضع لكل كائن إطاره وحدوده . والحكمة هي أن يؤدي كل شيء ما هو مطلوب منه ببراعة . والحكمة في الفقه هي أن تستنبط الحكم السليم . والحكمة في الشعر أن تزن الكلمات على المفاعيل . والحكمة في الطب أن تعرف تشخيص المرض والدواء الذي يعالجه . والحكمة في الهندسة أن تصمم المستشفى طبقا لاحتياجات المريض والطبيب وأجهزة العلاج ومخازن الأدوية وغير ذلك . أو في تصميم المنزل للسكن المريح . وحكمة بناء منزل مثلا تختلف عن حكمة بناء قصر أو مكان للعمل .

والكون كله مخلوق من قبل حكيم عليم . وضع الخالق سبحانه وتعالى فيه كل شيء في موضعه ليؤدي مهمته . ووصف الله تعالى بأنه حكيم يتطلب أن يكون عليما . لأن علمه هو الذي يجعله يصنع كل شيء بحكمة . وقد أعطى الله سبحانه وتعالى لكل خلقه من العلم على قدر حاجته ، فليس من طبيعة الملائكة أن يعرفوا ماذا سيفعل ذلك الإنسان الذي سيستخلفه الله في الأرض . ولكنهم موجودون لمهمة أخرى . . وميز الله الإنسان بالعقل ليستكشف من آيات الله في الكون على قدر حاجة حياته . والحق سبحانه وتعالى يقول : { سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى * الَّذِي خَلَقَ فَسْوَى * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى } [الأعلى : 1-3]

إذن فكل شيء خلق بقدر . وكل مخلوق ميسر لما هداه الله له . .

قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ الْغَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (33)

فالحق سبحانه وتعالى أراد أن يرد على ملاحظة الملائكة بالنسبة لخلق آدم وخلافته في الأرض ، وأن الله سبحانه وتعالى في حكمته ما يخفي عليهم . ولذلك فهم لم يدركوا هذه الحكمة . وقيل أن يخلق الله آدم ويجعله خليفة في الأرض . . كان على علم بكل ما سيحدث من آدم وذريته حتى قيام الساعة . وبعد قيام الساعة ، أما الملائكة . فهم لم يكونوا على علم بذلك . لأن هذا ليس

عملهم . وكما قلنا : كل ميسر لما خلق له . ولذلك أراد الحق سبحانه وتعالى أن يعطي للملائكة الصورة بأنكم قد حكمتكم على آدم إما من تجربة لجنس آخر عاش في الأرض ، وإما من ضرب بالغيب . والمقياسان غير صحيحين . ولذلك ميز الله سبحانه في هذه اللحظة آدم على الملائكة فعلمه أسماء المسميات كلها ، ثم طلب من الملائكة أن يخبروه بهذه الأسماء . ولكنهم قالوا : إن العلم من الله وحده . وبما أن الله تعالى لم يعلمهم الأسماء فإنهم لا يعرفونها . فطلب الله من آدم أن يخبرهم بأسماء هذه المسميات فأخبرهم بها . ولكنه لم يخبرهم بما بذاته ولا من قانونه . ولا يعلم علمه وحده . ولكنه أخبرهم بتعليم الله سبحانه وتعالى له . وفي ذلك يقول الله تعالى : { نَرَفَعُ

دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَأٍ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ } [يوسف : 76]

إِذْ نَفَعْنَا آدَمَ الْأَسْمَاءَ كَمَا بَعَثْنَا اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى . وهذه المشيئة وحدها هي التي جعلت آدم في ذلك الوقت يعلم ما لا تعلمه الملائكة . . وهنا رد الحق سبحانه وتعالى على قول الملائكة بأن آدم سيفسد في الأرض . فذكرهم الله تعالى بقوله : { أَلَمْ أَقُلْ لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ } أي أن الله سبحانه وتعالى وحده هو الذي يعلم الغيب . والغيب هنا هو الغيب المطلق . فهناك غيب نسبي . قد تسرق حافظة نقودي مثلا وأنا لا أعلم من الذي سرقها فهو غيب عني . ولكنه معلوم للذي سرق ، وللذي سهل له طريقة السرقة بأن حرس له الطريق حتى يسرق دون أن يفاجئه أحد . وقد يكون قد صدر قرار هام بالنسبة لي كترقية أو فصل أو حكم . لم يصلني . فأنا لا أعلمه . ولكن الذي وقع القرار أو الحكم يعلمه .

هذا الغيب النسبي . لا يعتبر غيبا . ولكن الغيب المطلق هو الذي ليس له مقدمات تنبئ عما سيحدث . . هذا الغيب الذي يفاجئك . ويفاجئ كل من حولك بلا مقدمات . . هذا الغيب لا يعلمه إلا الله وحده . وقوله تعالى : { وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ } . . تعطينا هنا وقفة . هل الملائكة قالوا لله سبحانه وتعالى : { أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدَّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ } هل قالها الملائكة فعلا وجهرا ، أم أنهم قالوها في أنفسهم ولم ينطقوا بها . قوله تعالى { وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ } تعطينا إشارة إلى أن الملائكة ربما قالوا هذا سرا . ولم يبدوه ، وعلى أية حال . سواء قالوه جهرا . أو قالوه سرا . فقد علمه الله . لأن الله جل جلاله . . بكل شيء محيط . ولا نريد لهذه النقطة أن تثير جدلا . . لماذا؟ لأنه في الحالتين . . سواء في الجهر أو في الكتمان . . فإن الموقف يتساوى عند علم الله سبحانه وتعالى . . فلا داعي للجدل لأنه لا خلاف .

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (34)

أصدر الله تعالى أمره للملائكة ليسجدوا لآدم . وهذه القضية أخذت جدلا طويلا . قال بعض الناس : كيف يسجد الملائكة لغير الله؟ والسجود لله وحده . وقال آخرون : هل معنى سجود

الملائكة لآدم أنهم عبدوه؟ وقالت فئة أخرى : السجود لغير الله لا يجوز تحت أي ظرف من الظروف . نقول لهؤلاء : أنكم لم تدركوا المعنى ، فالله سبحانه وتعالى بعد أن ميز آدم على الملائكة بعلم الأسماء . . طلب منهم أن يسجدوا لآدم ، وهنا لابد أن نعرف أن السجود لآدم . هو إطاعة لأمر الله . . وليست عبادة لآدم . فالله سبحانه وتعالى هو الذي أمر الملائكة بالسجود . ولم يأمرهم بذلك آدم . ولا يحق له أن يأمرهم . فالأمر بالسجود هنا من الله سبحانه وتعالى ، من أطاعه كان عابداً . ومن لم يطعه كان عاصياً . ومن رد الأمر على الأمر كان كافراً . ولكي نفهم معنى العبادة نقول : إن العبادة هي طاعة أوامر الله . واجتناب نواهيه . فما قال لي الله : افعل . فإني أفعل . وما قال : لا تفعل . فإني لا افعل . . لأن العبادة هي طاعة مخلوق لخالقه في أوامره ونواهيه . ولذلك عندما نذهب إلى الحج فإننا نقبل الحجر الأسود في الكعبة ، ونرجم الحجر الذي يمثل إبليس في منى . نقبل حجراً ونرجم حجراً . . هذا هو معنى عبادة الله واتباع منهجه . كما أمرنا نفعل . لا شيء مقدس عندنا . . إلا أمر الله ومنهجه . الملائكة هنا لم يسجدوا لآدم . ولكنهم سجدوا لأوامر الله بالسجود لآدم . وفرق كبير بين السجود لشيء ، وبين السجود لأمر الله . السجود لأمر الله سبحانه وتعالى . . لا يعتبر خروجاً على المنهج ، لأن الأساس هو طاعة الله . وهل سجد كل الملائكة لآدم؟ لا . وإنما سجد لآدم الملائكة الذين لهم مهمة معه ، وتلك المهمة قد أوضحها الله سبحانه وتعالى في قوله : { وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لِحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ } [الانفطار : 10-12]

وقوله سبحانه : { مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ } [ق : 18]

وقوله سبحانه : { فالمدبرات أمراً } [النازعات : 5]

إذن هناك من الملائكة من سيسجل على الإنسان أعماله . وكل قول يقوله وكل فعل يفعله . بل ويكتبون هذه الأفعال . ومنهم من يحفظه من الشياطين ، ومنهم من ينفذ أقدار الله في الأرض . هؤلاء جميعاً لهم مهمة مع الإنسان . ولكن الأمر بالسجود لم يشمل أولئك الملائكة العالين من حملة العرش وحراس السماء وغيرهم ممن ليست لهم مهمة مع الإنسان . ولذلك عندما رفض إبليس السجود . قال له الله تعالى : { قَالَ يَاإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي

أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ } [ص : 75]

قوله تعالى . . كنت من العالين أي أنك كنت من الملائكة العالين . . الذين لم يشملهم أمر السجود .

إذن فأمر السجود لآدم . . كأمر الله لنا بالسجود إلى القبلة في الصلاة . فنحن لا نسجد للقبلة ذاتها . . ولكننا نسجد لأمر الله بالسجود إلى القبلة . . سجد الملائكة الذين شملهم أمر السجود لأمر الله سبحانه وتعالى . . ولكن إبليس رفض أن يسجد . وعصى أمر الله .

بعض الناس يقولون : أن إبليس لم يكن من الذين أمرهم الله تعالى بالسجود . لأن الأمر شمل الملائكة وحدهم . . وإبليس ليس ملكا . ولكنه من الجن . كما يروي لنا القرآن الكريم في قوله

تعالى : { إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ } [الكهف : 50]

ونقول : إن كون إبليس من الجن هو الذي جعله يعصي أمر الله بالسجود . فلو أن إبليس كان من الملائكة وهم مقهورون على الطاعة كان لا بد أن يطيع أمر الله ويسجد . ولكن كونه من الجن الذين لهم اختيار في أن يطيعوا وأن يعصوا فذلك الذي مكّنه أن يعصي أمر السجود . ولذلك فإن الذين يأخذون من الآية الكريمة أن إبليس كان من الجن . بأنه لم يشمل أمر السجود . نقول لهم :

إن الحق سبحانه وتعالى قد أخبرنا عن جنس إبليس حتى نفهم من أي باب إلى المعصية دخل . . ذلك أنه دخل من باب الاختيار الممنوح للإنس والجن في الحياة الدنيا وحدها ، ولو أراد الله سبحانه وتعالى أن يكون إبليس مقهورا على الطاعة ما كان يستطيع أن يعصي . ولكن معصيته جاءت من أنه خلق مختارا . . والاختيار هو الباب الذي دخل منه إلى المعصية . هذه حقيقة يجب أن نفهمها . ولذلك يرد الحق سبحانه وتعالى على كل من سيخطر بباله أن أمر السجود لم يشمل إبليس لكونه من الجن لقوله سبحانه وتعالى : { قَالَ مَا مَنَّكَ إِلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ } [الأعراف : 12]

وكان كفر إبليس وخلوده في النار أنه رد الأمر على الأمر . وقال : { أَسْجُدْ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا } [الإسراء : 61]

وقد كان وجود إبليس مع الأعلى منه وهم الملائكة . مبررا أكبر للسجود . فمادام قد صدر الأمر إلى الأعلى بالسجود فإنه ينطبق على الأدنى . وقد كان إبليس كما جاء في الأثر يسمى طاووس الملائكة . . وكان يزهو بخيلاء بينهم . . وهذه الخيلاء أو الكبر هو الذي جعله يقع في المعصية ، ولأن إبليس خلق مختارا . فقد كان مزهوا باختياره لطاعة الله . . قبل أن يقوده غروره إلى الكفر والمعصية . ولذلك لم يكده يصدر الأمر من الله بالسجود لآدم . حتى امتنع إبليس تكبرا منه . . ولم يجاهد نفسه على طاعة الله . . فمعصية إبليس هي معصية في القمة . لأنه رد الأمر على الأمر وظن أنه خير من آدم . . ولم يلتزم بطاعة الله ، ومضى غروره يقوده من معصية إلى أخرى . فطرده الله من رحمته وجعله رجيمًا . ولما عرف إبليس أنه طرد من رحمة الله طلب من الله سبحانه وتعالى أن يبقيه إلى يوم الدين ، وأقسم إبليس بعزة الله أن يغري بني آدم .

. حدد الأماكن التي يأتي منها الإغواء . فقال : { ثُمَّ لَاتَيْنَهُمْ مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ } [الأعراف : 17]

نلاحظ هنا أن الجهات بالنسبة للإنسان ستة . اليمين والشمال . والأمام والخلف وأعلى وأسفل

، ولكن إبليس لم يذكر إلا أربعة فقط . أما الجهتان الأخيرتان وهما الأعلى والأسفل . فلا يستطيع إبليس أن يقترب منهما . أما الأسفل فهو مكان السجود والخضوع لله . وأما الأعلى فهو مكان صعود الصلاة والدعاء . وهذان المكانان لا يستطيع إبليس أن يقترب منهما . وهكذا نرى أن إبليس لم يمتنع عن السجود فقط . وإنما رد الأمر على الأمر . وهذا أول الكفر . ثم بعد ذلك مضى في غيه فتوعد آدم وذريته بأن يضلهم عن سبيل الله .

وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (35)

بعد أن خلق الله سبحانه وتعالى آدم وأمر الملائكة أن تسجد له وحدث كفر إبليس ومعصيته أراد الله جل جلاله أن يمارس آدم مهمته على الأرض . ولكنه قبل أن يمارس مهمته أدخله الله في تجربة عملية عن المنهج الذي سيتبعه الإنسان في الأرض ، وعن الغواية التي سيتعرض لها من إبليس . فالله سبحانه وتعالى رحمة منه لم يشأ أن يبدأ آدم مهمته في الوجود على أساس نظري ، لأن هناك فرقا بين الكلام النظري والتجربة .

قد يقال لك شيء وتوافق عليه من الناحية النظرية ولكن عندما يأتي الفعل فإنك لا تفعل شيئا . إذن فالفترة التي عاش فيها آدم في الجنة كانت تطبيقا عمليا لمنهج العبودية ، حتى إذا ما خرج إلى مهمته لم يخرج بمبدأ نظري ، بل خرج بمنهج عملي تعرض فيه لا فعل ولا تفعل . والحلال والحرام ، وإغواء الشيطان والمعصية . ثم بعد ذلك يتعلم كيف يتوب ويستغفر ويعود إلى الله . وليعرف بنو آدم أن الله لا يغلق بابه في وجه العاصي ، وإنما يفتح له باب التوبة . والله سبحانه وتعالى أسكن آدم الجنة . وبعض الناس يقول : أنها جنة الخلد التي سيدخل فيها المؤمنون في الآخرة . وبعضهم قال : لولا أن آدم عصى لكنا نعيش في الجنة . نقول لهم لا . . جنة الآخرة هي للآخرة ولا يعيش فيها إنسان فترة من الوقت ثم بعد ذلك يطرد منها بل هي كما أخبرنا الله تعالى جنة الخلد . كل من دخلها عاش في نعيم أبدي .

إذن فما هي الجنة التي عاش فيها آدم وحواء؟ هذه الجنة هي جنة التجربة أو المكان الذي تمت فيه تجربة تطبيق المنهج . ونحن إذا قرأنا القرآن الكريم نجد أن الحق سبحانه وتعالى قد أطلق لفظ الجنة على جنات الأرض . والجنة تأتي من لفظ « جن » وهو الستر ، ذلك أن فيها أشجارا كثيفة تستر من يعيش فيها فلا يراه أحد . وفيها ثمرات تعطيه استمرار الحياة فلا يحتاج إلى أن يخرج منها . ونجد في القرآن الكريم قوله تعالى : { إِنَّا بَلَوْنَاكُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ

أَقْسَمُوا لَبَصُرُومَنَّا مُّصْبِحِينَ * وَلَا يَسْتَأْذِنُونَ } [القلم : 17-18]

وهذه قصة الأخوة الذين كانوا يملكون جنة من جنات الأرض فمنعوا حق الفقير والمسكين واليتيم ، فذهب الله بثمر الجنة كلها وأحرق أشجارها . وهناك في سورة الكهف قصة صاحب الجنتين :

في قوله تعالى : { واضرب لهم مثلاً رجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ
وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زُرْعًا } [الكهف : 32]

وهي قصة ذلك الرجل الذي أعطاه الله جنتين . . فبدلاً من أن يشكر الله تعالى على نعمه . .
كفر وأنكر البعث والحساب . وفي سورة سبأ اقرأ قوله تعالى عن أهل سبأ الذين هدامهم الله وبين
هم الطريق المستقيم ولكنهم فضلوا الكفر .

واقراً قوله تبارك وتعالى : { لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ
رَبِّكُمْ واشكروا لَهُ بِلَدَّةِ طَيِّبَةٍ وَرَبِّ غَفُورٍ * فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرْمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ
جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِي أُكُلٍ حَمْطٍ وَأَثَلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ * ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نَجَازِي إِلَّا
الْكَافِرُونَ } [سبأ : 15-17]

وهكذا نرى أن الحق سبحانه وتعالى في القرآن الكريم قد أطلق لفظ الجنة على جنات الدنيا ، ولم
يقصره على جنة الآخرة .

إذن فآدم حين قال له الله سبحانه وتعالى : { اسكن أنتَ وَزَوْجُكَ الجنةَ } [الأعراف : 19]
فهي ليست جنة الخلد وإنما هي جنة سيمارس فيها تجربة تطبيق المنهج . ولذلك لا يقال : كيف
دخل إبليس الجنة بعد أن عصى وكفر ، لأن هذه ليست جنة الخلد ولا بد أن تنتبه إلى ذلك جيداً
حتى لا يقال أن معصية آدم هي التي أخرجت البشر من الجنة . لأن الله تعالى قبل أن يخلق آدم
حدد مهمته فقال : { وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً } [البقرة : 30]
فآدم مخلوق للخلافة في الأرض ومن صلح من ذريته يدخل جنة الخلد في الآخرة ، ومن دخل
جنة الخلد عاش في النعيم خالداً .

والحق سبحانه وتعالى يقول : { وَكُلًّا مِنْهَا رَعَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا } فالله سبحانه وتعالى أمد الجنة
التي سكنها آدم وحواء بكل ما يضمن استمرار حياتهما ، تماماً كما خلق كل النعم التي تضمن
استمرار حياة آدم وذريته في الأرض قبل أن تبدأ الحياة البشرية على الأرض . فالله سبحانه
وتعالى له عطاء ربوبية فهو الذي خلق . وهو الذي أوجد من عدم ، ولذلك فقد ضمن لخلقه ما
يعطيهم استمرار الحياة على الأرض من ماء وهواء وطعام ونعم لا تعد ولا تحصى فكان الله تعالى
قد أمد الجنة التي سكن فيها آدم وزوجته بكل عوامل استمرار حياتهما قبل أن يسكنها . كما
أمد الأرض بكل وسائل استمرار حياة الإنسان قبل أن ينزل آدم إليها . إذن فقوله تعالى : {
يَاءَ آدَمُ اسكن أنتَ وَزَوْجُكَ الجنةَ } .

هذه فترة التدريب على تطبيق المنهج . والسكن هو المكان الذي يرتاح فيه الإنسان ويرجع إليه
دائماً . فأنت قد تسافر فترات ، وكل الدول التي تمر بها خلال سفرك لا تعتبر سكننا إلى أن تعود
إلى بيتك ، فهذا هو السكن والرجل يكذب ويتعب في الحياة وأينما ذهب فإنه يعود مرة أخرى إلى

المكان الذي يسكنه ليستريح فيه .

وقوله تعالى : { وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ } هو استكمال للمنهج . فهناك أمر ونهي افعل ولا تفعل : { اسكن أنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ } أمر : { وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا } أمر ، { وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ } نهي وهذا أول منهج يعلم الإنسان الطاعة لله سبحانه وتعالى والامتناع عما نهي عنه ، وكل رسائل السماء ومناهج الله في الأرض أمر ونهي .

. افعل كذا ولا تفعل كذا .

وهكذا فإن الحق سبحانه وتعالى ضمن لآدم الحياة ، وليست الحياة فقط ولكن رغدا . أي مباحا وبلا تعب وعن سعة وبدون مشقة . كما أننا نلاحظ هنا أن المباح كثير والممنوع قليل . فكل ما في الجنة من الطعام والشراب مباح لآدم ، ولا قيد إلا على شيء واحد . . شجرة واحدة من بين ألوف الأشجار التي كانت موجودة في الجنة . . شجرة واحدة فقط هي الممنوعة .

وإذا نظرت إلى منهج السماء إلى الأرض تجد أن الله سبحانه وتعالى قد أباح فيه نعمًا لا تحصى ولا تعد وقيد فيه أقل القليل . . فالذي نمانا الله عنه بالنسبة لنعم الأرض هو أقل القليل ، كما كان في جنة آدم شجرة واحدة والمباح بعد ذلك كثير . وإذا أخذنا ألفاظ العبارات نجد أن الله سبحانه وتعالى ساعة يقول : { وَقُلْنَا يَا آدَمُ } أتى بضمير « ن » ضمير الجمع ، لأن الله واحد أحد ، ولكنهم يسمونها : نون الكبرياء ونون العظمة .

إذن فكل حدث يأتي فيه الحق تبارك وتعالى بنون الكبرياء ونون التعظيم . لأن كل فعل من الأفعال يحتاج إلى صفات متعددة حتى يتم . فأنت إذا أردت أن تفعل شيئًا فإنه يقتضي منك قوة ويقتضي منك علما ويقتضي منك قدرة ويقتضي منك حكمة . . إذن فهناك صفات كثيرة موجودة يقتضيها الفعل .

ولكن حين يتكلم الحق سبحانه وتعالى عن شهادة التوحيد يقول « إني أنا الله » ولا يقول : إنما نحن الله . . لأنه جل جلاله . يريد توحيدًا . ففي موقع التوحيد يأتي بضمير الأفراد واحد أحد . . أما في صدر الأحداث . فيأتي بضمير الكبرياء والعظمة . وقرأ قوله تعالى : { وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا

بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ } [الذاريات : 47]

وعندما أراد الحق تبارك وتعالى أن يمتدح إبراهيم قال : { إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً } ما معنى أُمَّة؟ أي جامعا لصفات الخير التي لا تجتمع في فرد ولكنها تجتمع في أمة . فالأمة تجتمع فيها صفات الخير . . هذا متميز بالصدق ، وذلك بالشجاعة . وهذا بالحلم . فأراد الحق سبحانه وتعالى أن يقول إن إبراهيم كان أمة أي أنه كان جامعا لصفات الخير .

وفي قوله { وَقُلْنَا يَا آدَمُ } آدم اسم علم على المسمى الذي هو أول خلق الله من البشر « واسكن » تحتاج إلى عنصرين : الهدوء والاطمئنان . . هذا هو معنى اسكن . توفير الهدوء

والاطمئنان ، ومنه أخذ اسم السكن . وكلمة المسكن وأطلق على الزوجة . . وإذا فقد المكان الذي تسكن فيه عنصران من هذين العنصرين وهما الهدوء والطمأنينة لا يقال عليه مسكن .
والزوجة سميت سكننا كما جاء في قوله تعالى : { وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً } [الروم : 21]
لأن الهدوء والرحمة والبركة تتوافر في الزوجة الصالحة . والحق سبحانه وتعالى يقول :

{ وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ } [التوبة : 103]

أي راحة واطمئنانا ورحمة . فالإنسان يريد في بيته أن تكون الحياة فيه مريحة له من عناء العمل وصخب الحياة . ويقول الحق سبحانه وتعالى : { اسكن أنتَ وَزَوْجُكَ } وكان من الممكن أن يقول اسكن وزوجك لأن الفاعل في فعل الأمر دائما مستتر . ولكنه سبحانه قال : اسكن أنتَ وزوجك . . وإياك أن تظن أن أنت هو فاعل الفعل اسكن . ولكنه ضمير جاء ليفصل بين اسكن وبين زوجك حتى لا يعطف الاسم على الفعل .

أنا لا بد أن نلاحظ أن كلمة زوج تطلق على الفرد ومعه مثله . ولذلك لم يأت ببناء التأنيث . .
اسكن أنتَ وزوجتك . لأن الأمر التكليفي من الله . سواء فيه الذكر والأنثى . وقرأ قوله تعالى :

{ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ } [غافر : 40]

إذن فهما متساويان في هذه الناحية . هذه الجنة ماذا وفر الله سبحانه وتعالى لآدم وزوجه فيها؟
اقرأ قوله تبارك وتعالى : { إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ * وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَىٰ } [طه : 118-119]

هذه عناصر الحياة التي وفرها الله لآدم وزوجه في جنة التجربة الإيمانية العملية على التكليف . وهكذا نرى من الأوصاف التي أعطها الله سبحانه وتعالى لنا هذه الجنة أنها ليست جنة الآخرة . لأنه أولا فيها تكليف . في قوله تعالى : { وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ } وجنة الآخرة لا تكليف فيها ، والحق تبارك وتعالى أباح لآدم وحواء أن يأكلا كما يشاءان من الجنة . والجنة فيها أصناف كثيرة متعددة . ولذلك قال : { حَيْثُ شِئْتُمَا }
وأنت لا تستطيع أن تقدم لإنسان صنفا أو صنفين وتقول له كل ما شئت . لأنه لا يوجد أمامه إلا مجال ضيق للاختيار ، كما أن قلة عدد الأصناف تجعل النفس تمل . ولذلك لا بد أن يكون هناك أصناف متعددة وكثيرة .

ثم جاء النهي . في قوله تعالى : { وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ } أي لا تقتربا من مكانها . ولكن لماذا لم يقل الحق سبحانه وتعالى ولا تأكلا من هذه الشجرة؟ . لأن الله جل جلاله رحمة بآدم وزوجه كان لا يريد هما أن يقعوا في غواية المعصية . فلو أنه قال : ولا تأكلا من هذه الشجرة لكان مباحا لهما أن يقتربا منها فتجذبهما بجمال منظرها ويقتربا من ثمارها فتفتنهما برائحتها العذبة ولونها

الجذاب . حينئذ يحدث الإغواء . وتمتد أيديهما تحت هذا الإغراء إلى الشجرة ليأكلا منها .
ولكن الله تعالى يعلم أن النفس البشرية إذا حرم عليها شيء ولم تحم حوله كان ذلك أدعى ألا
تفعله . فالله تعالى حين حرم الخمر لم يقل حرمت عليكم الخمر وإلا كنا جلسنا في مجالس الخمر
ومع الذين يشربونها . أو نتاجر فيها وهذا كله إغراء بشرب الخمر . . ولكنه قال : { يَا أَيُّهَا
الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ
تُفْلِحُونَ }

[المائدة : 90]

هذا النص الكريم قد جعلنا نبتعد عن الأماكن التي فيها الخمر . فلا نجلس مع من يشربونها ،
ولا نتاجر فيها حتى لا نقع في المعصية . فإذا رأيت مكانا فيه خمر فابتعد عنه في الحال . حتى لا
يغريك منظر الخمر وشاربها بأن تفعل مثله . والحق جل جلاله يقول في المحرمات : « لا تقربوا »
واجتنبوا . . أي لا تحوموا حولها . لأنها إذا كانت غائبة عنك فلا تخطر على بالك فلا تقع فيها .
ولذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم :

« إِنَّ الْحَلَالَ بَيِّنٌ وَالْحَرَامَ بَيِّنٌ وَبَيْنَهُمَا أُمُورٌ مُّشْتَبِهَاتٌ لَا يَعْلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ فَمَنْ اتَّقَى
الشَّيْبَاتِ فَقَدْ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعَرْضِهِ وَمَنْ وَقَعَ فِي الشَّيْبَاتِ وَقَعَ فِي الْحَرَامِ كَالرَّاعِي يَرعى حَوْلَ
الْحِمَى يُوْشِكُ أَنْ يَقَعَ فِيهِ أَوْ لَا وَإِنْ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمَى أَوْ لَا وَإِنْ حَمَى اللَّهِ مُحَارَمَهُ »
ولقد كان بعض الناس يقبلون على شرب الخمر ويقولون إنه لم يرد فيها تحريم صريح . . فلم تأت
مسبوقة بكلمة حرمت . . نقول إن كلمة اجتنبوا . أشد من التحريم . فقوله تعالى : { فَاجْتَنِبُوا
الرَّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ } معناه ألا تنظر حتى إلى الصنم . واجتناب الخمر ألا تقع عينك عليها . .
وقد اختلف الناس في نوع هذه الشجرة . وهل هي شجرة تفاح أو تين أو عنب أو غير ذلك .
ونحن نقول : ليس هذا هو المقصود . ولكن المقصود هو التحريم . لأن منهج الله سبحانه وتعالى
يحلل أشياء . ويحرم أشياء .

وقوله تعالى : { فَتَكُونُوا مِنَ الظَّالِمِينَ } الظلم هو الجور والتعدي على حقوق الغير . والظالم هو
من أخذ فوق ما يستحقه بغير حق . والظلم يقتضي ظلما ومظلوما . وموضوعا للظلم . فكل
حق سواء كان ماديا أو معنويا يعتدي عليه إنسان بدون حق فقد حمل ظلما . حتى الإنسان أنه
أحيانا يظلم نفسه . وقرأ قوله تعالى : { وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ }
[آل عمران : 135]

كيف يظلم الإنسان نفسه؟ قد يظلم الإنسان غيره . ولكنه لا يظلم نفسه أبدا لأنه يريد أن
يعطيها كل ما تشتهي . وهذا هو عين الظلم للنفس . لأنه أعطائها شهوة عاجلة في الدنيا . ربما
استمرت ساعات . وحرمتها من نعيم أبدي في الآخرة . فكأنه ظلّمها بأن أعطائها عذابا أليما في

الآخرة مقابل متعة زائلة لا تدوم . . وهناك من يبيع دينه بدنياه . ولكن أظلم الناس لنفسه من يبيع دينه . بدنياه غيره . يشهد زورا . ليرضي رئيسا . أو يتقرب لمسئول . أو يرتكب جريمة . . . إذن قوله تعالى : { فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ } أي من الذين ظلموا أنفسهم بمعصية الله .

فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ (36)

بعد أن أسكن الله سبحانه وتعالى آدم وزوجه في الجنة . وأخبرهما بما هو حلال وما هو حرام . بدأ الشيطان مهمته . مهمة عداوته الرهيبة لآدم وذريته . والحق سبحانه يقول : { فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ } أي أن الشيطان باشر مهمته فأوقعهما في الزلة . وهي العثرة أو الكبوة . كيف حدث ذلك والله تعالى قد نصح آدم وزوجه ألا يتبعوا الشيطان . وأبلغه أنه عدو لهما . في قوله تعالى : { . . . إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجُكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى } [طه : 117] إذن فالعداوة معلنة ومسبقة . ولنفرض أنها غير معلنة . ألم يشهد آدم الموقف الذي عصى فيه إبليس أمر الله ولم يسجد لآدم؟ ألم يعرف مدى تكبر إبليس عليه . في قوله { أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ } وقوله { أَسْجُدْ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا } كل هذا كان ينبغي أن ينبه آدم إلى أن إبليس لن يأتي له بخير أبدا . . .

والحق سبحانه وتعالى لم يكتف بالدلالات الطبيعية التي نشأت عن موقف إبليس في رفضه السجود . بل أخبر آدم أن الشيطان عدو له ولزوجه . يقول الحق سبحانه وتعالى : { فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ } من ماذا أخرجهما؟ من العيش الرغيد . واسع النعمة في الجنة . ومن الهدوء والاطمئنان في أن رزقهما يأتيهما بلا تعب . ولذلك سيأتي الحق في آية أخرى ويقول : { فَلَا يُخْرِجُكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى } وهنا لابد أن نتساءل : لماذا لم يقل فتشقى؟

إن هذه لفتنة من الحق سبحانه وتعالى . . إلى مهمة المرأة ومهمة الرجل في الحياة . فمهمة المرأة أن تكون سكنا لزوجها عندما يعود إلى بيته . تذهب تبعه وشقاءه . أما مهمة الرجل فهي العمل حتى يوفر الطعام والمسكن لزوجته وأولاده . والعمل تعب وحركة . وهكذا لفتنا الحق تبارك وتعالى إلى أن مهمة الرجل أن يكدح ويشقى . ثم يأتي إلى أهله فتكون السكينة والراحة والاطمئنان .

إذا كانت هذه هي الحقيقة . فلماذا يأتي العالم ليغير هذا النظام؟ نقول إن العالم هو الذي يتعب نفسه . ويتعب الدنيا . فعمل المرأة شقاء لها . فمهمتها هي البيت . وليس عندها وقت لأي شيء آخر . فإذا عملت فذلك على حساب أولادها وبيتها وزوجها . ومن هنا ينشأ الشقاء في المجتمع . فيضيع الأولاد . ويهرب الزوج إلى مكان فيه امرأة تعطيه

السكن الذي يحتاج إليه . وينتهي المجتمع إلى فوضى . .
 وكان يجب على آدم أن يتنبه إلى أن إبليس يعتبره السبب في طرده من رحمة الله . فلا يقبل منه نصيحة ولا كلاما ويحتاط . . كيف أزل الشيطان آدم وزوجه؟ لقد شرح الله سبحانه وتعالى لنا هذا ولكن ليس في سورة البقرة وإنما في آية أخرى . . فقال تعالى : { فَوَسَّسَ لَّهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَّهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ }

[الأعراف : 20]

إذن فإبليس قال كاذبا أن من يأكل من هذه الشجرة يصبح ملكا . ويصبح خالدا لا يموت . .
 ووسوسة الشيطان تتم بكلام كاذب لتزيين المعصية ، والشيطان لا يهتم أي معصية ارتكبت .
 وإنما يريدك عاصيا على أي وجه . ولكن النفس عندما توسوس لك بالمعصية ، تريد شيئا بذاته .
 وهذا هو الفرق بين وسوسة الشيطان . ووسوسة النفس . فالشيطان يريدك عاصيا بأي ذنب .
 فإن امتعت في ناحية أتاك من ناحية أخرى . فقد قال لآدم : هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى « ولكن هذه المحاولة لم تفلح . فقال لهما : { مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ } وفات على آدم أنه لو كان هذا صحيحا . . لأكل إبليس من الشجرة . . ولم يطلب من الحق سبحانه وتعالى أن يمهلته إلى يوم الدين . .

ما الذي اسقط آدم في المعصية؟ إنها الغفلة أو النسيان . والحق سبحانه وتعالى يقول : { وَلَقَدْ عَاهَدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا } [طه : 115]

وهل النسيان معصية . حتى يقول الحق سبحانه وتعالى : { وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ } [طه :

[121]

نعم النسيان كان معصية في الأمم السابقة . لذلك يقول النبي صلى الله عليه وسلم « رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه »

ونسي وعصى . تؤدي معنى واحدا . .

وقوله تعالى : { قَالَ اهْبُتُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ } [

[الأعراف : 24]

هذا الهبوط هو بداية نزول الإنسان إلى الأرض ليباشر مهمته في الدنيا . ومادام الحق سبحانه وتعالى قال : { وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ } . فهي إذن حياة موقوته على قدر وقتها ، وعلى قدر حجمها . .

والذين يقولون بأنه لا بد من وجود بشر نسميه مَحَلِّصًا . ليفدي العالم بصلبه أو بغير ذلك من الخطيئة التي ارتكبتها آدم . نقول له : أنك لم تفهم عن الله شيئا ، لأن القصة هي هنا خطأ قد

حدث وصُوب . و فرّق بين الخطأ والخطيئة . فالخطأ يصوب . ولكن الخطيئة يعاقب عليها .
وآدم أخطأ وصوب الله له . وتلقى من ربه كلمات فتاب عليه . إذن لا توجد خطيئة بعد أن
علمه الله التوبة وتاب إلى الله . ثم ماذا فعل آدم . حتى نقول نخلص العالم من خطيئة آدم . إنه
أكل من الشجرة . وهل خطايا العالم كلها أكل؟! .

من الذين أوجد القتل وسفك الدماء ، والزنا والاعتصاب والنميمة والغيبة؟
لو أن كلامهم صحيح لكان لابد ألا توجد خطيئة على الأرض مادام قد وجد المخلص الذي
فدى العالم من الخطيئة . ولكن الخطيئة باقية . ومن الذي قال أن الخطيئة تورث . حتى يرث
العالم كله خطيئة آدم؟! . والله سبحانه وتعالى يقول : { وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى } .
وقول الحق سبحانه وتعالى { وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ } العداوة هنا بين الشيطان
والإنسان .

والعداوة أيضا بين شياطين الإنس والمؤمنين ، هذه العداوة التي تؤدي بنا إلى نشاط وتنبه .
فالمستشرقون يعادون الإسلام . ولكن معاداتهم هذه تعطينا نشاطا لكي نبحث ونطلع حتى نرد
عليهم . وجنود الشيطان من الإنس يعادون المؤمنين . وعداوتهم هذه تعطينا مناعة ألا نخطئ ولا
نغفل . فأنت مادام لك عدو . . فحاول أن تتفوق عليه بكل السبل .
ولعل الحضارة الإنسانية لا ترتقي بسرعة قدر ارتقائها وقت الحروب . ففيها يحاول كل خصم أن
يتغلب على خصمه . وتجند كل القوى للتفوق علميا على الدول الأخرى . هذه الارتقاءات
والاختراعات . قد تكون للتدمير والقتل . ولكن بعد أن تنتهي الحرب توجه إلى ارتقاءات
الإنسان في الأرض . فتفتتت الذرة وصلوا إليه في الحروب . والصواريخ التي وصل الإنسان بها
إلى القمر كانت نتيجة حرب ، والارتقاءات العلمية المختلفة التي تمت في أمريكا والاتحاد
السوفييتي كان أساسها عداة كل معسكر للآخر .

وقوله تعالى { اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ } . . الهبوط قد يكون من مكان أعلى إلى مكان
أسفل . وقد يكون لهبوط معنويا . بأن تقول هذا الإنسان هبط في نظري منذ فعل كذا . هو لم
يهبط من مكان أعلى إلى مكان أسفل .

ولكنه هبط في قيمته . والمسافات لا تعني قريبا أو بعدا . فقد يكون إنسان يجلس إلى جوارك
وأنت بعيد عنه لا تحس به . وقد يكون هناك إنسان بعيد عنك بمئات الأميال ولكنه قريب إلى
قلبك أكثر من ذلك الجالس إلى جوارك . وسواء كان الهبوط ماديا أو معنويا . فإنه حدث ليباشر
آدم مهمته على الأرض . . والعداوة بين الإيمان والكفر مستمرة .

وهكذا بعد معصية آدم . هبط هو وحواء من الجنة ليمارسا حياتهما على الأرض . . وقوله تعالى
« اهْبِطُوا » معناه أن آدم وحواء وإبليس هبطوا إلى الأرض بعد أن تمت التجربة الإيمانية .

لقد بين الله تعالى لآدم عملياً أن إبليس عدو له . لا يريد له الخير . وأنه كاذب في كل ما يعد به الإنسان . وقد حدد الله الحياة الدنيا بأنها حياة موقوتة . قدراتها محدودة . ومتاعها محدود . . في قوله تعالى : { وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ } .

أي لا أحد سيبقى في الأرض إلا بمقدار ما قدر الله له من عمر ثم يموت . وبهذا حذر الله آدم وذريته من أن يتخذوا من الحياة هدفاً لأن متاعها قليل ، وأمدتها قصير .

فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (37)

نزل آدم وحواء إلى الأرض ليمارسا مهمتهما في الكون . وقبل أن يبدأ هذه المهمة . جعلهما الله سبحانه وتعالى يمران بتجربة عملية بالنسبة لتطبيق المنهج والنسبة لإغواء الشيطان . وحذرهما بأن الشيطان عدو لهما . . كان لا بد بعد أن وقعت المعصية أن يشرع الله تعالى التوبة رحمة بعباده . ذلك أن تشريع التوبة ليس رحمة بالعاصي وحده ، ولكنه رحمة بالمجتمع كله . فالإنسان إذا عصى وعرف أنه . . لا توبة له وأنه محكوم عليه بالخلود في النار . يتمادى في إجرامه . لأنه مادام لا أمل له في النجاة من عذاب الآخرة . فإنه يتمادى في المعصية . لأنه لا أمل في الغفران أو التوبة . .

من الذي سيعاني في هذه الحالة؟ إنه المجتمع الذي يعيش فيه ذلك العاصي . وسيكون المؤمنون أكثر الناس معاناة لأنهم أهل خير وتسامح . ولأن الله سبحانه وتعالى . . أمرهم بالعتو . والصفح . وقرأ قوله تبارك وتعالى : { وَلَا يَأْتَلِ أُولَٰئِ الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ } [النور

[22 :

وقوله تعالى : { وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَلَا تَنسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ } [البقرة : 237]
وهناك آيات كثيرة في القرآن الكريم تحث المؤمنين على العفو . ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

« أوصاني ربي بتسع أوصيكم بها : أوصاني بالإخلاص في السر وفي العلانية . والقصد في الغنى والفقر وأن أعفو عمن ظلمني ، وأعطي من حرمني ، وأصل من قطعني ، وأن يكون صمتي فكراً ونطقي ذكراً ، ونظري عبراً »

فالتوبة لو لم تشرع لعانى المجتمع كله . وخاصة المؤمنين الذي أمروا أن يقابلوا العدوان بالصفح والظلم بالعفو . ولذلك كان تشريع التوبة من الله سبحانه وتعالى . رحمة بالناس كلهم .

والله جل جلاله شرع التوبة أولاً . ثم بعد أن شرعها تاب العاصي . ثم بعد ذلك يقبل الله التوبة أو لا يقبلها تبعاً لمشيئته . وقرأ قوله تعالى : { ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ }

[التوبة : 118]

آدم تلقى من ربه كلمات فتاب عليه . أتوجد خطيئة بعد توبة آدم وقبول الله سبحانه وتعالى هذه التوبة؟ إن بعض الناس يقول أن آدم قد عصى وتاب الله عليه . وإبليس قد عصى فجعله الله خالدًا في النار . نقول : إنكم لم تفهموا ماذا فعل آدم؟ أكل من الشجرة المحرمة . وعندما علم أنه أخطأ وعصى . لم يصبر على المعصية . ولم يرد الأمر على الأمر . ولكنه قال يا رب أمرك ومنهجك حق . ولكنني لم أقدر على نفسي فسأخني .

أعترف آدم بذنبه . واعترف بضعفه . واعترف بأن المنهج حق . وطلب التوبة من الله سبحانه وتعالى . ولكن إبليس رد الأمر على الأمر . قال : { قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ } وقال { لِأَفْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ } وقال : { فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ } وقال : { لِأُحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا } فإبليس هنا رد الأمر على الأمر .

لم يعترف بذنبه . ويقول يا رب غلبني ضعفي . وأنت الحق وقولك الحق . ولكنه رد الأمر على الله تعالى وعاند وقال سأفعل كذا وسأفعل كذا . وهذا كفر بالله . إياك أن ترد الأمر على الله سبحانه وتعالى . فإذا كنت لا تصلي . فلا تقل وما فائدة الصلاة . وإذا لم تكن تزكي . فلا تقل تشريع الزكاة ظلم للقادريين . وإذا كنت لا تطبق شرع الله . فلا تقل أن هذه الشريعة لم تعد تناسب العصر الحديث . فإنك بذلك تكون قد كفرت والعياذ بالله . ولكن قل يا ربي إن فرض الصلاة حق . وفرض الزكاة حق . وتطبيق الشريعة حق . ولكنني لا أقدر على نفسي . فارحم ضعفي يا رب العالمين . إن فعلت ذلك . تكن عاصيا فقط . إن الفرق بين معصية آدم ومعصية إبليس . أن آدم اعترف بمعصيته وذنبه . ولكن إبليس رد الأمر على الأمر . فيكون آدم قد عصى ، وإبليس قد كفر والعياذ بالله .

ويقول الحق سبحانه وتعالى : { فَتَلَقَىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ } هذه الكلمات التي تلقاها آدم . أراد العلماء أن يحصروها . ما هذه الكلمات؟ هل هي قول آدم كما جاء في قوله تعالى : { قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ } [الأعراف :

[23

هذه الآية الكريمة . دلتنا على أن ذنب آدم لم يكن من ذنوب الاستكبار . ولكن من ذنوب الغفلة . . بينما كان ذنب إبليس من ذنوب الاستكبار على أمر الله . ولكن آدم عندما عصى حدث منه انكسار .

فقال : يا ربي أمرك بألا أقرب الشجرة حق . ولكنني لم أقدر على نفسي . فآدم أقر بحق الله في التشريع . بينما إبليس اعترض على هذا الأمر وقال :

{ أَسْجُدْ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا }

الكلمات التي تلقاها آدم من الله سبحانه وتعالى قد تكون : { رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا

وَتَرَحَّمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ } وقد تكون : . . اللهم لا إله إلا أنت سبحانك ربي وبحمدك .
إني ظلمت نفسي ظلما كثيرا فاغفر لي يا خير الغافرين . . أو اقبل توبتي يا خير التوابين . . أو
قال : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله . . المهم أن الله سبحانه وتعالى قد أوحى لآدم
بكلمات يتقرب بها إليه . سواء كانت هذه الآية الكريمة أو كلمات أخرى .
لو نظرنا إلى تعليم الله آدم لكلمات ليتوب عليه . لوجدنا مبدأ مهما في حياة المجتمع . لأن الله
سبحانه وتعالى كما قلنا . . لو لم يشرع التوبة ولو لم يبشرنا بأنه سيقبلها . لكان الذي يذنب ذنبا
واحدا لا يرجع عن المعصية أبدا . وكان العالم كله سيعاني .

والله سبحانه وتعالى خلقنا مختارين ولم يخلقنا مقهورين . القهر يثبت صفة القدرة لله ، ولكن الله
سبحانه وتعالى يريد منا أن نأتي عن حب وليس عن قهر . ولذلك خلقنا مختارين . وجعل لنا
طاقة تستطيع أن تعصي وأن تطيع . ومادام هناك اختيار . . فالإنسان يختار هذه أو تلك . .
إن الله لم يخلق بشرا يختارون الخير على طول الخط . وبشرا يختارون الشر في كل وقت . فهناك
من الخيرين من يقع في الشر مرة ، وهناك من الشريرين من يعمل الخير مرة . فالعبد ليس مخلوقا
أن يختار خيرا مطلقا . أو أن يختار شرا مطلقا . . ولذلك فأحيانا ننسى أو نسهو . أو نعصي .
ومادام العبد معرضا للخطيئة . فالله سبحانه وتعالى شرع التوبة . حتى لا يبأس العبد من رحمة الله
، ويتوب ليرجع إلى الله . وقد جاء في الحكمة : « رب معصية أورثت ذلا وانكسارا . خير من
طاعة أورثت عزا واستكبارا » .

وهكذا عندما نزل آدم ليباشر مهمته في الحياة . لم يكن يحمل أي خطيئة على كتفيه . . فقد
أخطأ وعلمه الله تعالى كلمات التوبة . فتاب فتقبل الله توبته . .
وقوله سبحانه وتعالى : { إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ } . . كلمة تواب تدل على أن الله تعالى لا يأخذ
عباده بذنب واحد . لأنه سبحانه وتعالى حتى لو تاب عن ذنب واحد لكل عبد من عباده كان
توابا . والمبالغة في الصفة تأتي من ناحيتين . أولا أن الأمر يتكرر عدة مرات من عدد قليل من
الأشخاص . أو من شخص واحد . أو أن الأمر يقع مرة واحدة ولكن من أشخاص كثيرين . .
فإذا قلت مثلا : فلان أكل ، قد يكون أكلوا لأنه يأكل كمية كبيرة من الطعام . فيسمى أكلوا
، . إنه لا يتجاوز طعامه في عدد مراته وجبات الطعام العادي للإنسان . ولكنه يأكل كمية كبيرة
، فنسميه أكلوا . فيأكل مثلا عشرة أرغفة في الإفطار ومثلها في الغداء ومثلها في العشاء .
وقد يكون الإنسان أكلوا إذا تكرر الفعل نفسه . . كأن يأكل كميات الطعام العادية ولكنه يأكل
في اليوم خمس عشرة مرة مثلا . . فالله سبحانه وتعالى تواب لأن خلقه كثيرون . فلو اخطأ كل
واحد منهم مرة . يكون عدد ذنوبهم التي سيتوب الله عليها كمية هائلة . فإذا وجد من يذنب

عدة مرات في اليوم . فإن الله تعالى . يكون توابا عنه أيضا إذا تاب واتجه إليه . .
إذن مرة تأتي المبالغة . في الحدث وإن كان الذي يقوم به شخص واحد . ومرة تأتي المبالغة في
الحدث لأن من يقوم به أفراد متعددون . .
إذن فآدم أذنب ذنبا واحدا . يقتضي أن يكون الله تائبا . ولكن ذرية آدم من بعده سيكونون
خلقا كثيرا . . فتأتي المبالغة من ناحية العدد . .
وقوله تعالى : { إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ } سيدنا عمر جاءته امرأة تصيح وتصرخ لأن ابنها ضبط
سارقا .

وقالت لعمر ما سرق ابني إلا هذه المرة . فقال لها عمر : الله أرحم بعبده من أن يأخذه من أول
مرة . لا بد أنه سرق من قبل . .
وأنا أتحدى أن يوجد مجرم يضبط من أول مرة .
كلمة تواب تدل على أنه يضبط بعد مرتين أو ثلاث ، فالله يستر عبده مرة ومرة . ولكن إذا
ازداد وتمادى في المعصية . يوقفه الله عند حده . وهذا هو معنى تواب .
والحق سبحانه وتعالى . تواب برحمته . . لأن هناك من يعفو ويظل يمن عليك بالعفو . حتى أن
المعفو عنه يقول : ليتك عاقبتني ولم تمن علي بالعفو كل ساعة . لكن الحق سبحانه وتعالى .
تواب رحيم . يتوب على العبد . ويرحمه فيمحو عنه ذنوبه .

قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ
(38)

يقول الحق سبحانه وتعالى في هذه الآية : { قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا } وفي سورة طه يقول جل
جلاله { قَالَ اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا } عندما خاطب الله سبحانه وتعالى بصورة الجمع . كان الخطاب
لكل ذرية آدم المطمورة في ظهره . أمراً لهم جميعاً بالهبوط . آدم وحواء والذرية . لأن كل واحد
منا . إلى أن تقوم الساعة فيه جزيء من آدم . ولذلك لا بد أن نلنفت إلى قول الحق تبارك وتعالى
: { وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ } [الأعراف : 11]
نلاحظ هنا أن الخطاب بصيغة الجمع ، فلم يقل الحق سبحانه وتعالى . لقد خلقتك ثم صورتك ثم
قلت للملائكة اسجدوا لآدم ، فكأن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا إلى أنه ساعة الخلق كان
كل ذرية آدم مطمورين في ظهره . خلقهم جميعاً ثم صورهم جميعاً . ثم طلب من الملائكة السجود
لآدم . فهل نحن كنا موجودين؟ نعم كنا موجودين في آدم . ولذلك فإن الحق سبحانه وتعالى يقول
: « اهبطوا » لنعرف أن هذا الخطاب موجه إلى آدم وذريته جميعاً إلى يوم القيامة .
ومرة يقول { اهبطوا مِنْهَا جَمِيعًا } لأن هنا بداية تحمل المسؤولية بالنسبة لآدم . في هذه اللحظة

وهي لحظة الهبوط في الأرض . سيبدأ منهج الله مهمته في الحياة . ومادام هناك منهج وتطبيق فردي . تكون المسئولية فردية . ولا يأتي الجمع هنا .
فالحق سبحانه وتعالى يقول : { اهبطا مِنْهَا جَمِيعاً } نلاحظ أن أمر الهبوط هنا بالمتنى . ثم يقول تبارك وتعالى جميعا . . جمع . . نقول أنه مادامت بداية التكليف . فهناك طرفان سيواجه بعضهما البعض . الطرف الأول . هو آدم وزوجه . والطرف الثاني هو إبليس . فهم ثلاثة ولكنهم في معركة الإيمان . فريقان فقط . آدم وحواء وذريتهما فريق . والشيطان فريق آخر . فكأن الله تعالى يريد أن يلفتنا إلى أن هذا الهبوط يتعلق بالمنهج وتطبيقه في الأرض . وفي المنهج آدم وحواء حريصان على الطاعة . وإبليس حريص على أن يقودهما إلى المعصية .
وفي قوله تعالى : { فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى } نلاحظ أن الله سبحانه وتعالى بعد أن مر آدم بالتجربة ووقع في المعصية ، علمه الله تعالى كلمات التوبة . ونصحه أنه إذا غفل يتوب . والله سبحانه وتعالى . . سيقبل توبته . .

إذن فالحق سبحانه وتعالى يريد من آدم وحواء أن يسكنوا الأرض . ويبدأ مهمتهما في الحياة . والله يدهما على الخير . مصداقا لقوله تعالى : { فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى } . . وهدى لها معنيان . . هي بمعنى الدلالة على الخير . أو الدلالة على الطريق الموصلة للخير . وهناك هدى وهو الإعانة على الإيمان والزيادة فيه . وقرأ قوله تعالى : { والذين اهتدوا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ } [محمد : 17]

الهدى هنا في الآية الكريمة . . بمعنى الدلالة على طريق الخير . ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى : { فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ } .

ما هو الخوف وما هو الحزن؟ الخوف أن تتوقع شرا مقبلا لا قدرة لك على دفعه فتخاف منه . . والحزن أن يفوتك شيء تحبه وتتمناه .

والحق سبحانه وتعالى يقول في هذه الآية : من مشى في طريق الإيمان الذي دللته عليه . وأنزلته في منهجي . فلا خوف عليهم . أي أنه لا خير سيفوتهم فيحزنوا عليه . لأن كل الخير في منهج الله . فالذي يتبع المنهج لا يخاف حدوث شيء أبدا .

وهذه تعطينا قضية مهمة في المجتمع . الذي لم يرتكب أية مخالفة . . هل يناله خوف؟ أبدا . . ولكن من يرتكب مخالفة تجده دائما خائفا خشية أن ينكشف أمره . . ويفاجأ بشر لا قدرة له على دفعه .

إن الإنسان المستقيم لا يعيش الخوف . لأن الخوف أمران . إما ذنب أنا سبب فيه . والساثر على الطريق المستقيم لم يفعل شيئا يخاف انكشافه . وإما أمر لا دخل لي فيه . يجربه على خالقي . وهذا لا بد أن يكون لحكمة . قد أدركها . وقد لا أدركها ولكنني أتقبلها . فالذي يتبع هدى الله

. لا يخاف ولا يحزن . لأنه لم يذنب . ولم يخرق قانونا . ولم يغش بشرا . أو يخفي جريمة . فلا يخاف شيئا ، ولو قابله حدث مفاجئ ، فقلبه مطمئن . والذين يتبعون الله . لا يخافون . ولا يخاف عليهم . . وقوله تعالى : { وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ } لأن الذي يعيش طائعا لمنهج الله . . ليس هناك شيء يجعله يحزن . ذلك أن إرادته في هذه الحالة تخضع لإرادة خالقه . فكل ما يحدث له من الله هو خير . حتى ولو كان يبدو على السطح غير ذلك . ملكاته منسجمة وهو في سلام مع الكون ومع نفسه . والكون لا يسمع منه إلا التسييح والطاعة والصلاة . وكلها رحمة . فهو في سلام مع نفسه . وفي سلام مع ربه . وفي سلام مع المجتمع . إن المجتمع دائما يسعد بالإنسان المؤمن الذي لا يفسد في الأرض . بل يفعل كل خير . فالمؤمن نعمة جمال تشع في الكون . ونعمة حسن ورضا مع كل الناس ومادام الإنسان كذلك . فلن يفقد ما يسره أبدا . فإن أصابته أحداث . . أجراها الله عليه . . لا يقابلها إلا بالشكر . وإن كان لا يعرف حكمتها . . وإياك أن تعترض على الله في حكم . ولذلك يقول : أحمده ربي على كل قضائك وجميع قدرك . حمد الرضا بحكمك واليقين بحكمتك . .

والإنسان ينفعل للأحداث . ولكن هناك فرق بين الانفعال للأحداث وحدها وبين الانفعال للأحداث مع حكمة مجريها . ولذلك فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلمنا الدقة حينما قال : « إن العين تدمع والقلب يحزن ولا نقول إلا ما يرضي ربنا وإنا بفراقك يا إبراهيم لحزونون »

انظر إلى الإيمان وهو يستقبل الأحداث . . العين تدمع . ولا يكون القلب قاسيا مثل الحجر ، لكن فيه حنان . والقلب يخشع لله . مقدرًا حكمته وإرادته . . والله سبحانه وتعالى لا يريدنا أن نستقبل الأحداث بالحزن وحده . ولكن بالحزن مع الإيمان . فالله لا يمنعك أن تحزن . ولكن عليك ألا تفصل الحدث عن مجريه وحكمته فيه . . ولذلك حين تذهب إلى طبيب العظام . . فيكسر لك عظامك لكي يصلحها . هل يفعل لك خيرا أو شرا؟ طبعًا يفعل لك خيرا . وإن كان ذلك يؤلمك .

وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (39)

الحق سبحانه وتعالى بعد أن أعلمنا أن آدم حين يهبط إلى الأرض سيتلقى من الله منهجا لحركة حياته . من اتبعه خرج من حياته الخوف والحزن . وأصبح آمنا في الدنيا والآخرة . أراد الله تعالى أن يعطينا الصورة المقابلة . فالحكم في الآية السابقة كان عن الذين اهتدوا . والحكم في هذه الآية عن الذين كفروا . يقول الحق تبارك وتعالى . . { وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا } والكفر كما بينا هو محاولة ستر وجود الله واجب الوجود . ومحاولة ستر هذا الوجود هو إعلان بأن الله تعالى

موجود . فأنت لا تحاول أن تستر شيئاً إلا إذا كان له وجود أولاً . .

إن الشيء الذي لا وجود له لا يحتاج إلى ستر؛ لأنه ليس موجوداً في عقولنا . وعقولنا لا تفهم ولا تسع إلا ما هو موجود . توجد الصورة الذهنية أولاً . . ثم بعد ذلك يوجد الاسم أو الصورة الكلامية . ولذلك إذا حدثك إنسان عن شيء ليس له وجود فأنت لا تفهمه . ولا تستطيع أن تعيه إلا إذا شبه لك بموجود . كأن يقال لك : مثل هذا الجبل أو مثل هذه البحيرة . أو مثل قرص الشمس أو غير ذلك حتى تستطيع أن تفهم . فأنت لا تفهم غير موجود إلا إذا شبه بموجود .

وكل شيء لا بد أن يكون قد وجد أولاً . ثم بعد ذلك تجتمع مجامع اللغة في العالم لتبحث عن لفظ يعبر عنه بعد أن وجد في الصورة الذهنية . فلم يكن هناك اسم للصاروخ مثلاً قبل أن يوجد الصاروخ . ولا لسفينة الفضاء قبل أن تخترع . ولا لأشعة الليزر قبل أن تكتشف . إذن فكل هذا وجد أولاً . ووضع له الاسم بعد ذلك .

الذين كفروا يحاولون ستر وجود الله . وستر وجود الله سبحانه وتعالى هو إثبات لوجوده . لأنك لا تستر شيئاً غير موجود . وهكذا يكون الكفر مثبتاً للإيمان . وعقلك لا يستطيع أن يفهم الاسم إلا إذا وجد المعنى في عقلك . وأنت لا تجد لغة من لغات العالم . ليس فيها اسم الله سبحانه وتعالى . بل إن الله جل جلاله وهو غيب عنا إذا ذكر اسمه فهمة الصغير والكبير . والجاهل والعالم . والذي طاف الدنيا . والذي لم يخرج من بيته . كل هؤلاء يفهمون الله بفطرة الإيمان التي وضعها في قلوبنا جميعاً .

إذن الذين كفروا يحاولون ستر وجود الله سبحانه وتعالى . . وقوله تعالى : { وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا } والآية هي الشيء العجيب اللافت . فهناك في الكون آيات كونية مثل الشمس والقمر والنجوم والأرض . والجبال والبحار وغير ذلك . هذه تسمى آيات . شيء فوق قدرة البشر خلقها الله سبحانه وتعالى لتكون آية في كونه وتخدم الإنسان .

وهناك الآيات وهي المعجزات . عندما يرسل الله رسولا أو نبيا إلى قومه فإنه سبحانه يحرق له قوانين الكون ليثبت لقومه أنه نبي مرسل من عند الله سبحانه وتعالى .

وهذه الآيات مقصود بها من شاهدها . لأنها تأتي لتثبيت المؤمنين بالرسول . وهم يمرون بأزمة يحتاجون فيها إلى التثبيت . ودلالة على صدق رسالة النبي لقومه . . وتطلق الآيات على آيات القرآن الكريم . كلام الله المعجز الذي وضع فيه سبحانه وتعالى ما يثبت صدق الرسالة . إلى يوم الدين .

يحدثنا الله سبحانه في آياته . عن كيفية خلق الإنسان . وعن منهج السماء للأرض وغير ذلك . والذين كذبوا بآيات الله . هم الكافرون . وهم المشركون . وهم الذين يرفضون الإسلام .

ويجربون الدين . هؤلاء جميعا . حدد لنا الله تعالى مصيرهم . ولكن هل التكذيب عدم قدرة على الفهم؟ نقول أحيانا يكون التكذيب متعمدا مثلما حدث لآل فرعون عندما أصابهم الله بآفات وأمراض وبالعذاب الأصغر حتى يؤمنوا . ولكنهم رغم يقينهم بأن هذه الآيات من الله سبحانه وتعالى . لم يعترفوا بها . . ويقول الحق جل جلاله . { وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا } [النمل : 14]

والآيات في الكون كثيرة . لو أننا التفتنا إليها لآمنا . فهي ليست محتاجة إلى فكر . بل إن الله تعالى ، رحمة بنا جعلها ظاهرة . ليدركها الناس . كل الناس . ولكن البعض رغم ذلك يكذب بآيات الله . وهؤلاء هم الذين يريدون أن يتبعوا هوى النفس . والحق سبحانه وتعالى جمع الكافرين والمكذبين بآيات الله في عقاب واحد . . وقال جل جلاله : { أولئك أصحاب النار } والصاحب هو الذي يألف صاحبه . ويجب أن يجلس معه . ويقضي أجمل أوقاته . فكان قوله تعالى : أصحاب النار . دليل على عشق النار لهم . فهي تفرح بهم ، عندما يدخلونها . كما يفرح الصديق بصديقه . ولا تريد أن تفارقهم أبدا . . ولذلك اقرأ الحق سبحانه وتعالى : { يَوْمَ نَقُولُ لِحَبِيبِهِمْ هَلْ أَتَيْنَا بِكُفْرٍ كَبِيرٍ وَنَقُولُ هَلْ مِنْكُمْ شَيْءٌ يَسْتَفِيدُونَ } [ق : 30]

وهكذا نرى مدى العشق ، بين النار والكافرين . إن النار تصاحبهم في كل مكان . وهي ليست مصاحبة كريهة بالنسبة للنار . ولكنها مصاحبة تحبها النار . فالنار حين تحرق كل كافر وآثم ومنافق تكون سعيدة . لأنها تعاقب الذين كفروا بمنهج الله وكذبوا بآياته في الحياة الدنيا . . وكذلك الحال بالنسبة للجنة . فإن الجنة أيضا تحب مصاحبة كل من آمن بالله وأخلص له العبادة وطبق منهجه . . وقرأ قوله تعالى : { إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } [هود : 23]

أي أن الجنة تصاحب المؤمنين . وتحبهم وتلازمهم . مثلما تصاحب النار الكافرين والمكذبين . . وكما أن النار تكون سعيدة وهي تحرق الكافر . فالجنة تكون سعيدة وهي تمتع المؤمن . . ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : { هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } أي أن العذاب فيها دائم . لا يتغير ولا يفتر . ولا يخفف . بل هو مستمر إلى الأبد . . وقرأ قوله سبحانه وتعالى : { أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ }

[البقرة : 86]

وهكذا نعرف أن الله سبحانه وتعالى قد أنزل المنهج إلى الأرض مع آدم ، وأن آدم . نزل إلى الأرض ومعه الهدى ليطبق أول منهج للسماء على الأرض . فكان الله سبحانه وتعالى لم يترك الإنسان لحظة واحدة على الأرض دون أن يعطيه المنهج الذي يبين له طريق الهدى وطريق الضلال . ومع المنهج شرعت التوبة . وشرع قبول التوبة حتى لا ييأس الإنسان . ولا يحس أنه

إذا أخطأ أو نسي أصبح مصيره جهنم . بل يحس أن أبواب السماء مفتوحة له دائما . وأن الله الذي خلقه رحيم به . إذا أخطأ فتح له أبواب التوبة وغفر له ذنوبه . حتى يحس كل إنسان برعاية الله سبحانه وتعالى له هو على الأرض . من أول بداية الحياة . فالمنهج موجود لمن يريد أن يؤمن . والتوبة قائمة لكل من يخطئ . وحذر الله سبحانه وتعالى آدم وذريته أنه من يطع ويؤمن يعيش الحياة الطيبة في الدنيا والآخرة . ومن يكفر ويكذب . فإن مصيره عذاب أبدي . لقد عرف الله آدم بعدوه إبليس . وطلب منه أن يحذره . فماذا فعل بنو آدم؟ هل استقبلوا منهج الله بالطاعة أو بالمعصية؟ وهل تمسكوا بتعاليم الله . أو تركوها وراء ظهورهم؟

يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ
(40)

بعد أن قص الله علينا قصة الخلق وكيف بدأت بآدم ، وعداوة إبليس لآدم وسببها . قص علينا التجربة الأولى للمنهج في إحدى الجنات ، وكيف أن آدم تعرض للتجربة فأغواه الشيطان وعصى . ثم نزل إلى الأرض مسلحا بمنهج الله . ومحميا بالتوبة من أن يطغى . بدأت مهمة آدم على الأرض .

إن الحق سبحانه وتعالى أراد أن يعرض علينا موكب الرسالات وكيف استقبل بنو آدم منهج الله بالكفر والعصيان . فاختار جل جلاله قصة بني إسرائيل لأنها أكثر القصص معجزات ، وأنبياء بني إسرائيل من أكثر الأنبياء الذين أرسلوا لأمة واحدة وليس معنى هذا أنهم مفضلون . ولكن لأنهم كانوا أكثر الأمم عصيانا وآثاما فكانوا أكثرهم أنبياء . كانوا كلما خرجوا من معجزة انحرفوا . فتأتيهم معجزة أخرى . فينحرفون . وهكذا حكم الله عليهم لظلمهم أن يتفرقوا في الأرض ثم يتجمعوا مرة أخرى في مكان واحد . ليدوقوا العذاب والنكال جزاء لهم على معصيتهم وكفرهم . ولذلك أخذت قصة بني إسرائيل ذلك الحجم الضخم في كتاب الله . وفي تثبيت رسول الله صلى الله عليه وسلم . فموسى عليه السلام الذي أرسله الله إلى بني إسرائيل من أولي العزم من الرسل . ولذلك فإنك تجد فيه تربية أولا . وتربية ثانيا . . ولا بد أن نلتفت إلى قول الحق سبحانه وتعالى : يا بني إسرائيل « فالحق جل جلاله . حين يريد أن ينادي البشر جميعا يقول : { يا بني ءآدم }

واقرا قوله تعالى : { يا بني ءآدم خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ } [الأعراف : 31]

وقوله سبحانه : { يا بني ءآدم لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ } [الأعراف : 27]

لماذا يخاطبنا الله تعالى بقوله : يا بني آدم؟ لأنه يريد أن يذكرنا بنعمة علينا منذ بداية الخلق . لأن هذه النعم تخص آدم وذريته . فالله تعالى خلق آدم بيديه . وأمر الملائكة أن تسجد له . وأعد له كونا مليئا بكل ما يضمن استمرار حياته . ليس بالضروريات فقط . ولكن بالكماليات . ثم دربه

الحق على ما سيتعرض له من إغواء الشيطان . وأفهمه أن الشيطان عدو له . ثم علمه كلمات التوبة . ليتوب عليه . وأمده بنعم لا تعد ولا تحصى .

فإن الله سبحانه وتعالى يريد أن يذكرنا بكل ذلك حتى نخجل من أن نرتكب معصية بعد كل هذا التكريم للإنسان . فإذا تذكرنا نعم الله علينا . . فإننا نخجل أن نقابل هذه النعم بالمعصية . وقد علمنا الله سبحانه وتعالى علما ميزنا الله تعالى فيه عن ملائكته . لذا كان يجب أن نظل شاكرين عابدين طوال حياتنا في هذه الدنيا .

لكننا نلاحظ أن الحق سبحانه وتعالى بدأ هذه الآية الكريمة بقوله : { يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ } لماذا؟ ومن هو إسرائيل؟

إسرائيل مأخوذة من كلمتين : اسر وإيل . . (اسر) يعني عبد مصطفى أو مختار . (وإيل) معناها الله في العبرانية . فيكون معنى الكلمة صفوة الله .

والاصطفاء هنا ليعقوب وليس لذريته . .

فإذا نظرنا إلى إسرائيل الذي هو يعقوب كيف أخذ هذا الاسم . نجد أنه أخذ الاسم لأنه ابتلى من الله بلاء كبيرا . استحق به أن يكون صفيًا لله . وعندما ينادي الله تعالى قوم موسى بقوله : يا بني إسرائيل . فإنه يريد أن يذكرهم بمنزلة إسرائيل عند الله . ما واجهه من بلاء . وما تحمله في حياته . فاذكروا ما وصاكم به حين حضرته الوفاة . . وقرأ قوله تبارك وتعالى : { أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتَ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ } [البقرة : 133]

ثم يأتي بعد ذلك قول يعقوب . . وقرأ قوله تعالى : { يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ } [البقرة : 132]

تلك هي الوصية التي وصى بها يعقوب بنبيه . . فيها علم وفيها عظة . علم بأن الله إله واحد . لا شريك له . وأن الدين هو الإسلام . وعظة وتذكير بأن الله اختار لهم الدين . فليحرصوا عليه حتى الموت .

ولقد جاءت هذه الوصية حين حضر يعقوب الموت . وساعة الموت يكون الإنسان صادقًا مع نفسه . وصادقًا مع ربه . وصادقًا مع ذريته . فكأنه سبحانه وتعالى حينما يقول : { يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ } يريد أن يذكرهم بإسرائيل وهو يعقوب وكيف تحمل وظل صابرا . ووصيته لهم ساعة الموت .

إن الله سبحانه وتعالى يذكر الأبناء بفضله على الآباء عليهم يتعظون أو يخجلون من المعصية تماما كما يكون هناك عبد صالح أسرف أبناؤه على أنفسهم .

فيقال لهم :

ألا تخجلون؟ أنتم أبناء فلان الرجل الصالح . لا يصح أن ترتكبوا ما يغضب الله ... { يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ }

إسرائيل هو يعقوب ابن إسحاق . وإسحاق ابن إبراهيم . وإبراهيم انجب إسحاق وإسماعيل . .
ورسولنا صلى الله عليه وسلم من ذرية إسماعيل . والله سبحانه وتعالى يقول : { يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ
اذكروا نِعْمَتِي التي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ } ولكن الله سبحانه وتعالى حين يخاطب المسلمين لا يقول
اذكروا نعمة الله . وإنما يقول : « اذكروا الله » لأن بني إسرائيل ماديون ودينيون .
فكأن الحق سبحانه وتعالى يقول لهم : مادتم ماديين ودينيين . فاذكروا نعمة الله المادية عليكم .
ولكننا نحن المسلمين أمة غير مادية .

وهناك فرق بين أن يكون الإنسان مع النعمة . وأن يكون مع المنعم . الماديون يحبون النعمة .
وغير الماديين يحبون المنعم . ويعيشون في معيته . ولذلك . فخطاب المسلمين : « اذكروا الله »
لأننا نحن مع المنعم . بينما خطابه سبحانه لبني إسرائيل : « اذكروا نعمة الله »
والحديث القدسي يقول : « أنا أهل أن أتقى فلا يجعل معي إله ، فمن اتقى أن يجعل معي إلهما
كان أهلاً أن أغفر له »

فالله سبحانه وتعالى واجب العبادة . ولو لم يخلق الجنة والنار .

. ولذلك فإن المؤمنين هم أهل الابتلاء من الله . لماذا؟ لأن الابتلاء منه نعمة . والله سبحانه
وتعالى يباهي بعباده ملائكته . ويقول : إنهم يعبدونني لذاتي . فتقول الملائكة : بل يعبدونك
لنعمتك عليهم . فيقول سبحانه لهم : سأقبضها عنهم ولا يزالون يحبوني . . ومن عبادي من
أحب دعاءهم . فأنا أبتليهم حتى يقولوا يا رب . لأن أصواتهم يحبها الله سبحانه وتعالى . ولذلك
إذا ابتلى عبداً في صحته مثلاً . وسلب منه نعمة العافية . ترى الجاهل هو الذي ينظر إلى هذا
نظرة عدم الرضا . وأما المتعمق فينظر إلى قول الله في الحديث القدسي : أن الله عز وجل يقول
يوم القيامة : « يا ابن آدم مرضت فلم تعدني قال : يا رب وكيف أعودك وأنت رب العالمين؟
قال : أما علمت أن عبدي فلانا مرض فلم تعده . أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده »
فلو فقد المؤمن نعمة العافية . . فلا ييأس فإن الله تعالى يريد أن يعيش مع المنعم . . وأنه طوال
فترة مرضه في معية الله تعالى . ولذلك حين يقول الحق تبارك وتعالى : { يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذكروا
نِعْمَتِي التي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ } معناها . إن لم تكونوا مؤمنين لذاتي . فاستحيوا أن ترتكبوا المعصية
بنعمتي التي أنعمت عليكم . ولقد جاءت النعمة هنا لأن بني إسرائيل يعبدون الله من أجل نعمه

{ اذكروا نِعْمَتِي } الذكر هو الحفظ من النسيان ، لأن روتين الحياة يجعلنا ننسى المسبب للنعم .
فالشمس تطلع كل يوم . كم منا يتذكر أنها لا تطلع إلا بإذن الله فيشكره . والمطر ينزل كل فترة

. من منا يتذكر أن المطر ينزله الله . فيشكره . فالذكر يكون باللسان وبالقلب . والله سبحانه وتعالى غيب مستور عنا . وعظمتته أنه مستور . ولكن نعم الله سبحانه تدلنا عليه . . فبالذكر يكون في بالنا دائما . وبنعمه يكون ذكره وشكره دائما .

والحق سبحانه وتعالى طلب من بني إسرائيل أن يذكروا النعمة التي أنعمها عليهم فقط . وكان يجب عليهم أن يطيعوا الله فيذكروا المنعم . لأن ذكر الله سبحانه وتعالى يجعلك في ركن ركين . لا يصل إليك مكروه ولا شر .

إن ذكر الله المنعم يعطينا حركة الحياة في كل شيء . فذكر الله يوجد في القلوب الخشوع . ويقلل من المعاصي وينتفع الناس كل الناس به ، ويجعل حركة الحياة مستقيمة . وحين يقول الحق سبحانه وتعالى : { اذْكُرُوا نِعْمَتِي } معناها اذكروني حتى بالنعمة التي أنعمت عليكم . وقوله تعالى : { وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ } العهد هو الميثاق . واقرأ قوله سبحانه وتعالى : { وَلَقَدْ عَاهَدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلِ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا } [طه : 115]

إذن فالعهد أمر موثق بين العبد وربيه . ما هو العهد الذي يريد الله من بني إسرائيل أن يوفوا به ليفي الله بعهده لهم؟

نقول : إما أن يكون عهد الفطرة . وعهد الفطرة كما قلنا أن نؤمن بالله ونشكره على نعمه . وكما قلنا إذا هبط الإنسان في مكان ليس في أحد .

ثم نام وقام فوجد مائدة حافلة بالنعم أمامه . ألا يسأل نفسه : من صنع هذا؟ لو أنه فكر قليلا لعرف أنه لا بد أن يكون لها من صانع . خصوصا أن الخلق هنا فوق قدرات البشر . فإذا أرسل الله سبحانه وتعالى رسولا يقول إن الله هو الذي خلق وأوجد . ولم يوجد مدع ولا معارض نظرا لأن إيجاد هذه النعم فوق قدرة البشر . تكون القضية محسومة لله سبحانه وتعالى .

إذن فذكر الله وشكره واجب بالفطرة السلمية ، لا يحتاج إلى تعقيدات وفلسفات . والوفاء بعهد الله أن نعبده ونشكره هو فطرة الإيمان لما أعطاه لنا من نعم . على أن الحق سبحانه وتعالى نجده

يقول : { وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ } [البقرة : 40]

وفي آية أخرى : { فاذكروني أذكركم } [البقرة : 152]

وفي آية ثالثة : { إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ } [محمد : 7]

ما هي هذه القضية التي يريد الحق سبحانه وتعالى أن يبينها إليها في هذه الآيات الكريمة؟ الله سبحانه وتعالى يريد أن نعرف أنه قد وضع في يدنا مفتاح الجنة . ففي يد كل واحد منا مفتاح الطريق الذي يقوده إلى الجنة أو إلى النار . ولذلك إذا وفيت بالعهد أوفى الله . وإذا ذكرت الله ذكرك . وإذا نصرت الله نصرك . .

والحديث القدسي يقول : « وإن تقرب إلي شبرا تقربت إليه ذراعا وإن تقرب إلي ذراعا تقربت

إليه باعا وإن أتاني يمشي أتيته هرولة »

هكذا يريد الحق سبحانه وتعالى أن ينبهنا أن المفتاح في يدنا نحن . فإذا بدأنا بالطاعة . فإن عطاء الله بلا حدود . وإذا تقربنا إلى الله تقرب إلينا . وإذا بعدنا عنه نادانا . هذا هو إيمان الفطرة . هل هذا هو العهد المقصود من الله سبحانه في قوله : { أَوْفُوا بعهدي أوفِ بعهديكم } أو هو العهد الذي أخذه الله على الأنبياء ليبلغوا أقوامهم بأنهم إذا جاء رسول مصدق لما معهم فلا بد أن يؤمنوا به وينصروه؟ فالحق سبحانه وتعالى أخذ على الأنبياء جميعا العهد لرسول الإسلام سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم . . أو هو العهد الذي أخذه الله بواسطة موسى عليه السلام على علماء بني إسرائيل الذين تلقوا التوراة ولقنوها وكتبوها وحفظوها . عهد بالأ يكتموا منها شيئا . . وقرأ قوله تعالى : { وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبَيَّنَّ مَا يَشْتَرُونَ } [آل عمران : 187]

والهدف من هذا العهد . ألا يكتموا ما ورد عن الإسلام في التوراة . وألا يخفوا صفات رسول الله صلى الله عليه وسلم التي جاءت بها . . والله سبحانه وتعالى قد أعطى صفات رسوله محمد صلى الله عليه وسلم في التوراة وفي الإنجيل . . وقرأ قوله تعالى : { وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ }

[البقرة : 89]

ولقد جاء القرآن الكريم . مصدقا لما نزل من التوراة . وعرف بنو إسرائيل أنفسهم صدق ما نزل في القرآن . ولكنهم كفروا لأن رسول الله لم يكن من قومهم . . وقد كان أهل الكتاب من توراة وإنجيل يعرفون أن رسالة رسول الله هي الرسالة الخاتمة . وأنه لا بد أن يؤمن به قوم كل نبي . هل هذا هو العهد الذي يوجب على كافة الأمم الإيمان برسالة محمد صلى الله عليه وسلم ونصرتة إن أدركوه . وإن لم يدركوه فالمسئولية على أبنائهم وأحفادهم أن ينصروه ويؤمنوا به متى أدركوه . إن كانت هي عهد إيمان الفطرة ، أو كانت هي عهد الإيمان برسول الله صلى الله عليه وسلم فكلاهما وارد .

وقوله تعالى : { أوفِ بعهديكم } أي بما وعدتكم من جنة النعيم في الآخرة . فالله سبحانه وتعالى بعد نزول الإسلام اختص برحمته الذين آمنوا بمحمد عليه الصلاة والسلام . وكل من لم يؤمن بهذا الدين لا عهد له عند الله .

وقرأ قوله تبارك وتعالى عندما أخذت الرجفة موسى وقومه وطلب موسى من الله سبحانه وتعالى الرحمة . قال تعالى : { وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُنَا وَإِلَيْكَ قَالِ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ

بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ
يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ
إَصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ
أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ { [الأعراف : 156-157]

فالحق سبحانه وتعالى يذكر بني إسرائيل في هذه الآية الكريمة . بالعهد الذي أخذه عليهم .
وينذرهم أن رحمته هي للمؤمنين برسول الله صلى الله عليه وسلم متى جاءت رسالته . .
وقوله تعالى : { وَإِيَّايَ فَارْهَبُونَ } أي أنه لا توجد قوة ولا قدرة في الكون إلا قوة الله سبحانه
وتعالى . ولذلك فاتقوا يوما ستلاقون فيه الله ويحاسبكم . وهو سبحانه وتعالى قهار جبار . ولا
نجاة من عذابه لمن لم يؤمن .

وَأَمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ
فَاتَّقُونَ (41)

بعد أن ذكّر الله سبحانه وتعالى بني إسرائيل بالعهود التي قطعوها على أنفسهم سواء بعدم التبديل
والتعديل في التوراة . لإخفاء أشياء وإضافة أشياء . وذكرهم بعهدهم بالنسبة للإيمان برسول الله
صلى الله عليه وسلم الذي ذكر الله سبحانه وتعالى أوصافه في التوراة . حتى أن الحبر اليهودي
ابن سلام كان يقول لقومه في المدينة : لقد عرفته حين رأيته كعرفتي لابني ومعرفتي لمحمد أشد .
أي أنه كان يُدكّر قومه . أن أوصاف الرسول صلى الله عليه وسلم الموجودة في التوراة . لا
تجعلهم يخطئونه . قال الحق تبارك وتعالى : { وَأَمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ } . لأن القرآن
مصدق للتوراة . والقصد هنا التوراة الحقيقية قبل أن يحرفوها . فالقرآن ليس موافقا لما معهم من
الحرف أو المبدل من التوراة . بل هو موافق للتوراة التي لا زيف فيها .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى : { وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ } . . . ولقد قلنا أن اليهود لم يكونوا أول
كافر بمحمد صلى الله عليه وسلم . وإنما كانت قريش قد كفرت به في مكة . المقصود في هذه
الآية الكريمة أول كافر به من أهل الكتاب . لماذا؟ لأن قريشا لا صلة لها بمنهج السماء . ولا
هي تعرف شيئا عن الكتب السابقة . ولكن أحبار اليهود كانوا يعرفون صدق الرسالة . وكانوا
يستفتحون برسول الله صلى الله عليه وسلم على أهل المدينة ويقولون : « جاء زمن رسول
سنؤمن به ونقتلكم قتل عاد وإرم » . ولما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم بدلا من أن
يسارعوا بالإيمان به . كانوا أول كافر به .

والله سبحانه وتعالى لم يفاجئ أهل الكتاب بمجيء محمد صلى الله عليه وسلم . وإنما نبههم إلى
ذلك في التوراة والإنجيل . ولذلك كان يجب أن يكونوا أول المؤمنين وليس أول الكافرين . لأن
الذي جاء يعرفونه . . .

وقوله تعالى : { وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا } : الحق سبحانه وتعالى حينما يتحدث عن الصفقة الإيمانية . يستخدم كلمة الشراء وكلمة البيع وكلمة التجارة . اقرأ قوله تعالى : { إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِآنَ هُمْ الْجَنَّةَ } [التوبة : 111]
وفي آية أخرى يقول : { هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ } [الصف : 10-11]
إن الحق سبحانه وتعالى . . استعمل كلمة الصفقة والشراء والبيع بعد ذلك في قوله تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ } [الجمعة : 9]

ونعلم أن التجارة هي وساطة بين المنتج والمستهلك . . المنتج يريد أن يبيع إنتاجه . والمستهلك محتاج إلى هذا الإنتاج . والربح عملية تطول فترة . . وتقصر فترة مع عملية تحرك السلعة والإقبال عليها إن كان سريعاً أو بطيئاً .

وعملية الاتجار استخدمها الله سبحانه وتعالى ليبين لنا أنها أقصر طريق إلى النفع . فالتجارة تقوم على يد الإنسان . يشتري السلعة ويبيعهها . ولكنها مع الله سيأخذ منك بعضاً من حرية نفسك . ليعطيك أخلد وأوسع منها .
وكما قلنا : لو قارنا بين الدنيا بعمرها الحدود عمر كل واحد منا كم سنة؟ خمسين . . ستين . . سبعين!! نجد أن الدنيا مهما طالت . . ستنتهي والإنسان العاقل هو الذي يضحى بالفترة الموقوتة والمنتهى ليكون له حظ في الفترة الخالدة . وبذلك تكون هذه الصفقة رابحة .
إن النعيم في الدنيا على قدر قدرات البشر . والنعيم في الآخرة على قدر قدرات الله سبحانه وتعالى . يأتي الإنسان ليقول : لماذا أضيق على نفسي في الدنيا؟ لماذا لا أمتع؟ نقول له : لا . . إن الذي ستنال من العذاب والعقاب في الآخرة لا يساوي ما أخذته من الدنيا . . إذن الصفقة خاسرة . أنت اشترت زائلاً . ودفعته ثمناً لنعيم خالد . .
والله سبحانه وتعالى يقول لليهود : { وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا } أي لا تدفعوا الآيات الإيمانية التي أعطيت لكم لتأخذوا مقابلها ثمناً قليلاً . . وعندما يأخذ الإنسان أقل مما يعطي . . فذلك قلب للصفقة . والقلب تأتي من الخسارة دائماً . .
وكأن الآية تقول : تدفعون آيات الله التي تكون منهجه المتكامل لتأخذوا عرضاً من أعراض الدنيا . قيمته قليلة ووقته قصير . هذا قلب للصفقة .
ولذلك جاء الأداء القرآني مقابلاً لهذا القلب . ففي الصفقات . . الأثمان دائماً تدفع والسلعة تؤخذ . ولكن في هذه الحالة التي نتحدث عنها الآية في قوله تعالى { وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا } قد جعلت الثمن الذي يجب أن يكون مدفوعاً جعلته مشتري وهذا هو الحمق والخطأ .

الله يقول { وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا } أي لا تقبلوا الصفقة . . الشيء الذي كان يجب أن تضحوا به لا تجعلوه ثمنا . لأنك في هذه الحالة تكون قد جعلت الثمن سلعة . مادمت ستشتري الآيات بالثمن . . فقد جعلت آيات الله ثمنا لتحصل على مكاسب دنيوية . وليتك جعلتها ثمنا غاليا . بل جعلتها ثمنا رخيصا .

لقد تنكرت لعهدك مع الله ليبقى لك مالك أو مركزك!! أما إذا ضحى الإنسان بشيء من متع الدنيا . . ليأخذ متع الآخرة الباقية . . فتكون هذه هي الصفقة الراجحة . ذلك لأن الإنسان في الدنيا ينعم على قدر تصوره للنعيم . ولكنه في الآخرة ينعم على قدر تصور الله سبحانه وتعالى في النعيم .

بعض الذين لا يريدون أن يحملوا أنفسهم على منهج الله يستعجلون مكاسب الصفقة . استعجالا أحق . إنهم يريدون المتعة حراما أو حلالا . . نقول لكل واحد منهم : إن كنت مؤمنا بالآخرة : أو غير مؤمن فالصفقة خاسرة . . لأنك في كلتا الحالتين ستعذب في النار . . فكأنك اشتريت بإيمانك ودينك متعة زائلة .

وجعلت الكفر ومعصية الله هما الثمن فقلبت الآية ، وجعلت الشيء الذي كان يجب أن يشتري بمنهج الله وهو نعيم الآخرة يباع . . ويباع بماذا؟ بنعيم زائل! وعندما يأخذ الإنسان أقل مما يعطي . . يكون هذا قلبا للصفقة .

فكأن الآية تقول : إنكم تدفعون آيات الله وما تعطيوكم من خَيْرِي الدنيا والآخرة لتأخذوا عرضا زائلا من أعراض الدنيا وثمره قليل . والثمن يكون دائما من الأعيان كالذهب والفضة وغيرها . . وهي ليست سلعة . فهب أن معك كنز قارون ذهبا . وأنت في مكان منعزل وجائع . ألا تعطي هذا الكنز لمن سيعطيك رغيفا . . حتى لا تموت من الجوع؟ ولذلك يجب ألا يكون المال غاية أو سلعة . فإن جعلته غاية يكون معك المال الكثير . . ولا تشتري به شيئا لأن المال غايتك . فيفسد المجتمع .

إن المال عبد مخلص . ولكنه سيد رديء . هو عبدك حين تنفقه . ولكن حين تخزنه وتتكالب عليه يشقيك ويمرضك . لأنك أصبحت له خادما .

والآية الكريمة . . تعطينا فكرة عن اليهود لأن محور حياتهم وحركتهم هو المال والذهب . فالله سبحانه وتعالى حرم الربا لأن المال في الربا يصبح سلعة . فالمائة تأخذ بمائة وخمسين مثلا . . وهذا يفسد المجتمع ، لأنه من المفروض أن يزيد المال بالعمل . فإذا أصبحت زيادة المال بدون عمل . فسدت حركة الحياة . وزاد الفقير فقرا . وزاد الغني غنى . وهذا ما نراه في العالم اليوم . فالدول الفقيرة تزداد فقرا لأنها تقترض المال وتتراكم عليها فوائده حتى تكون الفائدة أكثر من الدين نفسه . وكلما مر الوقت . زادت الفوائد . فيتضاعف الدين . ويستحيل التسديد .

والدول الغنية تزداد غنى ، لأنها تدفع القرض وتسترده بأضعاف قيمته .
 وإذا قال الله سبحانه وتعالى : { وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا } يجب ألا نفهم أنه يمكن شراء آيات
 الله بثمن أعلى . . لا . . لأنه مهما ارتفع الثمن وعلا سيكون قليلا . وقليلا جدا . لأنه يقابل
 آيات الله . وآيات الله لا تقدر بثمن . فالصفقة خاسرة مهما كانت قيمتها .
 وقول الحق تبارك وتعالى : { وَإِيَّاي فَاتَّقُوا } وفي الآية السابقة قال : { وَإِيَّاي فَارْهَبُوا } وهي
 وعيد . ولكن { وَإِيَّاي فَاتَّقُوا } واقع . فقوله تعالى : { وَإِيَّاي فَارْهَبُوا } هي وعيد وتحذير لما
 سيأتي في الآخرة . ولكن { وَإِيَّاي فَاتَّقُوا } يعني اتقوا صفات الجلال من الله تعالى . وصفات
 الجلال هي التي تتعلق ببطش الله وعذابه . ومن هذه الصفات الجبار والقهار والمتكبر والقادر
 والمنتقم والمذل . وغيرها من صفات الجلال .

الله سبحانه وتعالى يقول : « اتقوا الله » ويقول « اتقوا النار » كيف؟ نقول إن الله سبحانه وتعالى
 يريدنا أن نجعل بيننا وبين النار وهي أحد جنود العذاب لله سبحانه وتعالى وقاية . ويريدنا أن
 نجعل بيننا وبين عذاب النار وقاية . ويريدنا أيضا . . أن نجعل بيننا وبين صفات الجلال في الله
 وقاية . فقوله تعالى { وَإِيَّاي فَاتَّقُوا } أي اجعلوا بينكم وبين صفات الجلال في الله وقاية . حتى
 لا يصيبكم عذاب عظيم . وكيف نجعل بيننا وبين صفات الجلال في الله وقاية؟ أن تكون أعمالنا
 في الدنيا وفقا لمنهج الله سبحانه وتعالى . إذن فالتقوى مطلوبة في الدنيا . .

وَلَا تَلْبَسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (42)

بعد أن حذر الحق سبحانه وتعالى اليهود من أن يبيعوا دينهم بثمن قليل وهو المال أو النفوذ
 الدنيوي . قال تعالى : { وَلَا تَلْبَسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ } مادة تلبس . مأخوذة من اللباس الذي
 نرتديه . واللبس هو التغطية أو التعمية بأن نخفي الحق ولا نظهره . فاللباس تغليف للجسم يستره
 فلا يبين تفصيلاته . .

والحق هو القضية الثابتة المقدرة التي لا تتغير . فلنفرض أننا شهدنا شيئا يقع . ثم روى كل منا ما
 حدث . إذا كنا صادقين لن يكون حديثنا إلا مطابقا للحقيقة . ولكن إذا كان هناك من يحاول
 تغيير الحقيقة فيكون لكل منا رواية . وهكذا فالحق ثابت ولا يتغير .

في التوراة آيات لم يحرفها اليهود . . وآيات محرفة . كل الآيات التي تتعلق برسول الله صلى الله
 عليه وسلم ووصفه . . وأنه النبي الخاتم . . حرفها اليهود . والآيات التي لا تتعلق برسول الله
 صلى الله عليه وسلم لم يحرفوها . . فكأنهم خلطوا الحق بالباطل . . ما الذي جعلهم يدخلون
 الباطل ويحاولون إخفاء الحقائق؟ المصلحة الأولى : ليشتروا بآيات الله ثمنا قليلا . . والباطل هو
 ما لا واقع له . ولذلك فإن أبواب الباطل متعددة .

وباب الحق واحد . فالله سبحانه وتعالى يريد أن يبلغنا أن اليهود قد وضعوا في التوراة باطلا لم

يأمر به الله . وكنتموا الحقيقة عن رسالة محمد صلى الله عليه وسلم . ولكن هل فعلوا ذلك عن طريق الخطأ أو السهو أو النسيان؟ لا بل فعلوه وهم يعلمون . تأتي مثلا إلى قول الحق تبارك وتعالى لليهود : { وادخلوا الباب سُجَّداً وَقُولُوا حِطَّةً نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْحَسَنِينَ } [البقرة : 58]

وحطة أي حط عنا يا رب ذنوبنا . يأتي اليهود ويغيرون قول الله . فبدلا من أن يقولوا حطة . يقولوا حنطة . من يسمع هذا اللفظ قد لا يتنبه ويعتقد أنهم قالوا ما أمرهم الله به . مع أن الواقع أنهم حرفوه . ولذلك عندما كانوا يأتون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا يقولون : راعنا ليا بالسننهم . وكان المفروض أن يقولوا راعينا . . ولكنهم قالوا راعنا من الرعونة . . والله تعالى نبه المؤمنين برسوله صلى الله عليه وسلم ألا يقولوا مثلهم . فقال جل جلاله : { لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا } .

أي تركوا هذه الكلمة نهائيا ، هذا لبس الحق بالباطل . إذن فاليهود ألبسوا الحق بالباطل . والإنسان لا يلبس الحق بالباطل . . إلا إذا كان لا يستطيع مواجهة الحق . لأن عدم القدرة على مواجهة الحق ضعف نَفَرٌ منه إلى الباطل ، لأن الحق يتعب صاحبه . . والإنسان لا يستطيع أن يَحْمِلَ نفسه على الحق .

وقوله تعالى : { وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ } أي أنهم يفعلون ذلك عن عمد وليس عن جهل . فقد يكتُم الإنسان حقا وهو لا يعلم أنه الحق . ولكن إذا كنت تعلمه فتلك هي النكبة لأنك تخفيه عامدا متعمدا . أو وأنتم تعلمون . قد يكون معناها أن اليهود وهم أهل الكتاب يعلمون ما سيصيبهم في الآخرة من العذاب الأليم . . بسبب إخفائهم الحق . فهم لا يجهلون ماذا سيحدث في الآخرة . ولكنهم يقدمون على عملهم مع علمهم أنه خطأ فيكون العذاب حقا .

وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ (43)

إقامة الصلاة معروفة . وهي تبدأ بالتكبير وتختتم بالتسليم . بشرائطها من عناصر القيام والركوع والسجود . ولكن الحق يقول { وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ } إما أنه يريد منهم أن ينضموا إلى موكب الإيمان الجامع لأن صلاتهم لم يكن فيها ركوع . إذن فهو يريدهم أن يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم . ولا يظنوا أن إيمانهم بموسى عليه السلام يعفيهم من أن يكونوا خاضعين لما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم . ويقولون ديننا كافينا . إنما جاء الإسلام لمن لا دين له وهم الكفار والمشركون . . فيقول لهم : { ارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ } .

إن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يلفتهم إلى أن صلاتهم لن تقبل منهم إلا أن يكون فيها ركوع . وصلاة اليهود ليس فيها ركوع . . وإن كان فيها سجود ، وفي كلتا الحالتين فإن الحق سبحانه وتعالى يلفتهم إلى ضرورة الإيمان برسول الله صلى الله عليه وسلم .

الحق سبحانه وتعالى حينما قال : { وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا } يريد أن يلفتهم إلى أن العكس هو المطلوب وأنهم كان يجب أن يشتروا الإيمان ويختاروا الصفقة الراجحة . ولن يحدث ذلك إلا إذا آمنوا بالرسول الخاتم محمد صلى الله عليه وسلم . فهذا هو الطريق الوحيد لرضا الله سبحانه وتعالى .

الله سبحانه وتعالى يريد أن يهدم تكبرهم على الدين الجديد فأمرهم بالصلاة كما يصلي المسلمون . وبالزكاة كما يزكي المسلمون . فلا يعتقدون أن إيمانهم بموسى والتوراة سيقبل منهم بعد أن جاء الرسول الجديد الذي أمروا أن يؤمنوا به . بل إن إيمانهم بموسى والتوراة . لو كانوا مؤمنين بهما حقا . . يستوجب هذا الإيمان عليهم أن يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم . لأن التوراة تأمرهم بذلك . فكأن عدم إيمانهم بمحمد صلى الله عليه وسلم كفر بالتوراة ونقض لتعاليمها .
والصلاة كما قلنا . . استحضار العبد وقفته بين يدي ربه . وحينما يقف العبد بين يدي الله . . لا بد أن يزول كل ما في نفسه من كبرياء . ويدخل بدلا منه الخشوع والخضوع والذلة لله .
والمتكبر غافل عن رؤية ربه الذي يقف أمامه . إنما عدم إيمانهم بهذا النبي . والوقوف بين يدي الله للصلاة كما يجب أن تؤدي ، وكما فرضها الله تعالى من فوق سبع سموات . إنما هو رفض للخضوع لأوامر الله .

وبعد ذلك تأتي الزكاة . لأن العبد المؤمن . لا بد أن يوجه حركة حياته إلى عمل نافع يتسع له ولمن لا يقدر على الحركة في الحياة . والله سبحانه وتعالى حينما يطالبنا بالسعي في الأرض لا يطالبنا أن يكون ذلك على قدر احتياجاتنا فقط ، بل يطالبنا أن يكون تحركنا أكثر من حاجة حياتنا . حتى يتسع هذا التحرك ليشمل حياة غير القادر على حركة الحياة . فيتسع المجتمع للجميع . ويزول منه الحقد والحسد ، وتصفى النفوس . .

أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تُلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (44)

بعد أن لفت الله أنظار اليهود . إلى أن عدم إيمانهم بالإسلام هو كفر بالتوراة . . لأن تعاليم التوراة تأمرهم أن يؤمنوا بالرسول الجديد . وقد أعطوا أوصاف رسول الله صلى الله عليه وسلم . وزمنه في التوراة . وأمروا أن يؤمنوا به . قال تبارك وتعالى : { أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ } لقد كان اليهود يبشرون بمجيء رسول جديد . ويعلمون أنهم سيؤمنون به . فلما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يكن من قومهم كفروا به . لأنهم كانوا يريدون أن تكون السطوة لهم . بأن يأتي الرسول الجديد منهم . فلما جاء من العرب . عرفوا أن سطوتهم ستزول وأن سيادتهم الاقتصادية ستنتهي . فكفروا بالرسول وبرسالته .
ولابد أن ننبه إلى أنه إذا كانت هذه الآيات قد نزلت في اليهود . فليس معناها أنها تنطبق عليهم وحدهم . بل هي تنطبق على أهل الكتاب جميعا . وغير المؤمنين . فالعبرة ليست بخصوص

الموضوع . ولكن العبرة بعموم السبب .

إن الكلام منطبق هنا حتى على المسلمين الذين يشترطون آيات الله ثمناً قليلاً وهؤلاء هم خطباء الفتنة الذين رآهم رسول الله صلى الله عليه وسلم . تقرض شفاهم بمقارض من نار . فسأل : من هؤلاء يا جبريل : فقال خطباء الفتنة . إنهم الذين يزينون لكل ظالم ظلمه . ويجعلون دين الله في خدمة أهواء البشر . وكان الأصل أن تخضع أهواء البشر لدين الله . وهؤلاء هم الذين يحاولون تحت شعار التجديد أن يجعلوا للناس حجة في أن يتحللوا من منهج الله . فهم يبررون ما يقع . ولا يتدبرون حساب الآخرة .

إن علماء الدين الذين يحملون منهج الله ليس من عملهم تبرير ما يقع من غيرهم . ومنهج الله لا يمكن أن يخضع أبداً لأهواء البشر . وعلى الذين يفعلون ذلك أن يتوبوا ويرجعوا إلى الله . ويجاولوا استدراك ما وقع منهم . لأن الرجوع إلى الحق خير من التماسي في الباطل . وقوله الحق سبحانه وتعالى : { أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ } يعطينا منهجاً آخر من مناهج الدعاة . لأن الذي يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويحمل منهج الله . . يريد أن يخرج من لا يؤمن من حركة الباطل التي ألفها . وإخراج غير المؤمن من حركة الباطل أمر شاق على نفسه . لأنه خروج عن الذي اعتاده . ويُعد عما ألفه . واعتراف أنه كان على باطل لذلك فهو يكون مفتوح العينين على من بين له طريق الإيمان ليرى هل يطبق ذلك على نفسه أم لا؟ أيطبق الناهي عن المنكر ما يقوله؟ فإذا طبقه عرف أنه صادق في الدعوة . وإذا لم يطبقه كان ذلك عذراً ليعود إلى الباطل الذي كان يسيطر على حركة حياته . إن الدين كلمة تقال . وسلوك يفعل .

فإذا انفصلت الكلمة عن السلوك ضاعت الدعوة . فالله سبحانه وتعالى يقول : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ } [الصف : 2-3] لماذا . . ؟ لأن من يراك تفعل ما تنهاه عنه يعرف أنك مخادع وغشاش . وما لم ترتضه أنت كسلوك لنفسك . لا يمكن أن تبشر به غيرك . لذلك نقرأ في القرآن الكريم : { لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً } [الأحزاب : 21] فمنهج الدين وحده لا يكفي . . إلا بالتطبيق . ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يأمر أصحابه بأمر إلا كان أسبقهم إليه ، فكان المسلمون يأخذون عنه القدوة قولاً وعملاً ، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه . حين يريد أن يقنن أمراً في الإسلام يأتي بأهله وأقاربه ويقول لهم : لقد بدا لي أن أمر بكذا وكذا ، والذي نفسي بيده من خالف منكم لأجعلنه نكالا للمسلمين . وكان عمر بن الخطاب بهذا يقفل أبواب الفتنة ، لأنه يعلم من أين تأتي . .

وفي الدعوة الإسلامية . . لا بد أن يكون العلماء قدوة لينصالح أمر الناس . ففي كل علوم الدنيا

القدوة ليست مطلوبة . إلا في الدين . فأنت إذا ذُكِرَ لك عالم كيمياء بارع . وقيل لك أنه يتناول الخمر . أو يفعل كذا . تقول مالي وسلوكه . أنا آخذ عنه علم الكيمياء لأنه بارع في ذلك . ولكن لا شأن لي بسلوكه . وكذلك كل علماء الأرض . ما عدا عالم الدين . فإذا كان هناك عالم يبصرك بالطريق المستقيم . وتتلقى عنه علوم دينك ثم بعد ذلك تعرف أنه يشرب الخمر أو يسرق . أتستمع له؟ أبدا . أنه يهبط من نظرك في الحال . ولا تحب أن تسمعه . ولا تجلس في مجلسه . مهما كان علمه . فستقول له كفاك دجلا . .

وهكذا فإن عالم الدين لا بد أن يكون قدوة . فلا ينهى عن منكر ويفعله . أو يأمر بمعروف وهو لا ينفذه . فالناس كلهم مفتحة أعينهم لما يصنع . والإسلام قبل أن ينتشر بالمنهج العلمي . . انتشر بالمنهج السلوكي . وأكبر عدد من المسلمين اعتنق هذا الدين من أسوة سلوكية قادت إليه . فالذين نشروا الإسلام في الصين . . كان أغلبهم من التجار الذين تخلقوا بأخلاق الإسلام .

فجذبوا حولهم الكثيرين . فاعتنقوا الإسلام . ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : { وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ } [فصلت : 33]
فالشرط الأول هو الدعوة إلى الله . والشرط الثاني العمل الصالح . وقوله { إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ } لم ينسب الفضل لنفسه أو لذاته . ولكنه نسب الفضل إلى الإسلام .

ولكن قولوا لي : أي فائدة أن نقول أننا مسلمون ونعمل بعمل غير المسلمين؟ إذن فقوله تعالى : { أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ } يذكر الله بأن اليهود يقولون ما لا يفعلون . ولو كانوا يؤمنون حقا بالتوراة لآمنوا برسول الله صلى الله عليه وسلم وبالإسلام . لأن ذلك أمر في التوراة . ولكنهم نسوا أنفسهم . فهم أول مخالف للتوراة . لأنهم لم يتبعوها . . وهم يتلون كتابهم الذي يأمرهم بالإيمان الجديد .

ومع أنهم متأكدون من صدق رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم . إلا أنهم لا يؤمنون . ولو كان عندهم ذرة من العقل لآمنوا بما يطلبه منهم كتابهم الذي يتلونه . ولكنهم لا يفكرون بعقوبتهم ، وإنما يريدون علوا في الأرض . والآية كما قلنا لا تنطبق على اليهود وحدهم . بل على كل من يسلك هذا السلوك . .

وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ (45)

بعد أن بين الحق سبحانه وتعالى أن الإيمان قدوة . وبعد أن لفتنا إلى أن التوراة تطالب اليهود . بأن يؤمنوا بمحمد عليه الصلاة والسلام . يطلب الله سبحانه وتعالى الاستعانة بالصبر والصلاة . ومعنى الاستعانة بالصبر أن هناك أحداثا شاقة ستقع . وأن المسألة لن تكون سهلة . بل تحتاج إلى جهد . فالصبر معناه حمل النفس على أمر صعب . وهم ماداموا قد تعودوا على شراء آيات الله بثمن قليل . . لأنهم قبلوا الصفقة . فجعلوا آيات الله ثمنا لمتع الدنيا . واشتروا بها متعهم

وملذاتهم . وبعد أن تعودوا على الربا وغيره من وسائل الكسب الحرام . لابد أن يستعينوا بالصبر إذا أرادوا العودة إلى طريق الإيمان .

وكما قلنا فإن المسألة ليست بخصوصية الموضوع ولكن بعموم السبب . فإنها موجهة للجميع . فكل مؤمن يدخل منهج الإيمان محتاج إلى الاستعانة بالصبر ليحمل نفسه على مشقة المنهج وتكاليفه . وليمنع نفسه عن الشهوات التي حرمها الله سبحانه وتعالى .

والصبر في الآية الكريمة فسره بعض العلماء بأنه الصيام ، فكأن الله تعالى يأمرهم أن يجوعوا ويصبروا على ألم الجوع . ومشقة الإيمان والصلاة كما قلنا خشوع وخضوع وذلة لله . . . تنهي استكبارهم بأن يؤمنوا بدين لم ينزل على أحد من أحرار اليهود . والحق سبحانه وتعالى يقول : { وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ } .

ويطلب الحق في قوله : { واستعينوا بالصبر والصلاة } الاستعانة بشيئين هما الصبر والصلاة . وكان سياق الآية يقتضي أن يقال : « وأتھما » لكن القرآن قال : { وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ } فهل المقصود واحدة منهما . الصلاة فقط . أم الصبر؟

نقول إنه عندما يأتي أمران منضمان إلى بعضهما لا تستقيم الأمور إلا بهما معا . . يكونان علاجاً واحداً . . . وقرأ قوله تعالى : { يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيَرْضَوْكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ } [التوبة : 62]

فقال يرضوه ولم يقل يرضوها . التفسير السابق نفسه نفهمه : ليس لله حق ولرسوله حق . ولكن الله ورسوله يلتقيان على حق واحد . وكذلك قوله تعالى : { وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ هَمَّوا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ هَمَّوا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ هَمَّوا بِأَنْفُسِهِمْ } [الجمعة : 11]

وكان المفروض أن يقال إليهما . ولكن التجارة واللهو لهما عمل واحد . هو شغل المؤمنين عن العبادة والذكر : { واستعينوا بالصبر والصلاة } لأن العلاج في الصبر مع الصلاة . والصبر كبير أن تتحمله النفس . وكذلك الصلاة . لأتھما يأخذان من حركة حياة الإنسان . والصبر هنا مطلوب ليصبروا على ما يمتنعون عنه من نعيم الدنيا وزخرفها . والصلاة تحارب الاستكبار في النفس . فكأن الوصفة الإيمانية لا تتجزأ . فلا يتم الصبر بلا صلاة ، ولا تتقن الصلاة إلا بالصبر .

وقوله تعالى : { إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ } . . ما معنى الخشوع؟ الخشوع هو الخضوع لمن ترى أنه فوقك بلا منازع . فالناس يتفاوتون في القيم والمواهب . وكل واحد يحاول أن يفاخر بعلوه ومواهبه .

ويقول : أنا خير من فلان . أو أنت خير من فلان . إذن فمن الممكن أن يستكبر الإنسان بما عنده . ولكن الإنسان يخضع لمن كانت له حاجة عنده . لأنه لو تكبر عليه أتعبه في دنياه .

ولذلك أعطى الله سبحانه وتعالى للناس المواهب على الشبوع والخشوع على الشبوع . فكل إنسان منا محتاج للآخر . هذا خشوع على الشبوع . وكل إنسان منا مميز بما لا يقدر عليه غيره . هذه مواهب على الشبوع . هذا في البشر ، أما بالنسبة لله سبحانه فإنه خشوع لمن خلق ووهب وأوجد .

والخشوع يجعل الإنسان يستحضر عظمة الحق سبحانه ويعرف ضآلة قيمته أمام الحق سبحانه وتعالى ومدى عجزه أمام خالق هذا الكون . ويعلم أن كل ما عنده يمكن أن يذهب به الله تعالى في لحظة . . ذلك أننا نعيش في عالم الأغيار . ولذلك فنخضع للذي لا يتغير . لأن كل ما يحصل عليه الإنسان هو من الله وليس من ذاته . والذين يغترون بوجود الأسباب نقول لهم : اعبدوا واخشعوا لوهاب الأسباب وخالقها . لأن الأسباب لا تعمل بذاتها . والله سبحانه وتعالى يجعل الأيام دولا . . أي متداولة بين الناس . إنسان يفاخر بقوته . يأتي من هو أقوى منه فيهمزه . إنسان يفاخر بماله . يضيع هذا المال في لحظة . . وقرأ قوله تعالى : { إِنْ يَمَسُّكُمْ فَرَحٌّ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ فَرَحٌّ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ } [آل عمران : 140]

ولذلك لا بد أن نفهم . أن الإنسان الذي يستعلي بالأسباب سيأتي وقت لا تعطيه الأسباب . فالإنسان إذا بلغ في عينه وأعين الناس مرتبة الكمال . اغتر بنفسه . نقول له : لا تغتر بكلمات نفسك . فإن كانت موجودة الآن . فستتغير غدا . . فالخشوع لا يكون إلا لله . والحق سبحانه وتعالى يقول : { وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ } من هم الخاشعون؟ الخاشع هو الطائع لله . الممتنع عن المحرمات . الصابر على الأقدار . الذي يعلم يقينا داخل نفسه أن الأمر لله وحده . وليس لأي قوة أخرى . . فيخشع لمن خلقه وخلق هذا الكون له .

الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (46)

بعد أن أوضح لنا الحق سبحانه وتعالى أن الصبر والصلاة كبيرة إلا على كل من خشع قلبه لله . فهو يقبل عليهما بحب وإيمان ورغبة . أراد أن يعرفنا من هم الخاشعون . فقال جل جلاله : { الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ } .

ما هو الظن؟ سبق أن تحدثنا عن النسب . وقلنا هناك نسبة أنا جازم بها والواقع يصدقها . عندما أقول مثلا : محمد مجتهد . فإذا كان هناك شخص اسمه محمد ومجتهد . أكون قد جزمت بواقع . فهذه نسبة مجزوم بها بشرط أن أستطيع أن أدلل على صدق ما أقول . فإذا كنت جازما بالنسبة على صدق ما أقول . . فهذا تقليد . مثلما يقول ابنك البالغ من العمر ست سنوات مثلا : لا إله إلا الله محمد رسول الله . ولكن عقله الصغير لا يستطيع أن يدل على ذلك . وإنما هو يقلد أباه أو مدرسيه . .

فإذا كنت جازماً بالشيء وهو ليس له وجود في الواقع . فهذا هو الجهل . والجاهل شر من
الأمي . لأن الجاهل مؤمن بقضية لا واقع لها . ويدافع عنها . أما الأمي . . فهو لا يعلم . ومتى
علم فإنه يؤمن . ولذلك لا بد بالنسبة للجاهل أن تخرج الباطل من قلبه أولاً . ليدخل الحق .
وإذا كانت القضية غير مجزوم بها ومتساوية في النفي والوجود فإن ذلك يكون شكا . فإذا
رجحت إحدى الكفتين على الأخرى يكون ذلك ظناً . والحق سبحانه وتعالى يقول : { الذين
يَظُنُّونَ } ولم يقل : الذين تيقنوا أنهم ملاقوا ربهم . . لماذا لم يستخدم الحق تعالى لفظ اليقين
وأبدله بالظن؟ لأن مجرد الظن أنك ملاق الله سبحانه وتعالى . . كاف أن يجعلك تلتزم بالمنهج .
فما بالك إذا كنت متيقناً . فمجرد الظن يكفي .

وإذا أردنا أن نضرب لذلك مثلاً ولله المثل الأعلى نقول : هب أنك سائر في طريق . وجاء
شخص يخبرك أن هذا الطريق فيه لصوص وقطاع طرق . فمجرد هذا الكلام يجعلك لا تمشي في
هذا الطريق إلا إذا كنت مسلحاً ومعك شخص أو اثنان . فأنت تفعل ذلك للاحتياط . إذن
فمجرد الظن دفعنا للاحتياط . . إذن فقولته تعالى : { يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مَلَاقُوا رَبَّهُمْ } فمجرد أن
القضية راجحة . هذا يكفي لاتباع منهج الله . فتقي نفسك من عذاب عظيم .
ويقول المعري في آخر حياته :

زعم المنجم والطبيب كلاهما ... لا تحشر الأجساد قلتُ إليكما
إن صحَّ قولكما فلسنت بخاسرٍ ... أو صحَّ قولي فالخسارُ عليكما
فكل مكذب بالآخرة خاسر . والنفس البشرية لا بد أن تحتاط للقاء الله . وأن تعترف أن هناك
حشراً وتعمل لذلك .

والحق سبحانه وتعالى يقول : { الذين يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مَلَاقُوا رَبَّهُمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ } والرجوع إلى
الله سبحانه وتعالى أمر يقيني . فمادمت قد جئت إلى الدنيا مخلوقاً من الله فأنت لا محالة سترجع
إليه .

وهذا اليوم يجب أن تحتاط له . حيطة كبرى . وأن ترتقبه . لأنه يوم عظيم . . والحق سبحانه يقول
: { يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَرَوْهَا تَدَاهِلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا
أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ
شَدِيدٌ } [الحج : 1-2]

ويقول جل جلاله : { فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا } [المزمل : 17]
إذا كان هذا حالنا يوم القيامة ، فكيف لا يكفي مجرد الظن لأن تنمسك بمنهج الله . ونحن نحتاط
لأحداث دنيوية لا تساوي شيئاً بالنسبة لأهوال يوم القيامة . أن الظن هنا بأننا سنلاقي الله تعالى
يكفي لأن نعمل له ألف حساب .

يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِي الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَلَيْ فُضِّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (47)

يدعي بعض الناس أن هناك تكراراً . للآيات السبع التي سبق فيها تذكير بني إسرائيل . نقول : لا . لم تتكرر هذه الآيات . . وهي قوله تعالى : { يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِي الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُون * وَأْمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أُولَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمناً قَلِيلاً وَإِيَّايَ فَاتَّقُون * وَلَا تَلْبَسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ * وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ * أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ * } واستعينوا بالصبر والصلاة وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ * الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ } [البقرة : 40-46]

هذه الآيات السبع كلها تذكر بني إسرائيل . برسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم . والذي جاء وصف صفاته وزمنه في التوراة ولتذكيرهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم . هو نعمة إليهم وإلى الناس جميعاً . وإذا كان الله قد فضل بني إسرائيل بأن أرسل رسلاً . فليس معنى ذلك أن ينكروا نعمة الله عليهم بالرسول الخاتم . وبما أن أوصاف رسول الله صلى الله عليه وسلم قد ذكرت في التوراة وطلب منهم أن يؤمنوا به وينصروه فإن عدم إيمانهم به هو كفر بالتوراة . كما أن الإنجيل بشر بمحمد صلى الله عليه وسلم وطلب منهم أن يؤمنوا به . فعدم إيمانهم به كفر بالإنجيل .

وقوله تعالى : { اذْكُرُوا نِعْمَتِي الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ } أي اذكروا أنني جعلت في كتابكم ما يثبت صدق محمد صلى الله عليه وسلم في نبوته . والمعنى اذكروا نعمتي بأني فضلتكم على العالمين ممن عاصروكم وقت نزول رسالة موسى . وجعلت منكم الأنبياء .

ومادام الحق سبحانه وتعالى . . قد فضلهم على العالمين . . فكيف يمتن عليهم؟ نقول الّمن هنا لشدة النكاية بهم . فالله سبحانه وتعالى . لشدة معصيتهم وكفرهم جعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت .

واقرا قوله تعالى : { وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدُوا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ } [البقرة : 65]

وقوله تعالى : { قُلْ هَلْ أَنْبَيْتُمْ بِشَرِّ مَن ذَلِكَ مَثْوًى عِنْدَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَاناً وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ } [المائدة :

[60

فإنه سبحانه وتعالى يبين لنا كيف كفر بنو إسرائيل بأنبيائهم وقتلوهم . رغم أن الله تعالى أعطاهم خيراً كثيراً . . ولكنهم نكثوا العهد . . فاستحقوا العذاب . فهم لم يجعلوا نعمة الله عليهم سبباً في إخلاصهم والإيمان به سبحانه وتصديق منهجه . وتصديق الرسول الخاتم الذي ذكر عندهم في

التوراة . كان يجب أن يؤمنوا بالله وأن يذكروا نعمه الكثيرة التي تفضل بها عليهم .
والحق يريد أن يلفتنا إلى أنه مادام قد أنعم عليهم .

. فلا يظنون أنهم غير مطالبين بالإيمان بمحمد عليه الصلاة والسلام . إنما كان لابد أن يفهموا أن
رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء ليصحح لهم كتابهم . ويوضح لهم الطريق الصحيح . . فكان
يجب عليهم أن ينصروه . والنعمة لا يمكن أن تستمر مع الكفر بها . وحتى لا نظن أن الله
سبحانه وتعالى قد قسا عليهم بأن جعلهم أمما متفرقة في الأرض كلها . ثم بعد ذلك يجمعون في
وطن واحد ليقتلوا . . وقرأ قوله تعالى : { وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ } [

الإسراء : 104]

أي أرض تلك التي طلب الله سبحانه وتعالى من بني إسرائيل أن يسكنوها؟ مادام الحق سبحانه
وتعالى قال : { اسكنوا الأرض } فهي الأرض كل الأرض . وهل تكون الأرض كلها وطنا لليهود
. طبعاً لا . ولكن الحق سبحانه كتب عليهم أن يتفرقوا في الأرض . فلا تكون لهم دولة إلا عندما
يشاء الله أن يجمعهم في مكان واحد . ثم يسلط عليهم عباده المؤمنين . والحق سبحانه وتعالى
يقول : { وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا * فَإِذَا
جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا
* ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكُرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَيْنَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا } [الإسراء : 4-6]

[
هذه هي المرة الأولى التي انتصر فيها المسلمون على اليهود . يقول الحق سبحانه وتعالى . { ثُمَّ
رَدَدْنَا لَكُمُ الْكُرَّةَ عَلَيْهِمْ } ومادام الحق سبحانه وتعالى قال عليهم فهي على المسلمين . لأنهم هم
الذين انتصروا على اليهود . وقوله تعالى : { وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَيْنَ } معناها أنهم ينتصرون
على المسلمين وهذا ما هو حادث الآن ، وما شاهدناه وما نشاهد في الفترة الأخيرة . أي أن
المدد والقوة تأتيهم من الخارج وليس من ذاتهم .

ونحن نرى أن إسرائيل قائمة على جلب المهاجرين اليهود من الدول الأخرى وجلب الأموال
والمساعدات من الدول الأخرى أيضا . أي أن كل هذا يأتيهم بمدد من الخارج . وإسرائيل لا
تستطيع أن تعيش إلا بالمهاجرين إليها . وباللعونات التي تأتيها . فالمدد لابد أن يأتي من الخارج .
إذا كانت هناك معركة وطلب قائد المدد . . فمعناه أنه يريد رجالا يأتونه من خارج أرض المعركة
ليصبحوا مددا وقوة لهذا الجيش . وقوله تعالى : { وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا } النفير هو الصوت
العالي الذي يجذب الانتباه . ونحن نرى الآن أن إسرائيل تسيطر على وسائل الإعلام والدعاية في
العالم . وأن صوتها عال ومسموع . . ويقول الحق سبحانه وتعالى : { فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ
لَيْسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ } . . ومعنى هذا أن المسجد الأقصى

سيضيع من المسلمين ويصبح تحت حكم اليهود فيأتي المسلمون ويحاربونهم ويدخلون المسجد كما دخلوه أول مرة في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه . ويقول الله تعالى : { فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخرة جِئْنَا بَكُمْ لَفِيفًا } واللفيف هو الجمع غير المتجانس .

الذي يتنافر مع نفسه ومع من حوله . وبما أن الله سبحانه وتعالى قد قضى أن يحدث قتال بين اليهود وبين المسلمين . . يستعيد فيه المسلمون المسجد الأقصى . فكان لابد أن يجمعهم في مكان واحد . لأنهم لو بقوا كجاليات متفرقة في كل دول العالم ومعزولة عن المجتمعات التي يعيشون فيها لاقتضى ذلك أن يحارب المسلمون العالم كله . ولكن الله سبحانه وتعالى سيأتي بهم من كل دولة إلى المكان الذي فيه بيت المقدس حتى يمكن أن يحاربهم المسلمون ، وأن يدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة .

فالحق سبحانه وتعالى يذكر بني إسرائيل بنعمه عليهم . وبمعاصيهم وكفرهم حتى لا يقول أحد إن الله سبحانه كان قاسياً عليهم لأنهم هم الذين كفروا . وهم الذين عصوا وأفسدوا في الأرض . فاستحقوا هذا العقاب من الله سبحانه وتعالى .

وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (48)

قوله تعالى : { واتقوا يَوْمًا } يذكرهم بهذا اليوم . وهو يوم القيامة الذي لا ينفع الإنسان فيه إلا عمله . ويطلب الحق سبحانه وتعالى منهم أن يجعلوا بينهم وبين صفات الجلال لله تعالى في ذلك اليوم وقاية .

إن هناك آية أخرى تقول : { واتقوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ } [البقرة : 123]

وهذه الآية وردت مرتين . وصدر الآيتين متفق . ولكن الآية الأولى تقول : { وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ } والآية الثانية : { وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ } هل هذا تكرار؟ نقول لا . والمسألة تحتاج إلى فهم . فالآيتان متفقتان في مطلعهما : في قوله تعالى : { واتقوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا } .

ففي الآية الأولى قدم الشفاعة وقال : لا يقبل . والثانية أخر الشفاعة وقال لا تنفع . الشفاعة في الآية الأولى مقدمة . والعدل متأخر ، وفي الآية الثانية العدل مقدم والشفاعة مؤخرة . . وفي الآية الأولى لا يقبل منها شفاعاة . وفي الآية الثانية . . لا تنفعها شفاعاة . والمقصود بقوله تعالى : { اتقوا يَوْمًا } هو يوم القيامة الذي قال عنه سبحانه وتعالى : { يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا والأمر يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ } [الانفطار : 19]

وقوله تعالى : { لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا } كم نفسا هنا؟ إنهما اثنتان . نفس عن نفس . هناك نفس أولى ونفس ثانية . فما هي النفس الأولى؟ النفس الأولى هي الجازية . والنفس الثانية . . هي المجزي عنها . . ومادام هناك نفسان فقوله تعالى : { لَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ } هل من النفس الأولى أو الثانية؟

إذا نظرت إلى المعنى فالمعنى أنه سيأتي إنسان صالح في يوم القيامة ويقول يا رب أنا سأجزي عن فلان أو أعني عن فلان أو أقضي حق فلان . النفس الأولى أي النفس الجازية تحاول أن تتحمل عن النفس المجزي عنها .

ولكي تقرب المعنى والله المثل الأعلى نفترض أن حاكما غضب على أحد من الناس وقرر أن ينتقم منه أبشع انتقام . يأتي صديق لهذا الحاكم ويحاول أن يجزي عن المغضوب عليه . فيما لهذا الرجل من منزلة عند الحاكم يحاول أن يشفع للطرف الثالث . وفي هذه الحالة إما أن يقبل شفاعته أو لا يقبلها . فإذا لم يقبل شفاعته فإنه سيقول للحاكم أنا سأسد ما عليه . . أي سيدفع عنه فدية ، ولا يتم ذلك إلا إذا فسدت الشفاعة .

فإذا كانت المسألة وفي يوم القيامة ومع الله سبحانه وتعالى . . يأتي إنسان صالح ليشفع عند الله تبارك وتعالى لإنسان أسرف على نفسه . فلا بد أن يكون هذا الإنسان المشفع من الصالحين حتى تقبل شفاعته عند الحق جل جلاله .

واقرا قوله سبحانه : { مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ } [البقرة : 255]

وقوله تعالى : { يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ } [الأنبياء : 28]

والإنسان الصالح يحاول أن يشفع لمن أسرف على نفسه فلا تقبل شفاعته ولا يؤخذ منه عدل ولا يسمح لها بأي مساومة أخرى . إذن لا يتكلم عن العدل في الجزاء إلا إذا فشلت الشفاعة . هنا الضمير يعود إلى النفس الجازية . أي التي تتقدم للشفاعة عند الله . فيقول الحق سبحانه وتعالى : { لَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ } فلا يقبل منها أي مساومة أخرى . ويقول سبحانه : { وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ } . وهذا ترتيب طبيعي للأحداث .

في الآية الثانية يتحدث الله تبارك وتعالى عن النفس المجزي عنها قبل أن تستشفع بغيرها وتطلب منه أن يشفع لها . لا بد أن تكون قد ضاقت حيلها وعزت عليها الأسباب . فيضطر أن يذهب لغيره . وفي هذا اعتراف بعجزه . فيقول يا رب ماذا أفعل حتى أكفر عن ذنوبي فلا يقبل منه . فيذهب إلى من تقبل منهم الشفاعة فلا تقبل شفاعتهم .

وإذا أردنا أن نضرب لذلك مثلا من القرآن الكريم فاقرا قول الحق تبارك وتعالى : { وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ } [

[السجدة : 12]

هؤلاء هم الذين يطلبون العدل من الله . بأن يعيدهم إلى الدنيا ليكفروا عن سيئاتهم . ويعملوا عملا صالحا ينجيهم من العذاب . ذلك أن الحسنات يذهبن السيئات . .
فماذا كان رد الحق سبحانه وتعالى عليهم . قال جل جلاله : { فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ } [السجدة : 14]
فهم عرضوا أن يكفروا عن سيئاتهم . بأن طلبوا العودة إلى الدنيا ليعملوا صالحا . فلم يقبل الله سبحانه وتعالى منهم هذا العرض . اقرأ قوله تبارك وتعالى : { هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شَفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُردُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ } [الأعراف :

[53]

لقد طلب هؤلاء الشفاعة أولا ولم تقبل . فدخلوا في حد آخر وهو العدل فلم يؤخذ مصداقا لقوله تعالى : { وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ } . . وهكذا نرى الاختلاف في الآيتين . فليس هناك تكرار في القرآن الكريم . .
ولكن الآية التي نحن بصددنا تتعلق بالنفوس الجازية . أو التي تريد أن تشفع لمن أسرف على نفسه : { وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ } . والآية الثانية : { لَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ } . أي أن الضمير هنا عائد على النفس المجزي عنها . فهي تقدم العدل أولا : { ارجعنا نعمل صالحا } فلا يقبل منها ، فتبحث عن شفعاء فلا تجد ولا تنفعها شفاعة .
وهذه الآيات التي أوردناها من القرآن الكريم كلها تتعلق بيوم القيامة .

على أن هناك مثلا آخر في قوله تعالى : { وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ } [الأنعام : 151]

والآية الثانية في قوله سبحانه : { وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ } [

[الإسراء : 31]

يقول بعض الناس إن « نرزقكم » في الآية الأولى « ونرزقهم » في الآية الثانية من جمال الأسلوب . نقول لا . قوله تعالى : { وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ } أي من فقر موجود . ومادام الفقر موجودا فالإنسان لا يريد أولادا ليزداد فقره . ولذلك قال له الحق سبحانه وتعالى : { نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ } . أي أن مجيء الأولاد لن يزيدكم فقرا . لأن لكم رزقكم ولهم رزقهم . وليس معنى أن لهم رزقهم أن ذلك سينقص من رزقكم . . فلأب رزق وللولد رزق . أما في الآية الثانية : { وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ } فكأن الفقر غير موجود . ولكنه يخشى أن رزق بأولاد بأنه الفقر . يقول له الحق : { نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ } . أي أن رزقهم سيأتيهم قبل رزقكم

فعندما تقرأ قول الله سبحانه وتعالى : { اتقوا يوماً لا تجزي نفس عن نفس شيئاً } مكررة في الآيتين لا تظن أن هذا تكرار . لأن إحداهما ختامها : { لا يقبل منها شفاعاً ولا يؤخذ منها عدلٌ } . والثانية : { لا يقبل منها عدلٌ ولا تنفعها شفاعاً } . فالضمير مختلف في الحالتين . مرة يرجع إلى النفس الجازية فقدم الشفاعة وأخر العدل . ولكن في النفس الجزية عنها يتقدم العدل وبعد ذلك الشفاعة .

الحق سبحانه وتعالى يقول : { يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوماً لا يجزي والد عن ولده ولا مولودٌ هو جازٍ عن والده شيئاً } [لقمان : 33]

أي أن الإنسان لا يمكن أن يجزي عن إنسان مهما بلغت قرابته . . لا يجزي الولد عن أمه أو أبيه . أو يجزي الوالد عن أولاده . وقرأ قوله تبارك وتعالى : { يوم يفر المرء من أخيه * وأممه وأبيه * وصاحبه وبنه * لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه } [عبس : 34-37]

وقول الحق سبحانه وتعالى : { لا يقبل منها عدلٌ } : { لا يؤخذ منها عدلٌ } . العدل هو المقابل . كأن يقول المسرف على نفسه يا رب فعلت كذا وأسرفت على نفسي فأعديني إلى الدنيا أعمل صالحاً . وكلمة العدل مرة تأتي بكسر العين وهي مقابل الشيء من جنسه . أي أن يعدل القماش قماش مثله ويعدل الذهب ذهب مثله . وعدل بفتح العين مقابل الشيء ولكن من غير جنسه . والعدل معناه الحق والعدل لا يكون إلا بين خصمين . ومعناه الإنصاف ومعناه الحق . والحق هو الشيء الثابت الذي لا يتغير . وأنت لا تتحيز لجهة على حساب جهة أخرى . ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما كان يجلس مع أصحابه يوزع نظره إلى كل الجالسين . . حتى لا يقال أنه مهتم بواحد منهم عن الآخر . ولا بد أن نعرف ما هي النفس .

كلمة النفس إذا وردت في القرآن الكريم . فافهم أن لها علاقة بالروح . حينما تتصل الروح بالمادة وتعطيها الحياة توجد النفس . المادة وحدها قبل أن تتصل بها الروح تكون مقهورة ومنقادة مسبحة لله . فلا تقل الحياة الروحية والحياة المادية . لأن الروح مسبحة والمادة مسبحة . ولكن عندما تلتقي الروح بالمادة وتبدأ الحياة وتتحرك الشهوات يبدأ الخلل . والموت يترتب عليه خروج الروح من الجسد . الروح تذهب إلى عالمها التسخيري . والمادة تذهب إلى عالمها التسخيري . وذلك يجعلنا نفهم قول الحق سبحانه وتعالى : { يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون } [النور : 24]

لماذا تشهد؟ لأنها لم تعد مسخرة للإنسان تتبع أوامره في الطاعة والمعصية . فحواسك مسخرة لك بأمر الله في الحياة الدنيا وهي مسبحة وعبادة . فإذا أطاعتك في معصية فإنها تلعنك لأنك

أجبرتها على المعصية فتأتي يوم القيامة وتشهد عليك . والله سبحانه وتعالى يقول : { وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا } [الشمس : 7-8]

ولقد شاع عند الناس لفظ الحياة المادية والحياة الروحية . لأن الحياة الروحية تختلف عن الروح التي في جسدك . وهي تنطبق على الملائكة مصداقا لقوله تعالى : { نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ } [الشعراء : 193]

وقوله جل جلاله : { وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا } [الشورى : 52]
هذه هي الروح التي فيها النقاء والصفاء . وقوله تعالى : { وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ } . أي أن الله سبحانه وتعالى إذا أقضى عليهم العذاب لا يستطيع أحد نصرهم أو وقف عذابهم . لا يمكن أن يحدث هذا . لأن الأمر كله لله .

وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (49)

بعد أن حذر الله سبحانه وتعالى بني إسرائيل من يوم لا تنفع فيه الشفاعة . أراد أن يذكرهم بفضله عليهم وبنعمه . قوله تعالى : « إذ » هي ظرف لشيء وسبق أن قلنا أن الظرف نوعان . لأن كل حدث من الأحداث يحتاج إلى زمان يقع فيه وإلى مكان يقع فيه . وعندما أقول لك إجلس مكانك . هذا الظرف يراد به المكان . وعندما يخاطب الله عز وجل عباده : أذكر إذ فعلت كذا . أي اذكر وقت أن فعلت كذا ظرف زمان . وقول الحق تبارك وتعالى : « وإذ نجيناكم » أي اذكروا الوقت الذي نجاكم فيه من فرعون .

والآية التي نحن بصدددها وردت ثلاث مرات في القرآن الكريم . قوله تعالى : { وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ } [البقرة : 49]

{ وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقْتَلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ } [الأعراف : 141]

وقوله جل جلاله في سورة إبراهيم : { إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ } [إبراهيم : 6]
الاختلاف بين الأولى والثانية هو قوله تعالى في الآية الأولى : { يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ } . وفي الثانية : { يُقْتَلُونَ أَبْنَاءَكُمْ } . « ونجينا » في الآية الأولى : « وأنجينا » في الآية الثانية . ما الفرق بين نجينا وأنجينا؟ هذا هو الخلاف الذي يستحق أن نتوقف عنده . . في سورة البقرة : { وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ } . . الكلام هنا من الله . أما في سورة إبراهيم فنجد { اذكروا نعمة الله عليكم إذ أنجاكم } .

الكلام هنا كلام موسى عليه السلام . ما الفرق بين كلام الله سبحانه وتعالى وكلام موسى؟ . .
إن كلام موسى يحكي عن كلام الله . إن الله سبحانه وتعالى حين يمتن على عباده يمتن عليهم بقمم
النعمة ، ولا يمتن بالنعم الصغيرة . والله تبارك وتعالى حين امتن على بني إسرائيل قال : { نَجِّنَاكُمْ
مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سِوَاءَ الْعَذَابِ يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ } . ولم يتكلم عن
العذاب الذي كان يلاقيه قوم موسى من آل فرعون . إنهم كانوا يأخذونهم أجراء في الأرض
ليحرقوا وفي الجبال لينحتوا الحجر وفي المنازل ليخدموا . ومن ليس له عمل يفرضون عليه الجزية
. ولذلك كان اليهود يمكرون ويسبغون بملابس قديمة حتى يتهاون فرعون في أخذ الجزية منهم .
وهذا معنى قول الحق سبحانه وتعالى : { وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ } [البقرة : 61]
أي أنهم يتمسكون ويظهرون الذلة حتى لا يدفعوا الجزية . ولكن الحق سبحانه وتعالى لم يمتن
عليهم بأنه أنجاهم من كل هذا العذاب . بل يمتن عليهم بقمم النعمة . وهي نجات الأبناء من الذبح
واستحياء النساء . لأنهم في هذه الحالة ستستذل نساؤهم ورجلهم . فالمرأة لا تجد رجلا يحميها
وتتحرف .
كلمة نَجَّى وكلمة أنجى بينهما فرق كبير .

كلمة نَجَّى تكون وقت نزول العذاب . وكلمة أنجى يمنع عنهم العذاب . الأولى للتخليص من
العذاب والثانية يبعد عنهم عذاب فرعون نهائيا . ففضل الله عليهم كان على مرحلتين . مرحلة
أنه خلصهم من عذاب واقع عليهم . والمرحلة الثانية أنه أبعدهم عن آل فرعون فمنع عنهم
العذاب .

قوله تعالى : { يَسُومُونَكُمْ سِوَاءَ الْعَذَابِ } ما هو السوم؟ إنه المشتمل على ألوان شتى من
العذاب كالجلد والسخرة والعمل بالأشغال الشاقة . ما معنى يسوم؟ يقال سام فلان خصمه أي
أذله وأعنته وأرهقه . وسام مأخوذة من سام الماشية تركها ترعى . لذلك سميت بالسام أي المتروكة
. وعندما يقال إن فرعون يسوم بني إسرائيل سوء العذاب . معناها أن كل حياتهم ذل وعذاب .
فتجد أن الله سبحانه وتعالى عندما يتكلم عن حكام مصر من الفراعنة يتكلم عن فراعنة قدماء
كانوا في عهد عاد وعهد ثمود . وقرأ قوله تعالى : { والفجر * وليالٍ عشرٍ * والشفع والوتر *
والليل إذا يسرٍ * هل في ذلك قسَمٌ لِّدَى حِجْرِ * أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ *
التي لَمْ يَخْلُقْ مِثْلَهَا فِي الْبِلَادِ * وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ * وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ * الَّذِينَ
طَغَوْا فِي الْبِلَادِ * فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ } [الفجر : 1-12]

أي أن الله تبارك وتعالى جاء بحضارة الفراعنة وقدماء المصريين بعد عاد وثمود . وهذا دليل على
أن حضارة عاد وثمود قديمة . والله سبحانه وتعالى وصف عادا بأنها التي لم يخلق مثلها في البلاد .
أي أنها حضارة أرقى من حضارة قدماء المصريين .

قد يتساءل بعض الناس كيف يصف الله سبحانه وتعالى عادا بأنها التي لم يخلق مثلها في البلاد . مع أنه يوجد الآن حضارات متقدمة كثيرة .

نقول إن الله قد كشف لنا حضارة الفراعنة وآثارهم . ولكنه أخفى عنا حضارة عاد . ولقد وجدنا في حضارة الفراعنة أشياء لم نصل إليها حتى الآن . مثل براعتهم في تخييط الموتى والمحافظة على الجثث . وبناء الأهرامات وغير ذلك . وبما أن حضارة عاد كانت أرقى من حضارة الفراعنة . فإنها تكون قد وصلت إلى أسرار مازالت خافية على العالم حتى الآن . ولكننا لا نعرف شيئاً عنها ، لأن الله لم يكشف لنا آثارها .

ولقد تحدث الحق تبارك وتعالى عن الفراعنة باسم فرعون . وتكلم عنهم في أيام موسى باسم آل فرعون . ولكن الزمن الذي كان بين عهدي يوسف وموسى لم يسم ملك مصر فرعون ، إنما سماه العزيز الذي هو رئيس الوزراء ورئيسه الملك . وقال الحق تبارك وتعالى : { وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ [يوسف : 50] }

إذن فالحاكم أيام يوسف كان يسمى ملكا ولم يسم فرعون . بينما حكام مصر قبل يوسف وبعده كانوا يلقبون بفرعون . ذلك لأنه قبل عهد يوسف عليه السلام حكم مصر الهكسوس أهل بني إسرائيل .

فقد أغاروا على مصر وانتصروا على الفراعنة . وحكموا مصر سنوات حتى تجمع الفراعنة وطردوهم منها .

والغريب أن هذه القصة لم تعرف إلا بعد اكتشاف حجر رشيد ، وفك رموز اللغة الهيروغليفية . وكان ملوك الهكسوس من الرعاة الذين استعمروا مصر فترة . ولذلك نرى في قصة يوسف عليه السلام قول الله سبحانه وتعالى : { وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ } .

وهكذا نعلم أن القرآن الكريم قد روى بدقة قصة كل حاكم في زمنه . وصف الفراعنة بأنهم الفراعنة . ثم جاء الهكسوس فلم يكن هناك فرعون ولكن كان هناك ملك . وعندما جاء موسى كان الفراعنة قد عادوا لحكم مصر . فإذا كان هذا الأمر لم نعرفه إلا في مطلع القرن الخامس . عندما اكتشف الفرنسيون حجر رشيد ، ولكن القرآن أرخ له التاريخ الصحيح منذ أربعة عشر قرناً . وهذه معجزة تنضم لمعجزات كبيرة في القرآن الكريم عن شيء كان مجهولاً وقت نزول القرآن وأصبح معلوماً الآن . لنجد أن القرآن جاء به في وضعه الصحيح والسليم .

بعد أن تحدثنا عن الفرق بين نجيناكم وأنجيناكم . نتحدث عن الفرق بين { يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ } . و { يُقْتَلُونَ أَبْنَاءَكُمْ } . . الذبح غير القتل . . الذبح لا بد فيه من إراقة دماء . والذبح عادة يتم بقطع الشرايين عند الرقبة ، ولكن القتل قد يكون بالذبح أو بغيره كالخنق والإغراق . كل هذا قتل ليس شرطاً فيه أن تسفك الدماء .

والحق سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا إلى أن فرعون حينما أراد أن ينتقم من ذرية بني إسرائيل انتقم منهم انتقامين . . انتقاما لأنهم كانوا حلفاء للهكسوس وساعدوهم على احتلال مصر . ولذلك فإن ملك الهكسوس اتخذ يوسف وزيرا . فكأن الهكسوس كانوا موالين لبني إسرائيل . وعندما انتصر الفراعنة انتقموا من بني إسرائيل بكل وسائل الانتقام . قتلوهم وأحرقوا عليهم بيوتهم . أما مسألة الذبح في قوله تعالى : { يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ } فلقد رأى فرعون نارا هبت من ناحية بيت المقدس فأحرق كل المصريين ولم ينج منها غير بني إسرائيل . فلما طلب فرعون تأويل الرؤيا . قال له الكهان يخرج من ذرية إسرائيل ولد يكون على يده نهاية ملكك . فأمر القوابل (الدايات) بذبح كل مولود ذكر من ذرية بني إسرائيل . ولكن قوم فرعون الذين تعودوا السلطة قالوا لفرعون : إن بني إسرائيل يوشك أن ينقرضوا وهم يقومون بالخدمات لهم . فجعل الذبح سنة والسنة الثانية يبقون على المواليد الذكور . وهارون ولد في السنة التي لم يكن فيها ذبح فنجا . وموسى ولد في السنة التي فيها ذبح فحدث ما حدث . إذن سبب الذبح هو خوف فرعون من ضياع ملكه . وفرض الذبح حتى يتأكد قوم فرعون من موت المولد . ولو فعلوه بأي طريقة أخرى كأن القوة من فوق جبل أو ضربوه بحجر غليظ . أو طعنوه بسيف أو برمح قد ينجو من الموت . ولكن الذبح يجعلهم يتأكدون من موته في الحال فلا ينجو أحد .

والحق يقول : { يَسْؤُمُونَكُمْ سَوَاءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ } . كلمة الابن تطلق على الذكر ، ولكن الولد يطلق على الذكر والأنثى . ولذلك كان الذبح للذكور فقط . أما النساء فكانوا يتركوهن أحياء .

ولكن لماذا لم يقل الحق تبارك وتعالى يذبحون أبناءكم ويستحيون بناتكم بدلا من قوله يستحيون نساءكم . الحق سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا إلى أن الفكرة من هذا هو إبقاء عنصر الأنوثة يتمتع بهن آل فرعون . لذلك لم يقل بنات ولكنه قال نساء . أي أنهم يريدون للمتعة وذلك للتنكيل ببني إسرائيل . ولا يقتل رجولة الرجل إلا أنه يرى الفاحشة تصنع في نسائه .

والحق سبحانه وتعالى يقول : { وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ } . ما هو البلاء؟ بعض الناس يقول إن البلاء هو الشر . ولكن الله تبارك وتعالى يقول : { وَنَبَلُوكُم بِالْأَشْرِ وَالْأَشْرُ فَتْنَةٌ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ } .

إذن هناك بلاء بالخير وبلاء بالشر . والبلاء كلمة لا تخيف . أما الذي يخيف هو نتيجة هذا البلاء؛ لأن البلاء هو امتحان أو اختبار . إن أدينته ونجحت فيه كان خيرا لك . وأن لم تؤده كان وبالاً عليك . والحق سبحانه وتعالى يقول في خليله إبراهيم : { وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا } [البقرة : 124]

فإبراهيم نجح في الامتحان ، والبلاء جاء لبني إسرائيل من جهتين . . بلاء الشر بتعذيبهم وتقتيلهم وذبح أبنائهم . وبلاء الخير بإنجائهم من آل فرعون . ولقد نجح بنو إسرائيل في البلاء الأول . وصبروا على العذاب والقهر وكان بلاء عظيما . وفي البلاء الثاني فعلوا أشياء سنتعرض لها في حينها .

وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (50)

مرة ثانية تأتي « واذ » . ويأتي الانجاء وسيلة . هذه الوسيلة ذكرتها الآية الكريمة . فقد خرج موسى وقومه وكانوا ستمائة ألف كما تقول الروايات . وعرف فرعون بخروجهم فخرج وراءهم على رأس جيش من ألف ألف (مليون) . عندما رآهم قوم موسى كما يروي لنا القرآن الكريم :

{ قالوا أودينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا } [الأعراف : 129]

وقال لهم موسى كما جاء في الكتاب العزيز : { عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظركم كيف تعلمون } [الأعراف : 129]

وعندما جاء قوم فرعون بعددهم الضخم يقاومون قوم موسى وتراءى الجمعان أي أنهم رأوهم رؤية العين قال قوم موسى « أنا المدركون »

وهذا كلام منطقي . فأمامهم البحر ووراءهم فرعون وجنوده . ولكن حين تخرج الأحداث من نطاق الأسباب إلى قدرة المسبب فهي لا تخضع لأسباب الكون . ولذلك قال لهم موسى بملء فمه :

{ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ }

وبذلك نقل المسألة من الأسباب إلى المسبب تبارك وتعالى . فبمنطق الأحداث يكون فرعون وجنوده سيدركوهم . ولكن بمنطق الحق سبحانه وتعالى فإنه سيهني لهم طريق النجاة . وأوحى الله سبحانه وتعالى إلى موسى بأن يضرب بعصاه البحر فانفرك . وهكذا توقف قانون الماء وهو الاستطراق والسيولة . وانفرك البحر وأصبح كل جزء منه كالجل . ذرات الماء تماسكت مع بعضها البعض لتكون جبلين كبيرين بينهما يابس يمر منه بنو إسرائيل .

هذا هو معنى قوله تعالى : { وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ } والفرق هو الفصل بين شيئين . . وإذا كان البحر قد انشق . . فأين ذهب الطين المبتل في قاع البحر؟ . . قالوا إن الله أرسل ريحا مرت عليه فجففته . ولذلك قال الحق جل جلاله : { طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا }

ويقال إنه حين كان موسى وقومه يعبرون البحر سألوا عن بقية إخوانهم . فقال لهم موسى أنهم في طرق أخرى موازية لطريقنا . قالوا نريد أن نطمئن عليهم . فرفع موسى يده إلى السماء وقال اللهم أعني على أخلاقهم السيئة . فأوحى الله إلى موسى أن يضرب بعصاه الحواجز فانفتحت طاقة بين كل ممر . فكانوا يرون بعضهم بعضا .

وعندما رأى موسى عليه السلام فرعون وجيشه يتجهون إلى البحر ليعبروه . أراد أن يضرب البحر ليعود إلى السبيلة . فلا يلحق بهم آل فرعون . ولكن الله أوحى إليه : { واترك البحر رهواً إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّغْرَقُونَ } [الدخان : 24]

أي اترك البحر على ما هو عليه . حتى يتبعكم قوم فرعون . طانين أنهم قادرون على أن يسلكوا نفس الطريق ويمشوا فيه . وحينما يكون أولهم قريباً من شاطئكم وآخريهم عند الشاطئ الآخر . أعيد الماء إلى استطراره . فأكون قد أنجيت وأهلك بالسبب الواحد . فالحق سبحانه وتعالى يريد أن يمن على بني إسرائيل بأنه أنجاهم من العذاب وأهلك عدوهم .

فكان العطاء عطاءين . عطاء إيجاب بأن أنجاهم . وعطاء سلب بأن أهلك عدوهم . وقوله تعالى : { وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ } في هذه الآية لم يتحدث الحق جل جلاله عن فرعون . وإنما حدث عن إغراق آل فرعون . لماذا؟ لأن آل فرعون هم الذين أعانوه على جبروته وبطشه وطغيانه . هم الأداة التي استخدمها لتعذيب بني إسرائيل .

والله سبحانه وتعالى أراد أن يرى بنو إسرائيل آل فرعون وهم يغرقون فوقفوا يشاهدوهم . وأنت حين ترى مصرع عدوك . تشعر بالمرارة التي في قلبك تزول . { وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ } تحتل معنى آخر . أي ينظر بعضكم إلى بعض وأنتم غير مصدقين أنكم نجوت من هذا البلاء العظيم . وفي نفس الوقت تطمئنون وأنتم تشاهدوهم . وهم يغرقون دون أن ينجو منهم أحد حتى لا يدخل في قلوبكم الشك . أنه ربما نجى بعضهم وسيعودون بجيش ليتبعوكم .

وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ (51)

قول الحق سبحانه وتعالى { وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً } هذا الوعد كان لإعطاء موسى المنهج ، فحينما كلم الله سبحانه وتعالى موسى بجانب الطور . . كان هذا لإبلاغ موسى عليه السلام أنه رسول من رب العالمين وأنه أرسله ليخلص بني إسرائيل من طغيان فرعون وعذابه . . وأنه سيمده بآيات ومعجزات . . حتى يقتنع فرعون وقومه أن موسى رسول من الله تبارك وتعالى . . بعد تكليف موسى بالرسالة وذهابه إلى فرعون . . وما حدث مع السحرة ثم نجاة موسى وقومه . . بأن شق الله جل جلاله لهم البحر . . هذا في وقت لم يكن المنهج قد نزل بعد . . ولذلك بمجرد أن نجى الله سبحانه وتعالى موسى وقومه وأغرق فرعون . . كان لابد أن يتم إبلاغ موسى بالمنهج . وكان الوعد يشمل أربعين ليلة . . هذه الليالي الأربعون حددت كثلاثين أولاً . . تم أتمها الحق سبحانه وتعالى بعشر أخرى . . وقرأ قوله سبحانه وتعالى : { وَوَاوَعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً } [الأعراف : 142]

وعندما يتكلم الدين عن الزمن يتكلم دائما بالليلة . . والسبب في ذلك أنك لا تستطيع أن

تحدد الزمن بدقة بالنهار . . الشمس تشرق وتغرب ثم تعود لتشرق . . فإذا نظرت إلى قرص الشمس . . لا يمكن أن تحدد في أي وقت من الشهر نحن . . هل في أوله أو في وسطه أو في آخره . . ولكن إذا جاء الليل بمجرد أن تنظر إلى القمر تستطيع أن تحدد الزمن . فإذا كان القمر هلالاً فنحن في أوائل الشهر . . وإذا كان بدرًا فنحن في وسطه وهكذا . . إن هناك مقاييس دقيقة بالنسبة للقمر وقياس الزمن في عرف الناس؛ الإنسان العادي يستطيع أن يحدد لك الزمن بالتقريب بالليالي . . ويقول لك البدوي في الصحراء ، هذا القمر ابن كذا ليلة . وفي منطق الدين نحسب كل شيء بدخول الليل . . فهذه ليلة الأول من شهر رمضان نصلي فيها التراويح . . وليلة العيد لا تصلى فيها التراويح . . وليلة النصف من شعبان . . وليلة الإسراء والمعراج . .

وفي كل مقاييس الدين الليل لا يتبع النهار إلا في شيء واحد هو يوم عرفة . . فلا نقول ليلة عرفة وإنما نقول يوم عرفة . . إذن الليلة هي ابتداء الزمن في الدين . . والزمن عند الله مدته اثنا عشر شهراً للعام الواحد . . السنة الميلادية تختلف عن السنة الهجرية . . والسبب في ذلك أن الله سبحانه وتعالى وزع رحمته على كونه . . فلو أن المواقيت الدينية سارت على مواقيت الشمس . . لجاء رمضان مثلاً في شهر محدد لا يتغير .

. يصومه الناس صيفاً في مناطق محددة . وشتاءً في مناطق محددة ولا يختلف أبداً . . فيظل رمضان يأتي في الصيف والحر دائماً بالنسبة لبعض الناس . . وفي الشتاء والبرد دائماً بالنسبة لبعض الناس . .

ولكن لأن السنة الهجرية تقوم على حساب الهلال . . فمعنى ذلك أن كل نفحات الله في كونه تأتي في كل الفصول والأزمان . . فتجد رمضان في الصيف والشتاء . . وكذلك وقفة عرفات وكذلك كل المناسبات الدينية الطيبة . . لأن السنة الهجرية تنقص أحد عشر يوماً عن السنة الميلادية . . والفرق سنة كل ثلاث وثلاثين سنة .

والحق سبحانه يقول : { ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ } .

يريد أن يمحّص بني إسرائيل . . ويبين لنا كفرهم بنعم الله . فالله نجاهم من آل فرعون . . ولم يكادوا يعبرون البحر حتى رأوا قوماً يعبدون الأصنام . . فقالوا كما يروى لنا القرآن الكريم : {

يَامُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ } [الأعراف : 138]

حدث هذا بمجرد خروجهم من البحر سالمين . . موسى عليه السلام أخذ النقباء وذهب لميقات ربه . وترك أخاه هارون مع بني إسرائيل . . وبنو إسرائيل عندما كانوا في مصر . . وكانوا يخدمون نساء آل فرعون . . أخذوا منهم بعض الحلي والذهب خلسة . . ومع أن فرعون وقومه متمردون على الله تبارك وتعالى . . فإن هذا لا يبرر سرقة حلي نساءهم . . فنحن لا نكافي من

عصى الله فينا بأن نعصي الله فيه . . ونصبح متساويين معهم في المعصية . . ولكن نكافئ من
عصى الله فينا بأن نطيع الله فيه . .

وأبو الدرداء رضي الله عنه حينما بلغه أن شخصا سبه . . بعث له كتابا قال فيه . . يا أخي لا
تسرف في شتمنا . . واجعل للصلح موضعا فإننا لا نكافئ من عصى الله فينا بأكثر من أن نطيع
الله فيه . . بنو إسرائيل سرقوا بعض حلي نساء آل فرعون . . فجعلها الله فتنة لإغوائهم . .
وزين لهم الشيطان أن يصنعوا منها عجلا يعبدونه . . صنعهم لهم موسى السامري الذي رباها جبريل
. . فأخذ الحلي وصهرها ليجعلها في صورة عجل له خوار . . وقال لهم هذا إلهكم وإله موسى .

أتعرف لماذا فتنهم الله سبحانه وتعالى بالعجل؟

لأن الذهب المصنوع منه العجل من أصل حرام . . والحرام لا يأتي منه خير مطلقا . . ولا بد أن
نأخذ العبرة من هذه الواقعة . . وهي أن الحرام ينقلب على صاحبه شراً ووبالا ، إن كان طعامك
حراما يدخل في تكوين خلاياك ويصبح في جسدك الحرام . . فإذا دخل الحرام إلى الجسد يميل
فعلك إلى الحرام . . فالحرام يورق الجسد ويسوقه إلى المعاصي . .

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيبا ، وإن الله تعالى أمر
المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال تعالى : { يَا أَيُّهَا الرِّسْلُ كُلُّوْا مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا } وقال
تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُّوْا مِّنَ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنَّ كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ } ، ثم
ذكر ، الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء يا رب يا رب ومطعمه حرام ومشربه
حرام وملبسه حرام وغذي بالحرام فأتى يستجاب لذلك » .

وقد حصل لبني إسرائيل الشيء نفسه وسرقوا ذهب آل فرعون فانقلب عليهم ظلما ، وقال الله
تعالى عنهم : { ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ } .

وعد الله لموسى كما قال أهل العلم كان ثلاثين ليلة . . إتمام الثلاثين ليلة يؤتبه ما وعد . . وكلمة
وعد هي الإخبار بشيء سار . والوعيد هي الإخبار بشيء سيئ . . فإذا سمعت وعدا فأعرف أن
ما سيجيء بعدها خير . وإذا سمعت وعيدا تعرف أن ما بعدها شر ، إلا آية واحدة وهي قوله

سبحانه وتعالى : { النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا } [الحج : 72]

فهل الوعد هنا بخير أو المعنى اختلف؟ . . نقول : إن كانت النار موعودا فهي شر . . وإن كانت
النار هي الموعودة والكفار هم الموعود بهم فهي خير للنار؛ لأن النار تفرح بتعذيب الكافرين من
عباد الله . . ونعرف هذا الفرحة من قوله تعالى : { يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن

مَرِيدٍ } [ق : 30]

ولا يستزيد الإنسان إلا من شيء يحبه . . والنار ككل شيء مسخر مسبحة لله تكره العصاة . .

ولكنها غير مأمورة بحرقهم في الدنيا . . ولكن في الآخرة تكون سعيدة وهي تحرق العصاة والكافرين .

ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (52)

الله سبحانه وتعالى يمن على بني إسرائيل مرة أخرى . . مع أنهم ارتكبوا ذنبا من ذنوب القمة . . ومع ذلك عفا الله عنهم لأنه يريد أن يستبقي عنصر الخير للناس . . يريد أن يعلم خلقه أنه رب رحيم . يفتح أبواب التوبة للواحد بعد الآخر . . لتمحو خلايا الشر في النفس البشرية . . إن الإنسان حين يذنب ذنبا ينفلت من قضية الإيمان . . ولو لم تشرع التوبة والعفو من الله لزد الناس في معاصيهم وغرقوا فيها . . لأنه إذا لم تكن هناك توبة وكان الذنب الواحد يؤدي إلى النار . . والعقاب سينال الإنسان فإنه يتمادى في المعصية . وهذا ما لا يريده الله سبحانه وتعالى لعباده . . وفي الحديث الشريف :

« لَلَّهِ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ أَحَدِكُمْ سَقَطَ عَلَى بَعِيرِهِ وَقَدْ أَضَلَّهُ فِي أَرْضٍ فَلَاةٍ »

معنى الحديث . . رجل معه بعير يحمل ماله وطعامه وشرابه وكل ما يملكه . هذا البعير تاه في صحراء جرداء . . بحث عنه صاحبه فلم يجده . . لقد فقدته وفقد معه كل مقومات حياته . . ثم ينظر فيراه أمامه . . كيف تكون فرحته؟ . . طبعا بلا حدود . هكذا تكون فرحة الله تعالى بتوبة عبده المؤمن بل أشد من ذلك .

إن الله تبارك وتعالى حين يفتح باب التوبة . يريد لحركة العالم أن تسير . . هب أن نفسا غفلت مرة . . أو قادتها شهوتها مرة إلى معصية . أو وسوس الشيطان لها كما حدث مع آدم وحواء . لو لم تكن هناك توبة ومغفرة . . لانقلب كل هؤلاء إلى شياطين . . بل إن أعمال الخير تأتي من الذين أسرفوا على أنفسهم . . فهؤلاء يحسنون كثيرا ويفعلون الخير كثيرا . . مصداقاً لقوله تعالى

{ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ } [هود : 114]

وقوله جل جلاله : { خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا } [التوبة : 103]

إذن فكون الله سبحانه وتعالى يتوب على بني إسرائيل مع أنهم كفروا بالقمة في عبادة العجل . . فذلك لأن الله يريد استبقاء الخير في كونه . . ولقد عبد بنو إسرائيل العجل قبل أن ينزل عليهم المنهج وهو التوراة . . ولكن هل بعد أن أنزل عليهم المنهج والتوراة تابوا وأصلحوا أو استمروا في معصيتهم وعنادهم؟

وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (53)

الحق سبحانه وتعالى يذكر بني إسرائيل هنا . . أنه بعد أن أراهم من المعجزات الكثير . ونجاهم من آل فرعون وشق لهم البحر كان لا بد أن يؤمنوا إيماناً حقيقياً لا يشوبه أي نوع من التردد . . ذلك لأنهم رأوا وشهدوا . . وكانت شهادتهم عين يقين . أي شهدوا بأعينهم ماذا حدث . . ولكن هل استطاعت هذه المشاهدة أن تمحو من قلوبهم النفاق والكفر؟ . . لا . . لقد ظلوا معاندين طوال تاريخهم . لم يأخذوا أي شيء بسهولة . .

إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يحذر أمته من أن يكونوا كبني إسرائيل ويكونوا قوماً شددوا فشدد الله عليهم . . وكان ذلك بالنسبة لقصة البقرة . . التي أمروا أن يذبحوها ليعرفوا من القاتل في جريمة قتل كادت تثير حرباً بينهم . . فأخذوا يسألون ما هي وما لوغها إلى آخر ما سنتحدث عنه . . عندما نأتي إلى الآيات الكريمة الخاصة بهذه الواقعة . فلو ذبحوا أي بقرة لكفتهم . . لأنه يكفي أن يقول لهم الله سبحانه وتعالى إذبحوا بقرة فيذبحوا أي بقرة . وعدم التحديد يكون أسهل عليهم . . ولكنهم سألوا وظلوا يسألون فشدد عليهم . . بتحديد بقرة معينة بذاتها . . ولذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « ذَرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ فَإِنَّمَا هَلَكَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِكَثْرَةِ سَوَالِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ فَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ فَأَتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَدَعُوهُ » .

والله سبحانه وتعالى في قوله : { وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ } . كأن إتيان موسى الكتاب والفرقان . . نعمة يجب أن يذكرها قومه . . وأن يستقبلوا منهج الله على أنه نعمة . . فلا يأخذ الإنسان التكليف الإلهي من زاوية ما يقيد حركته ولا ما يعطيه له . . ذلك أن الله حين حرم عليك السرقة . . حرم على الناس جميعاً أن يسرقوك . . فإذا أخذ منك حريتك أن تسرق . . فقد أخذ من الناس كل الناس حريتهم أن يسرقوا مالك . . وهذه حماية كبيرة لك . ما هو الكتاب . . وما هو الفرقان؟ . . الكتاب هو التوراة . . هو الذي يبين المنهج . . والفرقان هو الأشياء التي يفرق الله فيها بين الحق والباطل . . فكأن الفرقان تطلق مرة على التوراة . . لأنها تفرق بين الحق والباطل . وتطلق أيضاً على كل ما يفرق بين الحق والباطل . . ولذلك سمي يوم بدر يوم الفرقان . . لأنه فرق بين الحق والباطل . . فكأن منهج الله وكتابه يبين لنا أين الحق وأين الباطل ويفرق بينهما .

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِيكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (54)

يذكر الله تبارك وتعالى بني إسرائيل بقصة عبادة العجل . وهي قصة مخالفة خطيرة لمنهج الله ومخالفة في القمة . . عبادة الله وحده . والذي حدث أن موسى عليه السلام ذهب لميقات الله ومعه نعباء قومه ليتلقى المنهج والتوراة . . وأخبره الله سبحانه وتعالى أن قومه قد ضلوا وعبدوا

غير الله . . وعاد موسى وهو في قمة الغضب . وأمسك بأخيه هارون يجره من رأسه ولحيته . . ويقول له لقد اخلفتك عليهم لكيلا يضلوا ، فقال هارون عليه السلام : { قَالَ يَبْنَؤُمْ لَأَ تَأْخُذَ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي } [طه : 94]
فتنة عبادة العجل حدثت بسبب السامري . . والسامري اسمه موسى السامري ولدته أمه في الصحراء وماتت فكفله جبريل ورباه . . وكان جبريل عليه السلام يأتيه على حصان . . يحمل له ما يحتاج إليه من طعام وشراب ، وكان موسى السامري يرى حصان جبريل ، كلما مشى على الأرض وقع منه تراب فتخضر وتنبت الأرض بعد هذا التراب . وأيقن أن في حافر الحصان سرّاً . فأخذ قبضة من أثر الحصان ووضعها في العجل المصنوع من الذهب . فأخذ يحدث خوارا كأنه حي . .

ولا تتعجب من أن صاحب الفتنة يجد معونة من الأسباب حتى يفتن بها الناس . . لأن الله تبارك وتعالى يريد أن يمتحن خلقه . والذي يحمل دعوة الحق لا بد أن يهيئه الله سبحانه وتعالى تهيئة خاصة . ورسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن ينتقل إلى المدينة . . تعرض هو والمسلمون لابتلاءات كثيرة . . ولقد جاء حدث الإسراء والمعراج لرسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن تخلت عنه أسباب الدنيا في مكة وذهب إلى الطائف يدعو أهلها فسلطوا عليه غلمانهم وسفهاءهم فقفذوه بالحجارة حتى أدموا قدميه الشريفتين . . ورفع يديه إلى السماء بالدعاء المأثور :

« اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس » .

وليس هذا على الرسول وحده بل والمؤمنين معه . . حتى أن مصعب بن عمير فتي قريش المدلل . . الذي كان عنده من الملابس والأموال والعبيد ما لا يعد ولا يحصى رئي بعد إسلامه وهو يرتدي جلد حمار وذلك حتى يختبر الحق سبحانه وتعالى في قلب مصعب بن عمير حبه للإيمان . . هل يجب الدنيا أكثر أو يجب الله ورسوله أكثر . . حتى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم . كان يقول للصحابة انظروا كيف فعل الإيمان بصاحبكم .

والله تبارك وتعالى لا بد أن يمحس ويختبر أولئك الذين سيحملون دعوته إلى الدنيا كلها . . لا بد أن يكونوا صابرين على البلاء . أقوياء أمام خصوم الدعوة . . مستعدين لتحمل الأعباء والآلام .

. لأن هذا هو دليل الصدق في الإيمان . .

ولذلك تجد كل دعوة ضلال تأتي بالفائدة لأصحابها . . دعوة الشيوعية يستفيد منها أعضاء اللجنة المركزية . . أما الشعب فإنه يرتدي ملابس رخيصة . . ويسكن في بيوت ضيقة . أما السادة الذين ينفقون بلا حساب فهم أعضاء اللجنة المركزية . . هذه دعوة الباطل . . وعكس

ذلك دعوة الحق . . صاحب الدعوة هو الذي يدفع أولاً ويضحى أولاً . لا ينتفع بما يقول بل على العكس يضحى في سبيل ما يقول . . إذن الباطل يأتي بالخير لصاحب الدعوة . فإذا رأيت دعوة تغدق على أتباعها فأعلم أنها دعوة باطل . . لولا أنها أعطت بسخاء ما تبعها أحد . والآية الكريمة التي نحن بصددنا هي تفريع من موسى عليه السلام لقومه . . الذين نجاهم الله من آل فرعون وأهلك عدوهم فاتخذوا العجل إلهاً . . ومتى حدث ذلك؟ في الوقت الذي كان موسى فيه قد ذهب لميقات ربه ليأتي بالمنهج . . والذين اتخذوا العجل إلهاً . . هل ظلموا الله سبحانه وتعالى أو ظلموا أنفسهم؟ . . ظلموا أنفسهم لأنهم أوردوها مورد التهلكة دون أن يستفيدوا شيئاً . . والظالم على أنواع . . ظالم في شيء أعلى أي في القمة . . وظالم في مطلوب القمة . . الظالم في القمة هو الذي يجعل الله شريكاً ولذلك قال الله تعالى : { إِنَّ الشَّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ } [لقمان :

[13

وعلاقة الشرك بالظلم أنك جئت بمن لم يخلق ومن لم يرزق شريكاً لمن خلق ورزق . . وذلك الذي جعلته إلهاً كيف يعبد؟ . . العبادة طاعة العابد للمعبود . . فماذا قال لكم هذا العجل الذي عبدتموه من دون الله أن تفعلوا . . لذلك فأنتم ظالمون ظلم القمة . . والظلم الآخر هو الظلم فيما شرعت القمة . . بأن أخذتم حقوق الناس واستبحتموها . . في كلتا الحالتين لا يقع الظلم على الله سبحانه وتعالى ولكن على نفسك . . لماذا؟ . . لأنك آمنت بالله أو لم تؤمن . سيظل هو الله القوي القادر العزيز . لن يُنْقَصَ إيمانك أو عدم إيمانك من ملكه شيئاً . ثم تأتي يوم القيامة فيعذبك . فكأن الظلم وقع عليك . . وإذا أخذت حقوق الناس فقد تتمتع بها أياماً أو أسابيع أو سنوات ثم تموت وتتركها وتأخذ العذاب . فكأنك ظلمت نفسك ولم تأخذ شيئاً . . لذلك يقول الحق جل جلاله : { وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ } [البقرة : 57] وظلم الناس يعود على أنفسهم . . لأنه لا أحد من خلق الله يستطيع أن يظلم الله سبحانه وتعالى . . وقوله سبحانه { فتوبوا إلى بَارئِكُمْ } . . الحق تبارك وتعالى قال في الآية السابقة « عفونا عنكم » ثم يقول هذه الآية { فتوبوا إلى بَارئِكُمْ } . . لأن التوبة هي أصل المغفرة . أنت تتوب عن فعلك للذنوب وتعزم ألا تعود لمثله أبداً ويقبل الله توبتك ويعفو عنك .

وقد كان من الممكن أن يأخذهم الله بهذا الذنب ويهلكهم كما حدث بالنسبة للأمم السابقة . . أما وقد شرع الله لهم أن يتوبوا . فهذا فضل من الله وعفو . . ثم يقول الحق تبارك وتعالى : { فاقتلوا أَنفُسَكُم } . . فانظروا إلى دقة التكليف ودقة الحيثية في قوله تعالى : { فتوبوا إلى بَارئِكُمْ فاقتلوا أَنفُسَكُم } الله سبحانه وتعالى يقول لهم . . أنا لم أغلب عليكم خالفاً لخلقكم أو آخذكم منه . . ولكن أنا الذي خلقتكم . ولكن الخالق شيء والبارئ شيء آخر . . خلق أي أوجد

الشيء من عدم . . والبارئ أي سَوَّاهُ على هيئة مستقيمة وعلى أحسن تقويم . . ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى : { الَّذِي خَلَقَ فَسْوَى * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى } [الأعلى : 2-3]
ومن هنا نعرف أن الخلق شيء والتسوية شيء آخر . . بارئكم مأخوذة من برئ السهم . . وبرئ السهم يحتاج إلى دقة وبراعة .

وقوله تعالى : { فاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ } لأن الذي خلقتك وسواك كفرت به وعبدت سواه . فكأنك في هذه الحالة لا بد أن تعيد له الحياة التي وهبها لك . . وعندما نزل حكم الله تبارك وتعالى . . جعل موسى بني إسرائيل يقفون صفوفًا . وقال لهم أن الذي لم يعبد العجل يقتل من عبده . . ولكنهم حين وقفوا للتنفيذ . كان الواحد منهم يجد ابن عمه وأخاه وذوي رحمه أمامه فيشق عليه التنفيذ . . فرحمهم الله بأن بعث ضبابا يستترهم حتى لا يجدوا مشقة في تنفيذ القتل . . وقيل أنهم قتلوا من أنفسهم سبعين ألفًا .

وعندما حدث ذلك أستصرخ موسى وهارون ربه . . وقالوا البكية البكية . أي أبكوا عسى أن يعفو الله عنهم . ووقفوا يبكون أمام حائط المبكى فرحمهم الله . .
وقوله تعالى : { فاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ } لأن هذه الأنفس بشهوتها وعصيانها . . هي التي جعلتهم يتمردون على المنهج . .

إن التشريع هنا بالقتل هو كفارة الذنب . لأن الذي عبد العجل واتخذ لها آخر غير الله . كونه يقدم نفسه ليقتل فهذا اعتراف منه بأن العجل الذي كان يعبده باطل . . وهو بذلك يعيد نفسه التي تمرت على منهج الله إلى العبادة الصحيحة . . وهذا أسمى أنواع الكفارة . . وهو أن يقتل نفسه إثباتًا لإيمانه . . بأنه لا إله إلا الله وندما على ما فعل وإعلانًا لذلك . . فكأن القتل هنا شهادة صادقة للعودة إلى الإيمان .

وقوله تعالى { ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ عِنْدَ بَارئِكُمْ } . . أي أن هذه التوبة هي أصدق أنواع التوبة . . وهي خير لأنها تنجيكم من عذاب الآخرة . . وقوله سبحانه { فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ } . التوبة الأولى أنه شرع لكم الكفارة . . والتوبة الثانية عندما تقبل منكم توبتكم . . وعفا عنكم عفوا أبديا .

وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (55)

بعد أن تاب الله على قوم موسى بعد عبادتهم للعجل . . عادوا مرة أخرى إلى عنادهم وماديتهم . فهم كانوا يريدون إلهًا ماديًا . . إلهًا يرونه ولكن الإله من عظمته أنه غيب لا تدركه الأبصار . .
واقرا قوله تعالى : { لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ } [الأنعام :

[103

فكون الله سبحانه وتعالى فوق إدراك البشر . . هذا من عظمته جل جلاله . . ولكن اليهود

الذين لا يؤمنون إلا بالشيء المادي المحس . . لا تتسع عقولهم ولا قلوبهم إلى أن الله سبحانه وتعالى فوق المادة وفوق الأبصار . . وهذه النظرة المادية نظرة حمقاء . . والله تبارك وتعالى قد لفتنا إلى قضية رؤيته جهرا في الدنيا . . بقوله تعالى : { وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ } [الذاريات : 21]

أي أن الله جل جلاله وضع دليل القمة على وجود الله الذي لا تدركه الأبصار . وضع هذا الدليل في نفس كل واحد منا . وهي الروح الموجودة في الجسد . . والإنسان مخلوق من مادة نفخت فيها الروح فدبت فيها الحياة والحركة والمحس . . إذن كل ما في جسدك من حياة . . ليس راجعا إلى المادة التي تراها أمامك . . وإنما يرجع إلى الروح التي لا تستطيع أن تدركها إلا بآثارها . . فإذا خرجت الروح ذهبت الحياة وأصبح الجسد رمة .

إذا كانت هذه الروح التي في جسدك . . والتي تعطيك الحياة لا تستطيع أن تدركها مع أنها موجودة داخلك . . فكيف تريد أن تدرك الله سبحانه وتعالى . . كان يجب أولا أن تسأل الله أن يجعلك تدرك الروح التي في جسدك . . ولكن الله سبحانه وتعالى قال إنها من أمر الله . . وقرأ جل جلاله : { وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا } [الإسراء : 85]

إذا كانت هذه الروح هي مخلوقة لله لا تدركها . . فكيف تطمع أن ترى خالقها . . وانظر إلى دقة الأداء القرآني في قوله سبحانه . { حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً } . . فكلمة نرى تطلق ويراد بها العلم . مثلا : { أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ } [الفرقان : 43]

أي أعلمت . . ولكن جاءت كلمة جهرة لتنفي العلم فقط وتطالب بالرؤية مجهورة واضحة يدركونها بحواسهم . وهذا دليل على أنهم متمسكون بالمادية التي هي قوام حياتهم . . نقول لهؤلاء إن سؤالكم يتسم بالغباء . . فأنتم حين تطلبون أن تروا الله جهرة . والمفروض أن الله تبارك وتعالى له مدلول عندكم . . ولذلك تطلبون رؤيته لتقارنوا المدلول على الموجود . . ذلك لو كانت القضية أصلا أن تعرفوا أن الله موجود أو غير موجود . . والذي شجعهم على أن يقولوا ما قالوا . . طلب موسى عليه السلام من الله سبحانه وتعالى أن يراه .

واقرأ قوله تعالى : { قَالَ رَبِّ ارْنِي مَا تُبْصِرُ وَإِنِّي لَمِنَ الْجَاهِلِينَ } . . ولكن أنظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراه فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا [الأعراف : 143] ولا بد أن نعرف أن قضية رؤية الله في الدنيا محسوسة . . وأنه لا سبيل إلى ذلك والإنسان في جسده البشري . . لأن هذا الجسد له قوانين في ادراكاته . . ولكن يوم القيامة نكون خلقا بقوانين تختلف . . ففي الدنيا لا بد أن تخرج مخلفات الطعام من أجسادنا . وفي الآخرة لا مخلفات . وفي الدنيا يحكمنا الزمن . . وفي الآخرة لا زمن . إذ يظل الإنسان شابا دائما . . إذن فهناك

تغيير . .

المقاييس هنا غير المقاييس يوم القيامة في الدنيا بإعدادك وجسدك لا يمكن أن ترى الله . وفي الآخرة يسمح إعدادك وجسدك بأن يتجلى عليك الله سبحانه وتعالى . . وهذا قمة النعيم في الآخرة . أنت الآن تعيش في آثار قدرة الله . . وفي الآخرة تعيش عيشة الناظر إلى الله تبارك وتعالى . . وفي ذلك يقول الحق جل جلاله : { وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ } [القيامة :

[23-22

والإنسان في الدنيا قد اخترع آلات مكنته من أن يرى ما لا يراه بعينه المجردة يرى الأشياء الدقيقة بواسطة الميكروسكوب . والأشياء البعيدة بواسطة التلسكوب . . فإذا كان عمل الإنسان في الدنيا جعله يبصر ما لم يكن يبصره . . فما بالك بقدرة الله في الآخرة . . وإذا كان الإنسان عندما يضعف نظره . يطلب منه الطبيب استعمال نظارة . . فإذا ذهب إلى طبيب أمهر . . أجرى له عملية جراحية في عينه يستغني بها عن النظارة ويرى بدونها . . فما بالكم بإعداد الحق للخلق وبقدرة الله التي لا حدود لها في أن يعيد خلق العين بحيث تستطيع أن تتمتع بوجهه الكريم .

ولقد حسم الله تبارك وتعالى المسألة مع موسى عليه السلام بأن أراه العجز البشري . . لأن الجبل بقوته وجبروته لم يستطع احتمال نور الله فجعله دكا . . وكأن الله يريد أن يفهم موسى . . أن الله تبارك وتعالى حجب عنه رؤيته رحمة منه . لأنه إذا كان هذا قد حدث للجبل فماذا كان يمكن أن يحدث بالنسبة لموسى . إذا كان موسى قد صعق برؤية المتجلى عليه . . فكيف لو رأى المتجلى؟ . .

والإنسان حين يعجز عن إدراك شيء في الدنيا لأنه مخلوق بهذه الإمكانيات يكون العجز عن الإدراك إدراكاً لأن العجز عن الإدراك هو في عظمة الله سبحانه وتعالى . . وقوم موسى حينما طلبوا منه أن يروا الله جهرة أخذتهم الصاعقة وهم ينظرون . . عندما اجتروا هذا الاجترار على الله أخذتهم الصاعقة . . والصاعقة إما نار تأتي وإما عذاب ينزل . . المهتم أنه بلاء يعمهم . . والصاعقة قد أصابت موسى .

ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (56)

فالحق سبحانه وتعالى يكمل لنا قصة الذين قالوا { أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ } . موسى عليه السلام أصيب بالصاعقة أيضا . . عندما طلب أن ينظر إلى الله . ولكن هناك فرق بين الحالتين . . الله تبارك وتعالى يقول : { وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ } [الأعراف : 143]

ولكن الأمر لم يكن كذلك مع قوم موسى . فمع موسى قال الله سبحانه وتعالى : { فَلَمَّا أَفَاقَ }

أي أن الصاعقة أصابته بنوع من الإغماء . . ولكن مع قوم موسى . قال : { ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ
مُؤْتِكُمْ } . . فكأن قوم موسى ماتوا فعلا من الصاعقة . . فموسى أفاق من تلقاء نفسه . . أما
أولئك الذين أصابتهم الصاعقة من قومه . . فقد ماتوا ثم بعثوا لعلهم يشكرون .

وَوَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ
كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (57)

فالله سبحانه وتعالى يريد أن يمتن على بني إسرائيل بنعمه ومعجزاته . . ويرينا أنه برغم كل هذه
النعم عاش بنو إسرائيل في عنادهم وتعنتهم ، بعد أن طلب بنو إسرائيل أن يروا الله جهرة فقتلتهم
الصاعقة . . ثم بعثهم الله تبارك وتعالى لعلهم يشكرون . . ذكر لنا الحق جل جلاله نعمًا أخرى
من نعمه على بني إسرائيل . . وقال اذكروا إذ كنتم في الصحراء وليس فيها ظل تحتون به من
حرارة الشمس القاسية . . وليس فيها مكان تستظلون فيه ، لأنه لا ماء ولا نبات في الصحراء .
فظلل الله سبحانه وتعالى عليكم بالغمام . . أي جاء الغمام رحمة من الله سبحانه وتعالى . . ثم
بعد ذلك جاء المن والسلوى . .

والمن نقط حمراء تتجمع على أوراق الشجر بين الفجر وطلوع الشمس . . وهي موجودة حتى
الآن في العراق . . وفي الصباح الباكر يأتي الناس بالملاءات البيضاء ويفرشونها تحت الشجر . .
ثم يهزون الشجر بعنف فتسقط القطرات الموجودة على ورق الشجر فوق الملاءات . .
فيجمعونها وتصبح من أشهى أنواع الحلويات . فيها طعم القشدة وحلاوة عسل النحل . . وهي
نوع من الحلوى اللذيذة المغذية سهلة الهضم سريعة الامتصاص في الجسم . والله سبحانه وتعالى
جعلها بالنسبة لهم وقود حياتهم . . وهم في الصحراء يعطيهم الطاقة . أما السلوى فهي طير من
السماء ويقال أنه السمان . . يأتيهم في جماعات كبيرة لا يعرفون مصدرها . . ويبقى على الأرض
حتى يمسكوا به ويذبحوه ويأكلوه .

فالله تبارك وتعالى قد رزقهم بهذا الرزق الطيب من غمام يقيهم حرارة الشمس ، ومن يعطيهم
وقود الحركة . وسلوى كغذاء لهم ، وكل هذا يأتيهم من السماء دونما تعب منهم . . ولكنهم
لعدم إيمانهم بالغيبات يريدون الأمر المادي وهم يخافون أن ينقطع المن والسلوى عنهم يوما ما
فماذا يفعلون؟

لو كانوا مؤمنين حقا لقالوا : إن الذي رزقنا بالمن والسلوى لن يضيعنا . . ولكن الحق جل جلاله
ينزل لهم طعامهم يوميا من السماء وهم بدلا من أن يقابلوا هذه النعمة بالشكر قابلوها بالجحود

وقوله تعالى : { وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ } فالحق سبحانه وتعالى يتحدث للمرة
الثالثة عن ظلم قوم موسى . . ففي المرة الأولى قال « وأنتم ظالمون » . وفي الآية الثانية قال : «

ظلمتم أنفسكم . . وفي هذه الآية قال : { وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ } . .
ولقد سبق أن قلت أنه لا أحد يستطيع أن يظلم الله لأن الله سبحانه وتعالى باق بقدرته وقوته
وعظمته . . لا يقلل منها لو كفر أهل الأرض جميعا ولا يزيد فيها لو آمن أهل الأرض كلهم .
فقدرة الله باقية وكلمته ماضية .

. ولكن نحن الذين نظلم أنفسنا . . بأن نوردنا مورد التهلكة والعذاب الذي لا نجاة منه دون أن
نعطيها شيئا . .

إن الدنيا كما قلنا عالم أغيار . والنعمة التي أنت فيها زائلة عنك . إما أن تتركها بالموت أو تترك
هي وتزول عنك . . وتخرج من الدنيا تحمل أعمالك فقط . . كل شيء زال وبقيت ذنوبك
تحملها إلى الآخرة . . ولذلك فإن كل من عصى الله وتمرد على دينه قد ظلم نفسه لأنه قادها إلى
العذاب الأبدي طمعا في نفوذ أو مال زال بعد فترة قصيرة ولم يدم . . فكأنه ظلمها بأن حرمها
من نعيم أبدي وأعطاه شهوة قصيرة عاجلة . . » .

وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَاَدْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةً
نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (58)

من هذه الآية الكريمة نعرف أن بني إسرائيل رفضوا رزق السماء من المن والسلوى مع أنه كان
رزقا عاليا . . عاليا في الجودة لأنه طعام حلو نقي شهي ينزل لهم من السماء مباشرة ، وعاليا في
الكمية من أنه كان يأتيهم بلا عمل وبلا تعب وبكميات هائلة تكفيهم وتزيد . . وطلبوا من
موسى طعام الأرض الذي يزرعونه بأيديهم ويرونه أمامهم كل يوم فقد كانوا يخافون أن يستيقظوا
يوما فلا يجدون المن والسلوى . الحق سبحانه وتعالى يكمل لنا القصة في آية قادمة : { وَإِذْ قُلْتُمْ
يَامُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعَ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا
وَفُومِهَا وَعَدَسِيهَا وَبَصِلِهَا قَالَ آتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبُطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَّا
سَأَلْتُمْ } [البقرة : 61]

فالله سبحانه وتعالى ما زال يمتن على بني إسرائيل بنعمه وكيف قابلوها بالجحود . . فيذكرهم
بإنجائهم من عذاب آل فرعون . . ويذكرهم بالبحر الذي انشق لهم فمشوا فيه ثم انقض الماء بعد
ذلك على آل فرعون فأغرقهم . . ويذكرهم كيف أنهم عبدوا العجل بعد ذلك . . وكان من
الممكن أن يهلكهم الله بذنوبهم . كما أهلك الأمم السابقة ولكنه عفا عنهم . . ثم يذكرهم
بفضله عليهم بأن أعطاهم الكتاب الذي يفرق بين الحق والباطل . . ويذكرهم بأنهم طلبوا أن يروا
الله جهرة . . فصعقوا وماتوا ثم بعثهم الله . ويذكرهم كيف ظللهم بالغمام من حرارة الشمس
الحارقة . . ورزقهم بالمن والسلوى . . ثم يذكرهم بأنهم طلبوا طعام الأرض فاستجاب لهم .

في هذه الآية يقول الحق تبارك وتعالى : { فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا } . وفي آية أخرى يقول : { رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمْ } . الفرق في المعنى أن قوله تعالى : { حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا } تدل على أن هناك أصنافاً كثيرة من الطعام .

{ وَرَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمْ } يكون هناك صنف واحد والناس جائعون فيقبلون على الطعام . . عندما يقول الحق جل جلاله : كلوا رغداً يكون المخاطب هنا نوعين : إنسان غير جائع ولذلك تعد له ألواناً متعددة من الطعام لتغريه على الأكل . . فتقدم في هذه الحالة « حيث شئتم » فيقال : { فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا } . . فإذا كان الإنسان جوعان يرضى بأي طعام . . فيقال رغداً حيث شئتم .

إن المسألة في القرآن الكريم ليست تقدماً وتأخيراً في الألفاظ . . ولكن المعنى لا يستقيم بدون هذا التغيير . . قوله تعالى { ادخلوا هذه القرية } . . والقرية هي هنا بيت المقدس أو فلسطين أو الأردن . . الحق تبارك وتعالى يقول : { وادخلوا الباب سُجَّداً وَقُولُوا حِطَّةً نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ } . .

والحق جل جلاله حين خاطبهم بين لنا أنهم لم يكونوا في حالة جوع شديد بحيث يأكلون أي شيء فقال : { فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا } أي ستجدون فيها ألواناً كثيرة من الطعام تغريكم على الأكل ولو لم تكونوا جائعين .

وقوله تعالى : { وادخلوا الباب سُجَّداً } . . أي ادخلوا الباب وأنتم في منتهى الخضوع . . { وَقُولُوا حِطَّةً } أي حط عنا ذنوبنا يا رب . . غير أنهم حتى في الأمر يغيرون مضمونه . . ويلبسون الحق بالباطل . . وهذه خاصية فيهم . . ولذلك دخلوا الباب وهم غير ساجدين . . دخلوه زاحفين على ظهورهم . . مع أن ما أمرهم الله به أقل مشقة مما فعلوه . . فكأن المخالفة لم تأت من أن أوامر الله شاقة . . ولكنها أتت من الرغبة في مخالفة أمر الخالق وبدلاً من أن يقولوا حطة . أي حط عنا يا رب ذنوبنا قالوا حنطة والحنطة هي القمح . . ليطوعوا اللفظ لأغراضهم . . فكأن المسألة ليست عدم قدرة على الطاعة ولكن رغبة في المخالفة . ومع أن الحق تبارك وتعالى وعدهم بالمغفرة والرحمة والزيادة للمحسنين . . فإنهم خالفوا وعصوا . . وقوله تعالى : { وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ } يأتي في الآية الكريمة : { لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ } [

يونس : 26]

أي لهم أجر مثل ما فعلوا أضعافاً مضاعفة . . وما هي الزيادة؟
أن يروا الله يوم القيامة . هذه هي الزيادة التي ليس لها نظير في الدنيا .

فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (59)

الله سبحانه وتعالى يشرح لنا في هذه الآية الكريمة كيف أن اليهود قوم معصية برغم نعم الله عليهم . . فلو أن الله سبحانه وتعالى كلفهم تكليفا لم يستطيعوه؛ لأنه شاق عليهم فرما كان لهم عذرهم . . ولكن الله تبارك وتعالى لا يكلف إلا بما هو في طاقة الإنسان أو أقل منها . . فيقول جل جلاله : { لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ } [البقرة : 286]
والله تبارك وتعالى لم يكلف بني إسرائيل بأن يدخلوا هذه القرية التي يقال : إنها القدس ويقال أنها قرية في فلسطين أو قرية في الأردن . . إلا بناء على طلبهم هم . فهم الذين طلبوا من موسى أن يدعو الله لهم أن يدخلوا واديا فيه زرع . . ليأكلوا مما تنتج الأرض ويطمئنوا على طعامهم . . لأنهم يخافون أن يأتي يوم . . لا ينزل عليهم المن والسلوى من السماء . . فلما استجاب الله لدعواتهم وقال لهم ادخلوا الباب خاشعين . وقولوا يا رب حط عنا ذنوبنا . . بدل بنو إسرائيل القول فبدلا من أن يقولوا حطة قالوا حنطة . . وبدلوا طريقة الدخول فبدلا من أن يدخلوا ساجدين دخلوا على ظهورهم زاحفين . . وكان هذا رغبة في المخالفة . . فأصابهم الله بعذاب من السماء بما كانوا يفسقون . . أي يتعدون عن منهج الله ولا يطبقونه . رغبة في المخالفة وإصرارا على العناد .

وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ نَضْرًا قَالَ رَبِّ انقِصْ عَنِّي الْقُوَّةَ فَاتَّبَعْتُ قَوْمِي أَمَّا بَنُو إِسْرَائِيلَ فَاتَّخَذْنَا مِنْكُمْ آيَةً فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَيْهَاتَ مِنْهَا لَعَلَّكُمْ أَتَقَاتُونَ أَلَيْسَ لِي بِعَذَابٍ يُظَمُّونَ
كُلُّ أَنَاسٍ مَشْرَهْمُ كُلُّوْا وَاشْرَبُوْا مِنْ رِزْقِ اللّٰهِ وَلَا تَعْتَوْا فِي الْاَرْضِ مُفْسِدِيْنَ (60)

ومعناها : اذكر إذا استسقى موسى لقومه . . وهذه وردت كما بينا في عدة آيات في قوله تعالى :
{ وَإِذِ انجَبْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سِوَاءَ الْعَذَابِ } [الأعراف : 141]
وقول سبحانه : { وَإِذِ وَاَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً } [البقرة : 51]
وقوله جل جلاله : { وَإِذِ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً } [البقرة : 55]
وقلنا أن هذه كلها نعم امتن الله بها على بني إسرائيل وهو سبحانه وتعالى يذكرهم بها . إما مباشرة وإما على لسان موسى عليه السلام . والحق يريد أن يذكر بني إسرائيل حينما تاهوا في الصحراء أنه أظلمهم بالغمام . . وسقامهم حين طلبوا السقيا . . ولقد وصلت ندرة الماء عند بني إسرائيل لدرجة أنهم لم يجدوا ما يشربونه . . لأن الإنسان يبدأ الجفاف عنده لعدم وجود ماء يسقي به زرعه . . ثم يقل الماء فلا يجد ما يسقي به أنعامه . . ثم يقل الماء فلا يجد ما يشربه . . وهذا هو قمة الجفاف أو الجذب . .

وموسى عليه السلام طلب السقيا من الله تبارك وتعالى . . ولا تطلب السقيا من الله إلا إذا كانت الأسباب قد نفذت . . وانتهت آخر نقطة من الماء عندهم؛ فالماء مصدر الحياة ينزله الله من السماء . . وينزله نقيا طاهرا صالحا للشرب والري والزرع وسقيا الأنعام . . والحق سبحانه وتعالى جعل ثلاثة أرباع الأرض ماء والربع يابس . . حتى تكون مساحة سطح

الماء المعرضة للتبخّر بواسطة أشعة الشمس كبيرة جدا فتسهل عملية البخر؛ فإنك إذا جئت بكوب ماء وتركته في حجرة مغلقة لمدة يومين أو ثلاثة . ثم عدت تجده ناقصا قيراطا أو قيراطين . ولكن إذا أمسكت ما في الكوب من ماء وألقيته على أرض الحجرة . . فإنه يجف قبل أن تغادرها لماذا؟ . . لأن مساحة سطح الماء هنا كبيرة . . ولذلك يتم البخر بسرعة ولا يستغرق وقتا .

وهذه هي النظرية نفسها التي تتم في الكون . الله تبارك وتعالى جعل سطح الماء ثلاثة أرباع الأرض ليتم البخر في سرعة وسهولة . . فيتكون السحاب وينزل المطر نأخذ منه ما نحتاج إليه ، والباقي يكون ينابيع في الأرض ، مصداقا لقوله تبارك وتعالى : { أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ

مَاءً فَسَلَكَهُ يَنْبِيعَ فِي الْأَرْضِ } [الزمر : 21]

هذه الينابيع تذهب إلى أماكن لا يصلها المطر . ليشرب منها الناس بما نُسّميه الآبار أو المياه الجوفية . . وتشرب منها أنعامهم . . فإذا حدث جفاف يخرج الناس رجالا ونساء وصبيانا وشيوخا . يتضرعون إلى الله ليمطرهم بالماء . . ونحن إذا توسلنا بأطفالنا الرضع وبالضعفاء يطرنا الله .

وبعض الناس يقولون أن المطر ينزل بقوانين علمية ثابتة . . يصعد البخار من البحار ويصبح سحابة في طبقات الجو العليا ثم ينزل مطرا .

. تلك هي القوانين الثابتة لنزوله .

وأن السحاب لا بد أن يكون ارتفاعه عدد كذا من الأمتار . . ليصل إلى برودة الجو التي تجعله ينزل مطرا . ولا بد أن يكون السحاب ملقحا . . نقول أن هذا كله مرتبط بمتغيرات . فالرياح تهب أو لا تهب . وتحمل السحاب إلى منطقة عالية باردة ولا تحمله وغير ذلك . . إذن فكل ثابت محمول على متغير . . قد تعرف أنت القوانين الثابتة . . ولكن القوانين المتغيرة لا يمكن أن تنبأ بما ستفعل ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى : { وَاللَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقِينَهُمْ مَاءً غَدَقًا } [الجن : 16]

إذن فعوامل سقوط المطر لا تخضع لقوانين ثابتة . ولكن المتغير هو العامل الحاسم . ليسوق السحاب إلى المناطق الباردة وإلى الارتفاع المطلوب . . ولا بد أن تنتبه إلى أن هناك قوانين ثابتة في الكون وقوانين تتغير . . وأن القانون المتغير هو الذي يحدث التغير . وقوله تعالى : { وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ } . . تدل على أن هناك مُستسقى بفتح القاف وأن هناك مستسقي بكسر القاف . . مستسقي بكسر القاف أي ضارع إلى الله لينزل المطر . . أما المستسقى بفتح القاف فهو الله سبحانه وتعالى الذي ينزل المطر . .

إن هذا الموقف خاص بالله تبارك وتعالى فلا توجد مخازن للمياه وليس هناك ماء في الأرض . . من أنهار أو آبار أو عيون ولا ملجأ إلا الله . . فلا بد من التوسل لله تبارك وتعالى :

عن أنس رضي الله عنه أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان إذا قحطوا استسقى بالعباس بن
المطلب رضي الله عنه فقال : اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا صلى الله عليه وسلم فنتسقين ، وإنا
نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا قال : فيسقون »

بعض الناس يقولون هذا دليل على أن الميت لا يستعان به . . بدليل أن عمر ابن الخطاب رضي
الله عنه لم يتوسل برسول الله صلى الله عليه وسلم بعد موته ، وإنما توسل بعم رسول الله . . نقول
وبمن توسل عمر؟ . . أتوسل بالعباس أم بعم رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ . . توسل
بالرسول ، وبذلك أخذنا الحجة أن الوسيلة ليست مقصورة على رسول الله صلى الله عليه وسلم
. . وإنما تتعدى إلى أقرابه . .

وهنا يأتي سؤال لماذا نقل الأمر من رسول الله عليه الصلاة والسلام إلى عم الرسول؟ . . نقول
لأن رسول الله قد انتقل ولا ينتفع الآن بالماء . . ولكن عمه العباس هو الحي الذي ينتفع بالماء .
لذلك كان التوسل بعم رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولم يكن منطقياً أن يتوسلوا برسول الله
عليه الصلاة والسلام وهو ميت ولا يحتاج إلى الماء . . والذين أرادوا أن يأخذوا التوسل بذوي
الجاه . . نقول لهم أن الحديث ضدكم وليس معكم .

. لأنه أثبت أن التوسل جائز بمن ينتسب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .
لا بد أن نتحدث كيف أن الحق سبحانه وتعالى بعد أن قابل بنو إسرائيل النعمة بالجحود والنيكران
فكيف يسقيهم؟ . . نقول إنها النبوة الرحيمة التي كانت السبب في تنزل الرحمة تلو الرحمة على
بني إسرائيل . . وكان طمع موسى في رحمة الله بلا حدود . . ولذلك فإن الدعوات كانت تتوالى
من موسى عليه السلام لقومه . . وكانت الاستجابة من الله تأتي .

كان من المفروض لاستكمال المعنى أن يقال وإذا استسقى موسى ربه لقومه فقال يا رب اسقهم
. . ولكن هذه لم تأت حذفت وجاء بعدها الإجابة : { وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ
بِعَصَاكَ الْحَجَرَ } . . إذن قوله يا رب اسق قومي واستجابة الله له محذوفة لأنها مفهومة . .

ولذلك جاء القرآن باللفظات الأساسية وترك اللفظات المفهومة لذكاء الناس . . تماماً كما جاء في
سورة النمل : الهدهد ذهب ورأى ملكة بلقيس وعرشها . وعاد إلى سليمان وأخبره . فطلب
سليمان من الهدهد أن يلقي إلى ملكة سبأ وقومها كتابا وقال : { اذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهِ إِلَيْهِمْ
ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ * قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ } [النمل : 28-

[29

فسليمان أمر الهدهد أن يلقي كتابا إلى بلقيس وقومها . . والآية التي بعدها جاءت بقوله تعالى :
قالت { يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ } كل التفاصيل حذفت من أن الهدهد أخذ الكتاب
وطار إلى ملكة سبأ وألقى الكتاب أمام عرشها . . والتقطت بلقيس ملكة سبأ الكتاب وقرأته .

. ودعت قومها وبدأت تروي إليهم قصة الكتاب . . كل هذا حُذِفَ لأنه مفهوم .
قال موسى يا رب اسق قومي . . والله سبحانه وتعالى قال له : إن أردت الماء لقومك . . كل
هذا محذوف . . وتأتي الآية الكريمة : { اضرب بِعَصَاكَ الحجر } .
{ اضرب بِعَصَاكَ الحجر } لنا معها وقفة . . الإنسان حين يستسقي الله . . يطلب منه أن ينزل
عليه مطرا من السماء ، والحق تبارك وتعالى كان قادرا على أن ينزل على بني إسرائيل مطرا من
السماء . ولكن الله جل جلاله أراد المعجزة . . فقال سأمدكم بماء ولكن من جنس ما منعكم
الماء وهو الحجر الموجود تحت أرجلكم . . لن أعطيك ماء من السماء . . ولكن الله سبحانه
وتعالى أراد أن يُري بني إسرائيل مدى الإعجاز . . فأعطاهم الماء من الحجر الذي تحت أرجلهم .
ولكن من الذي يتأثر بالضرب : الحجر أم العصا؟ . . العصا هي التي تتأثر وتتحطم والحجر لا
يحدث فيه شيء . . ولكن الله سبحانه وتعالى أراد بضربة واحدة من العصا أن ينفلق الحجر . .
ولذلك يقول الشاعر :

أيا هازئاً من صنوف القدرِ ... بنفسك تعنف لا بالقدرِ
ويا ضاربا صخرةً بالعصا ... ضربتَ العصا أم ضربتَ الحجرِ

إن انفجار الماء من ضربة العصا دليل على أن العصا أشارت فقط إلى الصخرة فتفجر منها الماء
. . وحتى لو كانت العصا من حديد . . هل تكون قادرة على أن تجعل الماء ينبع من الحجر؟
فالحق سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا إلى أنه كان من الممكن أن ينزل الماء من السماء . . ولكن
الله أرادها نعمة مركبة . . ليعلموا أنه يستطيع أن يأتي الماء من الحجر الصلب . . وأن ينبع الماء
من متعلقات « كن » .

هنا لا بد أن ننظر إلى تعنت بني إسرائيل . قالوا لموسى هب أننا في مكان لا حجر فيه . من أين
ينبع الماء؟ . . لا بد أن نأخذ معنا الحجر حتى إذا عطشنا نضرب الحجر بالعصا . . ونسوا أن
هناك ما يتم بالأسباب وما يتم بكلمة « كن » . . ولذلك تجد مثلاً كبار الأطباء يختارون في
علاج مريض . . ثم يشفى على يد طبيب ناشئ حديث التخرج . . هل هذا الطبيب الناشئ
يعرف أكثر من أساتذته الذين علموه؟ . . الجواب طبعاً لا .

إن التلميذ لا يتفوق على أستاذه الذي علمه فليس العلاج بالأسباب وحدها ولكن بقدرة
المسبب . . ولذلك جاء موعد الشفاء على يد هذا الطبيب الناشئ . . فكشف الله له الداء
وألهمه الدواء .

يقول الحق سبحانه وتعالى : { فانفجرت مِنْهُ اثنتا عَشْرَةَ عَيْنًا } لماذا اثنتا عشرة عينا . لأن
اليهود كانوا يعيشون حياة انعزال . كل مجموعة منهم كانت تسمى « سبطا » لها شيخ مثل شيخ
القبيلة . . والحق تبارك وتعالى يقول : { قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرِكُكُمْ } أي كل سبط أو مجموعة

ذهبت لمشرب . . نبت العيون من الحجر امتدت متشعبة إلى الأسباب جميعا كل في مكانه . .
 فإذا ما أخذوا حاجتهم ضرب موسى الحجر فيجف . ولذلك نعرف أن الحجر كان يعطيهم الماء
 على قدر الحاجة وكانت الجهة السفلى من الحجر الملامسة للأرض . . والجهة العليا التي ضرب
 عليها بالعصا لم ينبع منهما شيء ، أما باقي الجهات الأربع فقد نبع منها كل منها ثلاثة ينابيع .
 وهناك شيء في اللغة يسمونه اللفظ المشترك . . وهو الذي يستخدم في معانٍ متعددة . . فإذا
 قلت سقى القوم دواجم من العين . . العين هنا عين الماء . . وإذا قلت أرسل الأمير عيونيه في
 المدينة يعني أرسل جنوده . . وإذا قلت اشتريته بعين أي بذهب . . وإذا قلت نظر إلي بعينه
 شذرا أي ببصره . . إذن كلمة عين تستخدم في أشياء متعددة . . ومعناها هنا عين الماء الجارية .
 قوله تعالى : { قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ } أي أن كل سبط عرف مكانه الذي يلزمه . . حتى لا
 يضيع من كل منهم الماء . . ولكن الإنسان حينما يكون مضطرا يلتزم بما يطلبه الله منه ويكون
 ملتزما بالأداء ، فإذا فرج الله كربته وعادت إليه النعمة يعود إلى طغيانه .

. ولذلك يقول الحق جل جلاله فيها : { كَلُواْ واشربوا من رزقِ الله وَلَا تَعْتُواْ فِي الأرضِ مَفْسِدِينَ
 { أي لا يكون شكركم على النعمة بالإفساد في الأرض . . وقرأ قوله تعالى : { لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي
 مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُواْ من رزقِ ربِّكم واشكروا لَهُ بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبِّ غَفُورٌ *
 فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ العرمِ وَبَدَّلْنَاهُمُ جَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِي أُكُلٍ حَمْطٍ وَأَثَلٍ وَشَيْءٍ مِّن
 سِدْرٍ قَلِيلٍ { [سبأ : 15-15]

هنا نرى أن أهل سبأ رزقهم الله فأعرضوا عن شكره . . كانوا يتيهون بالسد الذي يحفظ لهم مياه
 الأمطار . . ويمدهم بما يحتاجون إليه منها طوال العام ، وأخذوا يتفاخرون بعلمهم ونسوا الله
 الذي علمهم . . فكان هذا السد هو النكبة أو الكارثة التي أهلكت زرعهم . . كذلك حدث
 لبني إسرائيل ، قيل لهم : { كَلُواْ واشربوا من رزقِ الله وَلَا تَعْتُواْ فِي الأرضِ مَفْسِدِينَ } فأفسدوا
 في الأرض ونسوا نعمة الله فنزل بهم العذاب .

وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الأرضُ مِنْ بَقْلِهَا
 وَقَتَائِهَا وَفُومَهَا وَعَدْسَهَا وَبَصْلَهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ
 لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ
 بآياتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (61)

هذه الآية الكريمة أيضا من آيات التذكير بنعم الله سبحانه وتعالى على موسى وعلى بني إسرائيل
 . . وكنا قد تعرضنا لمعنى طعام واحد عند ذكر المن والسلوى . . وقلنا أن تكرار نزول المن
 والسلوى كل يوم جعل الطعام لونا واحدا . . وكلمة واحد هي أول العدد . . فإذا إنضم إليه

مثله يصير اثنين . . وإذا إنضم إليه مثله يصبح ثلاثة . . إذن فأصل العدد هو الواحد . .
والواحد يدل على وحدة الفرد ولا يدل على وحدانية . . فإذا قلنا الله واحد فإن ذلك يعني أنه
ليس كمثله أحد . . ولكنه لا يعني أنه ليس مكوناً من أجزاء . . فأنت لست واحداً ولست
أحداً لأنك مكون من أجزاء كما أن هناك من يشبهونك . . والشمس في مجموعتنا واحدة
ولكنها ليست أحداً لأنها مكونة من أجزاء وتتفاعل . . والله سبحانه وتعالى واحد ليس كمثله
شيء . . وأحد ليس مكوناً من أجزاء . . ولذلك من أسمائه الحسنى الواحد الأحد . . ولا نقول
أن الاسم مكرر فهذه تعني الفردية ، وهذه تنفي التجزئة .

وقوله تعالى : { لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ } . . نلاحظ هنا أن الطعام وُصف بأنه واحد رغم أنه
مكون من صنفين هما المن والسلوى . . ولكنه واحد لرتابة نزوله . . الطعام كان يأتيهم من
السماء . . ولكن تعنتهم مع الله جعلهم لا يصبرون عليه فقالوا ما يدرينا لعله لا يأتي . . نريد
طعاماً نزرعه بأيدينا ويكون طوال الوقت أمام عيوننا . . وكأن هذه المعجزات كلها ليست كافية .
لتعطيهم الثقة في استمرار رزق الله . . إنهم يريدون أن يروا . . ألم يقولوا لموسى : { أَرِنَا اللَّهَ
جَهْرَةً } . .

ماذا طلبوا؟ . . قالوا : { فَادِعْ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ } . . { ادع لنا ربك } أي
أطلب من الله . . ولأن الدعاء لون من الطلب فإنك حين تتوجه إلى الله طالبا أن يعطيك . .
فإنك تدعو بذلة الداعي أمام عزة المدعو . . والطلب إن كان من أدنى إلى أعلى قيل دعاء . .
ومن مساوٍ إلى مساوٍ قيل طلب . . ومن أعلى إلى أدنى قيل أمر . .

لقد طلب بنو إسرائيل من موسى أن يدعو الله سبحانه وتعالى أن يخرج لهم أطعمة مما تنبت
الأرض . . وعدادوا ألوان الأطعمة المطلوبة . . وقالوا : { مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا
وَبَصَلِهَا } . . ولكنها كلها أصناف تدل على أن من يأكلها هم من صنف العبيد . . والمعروف
أن آل فرعون إستعبدوا بني إسرائيل . . ويبدو أن بني إسرائيل أحبوا حياة العبودية واستطعموها
. .

الحق تبارك وتعالى كان يريد أن يرفع قدرهم فنزل عليهم المن والسلوى .

. ولكنهم فضلوا طعام العبيد . . والبقل ليس مقصوداً به البقول فحسب . . ولكنه كل نبات لا
ساق له مثل الخس والفجل والكراث والجرجير . . والقثاء هو القثاء صنف من الخيار . . والفوم
هو القمح أو الثوم . . والعدس والبصل معروفان . . والله سبحانه وتعالى قبل أن يجيبهم أراد أن
يؤنبهم : فقال { أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ } . .

عندما نسمع كلمة استبدال فاعلم أن الباء تدخل على المتروك . . تقول إشتريت الثوب بدرهم .
يكون معنى ذلك إنك أخذت الثوب وتركت الدرهم .

قوله تعالى : { الذي هُوَ أَدْنَىٰ بِالذِّي هُوَ خَيْرٌ } . . أي انهم تركوا الذي هو خير وهو المن والسلوى . . وأخذوا الذي هو أدنى . . والدنو هنا لا يعني الدناءة . . لأن ما تنتجه الأرض من نعم الله لا يمكن أن يوصف بالدناءة . . ولكن الله تبارك وتعالى يخلق بالأسباب ويخلق بالأمر المباشر . . ما يخلقه الله بالأمر المباشر منه بكلمة « كن » . . يكون خيرا مما جاء بالأسباب . . لأن الخلق المباشر لا صفة لك فيه . . عطاء خالص من الله . . أما الخالق بالأسباب فقد يكون لك دور فيه . . كأن تحرث الأرض أو تبتذر البذور . . ما جاء خالصا من الله بدون أسبابك يقترب من عطاء الآخرة التي يعطي الله فيها بلا أسباب ولكن بكلمة « كن » . . ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : { وَلَا تُمَدِّدْ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقَ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ } [طه : 131]

فإن الله تبارك وتعالى يصف رزق الدنيا بأنه فتنة . . ويصف رزق الآخرة بأنه خير منه . . مع أن رزق الدنيا والآخرة ، وكل رزق في هذا الوجود حتى الرزق الحرام هو من الله جل جلاله . . فلا رازق إلا الله ولكن الذي يجعل الرزق حراما هو استعجال الناس عليه فيأخذونه بطريق حرام . . ولو صبروا لجاءهم حلالا . .

نقول إن الله سبحانه وتعالى هو الذي يرزق . . ولكنه سمي رزقا فتنة وسمى رزقا خيرا منه . . ذلك أن الرزق من الله بدون أسباب أعلى وأفضل منزلة من الرزق الذي يتم بالأسباب . . إذن الحق سبحانه وتعالى حين يقول : { أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ } . . يكون المعنى أتستبدلون الذي هو رزق مباشر من الله تبارك وتعالى . . وهو المن والسلوى يأتيكم « بكن » قريب من رزق الآخرة بما هو أقل منه درجة وهو رزق الأسباب في الدنيا . . ولم يجب بنو إسرائيل على هذا التأييب . . وقال لهم الحق سبحانه وتعالى : { اهبطوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَّا سَأَلْتُمْ } . . ولا يقال لهم ذلك إلا لأنهم أصروا على الطلب برغم أن الحق جل جلاله بين لهم أن ما ينزله إليهم خير مما يطلبونه .

نلاحظ هنا أن مصر جاءت منونَةً . . ولكن كلمة مصر حين ترد في القرآن الكريم لا ترد منونة . . ومن شرف مصر أنها ذكرت أكثر من مرة في القرآن الكريم . . نلاحظ أن مصر حينما يقصد بها وادي النيل لا يأتي أبدا منونة وإقرأ قوله تعالى : { تَبَوَّءَ لِقَوْمِكُمَا مِصْرَ بُيُوتًا } [يونس :

[87

وقوله جل جلاله : { أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي } [الزخرف : 51]

وقوله سبحانه : { وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ } [يوسف : 21]

وقوله تبارك وتعالى : { ادخلوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ } [يوسف : 99]

كلمة مصر ذكرت في الآيات الأربع السابقة بغير تنوين . . ولكن في الآية التي نحن بصدددها : { اهبطوا مِصْرًا } بالتنوين . . هل مصر هذه هي مصر الواردة في الآيات المشار إليها؟ . . نقول لا . . لأن الشيء الممنوع من الصرف للعلمية والتأنيث . . إذا كان لبقعة أو مكان . . مرة تلحظ أنه بقعة فيبقى مؤنثاً . . ومرة تلحظ أنه مكان فيكون مذكراً . . فإن كان بقعة فهو علم ممنوع من الصرف . . وإن كان مكانا تكون فيه علمية وليس فيه تأنيث . . ومرة تكون هناك علمية وأهمية ولكن الله صرفها في القرآن الكريم . . كلمات نوح ولوط وشعيب ومحمد وهود . . كل هذه الأسماء كان مفروضا أن تمتنع من الصرف ولكنها صرفت . . فليل في القرآن الكريم نوحا ولوط وشعيبا ومحمدا وهودا . . إذن فهل من الممكن أن تكون مصر التي جاءت في قوله تعالى : { اهبطوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَّا سَأَلْتُمْ } هي مصر التي عاشوا فيها وسط حكم فرعون . . قوله تعالى : { اهبطوا مِصْرًا } من الممكن أن يكون المعنى أي مصر من الأمصار . . ومن الممكن أن تكون مصر التي عاش فيها فرعون . . وكلمة مصر تطلق على كل مكان له مفتي وأمير وقاض . . وهي مأخوذة من الاقتطاع . . لأنه مكان يقطع إمتداد الأرض الخلاء . . ولكن الثابت في القرآن الكريم . . إن مصر التي لم تنون هي علم على مصر التي نعيش فيها . . أما مِصْرًا التي خضعت للتنوين فهي تعني كل وادٍ فيه زرع . .

وقوله تعالى : { وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ } . . الذلّة هي المشقة التي تؤدي إلى الإنكسار . . ويمكن أن ترفع عنك بأن تكون في حمى غيرك فيعزك بأن يقول إنك في حماه . . والله سبحانه وتعالى يقول عن بني إسرائيل : { ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ أَيَّنَ مَا تَقَفُوا إِلَّا بِجَبَلٍ مِّنَ اللَّهِ وَجَبَلٍ مِّنَ النَّاسِ } [آل عمران : 112]

جبل من الله كما حدث عندما عاهدهم رسول الله صلى الله عليه وسلم في المدينة . . وعاشوا في حمى العهد . . إذن بجبل من الله أي على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم أو المؤمنين به .

. . وبجبل من الناس أي في حماية دولة قوية كالولايات المتحدة الأمريكية . . إذا عاهدتم عزوا وإن تركتهم ذلوا . .

وقوله تعالى : { وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ } ضربت أي طبعت طبعة قوية بضربة قوية تجعل الكتابة بارزة على النقود . . ولذلك يقال ضربت في مصر . . أي أعدت بضربة قوية أذلتهم وبقيت بارزة لا يستطيعون محوها . . أما المسكنة فهي انكسار في الهيئة .

أهل الكتاب كانوا يدفعون الجزية والجزية كانت تؤخذ من الأغنياء . . وكانوا يلبسون الملابس القذرة . . ويقفون في موقف الذل والخزي حتى لا يدفعوا الجزية .

وقوله تعالى : { وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ } . . أي غضب الله عليهم بذنوبهم وعصيانهم . حتى أصبح الغضب من كثرة عصيانهم كأنه سمة من سماتهم لماذا؟ : { ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ

اللَّهُ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّنَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ { أي أنهم كانوا يكفرون بالنعم ولا يشكرون . . . ويكفرون بالآيات ويشترون بها ثمنا قليلا . . . ولم يكتبوا بذلك بل كانوا يقتلون أنبياء الله بغير حق . . .

الأنبياء غير الرسل . . . والأنبياء أسوة سلوكية ولكنهم لا يأتون بمنهج جديد . . . أما الرسل فهم أنبياء بأنهم أسوة سلوكية ورسول لأنهم جاءوا بمنهج جديد . . . ولذلك كل رسول نبي وليس كل نبي رسولا . . . والله سبحانه وتعالى يعصم أنبياءه ورسوله من الخطيئة . . . ولكنه يعصم رسوله من القتل فلا يقدر عليهم أعداؤهم . . . فمجيء الأنبياء ضرورة . . . لأنهم نماذج سلوكية تسهل على الناس التزامهم بالمنهج ، وبنو إسرائيل بعث الله لهم أنبياء ليقتدوا بهم فقتلواهم . . . لماذا؟ . . . لأنهم فضحوا كذبهم وفسقهم وعدم التزامهم بالمنهج . . . ولذلك تجدد الكافر والعاصي وغير الملتزم بغيره ويكره الملتزم بمنهج الله . . . ويحاول إزالته عن طريقه ولو بالقتل . . . إذن فغضب الله عليهم من عصيانهم واعتدائهم على الأنبياء وما ارتكبهوا من آثام .

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (62)

بعد أن تحدث الحق سبحانه وتعالى عن بني إسرائيل وكيف كفروا بنعمه . . . أراد أن يعرض لنا حساب الأمم التي سبقت أمم رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم القيامة ، ولقد وردت هذه الآية في سورة المائدة ولكن بخلاف يسير من التقديم والتأخير . . . ففي سورة المائدة : { إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى } [المائدة : 69]

أي أنه في سورة المائدة تقدمت الصابئون على النصارى . . . واختلف الإعراب فبينما في البقرة و « الصابئين » . . . وفي المائدة و « الصابئون » . . . وردت آية أخرى في سورة الحج : { إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ } [الحج : 17]

الآيات الثلاث تبدو متشابهة . . . إلا أن هناك خلافاً كثيرة . . . ما هو سبب التكرار الموجود في الآيات . . . وتقديم الصابئين مرة وتأخيرها . . . ومع تقديمها رفعت وتغير الإعراب . . . وفي الآيتين الأوليين (البقرة والمائدة) تأتي : { مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ } . . . أما في الآية التي في سورة الحج فقد زاد فيها : { الْجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا } . . . واختلف فيها الخبر . . . فقال الله سبحانه وتعالى : { إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ } .

عندما خلق الله وأنزله ليعمر الأرض أنزل معه الهدى . . . وقرأ قوله تعالى : { فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى } [طه : 123]

مفروض أن آدم أبلغ المنهج لأولاده . . وهؤلاء أبلغوه لأولادهم وهكذا . . وتشغل الناس الحياة وتطراً عليهم الغفلة . . ويصيبهم طمع الدنيا وجشعها ويتبعون شهواتهم . . فكان لابد من رحمة الله خلّقه أن يأتي الرسل ليذكروا وينذروا ويبشروا . .

الآية الكريمة تقول : { إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا } . . أي إيمان الفطرة الذي نزل مع آدم إلى الأرض . . وبعد ذلك جاءت أديان كفر الناس بها فأبيدوا من على الأرض . . كقوم نوح ولوط وفرعون وغيرهم . . وجاءت أديان لها اتباع حتى الآن كاليهودية والنصرانية والصابئية ، والله سبحانه وتعالى يريد أن يجمع كل ما سبق في رسالة محمد عليه الصلاة والسلام . . ورسول الله صلى الله عليه وسلم جاء لتصفية الوضع الإجماعي في الأرض . . إذن الذين آمنوا أولاً سواء مع آدم أو مع الرسل . . الذين جاءوا بعده لمعالجة الداءات التي وقعت . . ثم الذين تسموا باليهود والذين تسموا بالنصارى والذين تسموا بالصابئة . . فالله تبارك وتعالى يريد أن يبلغهم لقد انتهى كل هذا . . فمن آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . . فكأن رسالته عليه الصلاة والسلام جاءت لتصفية كل الأديان السابقة .

. وكل إنسان في الكون مطالب بأن يؤمن بمحمد عليه الصلاة والسلام . . فقد دعى الناس كلهم إلى الإيمان برسالته . . ولو بقي إنسان من عهد آدم أو من عهد إدريس أو من عهد نوح أو إبراهيم أو هود . . وأولئك الذين نسبوا إلى اليهودية وإلى النصرانية وإلى الصابئية . . كل هؤلاء مطالبون بالإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم والتصديق بدين الإسلام . . فالإسلام يمسخ العقائد السابقة في الأرض . . ويجعلها مركزة في دين واحد . . الذين آمنوا بهذا الدين : { لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ } . . والذين لم يؤمنوا لهم خوف وعليهم حزن . . وهذا إعلان بوحدة دين جديد . . ينتظم فيه كل من في الأرض إلى أن تقوم الساعة . . أما أولئك الذين ظلوا على ما هم عليه . . ولم يؤمنوا بالدين الجديد . . لا يفصل الله بينهم إلا يوم القيامة . . ولذلك فإن الآية التي تضمنت الحساب والفصل يوم القيامة . . جاء فيها كل من لم يؤمن بدين محمد عليه الصلاة والسلام . . بما فيهم الجوس والذين أشركوا .

والحق تبارك وتعالى أراد أن يرفع الظن . . عمن تبع ديننا سبق الإسلام وبقي عليه بعد السلام . . وهو يظن أن هذا الدين نافعه . . نقول له أن الحق سبحانه وتعالى قد حسم هذه القضية في قوله

تعالى : { وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ } [آل عمران : 85]

وقوله جل جلاله : { إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ } [آل عمران : 19]

إذن التصفية النهائية لموكب الإيمان والرسالات في الوجود حسمت . . فالذي آمن بمحمد عليه الصلاة والسلام . . لا يخاف ولا يحزن يوم القيامة . . والذي لم يؤمن يقول الله تبارك وتعالى له {

إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ { . . . إِذْ الَّذِينَ آمَنُوا هُمْ الَّذِينَ وَرَثُوا الْإِيمَانَ مِنْ عَهْدِ آدَمَ . . .
وَالَّذِينَ هَادُوا هُمْ أَتْبَاعُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ . . . وَجَاءَ الْأَسْمَاءُ مِنْ قَوْلِهِمْ : « إنا هدنا إليك » أي
عدنا إليك . . . والنصارى جمع نصراني وهم منسوبون إلى الناصرة البلدة التي ولد فيها عيسى
عليه السلام . . . أو من قول الحواريين نحن أنصار الله في قوله تعالى : { فَلَمَّا أَحَسَّ عَيْسَى مِنْهُمْ
الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ } [
آل عمران : 52]

أما الصابئة فقد اختلف العلماء فيهم . . . قال بعضهم هم أتباع نوح ولكنهم غيروا بعده وعبدوا
من دون الله الوسائط في الكون كالشمس والقمر والكواكب . . . أو الصابئة هم الذين انتقلوا من
الدين الذي كان يعاصرهم إلى الدين الجديد . . . أو هم جماعة من العقلاء قالوا ما عليه قومنا لا
يقنع العقل . . . كيف نعبد هذه الأصنام ونحن نصنعها ونصلحها؟ .

. فامتنعوا عن عبادة أصنام العرب . . . فقالوا عنهم إنهم صبئوا عن دين آبائهم . . . أي تركوه
وآمنوا بالدين الجديد . . . وأيا كان المراد بالصابئين فهم كل من مال عن دينه إلى دين آخر .
أنا نلاحظ أن الله سبحانه وتعالى . . . جاء بالصابئين في سورة البقرة متأخرة ومنصوبة . . . وفي
سورة المائدة متقدمة ومرفوعة . . . نقول هذا الكلام يدخل في قواعد النحو . . . الآية تقول : {
إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا } . . . نحن نعرف أَنَّ (إِنَّ) تنصب الاسم وترفع الخبر . . . فالذين مبني لأنه إسم
موصول في محل نصب إسم لأن : { والذين هَادُوا } معطوف على الذين آمنوا يكون منصوباً
أيضاً . . . والنصارى معطوف أيضاً على إسم إن . . . والصابئين معطوف أيضاً ومنصوب بالياء لأنه
جمع مذكر سالم . . .

نأتي إلى قوله تعالى : { مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ } . هذه مستقيمة في سورة البقرة إعراباً وترتيباً
. . . والصابئين تأخرت عن النصارى لأنهم فرقة قليلة . . . لا تمثل جمهرة كثيرة كالنصارى . . . ولكن
في آية المائدة تقدمت الصابئون وبالرفع في قوله تعالى : { إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا } . . .
الذين آمنوا إسم إن والذين هادوا معطوف . . . و « الصابئون » كان القياس إعرابياً أن يقال
والصابئين . . . وبعدها النصارى معطوفة . . . ولكن كلمة (الصابئون) توسطت بين اليهود وبين
النصارى . . . وكسر إعرابها بشكل لا يقتضيه الظاهر . . . وللعرب إذن مرهفة لغوية . . . فمتى سمع
الصابئين التي جاءت معطوفة على اسم إن تأتي بالرفع يلتفت لفتة قسرية ليعرف السبب . . .
حين تولى أبا جعفر المنصور الخلافة . . . وقف على المنبر وحن لحنه أي أخطأ في نطق كلمة . . .
وكان هناك إعرابي يجلس فأذت أذنيه . . . وأخطأ المنصور للمرة الثانية فحرك الإعرابي أذنيه
باستغراب . . . وعندما أخطأ للمرة الثالثة قام الإعرابي وقال . . . أشهد أنك وليت هذا الأمر
بقضاء وقدر . . . أي أنك لا تستحق هذا . . . هذا هو اللحن إذا سمعه العربي هز أذنيه . . . فإذا

جاء لفظ مرفوعا والمفروض أن يكون منصوبا . . فإن ذلك يجعله يتنبه أن الله له حكمة وعلّة . .
فما هي العلة؟ . .

الذين آمنوا أمرهم مفهوم والذين هادوا أمرهم مفهوم والنصارى أمرهم مفهوم . . أما الصابئون
فهؤلاء لم يكونوا تابعين لدين . . ولكنهم سلكوا طريقا مخالفا . . فجاءت هذه الآية لتلفتنا أن
هذه التصفية تشمل الصابئين أيضا . . فقدمتها ورفعتها لتلفت إليها الآذان بقوة . . فالله
سبحانه وتعالى يعطف الإيمان على العمل لذلك يقول دائما : { آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا } . . لأن
الإيمان إن لم يقترن بعمل فلا فائدة منه . . والله يريد الإيمان أن يسيطر على حركة الحياة بالعمل
الصالح . . فيأمر كل مؤمن بصالح العمل وهؤلاء لا خوف عليهم في الدنيا ولا هم يحزنون في
الآخرة .

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ
(63)

يمتّن الله سبحانه وتعالى مرة أخرى على بني إسرائيل بالنعمة التي أنعم بها عليهم ويذكرهم ببحودهم
بها . . ولكننا نلاحظ أن القرآن الكريم حينما يتكلم عن اليهود . . يتكلم عنهم بالخطاب
المباشر . . فهل الذين عاصروا نزول القرآن وهم الذين أخذ الله تبارك وتعالى عليهم الميثاق . .
هؤلاء مخاطبون بمراد آبائهم وأجدادهم الذين عاصروا موسى عليه السلام .
نقول أنه كان المطلوب من كل جد أو أب أن يبلغ ذريته ما انتهت إليه قضية الإيمان . . فحين
يمتن الله عليهم أنه أهلك أهل فرعون وأنقذهم . . يمتن عليهم لأنه أنقذ آباءهم من التذبيح . .
ولولا أنه أنقذهم ما جاء هؤلاء اليهود المعاصرون لرسول الله صلى الله عليه وسلم . . فهم كانوا
مطمورين في ظهور آبائهم . . ولكي ينقذهم الله كان لابد أن تستمر حلقة الحياة متصلة . .
فمتى انتهت حياة الأب قبل أن يتزوج وينجب انتهت في اللحظة نفسها حياة ذريته . . الشيء
نفسه ينطبق على قول الحق سبحانه وتعالى : { وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ } . . إمتنان على
اليهود المعاصرين لنزول القرآن . . لأنه سبحانه وتعالى لو لم ينقذ آباءهم من الموت عطشا لماتوا
بلا ذرية .

إذن كل إمتنان على اليهود في عهد موسى هو إمتنان على ذريته في عهد رسول الله صلى الله
عليه وسلم . . والحق سبحانه وتعالى أخذ على اليهود الميثاق القديم . . ولولا هذا الميثاق ما
آمنوا ولا آمنت ذريتهم .

وقوله تعالى : { وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ } . . أي أن الله تبارك وتعالى يذكرهم بأنهم بعد أن نجوا
وأغرق الله فرعون وقومه ذهب موسى لميقات ربه ليتلقى عنه التوراة . . فعبد بنو إسرائيل العجل
 . . وعندما عاد موسى بالتوراة وبالألواح . . وجدوا في تعاليمها مشقة عليهم . . وقالوا نحن لا

نطبق هذا التكليف وفكروا ألا يلتزموا به وألا يقبلوه .

التكليف هو من مكلف هو الله سبحانه وتعالى . . وهم يقولون إن الله كلفهم ما لا يطيقون . . مع أن الله جل جلاله لا يكلف نفساً إلا وسعها . . هذا هو المبدأ الإيماني الذي وضعه الحق جل جلاله . . يظن بعض الناس أن معنى الآية الكريمة : { لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا } [البقرة

[286 :

يظنون أننا نضع أنفسنا حكماً على تكليف الله . . فإن كنا نعتقد أننا نقدر على هذا التكليف نقل هو من الله وإن كنا نعتقد أننا لا نقدر عليه بحكمنا نحن . . نقل الله لم يكلفنا بهذا لأنه فوق طاقتنا . . ولكن الحكم الصحيح هل كلفك الله بهذا الأمر أو لم يكلفك؟ إن كان الله قد كلفك فهو عليم بأن ذلك في وسعك؛ لأن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها .

. ونحن نسمع الآن صيحات تقول أن العصر لم يعد يحتمل . . وإن ظروف الدنيا وسرعة الحركة فيها وسرعة الأحداث هي تبرير أنه ليس في وسعنا أن نؤدي بعض التكليف . . ربما كان هذا التكليف في الوسع في الماضي عندما كانت الحياة بسيطة وحركتها بطيئة ومشكلاتها محدودة . نقول لمن يردّد هذا الكلام : إن الذي كلفك قديماً هو الله سبحانه وتعالى . إنه يعلم أن في وسعك أن تؤدي التكليف وقت نزوله . . وبعد آلاف السنين من نزوله وحتى قيام الساعة . . والدليل على ذلك أن هناك من يقوم بالتكليف ويتطوع بأكثر منه ليدخل في باب الإحسان؛ فهناك من يصلي الفروض وهي التكليف . . وهناك من يزيد عليها السنن . . وهناك من يقوم الليل . . فيظل يتقرب إلى الله تبارك وتعالى بالتطوع من جنس ما فرض . . وهناك من يصوم رمضان ومن يتطوع ويصوم أوائل الشهور العربية . . أو كل اثنين وخميس على مدار العام أو في شهري رجب وشعبان . . وهناك من يحج مرة ومن يحج مرات . . وهناك من يلتزم بحدود الزكاة ومن يتصدق بأكثر منها .

إذن كل التكليف التي كلفنا الله بها في وسعنا وأقل من وسعنا . . ولا يقال أن العصر قد اختلف ، فنحن الذين نعيش هذا العصر . . بكل ما فيه من متغيرات نقوم بالتكليف ونزيد عليها دون أي مشقة ، والله سبحانه وتعالى رفع فوق بني إسرائيل الطور رحمة بهم . . تماماً كما يمسك الطبيب المشرط ليزيل صديداً تكوّن داخل الجسد . . لأن الجسد لا يصح بغير هذا .

لذلك عندما أراد الله سبحانه وتعالى أن يصيب بفضله ورحمته بني إسرائيل رغم أنوفهم . . رفع فوقهم جبل الطور الموجود في سيناء . . وقال لهم تقبلوا التكليف أو أطبق عليكم الجبل . . تماماً كما أهلك الله تبارك وتعالى الذين كفروا ورفضوا الإيمان وقاوموا الرسل الذين من قبلهم . . قد يقول البعض إن الله سبحانه وتعالى أرغم اليهود على تكليف وهو القائل : { لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ

قَدْ تَبَيَّنَ الرِّشْدُ مِنَ الْغَيِّ } [البقرة : 256]

وقوله تعالى : { فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ } [الكهف : 29]

نقول إن الله جل جلاله لم يرغم أحدا على التكليف . . ولكنه رحمة منه خيرهم بين التكليف وبين عذاب يصيبهم فيهلكهم . . وهذا العذاب هو أن يُطبَّقَ عليهم جبل الطور . . إذن المسألة ليس فيها إجبار ولكن فيها تخير . . وقد خيَّرَ الذين من قبلهم بين الإيمان والهلاك فلن يصدقوا حتى أصابهم الهلاك . . ولكن حينما رأى بنو إسرائيل الجبل فوقهم خشعوا ساجدين على الأرض . . وسجودهم دليل على أنهم قبلوا المنهج . . ولكنهم كانوا وهم ساجدون ينظرون إلى الجبل فوقهم خشية أن يطبق عليهم .

. ولذلك تجدد سجود اليهود حتى اليوم على جهة من الوجه . . بينما الجهة الأخرى تنظر إلى أعلى وكان ذلك خوفا من أن ينقض الجبل عليهم . . ولو سألت يهودياً لماذا تسجد بهذه الطريقة يقول لك أحمل التوراة ويهتز منتفضاً . . نقول أنهم اهتزوا ساعة أن رفع الله جبل الطور فوقهم . . فكانوا في كل صلاة يأخذون الوضع نفسه ، والذين شهدوهم من أولادهم وذريتهم . . اعتقدوا أنها شرط من شروط السجود عندهم . . ولذلك أصبح سجودهم على جانب من الوجه . . ونظرهم إلى شيء أعلاهم يخافون منه . . أي أن الصورة التي حدثت لهم ساعة رفع جبل الطور لا زالوا باقين عليها حتى الآن .

في هذه الآية الكريمة يقول الحق تبارك وتعالى : { وَإِذَا رَفَعْنَا فَوْقَكُمْ الطُّورَ . . } وفي آية أخرى يقول المولى جل جلاله في نفس ما حدث : { وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ } [الأعراف : 171]

« نتقنا » كأن الجبل وتد في الأرض ونريد أن نخلعه . . فنحركه يمينا ويسارا حتى يمكن أن يخرج من الأرض . . هذه الحركة والزحزحة والجذب هي النتق . . والجبل كالوتد تماما يحتاج إلى هز وزعزعة وجذب حتى يخرج من مكانه . . وهذه الصورة عندما حدثت خشعوا وسجدوا وتقبلوا المنهج .

يقول الحق سبحانه وتعالى : { خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ } . . الأخذ عادة مقابل للطاء . . أنت تأخذ من معطٍ . . والتكليف أخذ من الله حتى تعطي به حركة صلاح في الكون . . إذن كل أخذ لا بد أن يأتي منه عطاء؛ فأنت تأخذ من الجليل الذي سبقك وتعطي للجيل الذي يليك . . ولكنك لا تعطيه كما هو ، ولكن لا بد أن تضيف عليه . وهذه الإضافة هي التي تصنع الحضارات .

وقوله تعالى : « بقوة » . . أي لا تأخذوا التكليف بتخاذل . . والإنسان عادة يأخذ بقوة ما هو نافع له . . ولذلك فطبيعة مناهج الله أن تؤخذ بقوة وبيقين . . لتعطي خيرا كثيرا بقوة وبيقين . . وإذا أخذت منهج الله بقوة فقد ائتمنت عليه وأن صدرك قد انشرح وتريد أن تأخذ أكثر . .

لذلك تجد في القرآن الكريم يسألونك عن كذا . . دليل على أنهم عشقوا التكليف وعلموا أنه نافع فهم يريدون زيادة النفع .
 ومادام الحق سبحانه وتعالى قال : { خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ } . . فقد عشقوا التكليف ولم يعد شاقا على أنفسهم .
 وقوله تعالى : { واذكروا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ } . . اذكروا ما فيه أي ما في المنهج وأنه يعالج كل قضايا الحياة واعرفوا حكم هذه القضايا . . { لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ } أي تطيعون الله وتتقون عقابه وعذابه يوم القيامة .

ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (64)

بعد أن بيّن الحق سبحانه وتعالى لنا كيف أمر اليهود بأن يتذكروا المنهج ولا ينسوه . . وكان مجرد تذكركم للمنهج يجعلهم يؤمنون بالإسلام ورسول الله صلى الله عليه وسلم لأنه مكتوب عندهم في التوراة ومذكورة أوصافه . . ماذا فعل اليهود؟
 يقول الحق تبارك وتعالى : { ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ } . . أي عرضتم عن منهج الله ونسيتموه ولم تلتفتوا إليه . . { فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ } ما هو الفضل وما هي الرحمة؟ الفضل هو الزيادة عما تستحق . . يقال لك هذا حقلك وهذا فضل مني أي زيادة على حقلك . .

عن عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « سَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَأَبْشُرُوا فَإِنَّهُ لَا يُدْخِلُ أَحَدًا الْجَنَّةَ عَمَلُهُ قَالُوا : وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ : وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِمَغْفِرَةٍ وَرَحْمَةٍ »

فإذا تساءلت كيف يتم هذا؟ وكيف أنه لا أحد يدخل الجنة بعمله؟ نقول نعم لأن عمل الدنيا كله لا يساوي نعمة من نعم الله على خلقه؛ فأنت تذكرت العمل ولم تذكر الفضل . . وكل من يدخل الجنة بفضل الله سبحانه وتعالى . . حتى الشهداء الذين أعطوا حياتهم وهي كل ما يملكون في هذه الدنيا . . يقول الحق سبحانه وتعالى عنهم : { فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ } [آل عمران :

[170

فإذا كان هؤلاء الشهداء وهم في أعلى مراتب الجنة قد دخلوا الجنة بفضل الله . . فما بالك بمن هم أقل منهم أجرا . . والله سبحانه وتعالى له فضل على عباده جميعا . . وقرأ قوله تعالى : { إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ } [البقرة : 243]

أما الرحمة فهي التي فتحت طريق التوبة لغفران الذنوب . . والله سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا إلى أنه لولا هذا الفضل لبني إسرائيل . . ولولا أنه فتح لهم باب الرحمة والمغفرة ليعودوا مرة أخرى

إلى ميثاقهم ومنهجهم . . لولا هذا لكانوا من الخاسرين الذين أصابهم خسران مبین في الدنيا والآخرة . . ولكن الله تبارك وتعالى بفضل منه ورحمة قد قادهم إلى الدين الذي حفظه الله سبحانه وتعالى بقدرته من أي تحريف . . فرفع عنهم عبء حفظ الكتاب . . وما ينتج عن ذلك من حمل ثقيل في الدنيا . . ورحمهم برسول الله صلى الله عليه وسلم الذي أرسله رحمة للعالمين . . مصداقا لقوله تبارك وتعالى : { وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ } [الأنبياء : 107] . . وأعطاهم فضل هذا الدين الخاتم الذي حسم قضية الإيمان في هذا الكون . . ومع هذه الرحمة وهذا الفضل . . بأن نزل إليهم في التوراة أوصاف رسول الله صلى الله عليه وسلم وموعد بعثته . . فتح لهم بابا حتى لا يصبحوا من الخاسرين . . ولكنهم تركوا هذا الباب كما تولوا عن دينهم .

وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (65)

بعد أن بين الله جل جلاله لنا كيف أنه فتح باب الفضل والرحمة لليهود فتركوه . . أراد أن يبين لنا بعض الذي فعلوه في مخالفة أوامر الله والتحاييل عليها . . والله تبارك وتعالى له أوامر في الدين وأوامر تتعلق بشئون الدنيا . . وهو لا يجب أن نأخذ أي أمر له يتعلق بالدين أو بالدنيا مأخذ عدم الجدل . . أو نفضل أمرا على أمر . . ولذلك تجد في سورة الجمعة مثلا قول الحق تبارك وتعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ } [الجمعة : 9-10]

هذان أمران أحدهما في الدين والثاني يتعلق بالدنيا . . وكلاهما من منهج الله . . فالله لا يريدك أن تتاجر وتعمل وقت الصلاة . . ولا أن تترك عملك بلا داع وتبقى في المسجد بعد الصلاة . . إذا نودي للصلاة في المسجد . . وإذا قضيت الصلاة في السعي للرزق . . وهناك يومان في الأسبوع ذكرا في القرآن بالإسم وهما يوم الجمعة والسبت . . بينما أيام الأسبوع سبعة ، خمسة أيام منها لم تذكر في القرآن بالإسم . . وهي الأحد والإثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس . . الجمعة هي عيد المسلمين الذي شرع فيه إجتماعهم في المساجد وأداء صلاة الجماعة . . ونلاحظ أن يوم الجمعة لم يأخذ اشتقاقه من العدد . . فأيام الأسبوع نسبت إلى الأعداد فيما عدا الجمعة والسبت . لذلك تجد الأحد منسوب إلى واحد والإثنين منسوب إلى اثنين . . والثلاثاء منسوب إلى ثلاثة والأربعاء منسوب إلى أربعة والخميس منسوب إلى خمسة . . كان المفروض أن ينسب يوم الجمعة إلى ستة ولكنه لم ينسب . . لماذا؟ لأنه اليوم الذي اجتمع فيه للكون نظام وجوده . . فسماه الله تبارك وتعالى الجمعة وجعله لنا عيدا . . والعيد هو اجتماع كل الكون في هذا اليوم ، إجتماع نعمة الله في إيجاد الكون وتمامها في ذلك اليوم . . فالْمُؤْمِنُونَ بالله يجتمعون اجتماع حفاوة بتمام خلق الكون لهم . . والسبت . . الباء والتاء تفيد معنى القطع

. . وسبت ويسبت سبتا إذا انقطع عمله . . ونلاحظ أن خلق السموات والأرض تم في ستة أيام
مصداقا لقوله تعالى : { هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ } [الحديد : 4]
وكان تمام الخلق يوم الجمعة . . وفي اليوم السابع وهو يوم السبت . . كان كل شيء قد استقر
وفرغ من خلق الكون . . ولذلك له سبات أي أن هذا اليوم يسمى سباتا . . لأن فيه سكون
الحركة بعد تمام الخلق . . فلما أراد اليهود يوما للراحة أعطاهم الله يوم السبت وأراد الحق تبارك
وتعالى أن يبتليهم في هذا اليوم والابتلاء هو إمتحانهم فقد كانوا يعيشون على البحر وعملهم كان
صيد السمك .

. وكان الإبتلاء في هذا اليوم حيث حرم الله عليهم فيه العمل وجعل الحيتان التي يصطادونها تأتي
إليهم وقد بدت أشرعتها وكانوا يبحثون عنها طوال الأسبوع وربما لا يجدها . . وفي يوم السبت
جاءتهم ظاهرة على سطح الماء تسعى إليهم لتفتنهم . . وقرأ قوله سبحانه وتعالى : { وَسئَلُهُمْ
عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا
وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ } [الأعراف : 163]
وهكذا يمتلى سطح البحر بالأسماك والحيتان يوم السبت . . فإذا جاء صباح الأحد اختفت بعيدا
وهم يريدون أن يجعلوا السبت عبدا لهم لا يفعلون فيه أي شيء . . ولكنهم في الوقت نفسه
يريدون أن يحصلوا على هذه الأسماك والحيتان . . صنعوا شيئا اسمه الحياض العميقة ليحتالوا بها
على أمر الله بعدم العمل في هذا اليوم . . وفي الوقت نفسه يحصلون على الأسماك . . هذه
الحياض يدخلها السمك بسهولة . . ولأنها عميقة لا يستطيع الخروج منها ويتركونه يبيت الليل
وفي الصباح يصطادونه . . وكان هذا تحايلا منهم على مخالفة أمر الله . . والله سبحانه وتعالى لا
يجب من يحتال في شيء من أوامره .

ويقول الله تعالى : { وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدُوا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ }
. . وهذه قصة مشهورة عند اليهود ومتواترة . . يعلمها الأجداد للآباء والأبء للأحفاد . . وهي
ليست جديدة عليهم وإن كان المخاطبون هم اليهود المعاصرين لرسول الله صلى الله عليه وسلم
. . ولذلك عندما سمع : { ولقد علمتم } أي لقد عرفتم ومعنى ذلك أن القصة عندكم معروفة .
. . وكأنها من قصص التراث التي يتناقلونها . .

وقوله تعالى : { الَّذِينَ اعْتَدُوا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ } . . المفعول هنا واحد هنا حيلة مذكورة أهم
اعتدوا على أمر الله بالراحة يوم السبت . . هم حقيقة لم يصطادوا يوم السبت . . ولكنهم
تحايلوا على الممنوع بنصب الفخاخ للحيتان والأسماك . . وكانوا في ذلك أغبياء . . وقد كان
الممنوع أن يأخذوا السمك في حيازتهم بالصيد يوم السبت . . ولكنهم أخذوه في حيازتهم بالحيلة
والفخاخ . . وقوله تعالى : « اعتدوا » أي تجاوزوا حدود الله المرسومة لهم . . وعادة حين يجرم

الله شيئاً يأتي بعد التحريم قوله تعالى : { تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا } [البقرة : 187]
لأنه يريد أن يمنعك من الإغراء . . حتى لا تقع في المعصية فيقول لك لا تقرب . . ولكن بني
إسرائيل اعتدوا على حكم الله متظاهرين بالطاعة وهم عاصون . . وحسبوا أنهم يستطيعون خداع
الله بأنهم طائعون مع أنهم عاصون . . وصدر حكم الله عليهم : { فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ
. }

وعادة أنك لا تأمر إنساناً أمراً إلا إذا كان في قدرته أن يفعله . . الأمر هنا أن يكونوا قردة .
فهل يستطيعون تنفيذه؟ وأن يغيروا خلقتهم إلى قردة . . إنه أمر في مقدرة الله وحده فكيف يقول
لهم كونوا قردة؟

نقول إن الأمر نفسه هنا هو الذي يستطيع أن يجعلهم قردة . . وهذا الأمر يسمى أمراً تسخيراً
ولم يقل لهم كونوا قردة ليكونوا هم بإرادتهم قردة . . ولكنه سبحانه بمجرد أن قال كونوا قردة
كانوا . . وهذا يدلنا على انصياع المأمور للأمر وهو غير مختار . . ولو كان لا يريد ذلك ولا يلزم
أن يكونوا قد سمعوا قول الله أو قال لهم . . لأنه لو كان المطلوب منهم تنفيذ ما سمعوه ربما كان
ذلك لازماً . . ولكن بمجرد صدور الأمر وقبل أن ينتبهوا أو يعلموا شيئاً كانوا قردة .

ولقد اختلف العلماء كيف تحول هؤلاء اليهود إلى قردة؟ كيف مسخوا؟ قال بعضهم لقد تم
المسخ وهم لا يدرون . . فلما وجدوا أنفسهم قد تحولوا إلى خلق أقل من الإنسان . . لم يأكلوا
ولم يشربوا حتى ماتوا . . وقال بعض العلماء أن الإنسان إذا مسخ فإنه لا يتناسل ، ولذلك
فبمجرد مسخهم لم يتناسلوا حتى انقرضوا . . ولماذا لم يتناسلوا؟ لأن الله سبحانه وتعالى يقول : {

وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى } [الأنعام : 164]

ولو أنهم تناسلوا . . لتحمل الأبناء وزر آبائهم . . وهذا مرفوض عند الله . . إذن فمن رحمة الله
أنهم لا يأكلون ولا يشربون ولا يتناسلون . . ويبقون فترة ثم ينقرضون بالأمراض والأوبئة وهذا ما
حدث لهم .

قد يقول بعض الناس لو أنهم مسخوا قردة . . فمن أين جاء اليهود الموجودون الآن؟ نقول لهم
أنه لم يكن كل اليهود عاصين . . ولكن كان منهم أقلية هي التي عصت ومسخت . . وبقيت
الأكثرية ليصل نسلها إلينا اليوم . . وقد قال علماء آخرون أن هناك آية في سورة المائدة تقول :
{ قُلْ هَلْ أَنْبَيْتُمْ بِشَرِّ مَن ذَلِكُمْ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَن لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ

وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتِ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ } [المائدة : 60]

إذن هذه قضية قوم غضب الله عليهم ومسختهم قردة وخنازير وعبدة الطاغوت . . ولقد أخبرنا
الله جل جلاله أن اليهود مسخوا قردة . . ولكنه لم يقل لنا أنهم مسخوا خنازير . . فهل مسخوا
قردة؟ ثم بعد ذلك إزداد غضب الله عليهم ومسختهم خنازير؟ وهل نقلهم الله من إنسانية إلى

بهيمة في القيم والإرادة والخلقة؟

نقول علينا أولاً أن ننظر إلى البهيمة التي نقلهم الله إليها . . نجد أن القردة هي الحيوان الوحيد المفضوح العورة دائماً . . وإن عورته لها لون مميز عن جسده .

. وأنه لا يتأدب إلا بالعصا . . واليهود كذلك لم يقبلوا المنهج إلا عندما رفع فوقهم جبل الطور . . وما هم فيه الآن ليس مسخ خلقه ولكن مسخ خُلق . . والخنازير لا يغارون على أوثانهم وهذه لازمة موجودة في اليهود . . وعبد الطاغوت . . الطاغوت هو كل إنسان تجاوز الحد في البغي والظلم . . وعباد الطاغوت هم الطائعون لكل ظالم يعينونه على ظلمه وهم كذلك . إذن فعملية المسخ هذه سواء تمت مرة واحدة أو على مرتين مسألة شكلية . . ولكن الله سبحانه وتعالى أعطانا في الآية التي ذكرناها في سورة المائدة سمات اليهود الأخلاقية . . فكأنهم مسخوا خلقه ومسخوا أخلاقاً .

فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ (66)

يريد الله تبارك وتعالى أن يلفتنا إلى أنه بعد أن جعل المسخة الخلقية والأخلاقية لليهود : { فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا } أي ما معها : { وَمَا خَلْفَهَا } أي ما بعدها : « والنكال » هو العقوبة الشديدة . . والعقوبة لا بد أن تنشأ عن تجريم أولاً . . هذا هو المبدأ الإسلامي والمبدأ القانوني . . فرجال القانون يقولون لا عقوبة إلا بتجريم ولا تجريم إلا بنص . . قبل أن تعاقب لا بد أن تقول أن هذا الفعل جريمة عقوبتها كذا وكذا . . وفي هذه الحالة عندما يرتكبها أي إنسان يكون مستحقاً للعقوبة . . ومادام هذا هو الموقف فلا بد من تشريع . والتشريع ليس معناه أن الله شرع العقوبة . . ولكن معناه محاولة منع الجريمة بالتخويف حتى لا يفعلها أحد . . فإذا تمت الجريمة فلا بد من توقيع العقوبة . . لأن توقيعها عبرة للغير ومنع له من ارتكابها . . وهذا الزجر يسمى نكولاً ومنها النكول في اليمين أي الرجوع فيه . إذن قوله تعالى : { فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا } . . أي جعلناهم زجراً وعقاباً قوياً . . حتى لا يعود أحد من بني إسرائيل إلى مثل هذه المخالفة : { نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا } . . أي عقوبة حين يرونها الذين عاصروها تكفي لكيلا يقتربوا من هذه المعصية أبداً . . وتكون لهم موعظة لا ينسونها : { وَمَا خَلْفَهَا } يعني جعلناها تتوارثها الأجيال من بني إسرائيل جيلاً بعد جيل . . كما بيننا الأب يحكي لابنه حتى لا يعود أحد في المستقبل إلى مثل هذا العمل من شدة العقوبة : { وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ } . . أي موعظة لكل الناس الذين سيبلغهم الله تبارك وتعالى بما حدث من بني إسرائيل وما عاقبهم به . . حتى يقوا أنفسهم شر العذاب يوم القيامة الذي سيكون فيه ألوان أشد كثيراً من هذا العذاب . . على أننا لا بد أن نلفت الإنتباه إلى أن مبدأ أنه لا عقوبة إلا بتجريم ولا تجريم

إلا بنص هو مبدأ إلهي . . ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى : { وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا } [الإسراء : 15]

أي يأتي الرسول أولاً ليحرم هذه الأفعال . . فإن ارتكبتها أحد من خلق الله حقت عليه العقوبة . . ومن هنا فإن كل ما يقال عن قوانين بأثر رجعي مخالف لشريعة الله تبارك وتعالى وعدله . . فلا يوجد في عدالة السماء ما يقال عنه أثر رجعي .

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُورًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (67)

تعرضنا إلى هذه الآية الكريمة في بداية سورة البقرة . . لأن السورة سميت بهذا الاسم . . ونلاحظ هنا أن الله سبحانه وتعالى أتى بحرف : « وإذ » . . يعني واذكروا : { وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً } . . ولم يقل لماذا أمرهم بأن يذبحوا البقرة . . ولا بد أن نقرأ الآيات إلى آخر القصة لنعرف السبب في قوله تعالى : { وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجُ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ * فَكُلْنَا اضْرِبُوهُ بَعْضَهَا كَذَلِكَ يُجِيبِي اللَّهُ الْمُتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ } [البقرة : 72-73]

والمفروض في كل الأمور أن الأمر تسبقه علته . . ولكن هذه عظمة القرآن الكريم . . لأن السؤال عن العلة أولاً معناه أن الأمر صادر من مساو لك . . فإذا قال لك إنسان إفعل كذا . . تسأله لماذا حتى أطيع الأمر وأنفذه . . إذن الأمر من المساوي هو الذي تسأل عن علته . . ولكن الأمر من غير المساوي . . كأمر الأب لابنه والطبيب لمريضه والقائد لجنوده . . مثل هذا الأمر لا يسأل عن علته قبل تنفيذه . . لأن الذي أصدره أحكم من الذي صدر إليه الأمر . . ولو أن كل مكلف من الله أقبل على الأمر يسأل عن علته أولاً . . فيكون قد فعل الأمر بعلته . فكأنه قد فعله من أجل العلة . . ومن هنا يزول الإيمان . . ويستوي أن يكون الإنسان مؤمناً أو غير مؤمن . . ويكون تنفيذ الأمر بلا ثواب من الله . . إن الإيمان يجعل المؤمن يتلقى الأمر من الله طائعا . . عرف علته أو لم يعرف . . ويقوم بتنفيذه لأنه صادر من الله . . ولذلك فإن تنفيذ أي أمر إيماني يتم لأن الأمر صادر من الله . . وكل تكليف يأتي . . علة حدوثه هي الإيمان بالله . . ولذلك فإن الحق سبحانه وتعالى يبدأ كل تكليف بقوله تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا } . . أي يا من آمنت بالله ربا وإلها وخالقا . . خذ عن الله وافعل لأنك آمنت بمن أمرك .

في هذه الآيات التي نحن بصددنا أراد الله تعالى أن يبين لنا ذلك . فجاء بالأمر بذيح البقرة أولاً . . وبالعلة في الآيات التي روت لنا علة القصة . . وأنت حين تعبد الله فكل ما تفعله هو طاعة لله سبحانه وتعالى . . سواء عرفت العلة أو لم تعرفها؛ فأنت تؤدي الصلاة لأن الله تبارك وتعالى

أمرك بأن تصلي . . فلو أدت الصلاة على أنها رياضة أو أنها وسيلة للاستيقاظ المبكر . . أو أنها حركات لازمة لليونة المفاصل فإن صلاتك تكون بلا ثواب ولا أجر . . إن أردت الرياضة فاذهب إلى أحد النوادي وليدريك أحد المدربين لتكون الرياضة على أصولها .

. وأن أردت اللياقة البدنية فهناك ألف طريقة لذلك . . وإن أردت عبادة الله كما أمرك الله فلتكن صلاتك التي فرضها الله عليك لأن الله فرضها . . وكذلك كل العبادات الأخرى . . الصوم ليس شعورا بإحساس الجائع . . ولا هو طريقة لعمل الرجيم ولكنه عباده . . إن لم تصم تنفيذا لأمر الله بالصوم فلا ثواب لك . . وإن جعلت للصيام أي سبب إلا العبادة فإنه صيام لا يقبله الله . . والله أغنى الشركاء عن الشرك . . فمن أشرك معه أحدا ترك الله عمله لمن أشركه . . وكذلك كل العبادات .

هذا هو المفهوم الإيماني الذي أراد الله سبحانه وتعالى أن يلفتنا إليه في قصة بقرة بني إسرائيل . . ولذلك لم يأت بالعلة أو السبب أولا . . بل أتى بالقصة ثم أخبرنا سبحانه في آخرها عن السبب . . وسواء أخبرنا الله عن السبب أو لم يخبرنا فهذا لا يغير في إيماننا بحقيقة ما حدث . . وإن القصة لها حكمة وإن خفيت علينا فهي موجودة .

قوله تعالى : { إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقْرَةً } . . أعطى الله تبارك وتعالى الأمر أولا ليختبر قوة إيمان بني إسرائيل . . ومدى قيامهم بتنفيذ التكليف دون تلكؤ أو تمهل . . ولكنهم بدلا من أن يفعلوا ذلك أخذوا في المساومة والتباطؤ : { وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ { . . كلمة قوم تطلق على الرجال فقط . . ولذلك يقول القرآن الكريم : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّنْ نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ } [الحجرات : 11] إذن قوم هم الرجال . . لأنهم يقومون على شئون أسرهم ونسائهم . . ولذلك يقول الشاعر العربي :

وما أدري ولست أخال أدري ... أقوم آل حصنٍ أم نساء
فالقوام للرجال . . والمرأة حياتها مبنية على الستر في بيتها . . والرجال يقومون لها بما تحتاج إليه من شئون . . والمفروض أن المرأة سكن لزوجها وبيتها وأولادها وهي في هذا لها مهمة أكبر من مهمة الرجال . . قوله تعالى : { إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ } . . الأمر طلب فعل . . وإذا كان الأمر أعلى من المأمور نسبيه أمرا . . وإذا كان مساويا له نسبيه إلتماسا . . وإذا كان إلى أعلى نسبيه رجاء ودعاء . . على أننا لا بد أن نلتفت إلى قوله تعالى على لسان زكريا : { هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً } [آل عمران : 38] هل هذا أمر من زكريا؟ طبعا لا . لأنه دعاء والدعاء رجاء من الأدنى إلى الأعلى . . قوله تعالى :

{ الله يَأْمُرُكُمْ } . لو أن إنسانا يعقل أدنى عقل ثم يطلب منه أن يذبح بقرة . . أهذه تحتاج إلى إيضاح؟ لو كانوا ذبحوا بقرة لكان كل شيء قد تم دون أي جهد .

. فمادام الله قد طلب منهم أن يذبحوا بقرة . . فكل ما عليهم هو التنفيذ . .
ولكن أنظر إلى الغباء حتى في السؤال . . إنهم يريدون أن يفعلوا أي شيء لإبطال التكليف . .
لقد قالوا لموسى نبيهم إنك تمزأ بنا . . أي أنهم استنكروا أن يكلفهم الله تبارك وتعالى بذبح بقرة على إطلاقها دون تحديد . . فاتهموا موسى أنه يهزأ بهم . . كأنهم يرون أن المسألة صعبة على الله سبحانه وتعالى . . لا يمكن أن تحل بمجرد ذبح بقرة . . وعندما سمع موسى كلامهم ذهل . .
فهل هناك نبي يهزأ بتكليف من تكليفات الله تبارك وتعالى . . أينقل نبي الله لهم أمرا من أوامر الله جل جلاله على سبيل الهزل؟

هنا عرف موسى أن هؤلاء اليهود هم جاهلون . . جاهلون برحمهم وبرسولهم وجاهلون بآخرتهم . .
وأهم يحاولون أن يأخذوا كل شيء بمقاييسهم وليس بمقاييس الله سبحانه وتعالى . . فاتجه إلى السماء يستعيز بالله من هؤلاء الجاهلين . . الذين يأتيهم اليسر فيريدونه عسرا . . ويأتيهم السهل فيريدونه صعبا . . ويطلبون من الله أن يعنتهم وأن يشدد عليهم وأن يجعل كل شيء في حياتهم صعبا وشاقا .

قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ
فَأَفْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ (68)

وكان سؤالهم يبين نقص درجة الإيمان عندهم . . لم يقولوا ادع لنا ربنا . . بل قالوا ادع لنا ربك ،
وكانه رب موسى وحده . . ولقد تكررت هذه الطريقة في كلام بني إسرائيل عدة مرات . . حتى
إنهم قالوا كما يروي لنا القرآن الكريم : { فاذهب أنتَ وَرَبُّكَ فَفَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ } [

المائدة : 24]

ولقد استمر الحوار بينهم وبين موسى فترة طويلة . . يوجهون السؤال لموسى فيدعو الله فيأتيه
الجواب من الله تبارك وتعالى . . فبدلا من أن ينفذوا الأمر وتنتهي المسألة يوجهون سؤالاً آخر .
. فيدعو موسى ربه فيأتيه الجواب ، ويؤدي الجواب إلى سؤال في غير محله منهم . . ثم يقطع
الحق سبحانه وتعالى عليهم أسباب الجدل . . بأن يعطيهم أوصافا لبقرة لا تنطبق إلا على بقرة
واحدة فقط . . فكأنهم شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم . .

نأتي إلى أسئلة بني إسرائيل . . يقول الحق سبحانه وتعالى : { قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ }
. . سؤال لا معنى له ولا محل . . لأن الله تبارك وتعالى قال لهم إنها بقرة . . ولم يقل مثلا إنها
حيوان على إطلاقه فلم يكن هناك محل للسؤال . . فجاء الحق تبارك وتعالى يقول لهم : { إِنَّهَا

بَقْرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بَكْرٌ { . . الفارض في اللغة هو الواسع والمراد به بقرة غير مسنة . . ولكن ما العلاقة بين سن البقرة وبين الواسع؟ البقرة تتعرض للحمل كثيرا وأساسا هي اللبن وللإنجاب . . ومادامت قد تعرضت للحمل كثيرا يكون مكان اللبن فيها في اتساع . . أي أن بطنها يزداد اتساعا مع كل حمل جديد . . وعندما يكون بطن البقرة واسعا يعرف أنها مسنة وولدت كثيرا وصارت فارضا .

وكلمة « بكر » لها معانٍ متعددة منها أنه لم يطأها فحل . . ومنها أنها بكر ولدت مرة واحدة . . ومنها أنها ولدت مرارا ولكن لم يظهر ذلك عليها لأنها صغيرة السن .

وقوله تعالى : { عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ } . . يعني وسط بين هذه الأوصاف كلها . . الحق بعد ذلك يقرعهم فيقول : { فافعلوا مَا تُؤْمَرُونَ } . . يعني كفاكم مجادلة ونفذوا أمر الله واذبحوا البقرة . . ولكنهم لم يسكنوا أنهم يريدون أن يحاوروا . . ولذلك غيروا صيغة السؤال .

قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْثُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ صَفْرَاءٌ فَاقِعٌ لَوْثُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ (69)

بحثوا عن سؤال آخر : ما لوثها؟ كأن الله تبارك وتعالى حين حدثهم عن السن فتحوا الأبواب ليسألوا ما لوثها؟ مع أنه سبحانه وتعالى قال لهم : { فافعلوا مَا تُؤْمَرُونَ } . . فلم يفعلوا بل سألوا ما لوثها؟ { قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ صَفْرَاءٌ } والصفرة لون من الألوان . . ثم قال جل جلاله : { فَاقِعٌ لَوْثُهَا } . . يعني صفرة شديدة . . ثم قال : { تَسُرُّ النَّاظِرِينَ } . . يعني أن كل من ينظر إليها يُسر لنضارتها ونظافتها وحسن مظهرها وتناسق جسدها . .

وصف البقرة بأنها صفراء هذا لون معروف . . وفي الألوان لا يمكن أن تحدد لونا إلا برؤيته . . ولذلك فإن المحسّنات في الألوان لا بد أن تسبق معرفتها وبعد ذلك تأتي باللون المطلوب . . لذلك لا يقال صفراء فقط لأنك لا تستطيع تحديده؛ لأن اللون الأصفر له درجات لا نهاية لها . . ومزج الألوان يعطيك عدداً لا نهائياً من درجاتها . . ولذلك فإن المشتغلين بدهان المنازل لا يستطيعون أن يقوموا بدهان شقة بلون إلا إذا قام بعمل مزيج اللون كله مرة واحدة . . حتى يخرج الدهان كله بدرجة واحدة من اللون . . ولكن إذا طلبت منه أن يدهن الشقة باللون نفسه . . بشرط أن يدهن حجرة واحدة كل يوم فإنه لا يستطيع . . فإذا سمعت صفراء يأتي اللون الأصفر إلى ذهنك . . فإذا سمعت « فاقع » فكل لون من الألوان له وصف يناسبه يعطينا دقة اللون المطلوب . . « فاقع » أي شديد الصفرة .

أظن أن المسألة قد أصبحت واضحة . . إنها بقرة لوثها أصفر فاقع تسر الناظرين . . وكان من المفروض أن يكتفي بنو إسرائيل بذلك ولكنهم عادوا إلى السؤال مرة أخرى .

قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقْرَ تَشَابَهُ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ (70)

وبرغم أن ما قيل لبني إسرائيل . . واضح تمام الوضوح عن البقرة . . وعمرها وشكلها ولونها ومنظرها . . فإن الله سبحانه وتعالى أراد أن يؤدبهم فجعلهم ينظرون إلى البقر . . وهذا يقول هذه هي والآخر يقول لا بل هي في مكان كذا . . والثالث يقول لا بل هي في موقع كذا . . وعادوا إلى موسى يسألونه أن يعود إلى ربه ليبين لهم لأن البقر تشابه عليهم . . وهنا ذكروا الله الذي نسوه ولم ينفذوا أمره منذ أن قال لهم اذبحوا بقرة ثم قال لهم : { فافعلوا ما تُؤْمَرُونَ } . . فطلبوا منه الهداية بعد أن تاهوا وضاعوا بسبب عنادهم وجدلهم . . وجاء الجواب من الله سبحانه وتعالى .

قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ لَا ذَلُولَ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةً لَا شِيبَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ (71)

« بقرة لا ذلول » . . البقرة الذلول هي البقرة المروضة الممرنة تؤدي مهمتها بلا تعب . . تماما مثل الخيل المروضة التي لا تتعب راكبها لأنها تم ترويضها . . وسيدنا إسماعيل هو أول من روض الخيل وساسها . . وقال الله سبحانه وتعالى لهم أول وصف للبقرة أنها ليست مروضة . . لا أحد قادها ولا قامت بعمل . . إنها انطلقت على طبيعتها وعلى سجيتها في الحقول بدون قائد . . { تُثِيرُ الْأَرْضَ } أي لم تستخدم في حراثة الأرض أو فلاحتها . . { وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ } . . أي لم تستخدم في إدارة السواقي لسقاية الزرع . . { مُسَلَّمَةً لَا شِيبَةَ فِيهَا } أي خالية من العيوب لا أذنها مثقوبة . ولا فيها أي علامة من العلامات التي يميز الناس أبقارهم بها . . ولا رجلها عرجاء ، خالية من البقع والألوان غير اللون الأصفر الفاقع . . وكلمة { لَا شِيبَةَ فِيهَا } . . أي لا شيء فيها .

والمأمل في وصف البقرة كما جاء في الآيات يرى الصعوبة والتشدد في اختيار أوصافها . . كأن الحق تبارك وتعالى يريد أن يجازيهم على أعمالهم . . ولم يجد بنو إسرائيل إلا بقرة واحدة تنطبق عليها هذه المواصفات فقالوا { الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ } كأن ما قاله موسى قبل ذلك كان خارجا عن نطاق الحق . وذبحوا البقرة ولكن عن كره منهم . . لأنهم كانوا حريصين على ألا يذبحوها ، حرصهم على عدم تنفيذ المنهج . هم يريدون أن يماطلوا الله سبحانه وتعالى . . والله يقول لنا أن سمة المؤمنين أن يسارعوا إلى تنفيذ تكاليفه . . وقرأ قوله تعالى : { وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ } [آل عمران : 133]

وهذه السرعة من المؤمنين في تنفيذ التكاليف . . دليل على عشق التكليف . . لأنك تسارع لتفعل ما يطلبه منك من تحبه . . وقوله تعالى : { وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ } . . يدلنا على أنهم حاولوا الإبطاء في التنفيذ والتلكؤ .

إننا لا بد أن نلتفت إلى أن تباطؤ بني إسرائيل في التنفيذ خدم قضية إيمانية أخرى . . فالبقرة التي

طلبها الله منهم بسبب عدم قيامهم بتنفيذ الأمر فور صدوره لهم بقرة نادرة لا تتكرر . .
والمواصفات التي أعطيت لهم في النهاية . . لم تكن تنطبق إلا على بقرة واحدة ليتحكم صاحبها
في ثمنها وبيعها بأعلى الأسعار . .
والقصة أنه كان هناك في بني إسرائيل رجل صالح . . يتحرى الحلال في الرزق والصدق في القول
والإيمان الحقيقي بالله . . وعندما حضرته الوفاة كان عنده عجلة وكان له زوجة وابنه الصغير . .
ماذا يفعل وهو لا يملك سوى العجلة . . اتجه إلى الله وقال : اللهم إني استودعك هذه العجلة
لولدي ، ثم أطلقها في المراعي .

. لم يوصّ عليها أحداً ولكن استودعها الله . استودعها يد الله الأمانة على كل شيء . . ثم قال
لامراته إني لا أملك إلا هذه العجلة ولا آمن عليها إلا الله . . ولقد أطلقته في المراعي . .
وعندما كبر الولد قالت له أمه : إن أبك قد ترك لك وديعة عند الله وهي عجلة . . فقال يا أمي
وأين أجدها؟ . . قالت كن كأبيك هو توكل واستودع ، وأنت توكل واسترد . . فقال الولد :
اللهم رب إبراهيم ورب موسى . . رد إلي ما استودعته أبي عندك . . فإذا بالعجلة تأتي إليه وقد
أصبحت بقرة فأخذها ليربها لأمه . . وبينما هو سائر رآه بنو إسرائيل . فقالوا إن هذه البقرة هي
التي طلبها الرب . . وذهبوا إلى صاحب البقرة وطلبوا شراءها فقال بكم . . قالوا بثلاثة دنانير .
فذهب ليستشير أمه فخافوا أن ترفض وعرضوا عليه ستة دنانير . . قالت أمه لا . . لا تباع .
فقال الابن لن أبيعها إلا بملء جلودها ذهباً ، فدفعوا له ما أراد . . وهكذا نجد صلاح الأب
يجعل الله حفيظاً على أولاده يرعاهم ويسر لهم أمورهم .

وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (72)

قصة القتل هي أن رجلاً ثرياً من بني إسرائيل لم يكن له ولد يرثه . . وكان له أقارب كل منهم
يريد أن يستأثر بأموال هذا الرجل . . والمال والذهب هما حياة بني إسرائيل . . فتأمر على هذا
الرجل الثري ابن أخيه فقتله ليرثه ويستولي على أمواله . . ولكنه أراد أن يبعد التهمة عن نفسه
فحمل الجثة وألقاها على باب قرية مجاورة لبيتهم أهلها بقتل الثري . . وفي الصباح قام أهل القرية
ووجدوا جثة الثري أمام قريتهم . . ووجدوه غريباً عن القرية فسألوا من هو؟ حتى وصلوا إلى ابن
أخيه . . فتجمع أهل القتل واتهموه بقتله . . وكان أشدهم تحمسا في الاتهام القاتل ابن أخيه .

وقوله تعالى { فادارأتم فيها } الدرأ هو الشيء حين يجيء إليك وكل واحد ينفية عن نفسه . .
إدارأتم أي أن كلا منكم يريد أن يدفع الجريمة عن نفسه فكل واحد يقول لست أنا . .
وليس من الضروري أن يتهم أحد آخر غيره . . المهم أن يدفعها عن نفسه .

ولقد حاول أهل القريتين . . قرية القتييل ، والقرية التي وجدت أمامها الجثة . أن يدفع كل منهما شبهة الجريمة عن نفسه وربما يتهم بها الآخر . . ولم يكن هناك دليل دامغ يرجح اتهاما محمدا . بل كانت الأدلة ضائعة ولذلك استحال توجيه اتهام لشخص دون آخر أو لقرية دون أخرى . وكان التشريع في ذلك الوقت ينص على أنه إذا وجد قتيل على باب قرية ولم يستدل على قاتله . . فإن قرية القتييل وأهله يأخذون خمسين رجلا من أعيان القرية التي وجدت بجوارها الجثة . . فيلقوا اليمين بأنهم ما قتلوه . . ولا علموا قاتله . . وإذا كان الأعيان والأكابر أقل من خمسين رجلا . . تكررت الأيمان حتى تصير خمسين يمينا . . فيحلفون أنهم ما قتلوه ولا يعرفون قاتله . . عندما يتحمل بيت المال دية القتييل . .

ولكن الله كان يريد شيئا آخر . . يريد أن يرد بهذه الجريمة على جحود بني إسرائيل باليوم الآخر . . ويجعل الميت يقف أمامهم وينطق اسم قاتله . . ويجعلهم يرون البعث وهم أحياء . . ولذلك قال سبحانه وتعالى : { وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ } . . أي أن بني إسرائيل أو أولئك الذين ارتكبوا الجريمة دبروها على أن تبقى في طي الكتمان فلا يعلم أحد عنها شيئا . . ولذلك جاء الشاب وقتل عمه دون أن يراه أحد . . ثم حمل الجثة خفية في ظلام الليل وخرج بها فلم يلتفت أحد إليه . . ثم ذهب إلى قرية مجاورة وألقى بالجثة على باب القرية وأهلها نائمون وانصرف عائدا . .

كانت كل هذه الخطوات في رأيه ستجعل الجريمة غامضة لا تنكشف أبدا ولا يعرف سرها أحد . ولكن الله تبارك وتعالى أراد غير ذلك . . أراد أن يكشف الجريمة بطريقة لا تحتمل الجدل ، وفي نفس الوقت يرد على جحود بني إسرائيل للبعث . . بأن يريهم البعث وهم أحياء .

فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (73)

احتدم الخلاف بين بني إسرائيل وكادت تحدث فتنة كبيرة . . فقرروا أن يلجأوا إلى موسى عليه السلام ليطلب من الله تبارك وتعالى أن يكشف لهم لغز هذه الجريمة ويدهم على القاتل . . وجاء الأمر من الله سبحانه وتعالى أن اذبحوا البقرة ولو ذبحوا بقرة أية بقرة لانتهدت المشكلة . . ولكنهم ظلوا يقولون ما لوئها وما شكلها إلى آخر ما روينا . . حتى وصلوا إلى البقرة التي كان قد استودعها الرجل الصالح عند الله حتى يكبر ابنه فاشتروها وذبحوها . . فأمرهم الله أن يضربوه ببعضها . أي أن يضربوا القتييل بجزء من البقرة المذبوحة بعد أن سال دمها وماتت . . وانظر إلى العظمة في القصة . . جزء من ميت يُضرب به ميت فيحيا . . إذن المسألة أعدها الحق بصورة لا تجعلهم يشكون أبدا . . فلو أن الله أحياء بدون أن يضرب بجزء من البقرة . لقالوا لم يكن قد مات ، كانت فيه حياه ثم أفاق بعد اغمائه . ولكن الله أمرهم أن يذبحوا بقرة حتى تموت ليعطيهم درساً إيمانياً بقدرة الله وهم الماديون الذين لا يؤمنون إلا بالماديات . . وأن يأخذوا جزءاً

أو أجزاء منها وأن يضربوا به القتيل فيحيا وينطق باسم قاتله ويميته الله بعد ذلك . .
يقول الحق جل جلاله . . { كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ } ليرى بنو
إسرائيل وهم على قيد الحياة كيف يحيى الله الموتى وليعرفوا أن الإنسان لا يبقى حيا بأسباب
الحياة . . ولكن بإرادة مسبب الحياة في أن يقول « كن فيكون » .

ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ
الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ
عَمَّا تَعْمَلُونَ (74)

لماذا ذكر الحق سبحانه وتعالى القلب ووصفه بأنه يقسو ولم يقل نفوسكم لأن القلب هو موضع
الرقعة والرحمة والعطف . . وإذا ما جعلنا القلب كثير الذكر لله فإنه يمتلئ رحمة وعطفا . . والقلب
هو العضو الذي يحسم مشاكل الحياة . . فإذا كان القلب يعمر باليقين والإيمان . . فكل جارحة
تكون فيها خميرة الإيمان .

وحتى نعرف قوة وقدرة وسعة القلب على الإيمان واحتوائه أوضح الله تعالى هذا المعنى في كتابه
العزیز حيث يقول : { اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَابًا يَتَشَعَّرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ
يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضَلِلِ
اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ } [الزمر : 23]

وهكذا نرى أن الجلود تقشعر من هول الوعيد بالنار . . ومجرد قراءة ما ذكره القرآن عنها . .
وبعد ذلك تأتي الرحمة ، وفي هذه الحالة لا تلين الجلود فقط ولكن لا بد أن تلين القلوب لأنها هي
التي تعطي اللمحة الإيمانية لكل جوارح الجسد . .
ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

« ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي
القلب »

إذن فالقلب هو منبع اليقين ومصب الإيمان ، وكما أن الإيمان في القلب فإن القسوة والكفر في
القلب . . فالقلب حينما ينسى ذكر الله يقسو . . لماذا؟ . . لأنه يعتقد أنه ليس هناك إلا الحياة
الدنيا وإلا المادة فيحاول أن يحصل منها على أقصى ما يستطيع وبأي طريقة فلا تأتي إلا بالظلم
والطغيان وأخذ حقوق الضعفاء ، ثم لا يفرط فيها أبدا لأنها هي منتهى حياته فلا شيء بعدها .
إنه يجد إنساناً يموت أمامه من الجوع ولا يعطيه رغيفا . . وإذا خرج الإيمان من القلب خرجت
منه الرحمة وخرج منه كل إيمان الجوارح . . فلمحة الإيمان التي في اليد تخرج فتمتد اليد إلى
السرقه والحرام . . ولمحة الإيمان التي في العين تخرج فتتنظر العين إلى كل ما حرم الله . . ولمحة الإيمان
التي في القدم تخرج فلا تمشي القدم إلى المسجد أبدا ولكنها تمشي إلى الخمارة وإلى السرقه . .

لأنه كما قلنا القلب مخزن الإيمان في الجسم .

ويشبه الحق تبارك وتعالى قسوة قلوبهم فيقول : { فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً } . . الحجارة هي الشيء القاسي الذي تدركه حواسنا ومألوف لنا ومألوف لبني إسرائيل أيضا . . لأن لهم مع الحجارة شوطا كبيرا عندما تاهوا في الصحراء . . وعندما عطشوا وكان موسى يضرب لهم الحجر بعصاه .

اللَّهُ تبارك وتعالى لفتهم إلى أن المفروض أن تكون قلوبهم لينة ورفيقة حتى ولو كانت في قسوة الحجارة .

. ولكن قلوبهم تجاوزت هذه القسوة فلم تصبح في شدة الحجارة وقسوتها بل هي أشد . ولكن كيف تكون القلوب أشد قسوة من الحجارة . . لا تنظر إلى لينونة مادة القلوب ولكن انظر إلى أدائها لمهمتها .

الجلب قسوته مطلوبة لأن هذه مهمته أن يكون وتداً للأرض صلبا قويا ، ولكن هذه القسوة ليست مطلوبة من القلب وليست مهمته . . أما قلوب بني إسرائيل فهي أشد قسوة من الجبل . والمطلوب في القلوب اللين ، وفي الحجارة القسوة . . فكل صفة مخلوقة لمخلوق ومطلوبة لمهمة . . فالخطاف مثلا أعوج . . هذا العوج يجعله يؤدي مهمته على الوجه الأكمل . . ففوج الخطاف استقامة لمهمته . . وحين تفسد القلوب وتخرج عن مهمتها تكون أقسى من الحجارة . . وتكون على العكس تماما من مهمتها . .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى : { وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَقُّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ } [البقرة : 74]

هنا يذكرهم الله لما رأوه من الرحمة الموجودة في الحجارة . . عندما ضرب موسى الحجر بالعصا فانفجرت منه العيون . وذلك مثل حسي شهوده . يقول لهم الحق جل جلاله : أن الرحمة تصيب الحجارة فينفجر منها الأنهار ويخرج منها الماء ويقول سبحانه : { وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ } . .

إذن فالحجارة يصيبها اللين والرحمة فيخرج منها الماء . ولكن قلوبكم إذا قست لا يصيبها لين ولا رحمة فلا تلين أبدا ولا تخشع أبدا . والله سبحانه وتعالى نزل عليكم التوراة وأعطاكم من فضله ورحمته وستره ومغفرته الكثير . . كان المفروض أن تلين قلوبكم لذكر الله .

ولكن ما الفرق بين تفجر الأنهار من الحجارة وبين تشققها ليخرج منها الماء؟ عندما تنفجر الحجارة يخرج منها الماء . نحن نذهب إلى مكان الماء لنأخذ حاجتنا . . ولكن عندما تنفجر منها الأنهار فالماء هو الذي يأتي إلينا ونحن في أماكننا . . وفرق بين عطاء تذهب إليه وعطاء يأتي إليك . . أما هبوط الحجر من خشية الله فذلك حدث عندما تجلى الله للجبل فجعله دكا . وقرأ قوله

تعالى : { فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا } [الأعراف : 143]

يذكرهم الحق سبحانه كيف أن الجبل حين تجلّى الله له هبط وانهار من خشية الله . وهكذا لا يعطيهم الأمثلة مما وقع لغيرهم ، ولكن يعطيهم الأمثلة مما وقع لهم .

وقوله تعالى : { وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ } أي تذكروا أن الله سبحانه وتعالى لا يغيب عنه شيء وأن كل ما تعملونه يعرفه وأنكم ملاقونه يوم القيامة ومحتاجون إلى رحمته ومغفرته ، فلا تجعلوا قلوبكم تقسو حتى لا يطردكم الله من رحمته كما خلت قلوبكم من ذكره .

أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (75)

يعطينا الحق تبارك وتعالى هنا الحكمة . . فيما رواه لنا عن بني إسرائيل وعن قصصهم . لأنهم سيكون لهم دور مع المسلمين في المدينة ، ثم في بيت المقدس ، ثم في المسجد الأقصى . . فهو يروي لنا كيف أتعبوا نبيهم وكيف عصوا ربهم . وكيف قابلوا النعمة بالمعصية والرحمة بالجحود . وإذا كان هذا موقفهم يا محمد مع الله ومع نبيهم . . فلا تطمع أن يؤمنوا لك ولا أن يدخلوا في الإسلام ، مع أنهم عندهم التوراة تدعوهم إلى الإيمان بمحمد عليه الصلاة والسلام . . هذه الآيات تحمل أعظم تعزية للرسول الكريم . وتطالبه ألا يجزن على عدم إيمان اليهود به لأنه عليه البلاغ فقط؛ ولكن حرص رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن يؤمن كل أهل الأرض يهود ونصارى وكفاراً ، ليس معناه أنه لم يفهم مهمته ، ولكن معناه أنه أدرك حلاوة التكليف من ربه ، بحيث يريد أن يهدي كل خلق الله في الأرض . . فيطمئنه الله ويقول له لا تعتقد أنهم سيؤمنون لك . وليس معنى عدم إيمانهم أنك لست صادقاً . . فتكذبيهم لك لا ينبغي أن يؤثر فيك . . فلا تطمع يا محمد أن يؤمنوا لك . .

ما هو الطمع؟ . . الطمع هو رغبة النفس في شيء غير حقها وإن كان محبوباً لها . . والأصل في الإنسان العاقل ألا يطمع إلا في حقه . . والإنسان أحياناً يريد أن يرفه حياته ويعيش مترفاً ولكن بحركة حياته كما هي . نقول له إذا أردت أن تتوسع في ترفك فلا بد أن تتوسع في حركة حياتك؛ لأنك لو أترفت معتمداً على حركة حياة غيرك فسيفسد ميزان حركة الحياة في الأرض ، أي إن كنت تريد أن تعيش حياة مترزة فعش على قدر حركة حياتك؛ لأنك إن فعلت غير ذلك تسرق وترتش وتفسد . فإن كان عندك طمع فليكن فيما تقدر عليه .

إذن فكلمة « افتطمعون » هنا تحدد أنه يجب ألا نطمع إلا فيما نقدر عليه . هؤلاء اليهود هل نقدر على أن نجعلهم يؤمنون؟ يقول الله تبارك وتعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم . . هذا أمر زائد على ما كلفت به . . لأن عليك البلاغ ، وحتى لو كان محبباً إلى نفسك . . فإن مقدماتهم مع الله لا تعطيك الأمل في أنك ستصل إلى النتيجة التي ترجوها . .

وهذه الآية فيها تسرية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عما سيلاقيه مع اليهود . وتعطيه الشحنة الإيمانية التي تجعله يقابل عدم إيمان هؤلاء بقوة وعزيمة . . لأنه كان يتوقعه فلا يحزن ولا تذهب نفسه حسرات ، لأن الله تبارك وتعالى قد وضع في نفسه التوقع لما سيحدث منهم . . فإذا جاء تصرفهم وفق ما سيحدث .

. يكون ذلك أمرا محتملا من النفس . .

والحق سبحانه وتعالى يقول : { وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ } انظر إلى الأمانة والدقة . . فريق منهم ليس كلهم . . هذا هو ما استتبط منه العالم نظرية صيانة الاحتمال . . وهي عدم التعميم بحيث تقول أنهم جميعا كذا . لا بد أن تضع احتمالا في أن شخصا ما سيؤمن أو سيشذ أو سيخالف . . هنا فريق من أهل الكتاب عرفوا صفات رسول الله صلى الله عليه وسلم من التوراة والإنجيل . . وعندما بعث آمنوا به ، وهؤلاء لم يعرفوا كلام الله . لو أن القرآن جاء بالحكم عاما لتغيرت نظرة الكافرين للإسلام . . ولقالوا لقد قال عنا هذا الدين أننا حرفنا كتاب الله ولكننا لم نحرفه ونحن ننتظر رسوله . . فكأن هذا الحكم غير دقيق . . ولا بد أن شيئا ما خطأ . . لأن الله الذي نزل هذا القرآن لا يخفي عليه شيء ويعرف ما في قلوبنا جميعا . . ولكن لأن الآية الكريمة تقول أن فريقا منهم كانوا يسمعون كلام الله ثم يحرفونه . . الكلام بلا تعميم ومنطبق بدقة على كل حال . .

والحق جل جلاله يقول : { ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ } . هذه معصية مركبة سمعوا كلام الله وعقلوه وعرفوا العقوبة على المعصية ثم بعد ذلك حرفوه . . لقد قرأوه في التوراة وقرأوا وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أنهم يعرفونه كأبنائهم . . ثم حرفوا كلام الله وهم يعلمون . . ومعنى التحريف تغيير معنى الكلمة . . كانوا يقولون السَّام عليكم بدلا من السلام عليكم . . ولم يتوقف الأمر عند التحريف بل تعداه إلى أن جاءوا بكلام من عندهم وقالوا أنه من التوراة .

وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بِبَعْضِهِمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (76)

هذه صور من صور نفاق اليهود . والناس مقسمون إلى ثلاث : مؤمنون وكافرون ومنافقون . . المؤمن انسجم مع نفسه ومع الكون الذي يعيش فيه . . والكافر انسجم مع نفسه ولم ينسجم مع الكون ، والكون يلعنه . . والمنافق لا انسجم مع نفسه ولا انسجم مع الكون ، والآية تعطينا صورة من صور النفاق وكيف لا ينسجم المنافق مع نفسه ولا مع الكون . . فهو يقول ما لا يؤمن به . . وفي داخل نفسه يؤمن بما لا يقول . والكون كله يلعنه ، وفي الآخرة هو في الدرك

الأسفل من النار . وهذه الآية تتشابه مع آية تحدثنا عنها في أول هذه السورة . . وهي قوله تعالى : { وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ } [البقرة : 14]

في الآية الأولى كان الدور لليهود ، وكان هناك منافقون من غير اليهود وشياطينهم من اليهود . . وهنا الدور من اليهود والمنافقين من اليهود . الحق سبحانه وتعالى يقول : { وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا } وهل الإيمان كلام؟ . . الإيمان يقين في القلب وليس كلاما باللسان . . والاستدلال على الإيمان بالسلوك فلا يوجد إنسان يسلك سبيل المؤمنين نفاقا أو رياء . . يقول آمنت نفاقا ولكن سلوكه لا يكون سلوك المؤمن . . ولذلك كان سلوكهم هو الذي يفضحهم . يقول تعالى : { وَإِذَا خَلَا بِبَعْضِهِمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ } . . وفي سورة أخرى يقول الحق : { وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ } [آل عمران : 119]

وفي سورة المائدة يقول سبحانه : { وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ } [المائدة : 61]

هنا أربع صور من صور المنافقين . . كلها فيها التظاهر بإيمان كاذب . . في الآية الأولى { وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ } وفي الآية الثانية : { وَإِذَا خَلَا بِبَعْضِهِمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ } . وفي الآية الثالثة : { عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ } . وفي الآية الرابعة : { وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ } .

إن رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما بعث كان اليهود يقولون للمؤمنين هذا هو نبيكم موجود عندنا في التوراة أو صافه كذا . . حينئذ كان أحبار اليهود ينهونهم عن ذلك ويقولون لهم : { أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُخَاجُوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ } فكأنهم علموا صفات رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكنهم أرادوا أن يخفوها . . إن الغريب أنهم يقولون : { بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ } . . وإذا كان هذا فتحا من الله فلا فضل لهم فيه . . ولو أراد الله لهم الفتح لآمنت القلوب . . قوله تعالى : { لِيُخَاجُوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ } يدل على أن اليهود المنافقين والكفار وكل خلق الأرض يعلمون أنهم من خلق الله ، وأن الله هو الذي خلقهم .

. وماداموا يعلمون ذلك فلماذا يكفرون بخالقهم؟ { لِيُخَاجُوكُمْ بِهِ } أي لتكون حجتهم عليكم قوية عند الله . . ولكنهم لم يقولوا عند الله بل قالوا { عِنْدَ رَبِّكُمْ } والحاجة معناها أن يلتقي فريقان لكل منهما وجهة نظر مختلفة . وتقام بينهما مناظرة يدلي فيها كل فريق بحجته . وقرأ قوله تعالى : { أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ } [البقرة : 258]
هذه هي المناظرة التي حدثت بين إبراهيم عليه السلام والنمرود الذي آتاه الله الملك . . ماذا

قال إبراهيم؟ { إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ } [البقرة : 258]

هذه كانت حجة إبراهيم في الدعوة إلى الله ، فرد عليه النمرود بحجة مزيفة . قال أنا أحيي وأميت . . ثم جاء بواحد من جنوده وقال لحراسه اقتلوه . . فلما اتجهوا إليه قال اتركوه . . ثم التفت إلى إبراهيم : { قَالَ أَنَا أَحْيِي وَأُمِيتُ } [البقرة : 258]

جدل عقيم لأن هذا الذي أمر النمرود بقتله . كان حيا وحياته من الله . . والنمرود حين قال اقتلوه لم يمته ولكن أمر بقتله . . وفرق بين الموت والقتل . . القتل أن تدمم بنية الجسد فتخرج الروح منه لأنه لا يصلح لإقامتها . . والموت أن تخرج الروح من الجسد والبنية سليمة لم تدم . . الذي يميت هو الله وحده ، ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى : { وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ } [آل عمران : 144]

والنمرود لو قتل هذا الرجل ما كان يستطيع أن يعيده إلى الحياة . . ولكن إبراهيم عليه السلام . لم يكن يريد أن يدخل في مثل هذا الجدل العقيم . . الذي فيه مقارعة الحجة . بالحجة يمكن فيه الجدل ولو زيفا . . ولذلك جاء بالحجة البالغة التي لا يستطيع النمرود أن يجادل فيها : { قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ } [البقرة : 258]

هذا هو معنى الحاجة . . كل طرف يأتي بحجته ، وما داموا يحاجونكم عند ربكم وهم يعتقدون أن القضية لن تمر أمام الله بسلام لأنه رب الجميع وسينصف المظلوم من الظالم . . إذا كانت هذه هي الحقيقة فهل أنتم تعملون لمصلحة أنفسكم؟ الجواب لا . . لو كنتم تعلمون الصواب ما كنتم وقعتم في هذا الخطأ فهذا ليس فتحا . .

وقوله تعالى : { أَفَلَا تَعْقِلُونَ } ختام منطقي للآية . . لأن من يتصرف تصرفهم ويقول كلامهم لا يكون عنده عقل . . الذي يقول { لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ } يكون مؤمنا بأن له ربا ، ثم لا يؤمن بهذا الإله ولا يخافه لا يمكن أن يتصرف بالعقل .

أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (77)

يبين الله لنا بأنه يعلم أمرهم وما يفعلون . لقد ظنوا أن الله غافل عندما خلا بعضهم إلى بعض وقالوا : { أَتُحَدِّثُوهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ } . . الله علم وسمع . . وعندما يلاقي المنافقون المؤمنين ويقولون آمنا . . { وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ } هذا انفعال حركي ليس فيه كلام يقال ولكن فيه واقع يرى . . ومع ذلك فهو ليس سرا . ما هو السر وما هو العلق؟ . . الأمر المعلن هو الذي يخرج منك إلى من عنده آلة السماع ليسمعك . . والأمر المعلن يخرج منك إلى من عنده آلة الرؤية ليراك . . فإن كان حركة بلا صوت فهذا عدته العين . . وإن كان بصوت فعدته الأذن . . هذه وسائل الإدراك الأصلية .

وقوله تعالى { يَعْلمُ مَا يُسْرُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ } ألم يكن أولى أن يقول سبحانه يعلم ما يعلنون وما يسرون . . وإذا كان يعلم ما أسر أفلا يعلم ما يعلن؟ . . لاشك أنه يعلم . . ولكنها دقة في البلاغة القرآنية؛ ذلك أن المتكلم هو الله سبحانه .

ونحن نعلم أن الله غيب . . وغيب يعني مستور عن حواسنا . . وما دام الله غيباً فهو يعلم الغيب المستور . . ربما كان العنن الظاهر له قوانين أخرى . . فمثلاً إذا كان هناك شخص في المنزل ، ثم يقول « أنا اعلم ما في المنزل وما هو خارج المنزل . . لو قال أنا اعلم ما في المنزل لقلنا له أنت داخله فلا غرابة في ذلك . . ولكنك مستور عما في الخارج فكيف تعلمه؟

وما دام الله غيباً فقله ما يسرون أقرب لغيبه . وما يعلنون هي التي تحتاج وقفة . لا تظنوا أن الله تبارك وتعالى لأنه غيب لا يعلم إلا ما هو مستور وخفي فقط . . لا . . إنه يعلم المشهود والغائب . . إذن فالمناسب لأن الله غيب عن أبصارنا وكوننا لا ندركه أن يقول ما يسرون أولاً .

ما معنى ما يسرون؟ . . السر هو ما لم تهمس به إلى غيرك . . لأن همسك للغير بالشيء لم يعد سرا . . ولكن السر هو ما تسره في نفسك ولا تهمس به لأحد من الناس . . وإذا كان السر هو ما تسره في نفسك ، فالعلن هو ما تجاهر به . ويكون علنا مادام قد علمه اثنان . . والعلن عند الناس واضح والسر عندهم خفي . . والله سبحانه وتعالى حين يخبرنا أنه غيب . . فليس معنى ذلك أنه لا يعلم إلا غيباً . إنه يعلم السر والعلن . . والله جل جلاله يقول في القرآن الكريم : { يَعْلمُ السِّرَ وَأَخْفَى } [طه : 7]

فإذا كان السر هو ما تخفيه في نفسك وله واقع داخلك . . « ما هو أخفى » هو أن الله يعلم أنك ستفعله قبل أن تفعله . ويعلم أنه سيحدث منك قبل أن يحدث منك .

وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (78)

الله سبحانه وتعالى لازال يتحدث عن أهل الكتاب . . فبعد أن بين لنا الذين يقول : { أَخَذْتُهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ } . . انتقل سبحانه وتعالى إلى طائفة أخرى وهم من أسماهم بالأميين . . وأصح قول في الأمي هو أنه كما ولدته أمه . أي لم يعلم شيئاً من ثقافة وعلم في الوجود منذ لحظة نزوله من بطن أمه . ولذلك فإن الأمي على إطلاقه هو الذي لا يكتسب شيئاً من ثقافة الوجود حوله ، بصرف النظر عن أن يقال كما ولدته أمه . . لأن الشائع في المجتمعات أن الذي يعلم هم الخاصة لا العامة . . وعلى أية حال فالمعاني كلها ملتقبة في تعريف الأمي .

قوله تعالى : { وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ } . . تلاحظ أن هناك معسكرات من الأميين واجهت الدعوة الإسلامية . . فالمعسكر الأول كان المشركين في مكة ، والمعسكر الثاني كان أهل الكتاب في

المدينة . وأهل الكتاب تطلق على أتباع موسى وأتباع المسيح . . ولكن في الجزيرة العربية كان هناك عدد لا يذكر من النصارى . . وكان هناك مجتمع . والمقصود من قوله تعالى : { وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيٌّ } هم اليهود الذين كان لهم مجتمع في المدينة . . ومادام الحق سبحانه وتعالى قال : { وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ } . . معنى هذا أنه لابد أن يكون هناك منهم غير أميين . وهؤلاء هم الذين سيأتي قول الله تعالى عنهم في الآية التالية : { فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ } [البقرة : 79]

هنا قسم الله تبارك وتعالى اليهود إلى أقسام . . منهم قسم أميي لا يعرفون الكتاب وما يقوله لهم أبحارهم هو الذي يعرفونه فقط . . وهؤلاء ربما لو كانوا يعلمون ما في التوراة . . من صفات رسول الله صلى الله عليه وسلم لآمنوا به . . والكتاب هنا يقصد به التوراة . . والله سبحانه وتعالى لم ينف عنهم مطلق العلم . . ولكنه نفى خصوصية العلم ، لأنه قال لا يعلمون إلا أمانى . فكأن الأمانى يعلمونها من الكتاب .

ولكن ما الأمانى؟ . . إنها تطلق مرة بدون تشديد الباء ومرة بتشديد الباء . . فإن كانت التخفيف تكون جمع أمنية . . وإن كانت بالتشديد تكون جمع أمنية بالتشديد على الباء . . الأمانة تجدها في القرآن الكريم في قوله تعالى : { لَيْسَ بِأَمَانِيَّتِكُمْ وَلَا أَمَانِيٍّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سِوَاءَ يُجَزَّ بِهِ } [النساء : 123]

هذه بالنسبة للجمع . أما بالنسبة للمفرد . . في قوله تعالى : { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانَ فِي أُمْنِيَّتِهِ } [الحج : 52] ما هي الأمانة؟ . . الأمانة هي الشيء الذي يجب الإنسان أن يحدث ولكن حدوثه مستحيل . . إذن لن يحدث ولن يكون له وجود .

. ولذلك قالوا إن من معاني التمني اختلاق الأشياء . . الشاعر الذي قال :

أَلَا لَيْتَ الشَّبَابَ يَعُودُ يَوْمًا ... فَأَخْبِرُهُ بِمَا فَعَلَ الْمَشِيبُ

هل الشباب يمكن أن يعود؟ . . طبعاً مستحيل . . هذا شيء لن يحدث . . والشاعر الذي قال :

لَيْتَ الْكَوَاكِبَ تَدْنُو لِي فَأَنْظِمَهَا ... عُقُودَ مَدْحٍ فَمَا أَرْضَى لَكُمْ كَلِمٍ

هل النجوم ستنزل من السماء وتأتي إلى هذا الشاعر . . ينظمها أبيات شعر إلى حبيبته . . إذن من معاني التمني الكذب والاختلاق . ولقد فسر بعض المستشرقين قول الله تبارك وتعالى : { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى } (أي قرأ) : { أَلْقَى الشَّيْطَانَ فِي أُمْنِيَّتِهِ } (أي في قراءته) . . وطبعاً الشيطان لن يلقي في قراءة الرسول إلا كذبا وإفتراء وكفرا . . اقرأ قوله سبحانه : { أَفَرَأَيْتُمْ اللَّاتِ وَالْعُزَّى * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى * أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَى * تِلْكَ

إِذَا قَسِمَةُ ضَيْزَى { [النجم : 19-22]

قال أعداء الإسلام مادام قد ذكر في القرآن أسماء الغرائيق . . وهي الأصنام التي كان يعبدها الكفار . . ومنها اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى . . إذن فشفاعة هذه الأصنام ترتجى في الآخرة . . وهذا كلام لا ينسجم مع منطق الدين كله يدعو لعبادة الله وحده . . وخرج المستشرقون من ذلك بأن الدين فعلا يدعو لعبادة الله وحده . . إذن فيكون الشيطان قد ألقى في أمنيته فيما يقوله رسول الله . . ثم أحكم الله سبحانه آياته فقال تعالى : { إِنَّ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ } [النجم : 23]

هم يريدون بذلك أن يشككوا . . في أنه من الممكن أن يلقي الشيطان بعض أفكاره في قول رسول الله صلى الله عليه وسلم . . ولكن الله سبحانه ينسخ ما يلقي الشيطان ويحكم آياته . إن الله جل جلاله لم يترك وحيه لعبث الشيطان . . ولذلك سنبحث الآية بعيداً عن كل ما قيل . نقول لو أنك تنبعت إلى قول الله تعالى : { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى } لو قلنا تمنى بمعنى قرأ ، ثم أن الله ينسخ ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته . . إذن هو سبحانه لن يترك رسوله يخطئ . . وبذلك ضمنا أن كل ما ينتهي إليه الرسول صواب . . وأن كل ما وصلنا عن الرسول محكم . . فنطمئن إلى أنه ليس هناك شيء يمكن أن يلقيه الشيطان في تمنى الرسول ويصلنا دون أن ينسخ .

فإذا قلنا : إن الله ينسخ ما يلقي الشيطان فما الذي جعلكم تعرفون ما ألقاه الشيطان مادام رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يقل لكم إلا المحكم . . ثم من هو الرسول؟ بَشْرٌ أَوْحِيَ إِلَيْهِ بِمَنْهَجٍ مِنَ السَّمَاءِ وَأُمِرَ بِتَبْلِيغِهِ . . ومن هو النبي؟ . . بشر أوحى إليه بمنهج .

ولم يؤمر بتبليغه . . ومادام لم يؤمر بتبليغه يكون خاصا بهذا النبي . . ويكون النبي قدوة سلوكية . لأنه يطبق منهج الرسول الذي قبله فهو لم يأت بجديد .

الآية الكريمة جاءت بكلمتي رسول أو نبي . . إذا كان معنى أمنية الشيطان مستقيما بالنسبة للرسول فهو غير مستقيم بالنسبة للنبي . . لأن النبي لا يقرأ شيئا ، ومادام النبي ذكر في الآية الكريمة فلا بد أن يكون للتمنى معنى آخر غير القراءة . . لأن النبي لم يأت بكلام يقرؤه على الناس . . فكأنه سيقراً كلاما محكما ليس فيه أمنية الشيطان أي قراءته .

إن التمنى لا يأتي بمعنى قراءة الشيطان . . وأمنية الرسول والنبي أن ينجحا في مهمتهما . . فالرسول كمنبلغ لمنهج الله ، النبي كأسوة سلوكية . . المعنى هنا يختلف . . الرسول أمنيته أن يبلغ منهج الله . . والشيطان يحاول أن ينزع المنهج من قلوب الناس . . هذا هو المعنى . . والله سبحانه وتعالى حين يحكم آياته ينصر الإيمان ليسود منهج الله في الأرض وتنتظم حركة الناس . . هذا هو المعنى .

وكلمة تمني في هذه الآية الكريمة بمعنى أن الرسول أو النبي يجب أن يسود منهجه الأرض . .
والشيطان يلقي العرافيل والله يحكم آياته وينصر الحق . ويجب أن نفهم الآية على هذا المعنى . .
وبهذا ينتفي تماما ما يدعيه المستشرقون من أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما كان يقرأ ما
يوحي إليه يستطيع الشيطان أن يتدخل ويضع كلاما في الوحي . . مستحيل .
وقوله تعالى : { وَمَنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيٌّ } . . معناها أنه يأتي قوم لا يعرفون
شيئاً عن الكتاب إلا ظناً . . فيصدقهم هؤلاء الأميون دون علم . . وكان الله سبحانه يريد أن
يلفتنا إلى أن كثيرا من المذاهب الدينية في الأرض ينشأ عن المبلغين لها . . فهناك أناس يأتمنون
آخرين ليقولوا لهم ما إنتهت إليه الأحكام الدينية . . فيأتي الأمي أو غير المثقف يسأل عالما عن
حكم من الأحكام الشرعية . . ثم يأخذ منه الحكم ويطبقه دون أن يناقشه . . لأن علمه قد
إنتهى عند السؤال عن الفتوى . . والحق سبحانه وتعالى كما يقول : { وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى
[الأنعام : 164] }

أي لا يحمل أحد ذنب أحد يوم القيامة . . فيقول تعالى : { لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ
وَمَنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّوهُمْ بَغَيْرِ عِلْمٍ } [النحل : 25]
بعض الناس يظن أن الآيتين بينهما تعارض . . نقول لا . . ومن يرتكب إثما يحاسب عليه . .
ومن يضل غيره بفتوى غير صحيحة يحمل له بها ما حرم الله . . فإنه يحمل معاصيه ومعاصي من
أضل . . فيكون له وزر لأنه ضل ، ووزر لأنه أضل غيره . . بل وأكثر من ذلك . . فإن رسول
الله صلى الله عليه وسلم يقول :

« من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً ، ومن
دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً »
ولابد أن نتنبه إلى خطورة الفتوى في الدين بغير علم . . الفتوى في الدنيا أقصى ما يمكن أن
تؤدي إليه هو أن تجعلك تحسر صفقة . . لكن الفتوى في الدين ستدوم عمرا طويلا . .
الحق تبارك وتعالى يقول : { وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ } . . والظن كما قلنا هو نسبة راجحة ولكن غير
مؤكدة . . وإذا كان التمني كما ورد في اللغة هو القراءة . . فهؤلاء الأميون لا يعلمون الكتاب
إلا قراءة لسان بلا فهم . . ولذلك قال الله سبحانه وتعالى عن اليهود : { مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا
التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً } [الجمعة : 5]
وهكذا نرى أن هناك صنفا يحمل التوراة وهو لا يعرف عنها شيئاً . . والله جل جلاله قال إن
مثله كالحمار . . ولكن أقل من الحمار ، لأن الحمار مهمته أن يحمل الأثقال . . ولكن الإنسان
ليست مهمته أن يحمل ما جهل . . ولكن لابد أن يقرأ الكتاب ويعلم المطلوب منه .

فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ
بِمَا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ بِمَا يَكْسِبُونَ (79)

هذه الآية الكريمة جاءت في القسم الثاني من اليهود وهو المقابل للأمينين . . وهم إما أميون لا يعلمون الكتاب . . وإما يعلمون ولكنهم يغيرون فيه ويكتبونه بأيديهم ويقولون هذا من عند الله . ولذلك توعدهم الله تبارك وتعالى فقال : ويل لهم ، وبدأ الآية بالوعيد بالجزاء مباشرة . نلاحظ أن كلمة ويل في اللغة تستعمل معها كلمتي ويح وويس . . وكلها تعني الهلاك والعذاب . .

وتستعمل للتحسر على غفلة الإنسان عن العذاب . . وقرأ قوله تعالى : { ياويلتنا مال هذا

الكتاب لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا } [الكهف : 49]

وقوله جل جلاله : { ياويلنا قد كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا } [الأنبياء : 97]

هذه الويلات تعني الحسرة وقت رؤية العذاب . . وقيل إن الويل وادٍ في جهنم يهوي الإنسان فيه أربعين خريفاً والعياذ بالله . . والحق تبارك وتعالى ينذر الذين يكتبون الكتاب بأيديهم أن عذابهم يوم القيامة سيكون مضاعفاً . . لأن كل من ارتكب إثماً نتيجة لتزييفهم للكتاب سيكونون شركاء وسيحملون عذابهم معهم يوم القيامة ، وسيكون عذابهم مضاعفاً أضعافاً كثيرة .

يقول الحق سبحانه وتعالى : { فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ } . . ألم يكن يكفي أن

يقول الحق فويل للذين يكتبون الكتاب ويكون المعنى مفهوماً . . يكتبون الكتاب بماذا؟ بأيديهم . . نقول لا . . لأن الفعل قد يتم بالأمر وقد يتم بالفعل . . رئيس الدولة مثلاً يتصل بأحد وزرائه ويقول له ألم أكتب إليك كتاباً بكذا فلماذا لم تنفذه؟ هو لم يكتب هذا الكتاب بيده ولكنهم كتبوه بأمره ، ورؤساء الدول نادراً ما يكتبون كتباً بأيديهم .

إن الله سبحانه وتعالى يريد هنا أن يبين لنا مدى تعمد هؤلاء للإثم . . فهم لا يكتبون مثلاً بأن يقولوا لغيرهم إكتبوا . . ولكن لاهتمامهم بتزييف كلام الله سبحانه وتزويره يقومون بذلك بأيديهم ليتأكدوا بأن الأمر قد تم كما يريدون تماماً . . فليس المسألة نزوة عابرة . . ولكنها مع سبق الإصرار والترصد . . وهم يريدون بذلك أن يشتروا ثمناً قليلاً ، هو المال أو ما يسمى بالسلطة الزمنية . . يحكمون ويكون لهم نفوذ وسلطان .

ولقد كان أهل الكتاب في الماضي إذا اختلفوا في شيء . . ذهبوا إلى الكهان والرهبان وغيرهم ليقضوا بينهم . . لماذا؟ لأن الناس حين يختلفون يريدون أن يستتروا وراء ما يحفظ كبرياءهم إن كانوا مخطئين . . يعني لا أهنأ أمامه ولا ينهزم أمامي . . وإنما يقولون ارتضينا حكم فلان . . فإذا كنا سنلجأ إلى تشريع السماء ليحكم بيننا . . لا يكون هناك غالب ومغلوب أو منهزم ومنتصر . . ذلك حين أخضع أنا وأنت لحكم الله يكون كل منا راضياً بنتيجة هذا الحكم .

ولكن رجال الدين اليهودي والمسيحي أخذوا يصدرن فتاوى متناقضة .

. كل منهم حسب مصلحته وهواه . . . ولذلك تضاربت الأحكام في القضايا المتشابهة . . لأنه لم يعد الحكم بالعدل . . بل أصبح الحكم خاضعا لأهواء ومصالح وقضايا البشر . . . وحين يكتبون الكتاب بأيديهم ويقولون هذا من عند الله . . إنما يريدون أن يخلعوا على المكتوب قداسة تجعل الإنسان يأخذه بلا مناقشة . . . وبذلك يكونون هم المشرعين باسم الله ، ويكتبون ما يريدون ويسجلونه كتابه ، وحين أحس أهل الكتاب بتضارب حكم الدين بما أضافه الرهبان والأخبار ، بدأوا يطلبون تحرير الحكم من سلطة الكنيسة .

ولكن لماذا يكتب هؤلاء الناس الكتاب بأيديهم ويقولون هذا من عند الله؟! . . الحق سبحانه وتعالى يقول : { لَيْشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا } . . وقد قلنا إن الإنسان لا يشتري الثمن . . ولكن يدفع الثمن ويشترى السلعة . . ولكنك هنا تدفع لتأخذ ثمنا . . تدفع من منهج الله وحكم الله فتغيره وتبدله لتأخذ ثمنا موقوتا . . والله سبحانه وتعالى يعطيك في الآخرة الكثير ولكنك تبيعه بالقليل . . وكل ثمن مهما بلغ تأخذه مقابل منهج الله يعتبر ثمنا قليلا .

والحق سبحانه وتعالى : يقول { فَوَيْلٌ لَهُمْ مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ } . . الآية الكريمة بدأت بقوله تعالى : { فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ } . . ثم جاء قوله تعالى : { فَوَيْلٌ لَهُمْ مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِّمَّا يَكْسِبُونَ } . . فساعة الكتابة لها ويل وعذاب . . وساعة بيع الصفقة لها ويل وعذاب . . والذي يكسبونه هو ويل وعذاب .

لقد انتشرت هذه المسألة في كتابة صكوك الغفران التي كانت تباع في الكنائس لمن يدفع أكثر . والحق سبحانه وتعالى يقول : { وَوَيْلٌ لَهُمْ مِّمَّا يَكْسِبُونَ } . . وكلمة كسب تدل على عمل من أعمال جوارحك يجلب لك خيرا أو نفعا وهناك كسب وهناك اكتسب . . كسب تأتي بالشيء النافع ، واكتسب تأتي بالشيء الضار . . ولكن في هذه الآية الكريمة الحق سبحانه وتعالى قال : { وَوَيْلٌ لَهُمْ مِّمَّا يَكْسِبُونَ } . . وفي آية ثانية قال : { بلى من كَسَبَ سَيِّئَةً } .

فلماذا تم هذا الاستخدام؟ نقول إن هذا ليس كسبا طبيعيا ، إنما هو افتعال في الكسب . . أي اكتساب . . ولا بد أن نفهم إنه بالنسبة لجوارح الإنسان . . فإن هناك القول والفعل والعمل . . بعض الناس يعتقد إن هناك القول والعمل . . نقول لا . . هناك قول هو عمل اللسان . . وفعل هو عمل الجوارح الأخرى غير اللسان . . وعمل وهو أن يوافق القول الفعل . . لذلك فإن الله سبحانه وتعالى يقول : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ } [الصف : 2-3]

إذن هناك قول وفعل وعمل . . والإنسان إذا استخدم جوارحه استخداما سليما بفعل ما هو صالح له . . فإذا انتقل إلى ما هو غير صالح إلى ما يغضب الله فإن جوارحه لا تفعل ولكنها تفتعل .

. تتصادم ملكاتها بعضها مع بعض والإنسان وهو يفتح الخزانة ليأخذ من ماله يكون مطمئنا لا يخاف شيئا . . والإنسان حين يفتح خزانة غيره يكون مضطربا وتصرفاته كلها افتعال . . والإنسان مع زوجته منسجم في هيئة طبيعية ، بعكس ما يكون في وضع مخالف . . إنها حالة افتعال . . وكل من يكسب شيئا حراما افتعله . . ولذلك يقال عنه اكتسب . . إلا إذا تمرس وأصبح الحرام لا يهزه ، أو ممن نقول عنهم معتادو الإجمام . . في هذه الحالة يفعل الشيء بلا افتعال لأنه اعتاد عليه . . هؤلاء الذين وصلوا إلى الحد الذي يكتبون فيه بأيديهم ويقولون من عند الله . . أصبح الإثم لا يهزهم ، ولذلك توعدهم الله بالعذاب مرتين في آية واحدة .

وَقَالُوا لَنْ نَمَسَّنَا النَّارَ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (80)

هنا يكشف الله سبحانه وتعالى فكر هؤلاء الناس . . لقد زين لهم الشيطان الباطل فجعلهم يعتقدون أنهم كسبوا فعلا وأنهم أخذوا المال والجاه الدنيوي وفازوا به . . لأنهم لن يعذبوا في الآخرة إلا عذابا خفيفا قصيرا . . ولذلك يفضح الله تبارك وتعالى ما يقولونه بعضهم مع بعض . ماذا قالوا؟ : { وَقَالُوا لَنْ نَمَسَّنَا النَّارَ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً } .

المس يعني اللمس الخفيف أو اقتراب شيء من شيء . . ولكن لا يحس أحدهما بالآخر إلا إحساسا خفيفا لا يكاد يذكر . . فإذا أتيت إلى إنسان ووضعت أنا مَلِكَ على يده يقال مسست . . ولكنك لم تستطع بهذا المس أن تحس بحرارة يده أو نعومة جلده . . ولكن اللمس يعطيك إحساسا بما تلمس : { وَقَالُوا لَنْ نَمَسَّنَا النَّارَ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً } وهكذا أخذوا أقل الأقل في العذاب . . ثم أقل الأقل في الزمن فقالوا أياما معدودة . . الشيء إذا قيل عن معدود فهو قليل . . أما الشيء الذي لا يحصى فهو الكثير . . ولذلك حين يتحدث الله عن نعمه يقول سبحانه : { وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا } [النحل : 18]

فمجرد الإقبال على العد معناه أن الشيء يمكن إحصاؤه . . فإن لم يكن ممكنا لا يُقبل أحد على عدّه ، ولا نرى من حاول عدَّ حبات الرمل أو ذرات الماء في البحار . . نَعْمُ اللهُ سبحانه وتعالى ظاهرة وخفية لا يمكن أن تحصى ، ولذلك لا يقبل لا يُقبل أحد على إحصائها . . وإذا سمعت كلمة « أياما معدودة » فأعلم أنها أيام قليلة . . ولذلك نرى في سورة يوسف قول الحق جل

جلاله : { وَشَرُّهُ بِتَمَنِّ بَعْسٍ ذَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ } [يوسف : 20]

قوهم لن تمسنا النار إلا أياما معدودة . . دليل على غبائهم لأن مدة المس لا تكون إلا لحظة . . ولكنها أمانى وضعها الشيطان في عقولهم ليأتي الرد من الله في قوله سبحانه : { قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ } أي إذا كان ذلك وعداً من الله ، فالله لا يخلف وعده . والله يأمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقول لهم لستم أنتم الذين تحكمون وتقررون ماذا سيفعل الله

سبحانه وتعالى بكم . . بل هو جل جلاله الذي يحكم . . فإن كان قد أعطاكم عهدا فالله لا يخلف وعده .

وقوله تعالى : { أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ } . . هنا أدب النبوة والخلق العظيم لرسول الله صلى الله عليه وسلم . . فبدلا من أن يقول لهم أتفترون على الله أو أنكذبون على الله . . أو أتخلقون على الله ما لم يقله . . قال : { أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ } إن الذي يخلق الكلام يعلم أنه مختلق .

. إنه أول من يعلم كذب ما يقول ، وقد يكون له حجة ويقنع من أمامه فيصدق ، ولكنه يظل يعلم إن ما قاله مختلق رغم أنهم صدقوه . . ولذلك فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إنما أنا بشر وإنكم تختصمون إليّ فلعن بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضي له على نحو ما أسمع فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هي قطعة من النار فليأخذها أو ليتركها » إذن مختلق الشيء يعرف إن هذا الشيء مختلق . وهؤلاء اليهود هم أول من يعلم إن قولهم . . { لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً } قول مختلق . . ولكن لمن يقولون على الله ما هو افتراء وكذب؟ يقولون للأميين الذين لا يعرفون الكتاب .

بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (81)

أراد الله سبحانه وتعالى أن يوضح كذبهم . . فجاء القرآن قائلا : « بلى » وهي حرف جواب مثل نعم تماما . . ولكن « بلى » حرف جواب في النفي . . يعني ينفي الذي قبله . . هم قالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودة ورسول الله سأهمل هل اتخذوا عند الله عهدا أو يقولون على الله ما لا يعلمون ، فجاء القرآن ليقول : { بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } . . بداية الجواب ببلى تنفي ما قالوا . . لأن بلى تأتي بعد النفي . . ونعم تأتي بعد الإجابة . . فإذا قال إنسان ليس لك عندي شيء وقلت نعم ، فمعناها أنه صحيح أنك ليس لك عندي شيء . . أما إذا قلت بلى ، فمعنى ذلك أن لك عندي شيئا أو أشياء . . ولذلك بعد قولهم { لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً } . . لو جاء بعدها نعم ، لكان قولهم صحيحا ، ولكن بلى نفت . . وجاء الكلام بعدها مؤكدا للنفي : { مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } هم قالوا لن تمسنا النار . . قال لن تمسكم فقط بل أنتم فيها خالدون . . وقوله تعالى : { أَصْحَابُ النَّارِ } . . الصحبة تقتضي نوعا من الملازمة فيها تجاذب المتصاحبين . . ومعنى ذلك أنه سيكون هناك تجاذب بينهم وبين النار . .

هنا نلاحظ أن الحق سبحانه وتعالى قال : { بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً } . . وكان السياق يقتضي أن

يقال اكتسب . . ولكن لأنهم ظنوا أنهم كسبوا . . كما بينا في الآية السابقة . . وقوله تعالى : { وَأَخَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتَهُ } . . إحاطة بحيث لا يوجد منفذ للإفلات من الخطيئة لأنها محيطة به .
وأنسب تفسير لقوله تعالى : { كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَخَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتَهُ } . . أن المراد الشرك . . لأن
الشرك هو الذي يحيط بالإنسان ولا مغفرة فيه . . والله تعالى يقول : { إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ
بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ } [النساء : 48]

ولذلك فهؤلاء لم يكونوا عصاة فقط . . ولكنهم كانوا كافرين مشركين . والدليل قوله تعالى : { هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } . . وأصحاب الصغائر أو الكبائر الذين يتوبون منها لا يخلدون في النار . .
ولكن المشرك بالله والكافر به هم الخالدون في النار . . وكل من لم يؤمن بسيدنا محمد صلى الله
عليه وسلم كافر . . لأن الله سبحانه وتعالى قال : { وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ
وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ } [آل عمران : 85]

ولذلك قلت هناك فرق بين . . الإنسان الذي يرتكب معصية لأنه لا يقدر على نفسه فيندم
ويتوب . . وبين إنسان يفرح بالمعصية . . ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : { إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى
اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّوَاءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ } [النساء : 17]
وهناك من يندم على المعصية وهذا له توبة . . وهناك من يفرح بالمعصية وهذا يزداد معصية .

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (82)

عندما يذكر الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم . . العذاب والنار ، يأتي بالمقابل وهو النعيم
والجنة . . وذلك أن المقابلة ترينا الفرق . . وتعطي للمؤمن إحساسا بالسعادة . . لأنه زحزح عن
عذاب الآخرة ، وليس هذا فقط . . بل دخل الجنة ليقيم خالدا في النعيم . . ولذلك يقول
سبحانه : { فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ } [آل عمران : 185]
إذن الفوز في الآخرة ليس على درجة واحدة ولكن على درجتين . . أولى درجات الفوز أن
يزحزح الإنسان على النار ولو إلى الأعراف وهذا فوز عظيم . . يكفي إنك تمر على الصراط
المضروب فوق النار وترى ما فيها من ألوان العذاب ، ثم بعد ذلك تنجو من هذا الهول كله . .
يكفي ذلك ليكون فوزا عظيما . . لأن الكافر في هذه اللحظة يتمنى لو كان ترابا حتى لا يدخل
النار . . فمرور المؤمن فوق الصراط ورؤيته للنار نعمة لأنه يحس بما نجا منه . . فإذا تجاوز النار
ودخل إلى الجنة لينعم فيها نعيما خالدا كان هذا فوزاً آخر . . ولذلك حرص الله تبارك وتعالى أن
يعطينا المرحلتين . فلم يقل : من زحزح عن النار فاز . . ولم يقل من أدخل الجنة فاز . . بل قال
{ فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ } . . وجاءت هذه الآية الكريمة بعد آيات
العذاب لتعطينا المقارنة .

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ
وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنْتُمْ
مُعْرِضُونَ (83)

أخذ الله سبحانه وتعالى على بني إسرائيل ثمانية أشياء : الميثاق . . وهو العهد الموثق المربوط ربطا
دقيقا وهو عهد الفطرة أو عهد الذر . . مصداقا لقوله تعالى : { وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِنْ
ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بلىٰ } [الأعراف : 172]
وهناك عهد آخر أخذه سبحانه وتعالى على رسله جميعا . . أن يبشروا برسالة رسول الله صلى الله
عليه وسلم . . ويطلبوا من أتباعهم أن يؤمنوا به عند بعثته . . أو ألا يكتنموا ما في كتبهم وإلا
يغيروه . . والميثاق هو كل شيء فيه تكليف من الله . . ذلك أنك تدخل في عقد إيماني مع الله
سبحانه وتعالى بأن تفعل ما يأمر به وتترك ما نهى عنه . . هذا هو الميثاق . . كلمة الميثاق وردت
في القرآن الكريم بوصف غليظ . . في علاقة الرجل بالمرأة . . قال سبحانه وتعالى : { وَإِنْ أَرَدْتُمْ
استبدالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا *
وَكَيفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا } [النساء : 20-21]

[
نقول نعم لأن هذا الميثاق سيحل للمرأة أشياء لا تكون إلا به . . أشياء لا تحل لأبيها أو لأخيها
أو أي إنسان عدا زوجها . . والرجل إذا دخل على ابنته وكانت ساقها مكشوفة تسارع بتغطيتها
. . فإذا دخل عليها زوجها فلا شيء عليها . . إذن هو ميثاق غليظ لأنه دخل مناطق العورة
وأباح العورة للزوج والزوجة . . ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى : { هُنَّ لِبَاسٍ لَّكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٍ
لَّهُنَّ } [البقرة : 187]

إن كلا منهما يغطي ويخفي ويستر عورة الآخر . . والأب لا يفرح من انتقال ولاية ابنته إلى غيره
. . إلا انتقال هذه الولاية لزوجها . . ويشعر بالقلق عندما تكبر الفتاة ولا تتزوج .
الحق يقول : { وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ } هذا الميثاق شمل ثلاثة شروط :
{ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ } أي تعبدون الله وحده . . وتؤمنون بالتوراة وبموسى نبيا . . لماذا؟ لأن
عبادة الله وحده هي قمة الإيمان . . ولكن لا تحدد أنت منهج عبادته سبحانه . . بل الذي يحدد
منهج العبادة هو المعبود وليس العابد . . لا بد أن تتخذ المنهج المنزل من الله وهو التوراة وتؤمن
به . . ثم بعد ذلك تؤمن بموسى نبيا . . لأنه هو الذي نزلت عليه التوراة . . وهو الذي سيبين
لك طريق العبادة الصحيحة . وبدون هذه الشروط الثلاثة لا تستقيم عبادة بني إسرائيل . .
وقوله تعالى : { وبالوالدين إِحْسَانًا } لأنهما السبب المباشر في وجودك . . ربياك وأنت صغير ،
ورعيك ، وقوله تعالى : « إِحْسَانًا » معناه زيادة على المفروض .

لأنك قد تؤدي الشيء بالقدر المفروض منك . . فالذي يؤدي الصلاة مثلا بقدر الغرض يكون قد أدى . . أما الذي يصلي النوافل ويقوم الليل يكون قد دخل في مجال الإحسان . . أي عطاؤه أكثر من المفروض . . والله تبارك وتعالى يقول : { إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ * كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وبالأسحار هُمْ يَسْتَفْهِرُونَ * } وفي أمواليهم حقُّ للسائل والمحروم { [الذاريات : 15-19]

وهكذا نرى أن الإحسان زيادة على المفروض في الصلاة والتسبيح والصدقة والله تبارك وتعالى يريد منك أن تعطي لوالديك أكثر من المفروض أو من الواجب عليك . .

وقوله تعالى : { وَذِي الْقُرْبَىٰ } . . يحدد الله لنا فيها المرتبة الثانية بالنسبة للإحسان . . فالله جل جلاله أوصانا أن نحسن لوالدينا ونرعى أقاربنا . . ولو أن كل واحد منا قام بهذه العملية ما وجد محتاج أو فقير أو مسكين في المجتمع . . والله يريد مجتمعاً لا فقر فيه ولا حقد . . وهذا لا يتأتى إلا بالتراحم والإحسان للوالدين والأقارب . . فيكون لكل محتاج في المجتمع من يكفله . . ويقول الله سبحانه : « واليتامى » . . واليتيم هو من فقد أباه وهو طفل لم يبلغ مبلغ الرجال . . هذا في الإنسان . . أما في الحيوان فإن اليتيم من فقد أمه . . لأن الأمومة في الحيوان هي الملازمة للطفل ، ولأن الأب غير معروف في الحيوان ولكن الأم معروفة . . اليتيم الذي فقد أباه فقد من يعوله ومن يسعى من أجله ومن يدافع عنه . . والله سبحانه وتعالى جعل الأم هي التي تربي وترعى . . والأب يكافح من أجل توفير احتياجات الأسرة . . ولكن الحال إنقلب الآن ولذلك يقول شوقي رحمه الله :

لَيْسَ الْيَتِيمُ مَنِ انْتَهَىٰ أَبَوَاهُ مِنْ ... هَمَّ الْحَيَاةِ وَخَلَّفَ أَهْ ذَلِيلًا
إِنَّ الْيَتِيمَ هُوَ الَّذِي تَلَقَّى لَهُ ... أُمَّ تَخَلَّتْ أَوْ أَبًا مَشْغُولًا

إن اليتيم يكون منكسراً لأنه فقد والده فأصبح لا نصير له . . فإذا رأينا في المجتمع الإسلامي أن كل يتيم يرعاه رعاية الأب كل رجال المجتمع . . فذلك يجعل الأب لا يخشى أن يترك ابنه بعد وفاته . . إذن فرعاية المجتمع لليتيم تضمن أولاً حماية حقه ، لأنه إذا كان يتيماً وله مال فإن الناس كلهم يطمعون في ماله ، لأنه لا يقدر أن يحميه . . هذه واحدة . . والثانية أن هذا التكافل يُذهب الحقد من المجتمع ويجعل كل إنسان مطمئناً على أولاده . .

وقوله سبحانه وتعالى : « والمساكين » . . في الماضي كنا نقول إن المساكين هم الذين لا يملكون شيئاً على الإطلاق ليقيموا به حياتهم . . إلى أن نزلت الآية الكريمة في سورة الكهف : { أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ } [الكهف : 79]

فعرفنا أن المسكين قد يملك .

. ولكنه لا يملك ما يكفيه . . وهذا نوع من التكافل الإجتماعي لا بد أن يكون موجودا في المجتمع . . حتى يتكافل المجتمع كله . . فأنت إن كنت فقيرا أو مسكينا ويأتيك من رجل غني ما يعينك على حياتك . . فإنك ستتمنى له الخير لأن هذا الخير يصيبك . . ولكن إذا كان هذا الغني لا يعطيك شيئا . . هو يزداد غنى وأنت تزداد فقرا . . تكون النتيجة أن حقه يزداد عليك . .

ويقول الحق سبحانه وتعالى : { وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا } . . كلمة حسنا بضم الحاء ترد بمعنى حسن بفتح الحاء . . والحسن هو ما حسنه الشرع . . ذلك أن العلماء اختلفوا : هل الحسن هو ما حسنه الشرع أو ما حسنه العقل؟ نقول : ما حسنه العقل مما لم يرد فيه نص من تحسين الشرع . . لأن العقل قد يختلف في الشيء الواحد . . هذا يعتبره حسنا وهذا يعتبره قبيحا . . والله تبارك وتعالى يقول : { ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن } [النحل : 125]

هذا هو معنى قوله تعالى : { وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا } . . ثم جاء قوله جل جلاله : { وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ } وقد تكلمنا عن معنى إقامة الصلاة وما يجعلها مقبولة عند الله . وهناك فرق بين أن تقول صلوا . . وبين أن تقول أقيموا الصلاة . . أقيموا الصلاة معناها صل ولكن صلاة على مستواها الذي يطلب منك . . وإقامة الصلاة كما قلنا هي الركن الذي لا يسقط أبدا عن الإنسان . .

ويقول الحق : { وَأَتُوا الزَّكَاةَ } . . بالنسبة للزكاة عندما يقول الله سبحانه : { وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ } . . نقول أن الأقارب واليتامى والمساكين لهم حق في الزكاة ماداموا فقراء . . لنحس جميعا أننا نعيش في بيئة إيمانية متكاملة متكافلة . . يحاول كل منا أن يعاون الآخر . . فالزكاة في الأساس تعطي للفقير ولو لم يكن يتيما أو قريبا . . فإن لكل فقير حقوقا ورعاية . . فإذا كان هناك فقراء أقارب أو يتامى يصبح لهم حقان . . حق القريب وحق الفقير . . وإن كان يتيما فله حق اليتيم وحق الفقير . . بعد أن ذكر الحق سبحانه وتعالى عناصر الميثاق الثمانية . . قال : { ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ } . . تولى يعني أعرض أو لم يُطع أو لم يستمع . . يقول الحق سبحانه : { ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُّعْرِضُونَ } . . هذا هو واقع تاريخ بني إسرائيل . . لأن بعضهم تولى ولم يطع الميثاق وبعضهم أطاع . .

إن القرآن لم يشن حملة على اليهود ، وإنما شن حملة على المخالفين منهم . ولذلك احترم الواقع وقال : { إِلَّا قَلِيلًا } . . وهذا يقال عنه بالنسبة للبشر قانون صيانة الاحتمال . . إن الحق جل جلاله يتكلم بإنصاف الخالق للمخلوق . . لذلك لم يقل { ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ } بل قال إلا قليلا .